

مركز الدراسات في الدكتوراة
" الآداب والعلوم الإنسانية "
تكوين الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية



جامعة السلطان مولاي سليمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال

خلاصة أطروحة الدكتوراه بعنوان:



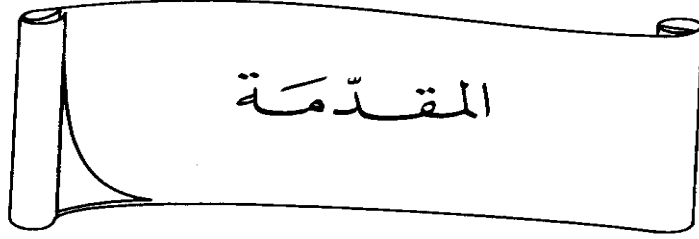
إشراف الأستاذ:
عبد الرحمن العضاوي

إنجاز الطالب الباحث:
محمد نَحْوَا
رقم التسجيل: 11/2015

الموسم الجامعي:

1439-1440هـ / 2018-2019م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الحمد المتفرد بالوحدانية، الموصوف بصفات الجلال والجمال، المنزه عن كل عيب ونقص، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وكل من والاه. وبعد: فقد خلق الله الإنسان وجعله خليفته في الأرض، ليعمرها وفق منهجه وشريعته، فتستقيم حياته في هذه الدنيا، وينال رضوان ربه في الآخرة، ولأجل تحقيق هذه الغاية بعث رسله وأنبياءه، وأنزل عليهم كتبه وشرائعه، ليقوم الناس بالقسط.

ومضت البشرية على هذا المنهج القويم، فكانت أمة واحدة على التوحيد والإيمان وعلى الاستقامة والخير، حتى وقع الخلاف والانحراف وتفرقت السبل والمناهج، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، يذكرون الناس بالأصل العظيم، الذي تتأسس عليه جميع الأصول والفروع، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾¹.

ولما أذن الله باكتمال صرح الرسالات السماوية أنعم على عباده ببعثة رسوله الخاتم محمد ﷺ، وأنزل عليه القرآن الكريم، ليهديهم به، ويعلمهم، ويذكهم، ويربيهم، فهو الكتاب العظيم، الجامع لعقيدة الإسلام وشريعته، وقيمه ومبادئه، وهو الكتاب الذي لا يعتربه نقص ولا يصيبه خلل، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإن الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام هي الرسالة الخاتمة ذات العقيدة الصحيحة المحفوظة من التبديل والتغيير، وهي التي تجمع كل الناس على إله واحد وكتاب واحد وقبلة واحدة، جعلت من قبائل الجاهلية المتناحرة خير أمة أخرجت للناس، وصنعت من البداوة أعظم المنارات العلمية والحضارية في تاريخ البشرية كلها، وصاغت من شتات الشعوب والقبائل جسداً حضارياً واحداً، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ولم يلتحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى حتى اكتمل الإسلام في عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه كلها.

وبما أن الرسالة المحمدية رسالة خاتمة وخالدة فقد اقتضت حكمة الله أن تكون شريعة كاملة شاملة صالحة لكل زمان ومكان، ولذلك فقد وضع القرآن الكريم والسنة النبوية جميع القواعد الكبرى الضابطة لمسيرة الحياة البشرية في جميع أطوارها، وشرعا المبادئ العامة لكل شيء، ليسعد العباد في العاجل والآجل، وترك النبي ﷺ أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وبذلك اكتملت رسالة الإسلام الخالدة، وأكملت رسالات الرسل السابقين عليهم السلام.

ومن خصائص هذه المحجة البيضاء أنها جاءت بعقيدة صحيحة تضبط جميع ميادين الحياة، وإن حاجة المسلمين لتعلم عقيدتهم الصحيحة كما جاء بها الوحي الرباني «كحاجتهم للهواء الذي يتنفسونه والماء الذي يشربونه، فلن يكون المسلم مسلماً بغير معتقد صحيح يدفعه إلى طاعة ربه وعبادته عبادة حق، فيصلح القلب وتنقاد الجوارح وفق أمر الله عز وجل فيكون مسلماً حقاً يعيش بهوية صحيحة وانتساب صادق للإسلام، وأما من امتلأ قلبه بعقيدة خربة فاسدة، فهذا يعادي الإسلام شاء أم أبى وذلك بمعاداته للعقيدة

الصحيحة التي يجب أن تكون القضية الأولى التي تحظى باهتمام المخلصين من أبناء هذه الأمة»1.

وفي ضوء هذه المعاني، ولأهمية العقيدة الإسلامية الصحيحة وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع، فقد مَنَّ اللهُ عَلَيَّ، بالتوفيق لاختيار موضوعي في مرحلة الدكتوراه، بعنوان:

قواعد العقيدة وأثرها في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري دراسة تأصيلية تحليلية

وسأقدم المعالم الكبرى للبحث من خلال المحاور الآتية:

1. إشكالية البحث وأهميته وآفاقه.

من الحقائق المعروفة أن كل نظرية علمية، بل كل رأي في تنظيم جانب من حياة الإنسان يبني على تصور معين عند الإنسان، سواء وعاه صاحبه أم لا، وما هذا التصور الذي يوجه الإنسان نحو عمل ما إلا عقيدة يعقد عليها قلبه، فيتصرف وفق ما تمليه عليه، سواء أكانت عقيدة صحيحة أم فاسدة.

والعقيدة الإسلامية المستمدة من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، هي العقيدة التي تتابع الرسل والأنبياء عليهم السلام على تبليغها للناس، وهي عقيدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وما كانت هذه العقيدة ولن تكون عقيدة قسرية تُفرض على الناس فرضاً، وإنما هي عقيدة تقوم على الإقناع والبرهنة على نفسها بأدلة واضحة لا لبس فيها ولا تعقيد، وهي أيضاً عقيدة تدعو إلى العمل والصالح والإصلاح، فليست مباحث عقلية فكرية مغرقة في التجريد، بل هي طاقة عمل ودافع إنتاج، لأن كل اعتقاد في الإسلام يقابله عمل صالح يُعَلِّي من شأن صاحبه ومن شأن المجتمع ومن شأن الأمة كلها.

1 من مقدمة كتاب: العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: 3، تعليق: محمد الصالح رمضان، دار الفتح للطباعة والنشر بالشارقة، الطبعة الأولى 1416هـ/1995م.

وقد رسمت هذه العقيدة الإسلامية الصافية للأمة الإسلامية؛ بل للبشرية كلها الخطوط الأساسية، والأطر العامة، التي يُهتدى بها، ووضعت مبادئ النظم، وقواعدها، وحددت مجالات الممارسة، والحركة، لتكون الدولة نتاجاً لهذا المجتمع العقيدي، فساد بهذه العقيدة الصافية الرعيل الأول الذي تربي في ظلال عقيدة التوحيد التي جاء بها خاتم النبيين والمرسلين عليه الصلاة والسلام، ولم يمضِ زمن الخلافة الراشدة، حتى ظهرت قضايا جديدة في العقيدة الإسلامية، أثارها علماء الكلام، مثل الحديث في مسائل القضاء والقدر والصفات الإلهية، وغيرها من المسائل التي سكت عنها الصحابة في وقتهم، لأن الحاجة لم تدعُ حينئذٍ إلى الخوض فيها، فلما أثرت قضايا جديدة في العقيدة، مثل ما أشرت إليه قريباً في مسائل القضاء والقدر، تصدت طائفة من علماء الأمة للكلام فيها إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل حسب اجتهادهم، فكان ذلك إيذاناً لظهور علم الكلام، وهنا يمكن أن نلاحظ أن النظر إلى العقيدة الإسلامية اتخذ منهجين، أو طريقتين كبيرتين، وهما:

❖ طريقة السابقين قبل ظهور علم الكلام، وتقوم على ركيزتين أساسيتين هما:

✓ **الركيزة الأولى:** أن ما أثبتته الوحي في أمر العقيدة أثبتوه، وما نفاه نفوه، وما سكت عنه سكتوا عنه، وهذا منهج الرعيل الأول من الصحابة وكبار التابعين قبل ظهور الفرق الكلامية، فلم يخض هؤلاء في أمور العقيدة، كما فعل المتكلمون فيما بعد لما ظهرت أمور جديدة اضطروا إلى الكلام فيها دفعاً للشبه ونصرةً للحق.

✓ **الركيزة الثانية:** ربط العقيدة بالعمل والسلوك، فلم تكن عندهم مسائل العقيدة مجرد نطق واعتقاد، بل جمعت مع النطق والاعتقاد السلوك والأعمال، وليست العقيدة عندهم كلمات ترددها الألسنة وتناقضها النيات والأقوال والأفعال.

❖ **طريقة المتكلمين:** وهذه الطريقة ظهرت في الأمة بعد توسع الفتوحات الإسلامية واتصال المسلمين بغيرهم وتأثر بعضهم بثقافات الأمم الأخرى، وغير ذلك من الأسباب التي سيأتي ذكرها في الفصل الرابع من الباب الأول، وتقوم طريقة المتكلمين

على الحجاج والبرهنة على مسائل العقيدة باعتماد الدلائل العقلية في المقام الأول، لأنه واجهتهم شبهات وقضايا أثارها المخالفون من اليهود والنصارى والمجوس والملحدين، فكان لزاماً على علماء الكلام أن يدفعوا تلك الشبهات بنفس سلاح المخالفين.

إن دراسة العقيدة الإسلامية الصحيحة-بناءً على الركيزتين السابقتين عند طريقة السابقين، مع الاستفادة من آثار علماء الكلام تنقيحاً وتمحيصاً وتجاوزاً لبعض قضاياها التي عفا عنها الزمن، هو في نظري المتواضع-أنفع طريقة لعرض هذه العقيدة، لأن دراسة العقيدة بالرجوع إلى الوحي الإلهي يختلف عن قراءتها في الواقع التاريخي، إذ الوحي مفتوح يمتد عبر الزمان والمكان، ولا يتقيد بطائفة دون أخرى، بل هو فوق الجميع، لأنه كلام معصوم، والمعصوم هو الذي يعصم من الخطأ والزلل، وهذا بخلاف ما توصل إليه المتكلمون المجتهدون في أمور العقيدة، فمهما كان لاجتهاداتهم من القوة والرصانة التي لا يمكن لدارس منصف إنكارها، فإنها تبقى نسبية، يعترها ما يعترى أي عمل بشري غير معصوم.

ومن هنا تظهر معالم الإشكالية التي يروم هذا البحث تناولها، وتتفرع هذه الإشكالية عن سؤال كبير تتقاسمه ثلاثة أقطاب، وكل قطب تتفرع عنه أسئلة جزئية، وأكتفي بذكر الأقطاب الثلاثة، مع الإشارة إلى بعض فروعها، وهي:

■ كيف ظهرت قواعد العقيدة، وتأسست على قواعد متينة في القرآن والسنة؟ وما السر في انتفاع الرعيل الأول الذين تربوا على يد المصطفى ﷺ بما تضمنته هذه العقيدة من قواعد تبني ولا تهدم، وتجمع ولا تفرق؟ وما الذي حدث بعد ذلك فتفرقت الأمة الإسلامية في عقيدتها طرائق قديداً؛ ولم يتوقف الأمر عند الافتراق، بل تعداه إلى تكفير المخالفين في الرأي واستحلال دمائهم، كما حدث من فرقة الخوارج؟ وهذا الجزء الأول من الإشكالية يبحث في التطور التاريخي للقواعد العقدية، ويفرق بين مرحلة

التأسيس لها في نصوص الوحي المعصوم، وبين مراحل كبرى سلوكها الاجتهاد البشري في فهم تلك القواعد، وكيف نشأ الخلاف فيها.

■ أما الجزء الثاني من إشكالية الموضوع فيمكن تلخيصه في الأسئلة الآتية:

- ما المقاصد الكبرى للقواعد العقديّة، وما الذي جعل هذه المقاصد لا تحظى

بعناية علماء الكلام؟

- وما أهمية العلم بقواعد العقيدة؟

- وما هي أهم خصائص هذه القواعد؟

■ وأما الجزء الثالث من الإشكالية، فيروم الحديث عن آثار قواعد العقيدة،

وينطلق من سؤال مفاده: كيف يمكن لقواعد العقيدة أن تُسهم في تجديد وعي الأمة

الإسلامية، لتعود إلى استئناف عملية البناء والإصلاح، وتشرف بحمل رسالة الهداية

والرحمة، كما كانت قبل أن تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها؟

وإن محاولة الإجابة عن هذه الإشكالات الكبرى هو في حد ذاته يبين أهمية

الموضوع، حيث إن التعيد للعقيدة الإسلامية، وربطها بآثارها سواء في الإصلاح الفكري أو

البناء الحضاري-وهما أمران متلازمان أحدهما مقدمة، والآخر نتيجة-من القضايا الجديرة

بالعناية والدراسة، ذلك أن العقيدة الإسلامية هي المحرك الأول والموجه الأساسي التي يضبط

فكر الإنسان، ويوجهه نحو الإصلاح والبناء، والإنسان يحتاج إلى عقيدة ترشده، ويستحيل

أن يعيش الإنسان بدون عقيدة، سواء أكانت صحيحة أم باطلة، والمسلم يستمد عقيدته من

الوحي، وهي التي توجهه نحو فعل الخير وترك الشر، ولأجل ذلك كان جوهر الرسائل

السماوية كلها قائماً على الدعوة إلى الإيمان، ومن هنا تظهر أهمية البحث في القواعد

العقدية، وبيان أثرها في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري.

أما آفاق البحث فتتجلى في كونه يحاول أن يفتح باب البحث لمناقشة قضية دراسة

جوانب التعيد العقدي، تأصيلاً لها، وبياناً لآثارها في الإصلاح الفكري للأمة، وفي البناء

والعمران، فهو إذن محاولة لإبراز أهمية تقعيد قواعد العقيدة، والعودة بها إلى الينابيع الأولى للهداية والنور، المتمثلة في الوحي الإلهي، مع الإشارة إلى نماذج اجتهادية بشرية في الموضوع، -دون تحيز إلى طائفة بعينها- للكشف عن مدى قربها أو بعدها عن مصدرَي الهداية، ولا أبالغ إذا قلت إن دراسة العقيدة في تراثنا العلمي تحتاج منا إلى يقظة كبيرة للتفريق بين النبع الصافي لها وهو القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وبين ما شاب هذا النبع من شوائب، وهذا ليس تقليلاً من شأن اجتهادات أسلافنا من المتكلمين وغيرهم، وقد كانت لهم ظروفهم، وهم بين الأجر والأجرين إن أصابوا أو أخطأوا، ونحن نحسن الظن بهم، ونلتمس لهم أحسن المخارج، لكن لا بد من القول بأن ترك المجال للعقل البشري ليسرح في الحديث عن مسائل العقيدة دون قواعد ضابطة، وخاصة في مبحث الإلهيات غالباً ما يخرج عن الصورة التي رسمها الوحي.

2. المنهج المتبع في البحث.

بما أن البحث يروم دراسة قواعد العقيدة، مع بيان جملة من آثارها المترتبة عنها، ويجمع بين الشق النظري والتطبيقي، فإنه يصعب الاكتفاء بمنهج واحد في هذه الدراسة، فاحتاج الأمر إلى التوسل ببعض المناهج التي يصعب الفصل بينها، وأخص هنا بالذكر ثلاثة مناهج حاولت المزاجعة بينها حسب الإمكان، وهي:

■ **منهج الاستقراء**، وذلك بتتبع ورصد أهم القضايا المرتبطة بالموضوع، ولا أدعي أنني سلكت طريق الاستقراء التام، لأنه صعب المرام في مثل هذه القضايا المتشعبة.

■ **المنهج التاريخي**، وخاصة في الباب الأول، الذي تحدثت فيه عن التطور التاريخي للقواعد العقدية.

■ **المنهج النقدي المقارن**، من خلال عرض ومناقشة بعض القضايا المثارة في العقيدة الإسلامية، التي هدمت وفرقت شمل الأمة وأدخلتها في جدال عقيم، لم تحصد

منه إلا النزاع والشقاق، ومقارنتها بعرض الوحي الرباني للعقيدة في نقائها وصفائها وبنائها للإنسان المستخلف، انطلاقاً من الرؤية الشمولية المستوعبة للإنسان والكون، وبذلك يتكون لدى الباحث منهج متكامل في الموضوع.

ولا يعطي هذا المنهج ثماره إلا إذا كان مسدداً بالوحي وبالمنهجية القرآنية، ولم أقف عند مرحلة النقد والتصويب، بل انتقلت لتحديد الأسس المنهجية التي يمكن أن تسهم في بناء تصور عقدي متكامل، يجمع ولا يفرق، ويبني ولا يهدم، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كان مسدداً بالوحي، ومن خلاله بالمنهجية القرآنية التوحيدية، إذ الوحي هو المصدر الذي لديه القدرة على تمكين الدارس من معرفة عميقة حول الإنسان وقضاياها، وفي نظري أن هذه المنهجية القرآنية هي أهم ما ينبغي التمسك به، من دون إهمال للعقل أو الواقع، أي: أن تكون مستقاة من المصادر الثلاثة للمعرفة في الفكر الإسلامي.

3. بواعث اختيار الموضوع.

لقد اخترت البحث في موضوع القواعد العقيدية، لبواعث موضوعية، وأخرى ذاتية، ويمكن إجمالها كلها في الآتي:

- رغبة ذاتية في الاطلاع على قواعد العقيدة، وربطها ببيان آثارها في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، لأن دراسة العقيدة بقواعدها، هو دراسة لمنهج التعميد في العلوم الإسلامية، ولا شك أن دراسة منهج التعميد أولى من الإغراق في الجزئيات دون معرفة أسسها ومرجعها الذي يجمع شتاتها، وينظم متفرقاتها، إذ القواعد لكل علم وفن بمنزلة المفاتيح التي لا يستغني عنها كل راغب في ولوج أبوابها، وأولى العلوم الإسلامية بالفهم والضبط هو علم العقيدة.

- قلة المصنفات التي تحدثت عن موضوع التعميد العقدي، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك قريباً.

- محاولة إيضاح حقيقة أن دراسة العقيدة كما جاءت في نصوص الوحي المعصوم، غير دراستها في الواقع التاريخي، لأن الأول معصوم من الخطأ، ويمتد بامتداد الزمان والمكان، ولا يتطرق إليه أدنى شك، أما الثاني فهو اجتهاد بشري قابل للخطأ والصواب، ومن الخطأ البين حصر العقيدة الإسلامية في اجتهادات بشرية قد تصلح لأزمنة ماضية تبعاً لظروف معينة، وتلك آفة من الآفات لم يسلم منها ميدان من ميادين العلوم الإسلامية، ولقد كانت فكرة البحث في قواعد العقيدة حاضرة عندي منذ البدايات الأولى للدراسة في التعليم العتيق، حيث كانت تواجهنا صعوبات جمة في فهم كلام المتكلمين في العقيدة، وقلما نظفر في الكتب المقررة عندنا في العقيدة بنص من القرآن الكريم أو الحديث النبوي، وكان منتهى الأمانى عندنا أن نفهم مراد المؤلفين، وربما كنا نفهم ظاهر عبارات صاحب المتن، فإذا ذهبنا إلى شرح المتن نجد أنفسنا عاجزين كلَّ العجز عن إدراك مراد صاحب المتن، وكأن الشارح يشرح متناً آخر غير المتن الذي وُضع له الشرح، وأما إذا ذهبنا إلى حاشية الشرح فنحن أمام ألباب ومعميات، وهنا يضع الطالب ويتيه القارئ، ويحتاج سنين لفهم مراد الشارح الفلاني أو المحشي العلاني، ثم لا يظفر بعد ذلك إلا بنزر يسير من المعرفة العقيدية، فلما جاءت مرحلة الدراسة الجامعية بدأت الأمور تتضح وتتناسل مجموعة من الأسئلة بحكم تنوع مجالات تدريس مباحث العقيدة، حسب سنوات الدراسة في الإجازة والماستر، وكان بحثي لنيل شهادة الماستر محاولة لدراسة نماذج من قواعد العقيدة في ضبط الحوار وتقليل الخلاف، ثم يسر الله التسجيل في مركز الدكتوراه "تكوين الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية"، فاستخرت الله في توسيع البحث في هذا الموضوع، محاولاً البحث عن أجوبة لأهم الأسئلة التي كانت تخطر بذهني منذ أمد بعيد.

- الإسهام حسب الاستطاعة في فتح باب البحث في قواعد العقيدة، عسى أن يكون ذلك فاتحة خير لبحوث أخرى تغني الموضوع.

- الحاجة الماسة إلى مثل هذه البحوث، لأن الأمة تحتاج إلى الرجوع إلى العقيدة الصحيحة بقواعدها وكلياتها، من أجل لَمّ الشمل، وتوجيه النقاش الداخلي أو الخارجي في ضوء تلك القواعد للإصلاح والبناء.

- أني لم أجد -حسب اطلاعي المتواضع- بحثاً في الموضوع، وإنما وقفت على شذرات هنا وهناك في بعض المؤلفات، -كما ستأتي الإشارة إلى ذلك قريباً- وهي صالحة لأن تكون نواة للقواعد العقدية، فأحببت أن أدلي بدلوي وأضع جهدي بين أيدي الباحثين، لتقويمه وتصحيحه وإتمام خلله ونقصه، وقد استشرت بعض الجِلَّة من السادة الأساتذة والعلماء في هذا الموضوع، فأشادوا بفكرته، وأعجبوا باختياره، وأعربوا عن عدم العلم بسبقٍ في إنجازهِ، فشجعتني كل ذلك على خوض غمار البحث.

وبناءً على ما سلف من البواعث الذاتية والموضوعية، فقد توكلت على الله وخضت غمار البحث في قواعد العقيدة الإسلامية، محاولاً -قدر الاستطاعة- تحديد قواعدها الكبرى، وبيان أثرها في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري

4. الدراسات السابقة في الموضوع.

لم يتطرق أحد من الباحثين -بحسب ما نالته يدي، وأبصرته عيني- إلى بيان القواعد العقدية وأثرها في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، وإن عدم وقوفي على مصادر ومراجع تتحدث عن موضوع بحثي بالخطة التي سلكتها، لا يعني أن من سبقني لم يبحث في الموضوع، وهنا لا بد من الإشارة إلى بعض الدراسات التي كان لها فضل السبق، وأنارت لي الطريق وهدتني إلى معالم مهمة في بحثي، ولا أقصد المصادر المتقدمة، لأن مؤلفيها عُرفوا بالموسوعية والشمولية، فقد تظفر في كتبهم في التفسير أو الأصول أو الحديث ببعض القواعد العقدية، وإنما أقصد هنا بعض الدراسات الأكاديمية، أو المؤلفات المستقلة في التقعيد العقدي، وربط الإيمان بالسلوك.

أما الكتب التي درست قضية ربط الإيمان بآثاره العملية، فقد وقفت على أربعة نماذج، وهي:

❖ الإيمان والحياة، للدكتور يوسف القرضاوي، وهو كتاب في غاية الأهمية، إذ يُرجع أسباب صلاح الفرد والمجتمع إلى الإيمان، منطلقاً من واقع الأمة الإسلامية، مستشهداً بنماذج من آثار الإيمان في نهضة الأمة.

❖ العقيدة الإسلامية وربطها بشعب الإيمان (السلوك والعمل)، للدكتور الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، وهو كتاب طبع الطبعة الأولى سنة 2018م، وفيه إشارات مهمة إلى أهمية ربط مسائل العقيدة بالسلوك والعمل.

❖ أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، تأليف الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، نشرته عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة 1423هـ، وهو في الأصل رسالة علمية للحصول على الدرجة العالمية العالية من قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

❖ ومن الدراسات المعاصرة الجادة في العقيدة الإسلامية دراسة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي رحمه الله، والتي عنوانها بـ: "التوحيد مضامينه على الفكر والحياة"، والدراسة في الأصل كتبها المؤلف باللغة الإنجليزية، ثم ترجمها إلى العربية الدكتور السيد عمر، وهذه الدراسة كما وصفها المترجم: «تعتمد على التحليل المقارن، عبر اللجوء المباشر المكثف إلى القرآن الكريم، على حال الأمة الراهن ومستقبلها، من رحاب رؤية شاملة للفضاء المعرفي الرحب للتوحيد الخالص، مبيّنة أنه النواة الوحيدة الصالحة لخلافة الإنسان في الأرض، وحمله الأمانة التي أشفقت السموات والأرض والجبال من حملها، وحملها هو، وتحليل معرفي موسوعي مقارن تبين الدراسة من ثلاثة عشر زاوية تفرّد التوحيد الإسلامي، وسموّ المبادئ النابعة منه على كافة الرؤى الأخرى على صعيدي: التخلية المحرّرة للعمران على هذه الأرض من

دواعي الفساد والخلل، والتحلية المكرّسة لكل دواعي التمكين والصالح والإصلاح»¹.

ويُرجع المؤلف حسب ما جاء في تقديم مترجم الكتاب أسباب فشل بعض حركات الإصلاح في الأمة الإسلامية في القرون الأخيرة إلى سبب كبير وهو «أن حركات الإصلاح في الأمة في العصر عُنيَتْ بالبعد المادي وبمعايير مستعارة، واتخذت خطأً هابطاً فيما يتعلق بجفاوتها بالبعد الروحي وهو الأهم، فضلاً عن غفلتها عن تلبية شرط رفع مستوى وعي جماهير الأمة إلى مستوى وعي صفوتها بعملية تربوية رشيدة جامعة وشاملة، بؤرتها هي التوحيد»².

وأما الدراسات السابقة التي وقفت عليها، مما له علاقة بموضوع التقييد للقواعد العقدية، فأذكر أهمها فيما يلي:

❖ القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، للدكتور إبراهيم البريكان، والكتاب مطبوع الطبعة الأولى سنة 1414هـ عن دار الهجرة، وهو في الأصل رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، وقد صنفه الباحث على تمهيد وخمسة أبواب، ذكر في الباب الأول تسع قواعد للإيمان بالأسماء والصفات، وفي الباب الثاني عشر قواعد في أحكام الأسماء والصفات، وفي الباب الثالث ذكر سبع قواعد في دلالات الأسماء والصفات، وفي الباب الرابع أورد ثمان قواعد في الاستدلال بالأسماء والصفات، وخصص الباب الخامس لذكر سبع قواعد في الرد والمناظرة.

والكتاب يمثل منهج المدرسة التي اصطلح عليها أهلها بالمدرسة السنية في التقييد العقدي، وسيأتي بيان أهم خصائص هذه المدرسة، وقد اعتمد مؤلف الكتاب كثيراً على كلام ابن القيم فيما أورده من قواعد.

1 مقدمة السيد عمر مترجم كتاب: التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ص: 13، مدارات للأبحاث والنشر.

2 المرجع السابق، ص: 14.

❖ القواعد في توحيد العبادة وما يضاده من الشرك عند أهل السنة والجماعة، جمعاً ودراسة، للدكتور محمد بن عبد الله بن علي، وكان البحث في الأصل رسالة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

❖ القواعد العقدية عند أهل السنة والجماعة دراسة تأصيلية، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، للباحث عادل بن عبد الغفور بن حيدر قل أسرار، وقد استخلص الباحث في الفصل الثامن من البحث أربعة نماذج مما ظهر له أنه ينطبق عليه وصف القواعد العقدية، مع دراسة يسيرة لهذه القواعد.

والملاحظ أن هذه البحوث تشترك كلها في التعميد للقواعد العقدية على منهج المدرسة التي سبقت الإشارة إليها قريباً، وتكاد تتفق على قواعد عقدية في باب الأسماء والصفات، والملاحظ أيضاً على هذه البحوث أنها سلكت طريق التضييق في حصر مصطلح "أهل السنة والجماعة" على طائفة من الأمة بعينها، ورمت طوائف كثيرة من عموم المسلمين بأهل البدع، ومن طالع تلك البحوث سيظفر بنماذج كثيرة من هذا الذي أشرت إليه.

❖ الأحاديث الأصول في أبوابها جمعاً وتخریجاً ودراسة، للباحث محمد أكجيم، وهي رسالة لنيل شهادة الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة مولاي إسماعيل بمكناس، بإشراف الدكتور عبد الله لخضر، في الموسم الجامعي: 1434هـ 2013م، وخاصة القسم الأول من البحث الذي أورد فيه الباحث الفاضل الأحاديث الأصول الشاملة لمختلف أبواب الدين، فهي بمنزلة القواعد الناظمة لما يندرج تحتها من مسائل.

هذا عن أهم الدراسات السابقة في جانب التعميد العقدي، وفي بيان أثر ذلك على الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، وأما في الشق الثالث من بحثي، وهو "مقاصد القواعد العقدية"، فلم أظفر -حسب اطلاعي المتواضع- على دراسات وأبحاث قيمة في

بيان مقاصد القواعد العقدية حتى أهتدي بها، وما وقفت عليه من بحوث ودراسات ومقالات في هذا الاتجاه لا تعدو أن تكون حديثاً عن مقاصد العقيدة، لكن مع ذلك يمكن الاستئناس بها، تمهيداً لبيان المقاصد الكبرى للقواعد العقدية، وستأتي الإشارة إلى بعض تلك البحوث في الباب الثالث من البحث.

5. صعوبات البحث.

جرت عادة الباحثين أن يشيروا إلى أهم العوائق التي اعترضتهم في بحوثهم، إذ لا يخلو أي بحث من عقبات وعوائق، وها أنا أذكر أهم ما اعترض سبيلي من عقبات أثناء إعداد هذا البحث، عسى أن تشفع لي فيما وقعت فيه من هفوات، مكتفياً بثلاث عقبات كبرى، وهي:

- قلة المصادر والمراجع في الموضوع، فلم أجد -حسب علمي- بحثاً يتحدث عن القواعد العقدية، ويبرز آثارها في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، حتى أستأنس به، ولم أظفر بعد طول بحث وتنقيب إلا بكلام متناثر هنا وهناك له علاقة ببعض جزئيات البحث، وعدم ظفري بذلك لا يستلزم عدم وجوده، لأن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود، كما هو معلوم عند الباحثين المنصفين.
- ومن الصعوبات كذلك طول البحث وتشعب المباحث التفصيلية فيه، لأنه يجمع بين ثلاث مجالات كبرى، كل مجال منها يصلح وحده أن يخصص له بحث مستقل: التطور التاريخي للقواعد العقدية، ومقاصد علم القواعد العقدية، وآثار القواعد العقدية في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، بل إن بعض مباحث هذا البحث تصلح أن تكون موضوع كتب أو رسائل جامعية، وهذا كله جعل مهمتي في البحث مخوفة بالصعوبات، وجعلني مضطراً إلى الاختصار في مواطن ربما لا يحسن فيها الاختصار.
- التهيب من اقتحام هذه العقبة، لأن موضوع العقيدة في حد ذاته موضوع خطير، قد زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام، فكيف إذا تعلق الأمر بجمع القواعد الكبرى لهذه

العقيدة؟! والباحث في هذا الموضوع إذا لم يكن متسلحاً بما يكفي من العلم فقد
تزل قدمه ويضل فهمه عياداً بالله!

وهنا لا بد أن أوفي صاحب الحق حقه، وذا الفضل فضله، وإن صاحب هذا الحق
والفضل بعد الله تعالى هو أستاذي المشرف على البحث: الدكتور عبد الرحمن العضاوي،
فقد سعدت بإشرافه، واستفدت من علمه وخلقه وتواضعه الجَم، وكان لتشجيعه أثر كبير في
استنهاض همتي، وبعث الثقة في نفسي، وكانت توجيهاته عقداً فريداً قلدت به جيد بحثي،
وكم من معضلات ومشكلات رفع نقابها، وكشف أسرارها، فوقف القلم حائراً أمام جمائله،
وعجز عن خط فضائله، فجزاه الله عني خير ما يجزي به أستاذ عن طالب، وأمد في عمره
وأصلح عمله.

6. ملخص البحث.

يشتمل البحث إجمالاً على مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

فأما المقدمة، فتناولت فيها: التعريف بالموضوع، والمنهج المعتمد في البحث،
وأسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة في الموضوع، وصعوبات البحث، والخطة التي
اعتمدها في إنجازها.

وأما الباب الأول، فقد خصصته لدراسة التطور التاريخي للقواعد العقيدية، وذلك في
أربعة فصول، حيث بينت في الفصل الأول مفهوم قواعد العقيدة، وما يتبع ذلك من بيان
مصادر هذه القواعد، وصيغ تلك القواعد، ثم تناولت في الفصل الثاني أهم سمات منهج
الوحي في عرض القواعد العقيدية، وانتقلت من الفصل الثاني إلى الفصل الثاني الذي
أشرت فيه إلى الملامح الكبرى للتقعيد العقدي في الأمة الإسلامية قبل ظهور المدارس
الكلامية، وبينت في الفصل الرابع أهم ما يميز مرحلة المدارس الكبرى في التقعيد العقدي
بعد ظهور الخلاف، مع التوقف عند بعض النماذج من تلك المدارس.

وأما الباب الثاني، فقد تناولت فيه الجانب التطبيقي للبحث، من خلال اختيار
نماذج من القواعد العقيدية في الإصلاح الفكري، والبناء الحضاري، من خلال فصلين،

خصصت الفصل الأول منهما للقاعدة العقدية والإصلاح الفكري، مقدماً تعريفاً للإصلاح وللنظر، والتلازم بين الإصلاح والصالح، وأهمية الإصلاح الفكري، لأخلص إلى إيراد سبع قواعد عقدية رأيت أنها تصلح للإصلاح الفكري.

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن القاعدة العقدية والبناء الحضاري، بتقديم تعريف للحضارة، ثم دراسة نماذج من القواعد العقدية التي تصلح للبناء الحضاري، وقد اقتصر في هذا الفصل على قواعد ثمانية، مع الإشارة إلى بعض القواعد الأخرى إجمالاً. **وأما الباب الثالث،** فقد خصصته للحديث عن مقاصد القواعد العقدية، وبيان أهميتها، وخصائصها، وانتظم فيه الكلام في ثلاثة فصول.

جاء الفصل الأول لبيان مفهوم المقاصد بوجه عام، ومقاصد العقيدة بوجه خاص، مع بيان آثار غياب البعد المقاصدي في دراسة القواعد العقدية، وما السبيل إلى إدراك مقاصد القواعد العقدية، وتبعه الفصل الثاني الذي أشرت فيه إلى أهمية العلم بمقاصد القواعد العقدية، بذكر مقدمات في التأسيس لهذه الأهمية، وإيراد إشارات مهمة من القرآن الكريم لبيان هذه الأمة، وذكر نماذج لتحليلية هذه الأهمية، ثم أعقبه الفصل الثالث الذي تضمن بيان خصائص القواعد العقدية، وتوقفت فيه عند ثلاثة خصائص كبرى، هي: خاصية الكلية، وخاصية القطعية، وخاصية العمل.

وأما الخاتمة: فتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

وأختم كلامي في هذه المقدمة بالتنبيه على أن هذا الموضوع متعدد الجوانب، ومن ثم فهو أكبر من أن يحيط به بحث باحث مثلي من جميع نواحيه، بما يؤدي إلى تحقيق كل غاياته ومقاصده، لأن ذلك دونه خرط القتاد كما يقال، ولا أزعج أو أدعي أنني أحطت به، وحسبي أن أدلو فيه بدلوي مع الدلاء السابقة واللاحقة إن شاء الله، وأن أقدم فيه لبنة أظن أنها تمثل جزءاً أساسياً في صرح بناء القواعد العقدية ومقاصدها، إسهاماً مني في كشف هذه القواعد والعمل بها في تحديد علم العقيدة على مذهب الأخيار من أهل السنة، وتقديمه

للناس في رؤية جديدة تحمل قضايا الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، ترغيباً فيه، وتشويقاً إلى دراسته والعناية بمدارسته، عسى أن يكون ذلك لبنة ونقطة تضاف إلى جهود المخلصين الساعين إلى بعث حركة تجديدية إسلامية فكرية واجتماعية شاملة تنفض ما علق بضمير الأمة من أوهام، وتضع مشاكل الإسلام والمسلمين في أوج مشاغلها، مروراً بأولويات الصياغة الأصيلة والواضحة لمعطيات العقيدة الإسلامية الصافية المثبوتة في القرآن والسنة، وإرساء قواعد علم كلام جديد وفق أساليب علمية تناسب الزمان والمكان، تلهب شعلة الذاتية واليقظة في وجدان كل مسلم، وتتصدى للهجمات الإلحادية وغيرها من الهجمات التي تحاول زعزعة عقيدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وإن عجز البحث عن تحقيق شيء من ذلك الذي أشرت إليه، فلا أقل من أن يكون صيحة تنبه على أهمية العناية بأمر التقعيد العقدي، سائلاً الله تعالى أن يلهمني الرشاد والصواب، وأن يتجاوز عني كل تقصير أو خلل، كما أسأله تعالى مرة أخرى أن يجزي عني خير الجزاء فضيلة أستاذه الدكتور عبد الرحمن العضاوي، على كل ما قدمه لي من نصح وتوجيه، وحسن إشراف ورعاية، حتى خرج هذا البحث من حيز الخفاء إلى حيز التجلي.

وبالله تعالى التوفيق، وإليه المرجع والمآب.

الباب الأول

القَوَاعِدُ الْعَقَدِيَّةُ وَتَطَوُّرُهَا
التَّارِيخِيُّ

الفصل الأول

قواعد العقيدة: مفهومها
ومصادرها وصيغها

تمهيد:

من المعلوم لدى الدارسين لأي علم من العلوم أن المفاهيم والمصطلحات هي مفاتيح العلوم، فلا يمكن الولوج إلى أي علم أو فن إلا إذا ضبطت الدارس مفاهيمه وأحاطت خبراً بمصطلحاته، وإذا كان الأمر كذلك، فجدير بنا أن نقف في هذا الفصل الأول مع المركب الإضافي لعنوان البحث "قواعد العقيدة" بعض الوقفات الضرورية، فنبرز معنى القاعدة لغة واصطلاحاً، وكذلك معنى العقيدة في اللغة وفي الاصطلاح، ثم نتقل إلى بيان مصادر العقيدة الإسلامية، ويلى ذلك ذكر صيغ القاعدة العقدية، لهذا اقتضت خطة الفصل أن ينتظم فيه الكلام في ثلاثة مباحث، وتحت كل مبحث مطالب:

المبحث الأول: مفهوم قواعد العقيدة.

المبحث الثاني: مصادر قواعد العقيدة.

المبحث الثالث: صيغ القاعدة العقدية.

وهذا أوان الشروع في تفصيل ما أُجمل في تمهيد الفصل الأول:

المبحث الأول: مفهوم القواعد العقدية.

لتحديد مفهوم القواعد العقدية، يلزم التوقف أولاً عند معنى القاعدة في اللغة وفي الاصطلاح العام، وهذا ما سنتعرف عليه في المطلب الأول.

المطلب الأول: تعريف القاعدة في اللغة وفي الاصطلاح العام.

القاعدة في اللغة تجمع جمع تكسير على قواعد، وتأتي لعدة معان كلها تؤول إلى معنى الأساس الذي يقوم عليه البناء حساً أو معنى، ومنه قواعد البيت: أي أساسه¹. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ

مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾².

هذا في اللغة، وأما في الاصطلاح العام فقد عرفت القاعدة بعدة تعريفات، أقتصر منها على ثلاث تعريفات، وهي:

- عرفها الجرجاني بأنها: «قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها»³.
- وعرفها أبو البقاء الكفوي بقوله: «القاعدة اصطلاحاً: قضية كلية من حيث اشتغالها بالقوة على أحكام جزئيات موضوعها»⁴.
- ولدى التأمل في تعريفات العلماء للقاعدة بمعناها العام نجد أن منهم من نظر إليها نظرة كلية، فعرفها بقوله: «الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة تُفهم أحكامها منه»، وبهذا عرفها أيضاً الإمام ابن السبكي⁵.
- وعرفها التهانوي بأنها: «أمر كلي منطبق على جميع جزئياته عند تعرف أحكامها منه»¹.

1 انظر الصحاح للجوهري، باب الدال فصل القاف، 2/ 525، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، باب القاف والعين وما يثلثهما، 5/ 109، ولسان العرب لابن منظور مادة قعد، 3/ 361.

2 سورة البقرة، الآية: 126.

3 التعريفات للجرجاني، ص: 149.

4 الكليات لأبي البقاء الكفوي، ص: 728.

5 الأشباه والنظائر، لابن السبكي، 1/ 16.

ومنهم من يرى أنها أغلبية وليست كلية فعرفها بأنها: «حكم أكثرى لا كلي ينطبق على أكثر جزئياته لتعرف أحكامها منه»، وهذا تعريف الإمام الحموي².

وسبب الخلاف في التعريف العام للقاعدة يرجع إلى أن من نظر إلى وجود مستثنيات في كل قاعدة في أي علم من العلوم عرفها بالتعريف الثاني، ومن نظر إلى الأصل في القواعد ولم يعتد بالمستثنيات عرفها بالتعريف الأول.

المصلب الثاني: تعريف القاعدة العقدية.

لقد تأخر اهتمام العلماء بعلم القواعد، لا سيما في علم العقيدة، فلم أجد -حسب ما وقفت عليه- الاهتمام بتصنيف العقائد على طريقة القواعد كما هو الشأن في علوم أخرى، مثل: القواعد الفقهية والأصولية...، اللهم ما نجد من نتف قليلة في العصر الحديث وبشكل محدود جداً.

وهذا ما يجعل بحثي عن تعريف جامع مانع للقاعدة العقدية محفوفاً بصعوبات جمّة، إذ بعد طول بحث في أهم كتب العقيدة التي وقفت عليها لم أهدأ فيها إلى تعريف للقاعدة العقدية، إلا ما وقفت عليه في رسالة علمية عرّف فيها صاحب الرسالة القاعدة العقدية بأنها: «الأصول الكلية، والكلمات الجامعة التي يبني عليها مسائل وأحكام أصلية لا يصح الإيمان بدونها، أو فرعية يتحقق بها كماله الواجب، ولا يسع أحداً الجهل بها»³.

والتعريف الذي أمامنا استطاع صاحبه أن يصف به القواعد العقدية بشكل عام، لكن يمكن أن توجه إليه - في نظري المتواضع - بعض الملاحظات، وهي:

1. يخلط هذا التعريف بين القواعد والأصول والفروع، فالتعريف هنا لا تختص فيه القواعد بالكليات دون الجزئيات، وهذا يذهب بأهم خاصية القاعدة، وهو الشمول والكلية،

1 كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي، 3/ 1173.

2 غمز عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر، للحموي، 1/ 51.

3 القواعد في توحيد العبادة عند أهل السنة والجماعة، ص: 26، عبد العزيز بن ريس الرئيس، بدون بيانات الناشر، الطبعة الأولى، 1427هـ.

والتعريف أقرب إلى تعريف الأصول العقدية منه إلى تعريف القواعد العقدية، لأنه إذا أردنا الحديث عن الأصول العقدية فيمكن إدراج الجزئيات العقدية أيضاً في التعريف، بخلاف القواعد العقدية، فلا بد من تحقق معنى الكلية فيها، باعتبارها من أهم خصائص القاعدة العقدية، كما سيأتي في الباب الثاني.

2. يلاحظ في التعريف أنه: «أقرب إلى كونه شرحاً لغوياً لعبارة القاعدة من كونه تعريفاً اصطلاحياً للقواعد العقدية»¹.

3. ويلاحظ أيضاً في التعريف أن صاحبه مال فيه نحو التعريف اللغوي للقاعدة، وأهمل الجانب الاصطلاحي، وقد قال -وهو يمهد لتعريف القاعدة العقدية-: «أما بالنسبة لطبيعة القواعد المتعلقة بباب الاعتقاد والتوحيد، فإن أهل العلم لم يلتزموا بالضوابط الخاصة المعتبرة في تعريف القاعدة الأصولية أو القاعدة الفقهية، بحيث تكون لها جزئيات وفروع تندرج تحتها ويعرف حكمها من القاعدة، وإنما الأمر عندهم أوسع من ذلك، إذ كل مسألة من المسائل العلمية تنبني عليها مسألة أو عدة مسائل فهي عندهم قاعدة، وقد يعبرون بالأصل في كثير من الأحيان، فكأنهم اعتمدوا في استعمال القواعد على المعنى اللغوي العام لمادة (قعد)»².

4. والملاحظة الأخيرة على التعريف أن استناد المؤلف في استخراج المعنى الاصطلاحي للقاعدة العقدية على استعمال بعض العلماء لها بوضعها اللغوي غير سليم، لأن استعمال بعض العلماء للفظ القاعدة بوضعها اللغوي الواسع في كتب العقيدة، ليس مسوغاً كافياً يؤخذ منه التعريف الاصطلاحي للقاعدة العقدية.

وحاول الباحث عادل بن عبد الغفور تقديم تعريف للقاعدة العقدية - مستحضراً في ذلك معنى القاعدة بالمعنى العام، ومعنى العقيدة - فقال: «فإذا جُمع هذان المصطلحان في عبارة

1 القواعد العقدية عند أهل السنة والجماعة دراسة تأصيلية، رسالة دكتوراه للطالب عادل بن عبد الغفور بن حيدر قل أسرار، ص: 34_35، منشورة في موقع جامعة أم القرى بمكة المكرمة: www.moe.gov.sa

2 القواعد في توحيد العبادة عند أهل السنة والجماعة، ص: 24.

واحدة كان معناهما الإضافي هو: الإقرارات القلبية الشرعية الكلية، المنطبقة على مسائل أكثر من باب»¹، وجزم بهذا التعريف في آخر مبحث خصصه للتعريف اللقي لمصطلح القاعدة العقدية فقال: «القاعدة العقدية هي: قضية كلية منطبقة على مسائل أكثر من باب»².

واستئناساً بما سبق وتأسيساً عليه، أقترح تعريفين للقاعدة العقدية يبدو لي أنهما تعريفان تقريبيان لها حسب قدرتي، وحسب ما أراه منطبقاً على ما تجمع عندي من القواعد في هذا الباب، ولا أزم أنه تعريف جامع مانع.

فمن التعاريف التي أقرحتها للقاعدة العقدية أنها: «القضية العقدية الكلية المنطبقة على جميع جزئياتها، الجامعة لفروع عدة من أبواب شتى، مأخوذة من النص الشرعي، تصريحاً أو تلميحاً».

وقد اشتمل التعريف الذي اخترته للقاعدة العقدية على قيود تحتاج إلى شرح يتضح به معناها.

شرح التعريف:

"القضية الكلية" هذا جنس في التعريف بتعبير علماء المنطق، لأن القضاء -بمعنى الحكم- لما وُصف هنا بالكلية صار يفيد جنس الحكم المنطبق على أفراد كثيرة، هي جزئيات العقيدة الإسلامية، إذ القاعدة لا تصدق إلا على كثير من الأفراد والجزئيات التي ينتظمها قانون واحد ينطبق حكمه عليها كلها، وهذا ما أشرت إليه بقولي: «المنطبقة على جميع جزئياتها، الجامعة لفروع عدة من أبواب شتى».

وقولي في التعريف: "العقدية" نسبة إلى العقيدة، وهذا القيد في التعريف فصلٌ أخرج ما سواه مما يندرج في قواعد العلوم الأخرى، وعلم العقيدة هو العلم المعروف بهذا الاسم، وهذا المصطلح من أكثر الألفاظ دوراناً على الألسنة وتداولاً بين الناس، وكذا ما يقاربه ويتفق معه

1 القواعد العقدية عند أهل السنة والجماعة، ص: 61.

2 المرجع نفسه، ص: 62.

في الاشتقاق مثل "الاعتقاد" و"العقائد"، ولا شك أن مصطلح العقيدة مصطلح مستحدث ليدل على المعنى الذي استعمل فيه، وأن اللفظ المستعمل في القرآن والحديث للدلالة على هذا العلم هو مصطلح "الإيمان" ومشتقاته، لكن لا مشاحة في الاصطلاح كما يقال، فقد استعمل مصطلح العقيدة أجيالاً من أئمة المسلمين وقصدوا به ما يرادف مصطلح الإيمان.

ويبقى مصطلح الإيمان هو المصطلح الأصلي في هذا الباب، وهو المصطلح الوارد في نصوص الوحي الدال على المعنى دلالة عميقة، لكن جرى وشاع مصطلح "العقيدة" لدى الدراسين بعد تدوين العلوم الإسلامية، ولئن كانت المقولة الشائعة السالفة الذكر ترى أنه "لا مشاحة في الاصطلاح" فإن الأولى حفظ المصطلحات الشرعية الأساس، وخاصة تلك المصطلحات المنصوص عليها في الوحي المسدّد.

وأضيفت القواعد هنا إلى العقيدة لتمييزها عن القواعد الأخرى كقواعد علم أصول الفقه، أو قواعد علم الفقه، أو قواعد علم النحو وغيرها من قواعد سائر العلوم، وسيأتي أن هذه القواعد العقدية منها ما هو منصوص عليه في نصوص صريحة، ومنها ما هو مستنبط، والمستنبط قد يكون محلّ اتفاق بين علماء العقيدة الإسلامية ومنه ما دون ذلك، وهذا ما قصدته بقولي في تنمة التعريف: «مأخوذة من النص الشرعي، تصريحاً أو تلميحاً»، والمعنى: أن القواعد العقدية تؤخذ من نصوص القرآن الكريم ومن نصوص السنة النبوية، إما تصريحاً كما في قاعدة: "لا إكراه في الدين"، وقاعدة: "كل شيء بقضاء وقدر"، وإما تلميحاً، بمعنى أنه قد تؤخذ هذه القواعد من نصوص الوحي عن طريق الاجتهاد والاستنباط، ومن شواهد هذا النوع قاعدة: "كل مسألة عقدية لا تثمر عملاً، أو تكون عوناً عليه، فمضمونها العقدي عارٍ"، وسيأتي بيان معاني هذه القواعد وغيرها في الباب الثاني.

وأوردت القواعد في عنوان البحث بصيغة الجمع للدلالة على كثرتها، والباحث لا يزعم أنه سيذكر كل قواعد العقيدة، وإنما سيذكر نماذج ينبه بها على وجود قواعد أخرى جديدة بأن تحصى وتُضبط لتعصم الأمة من الزيغ والضلال في الركن الأول من أركان

الإسلام، لأن ضبط العقيدة بقواعدها هو ضبط لها من أي انحراف يميل بها عما وضعت له.

فتلخص من هذا كله أن القاعدة العقدية هي مجموعة من المبادئ العامة الكبرى التي تضبط جملة من الجزئيات في العقيدة، ومنها ينطلق المؤمن لضبط كل حركاته وسلوكه مع نفسه أو مع غيره من جميع مخلوقات الله، ليحقق بذلك مهمة الاستخلاف على أكمل وجه، أو نقول: هي مجموعة من القضايا العقدية الكلية التي تُعرف بالنظر فيها القضايا الجزئية المندرجة تحتها.

ومن أمثلة القواعد العقدية في باب الأسماء والصفات قاعدة: "أسماء الله كلها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك، وإحصاؤها والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم".

ذكر الإمام ابن القيم هذه القاعدة بلفظ: «إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم»، ولفظ: "إن أسماء الله كلها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك"¹. وأوردها الدكتور ابراهيم البريكان بالصيغة الأولى مع تصرف يسير، وشرحها شرحاً مطولاً في كتابه: "القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف"².

فهذه قاعدة عقدية، لأنها قضية كلية تنطبق على جزئيات كثيرة من أسماء الله الحسنى، ويستدل بها عليها، ولا يخرج منها أي اسم من أسمائه الحسنى، وكذا يقال في سائر القواعد العقدية.

وإذا كان علماء القواعد الفقهية يفرقون بين الأصل والقاعدة، فيرون أن الأصل يطلق على الدليل الذي تثبت به الجزئيات والمسائل الكثيرة، وأن القاعدة تضبط تلك الجزئيات والمسائل الكثيرة المتفرقة من أبواب شتى بعد أن تثبت بالدليل، ثم يذكرون فروقا أخرى بينهما.

1 بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، 1/ 281 .

2 القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، للدكتور ابراهيم بن محمد بن عبد الله البريكان، ص: 101.

أقول إذا كان هذا التفريق بين الأصل والقاعدة يستقيم في باب القواعد الفقهية، فإنه - حسب جهدي المتواضع - لا يستقيم هنا في القواعد العقدية، فيمكن إطلاق الأصول على هذه القواعد، لأنها من حيث كونها مسالك واضحة يستدل بها على غيرها فهي أصول، ومن حيث هي مبني وأساس لغيرها فتسمى قواعد، والله أعلم.

والذي حملني على عدم التفرقة بين الأصل والقاعدة هنا أنني وقفت على أسماء كتب تحمل عنوان: "أصول الدين"، وتشتمل على قواعد عقدية تحتاج إلى من يستخرجها من تلك المؤلفات، مثل:

- أصول السنة للإمام أحمد.
- أصول السنة للحميدي.
- أصول الدين لأبي منصور عبد القاهر البغدادي.
- الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين.
- الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري.
- أصول الدين لابن حزم.

وسياتي مزيد إيضاح لهذا الأمر في التنبيه الثالث قريباً.

تنبيهات:

وها هنا أربع تنبيهات أختتم بها الحديث عن مفهوم القاعدة العقدية، جواباً عن بعض الإشكالات التي قد تُطرح غالباً في هذا المقام، وهي:

التنبيه الأول : أن أكثر العلماء الذين ألفوا في العقائد، لم يقصدوا ذلك المعنى

الاصطلاحي للقاعدة العقدية حينما يردُّ في ثنايا حديثهم وهم يقررون مسائل العقيدة، أو عندما أطلقوا لفظ "القاعدة" على بعض مصنفاتهم التي حققوا فيها القول على بعض المسائل العقدية، ونجد ذلك مثلاً في رسالة ابن تيمية التي سماها: "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة"، فموضوع الرسالة ومحتواها شاهد على أن عنوانها لا ينصرف إلى المعنى الإصلاحي

للقاعدة العقدية، وإنما قصد بذلك المعنى اللغوي العام للقاعدة الذي قد يتناول الضابط والتأسيس والتأصيل والاستقرار، ويؤيد هذا ما جاء في كلامه في كتابه "التدمرية" حينما قال: «القاعدة السادسة: إن لقائل أن يقول: لا بد من في هذا الباب من ضابط يُعرف به ما يجوز على الله سبحانه وتعالى مما لا يجوز في النفي والإثبات...»¹، فظهر من هذا أنه لم يقصد بقوله: "قاعدة" ذلك المصطلح الذي يدل على القضية العقدية الكلية التي تنطبق على المسائل والجزئيات الكثيرة الموثقة في أبواب عقدية كثيرة، وإنما قصد المعنى اللغوي للقاعدة كما أسلفت قبل قليل. فكأنه يريد أن يقول: هذا تأصيل وتثبيت لمسائل التوسل والوسيلة، أو هذا تأسيس وتقرير لمسائل النفي والإثبات المتعلقة بالله تعالى، والسياق هو الذي يساعدنا على اكتشاف هذا المعنى للقاعدة عنده، فمثلاً نراه يورد المباحث الآتية تحت القاعدة الجلية في التوسل والوسيلة: -التوسل، وأنواعه، وأشياء تتعلق وترتبط به مثل مبحث: "الشفاعة بأنواعها، والدعاء بأنواعه- وبعد القاعدة السادسة يتكلم عن: الطرق الصحيحة والباطلة في النفي والإثبات فيما يتعلق بالله عز وجل، ورد شبه المخالفين فيها².

التنبيه الثاني: ومن الأمور الجديرة بالتنبيه عليها في هذا الموطن أن كثيراً من المؤلفين في كتب العقيدة ساروا على نهج ثلة من المصنفين في كتب القواعد، فلم يميزوا بين القواعد العقدية والضوابط العقدية، والمصنفات التي سبقت الإشارة إليها تتضمن كثيراً من هذا.

التنبيه الثالث: لا مشاحة في الاصطلاح إذا عُرف المراد بقريئة من القرائن، مثل السياق الذي هو عماد القرائن في كل باب، فإذا عُرف قصد المتكلم هان الخطب، ولذلك لا حرج من الناحية الاصطلاحية إذا أطلق على القواعد العقدية "أصول العقيدة"، أو "قواعد العقيدة"، لأنه: «إذا كان الأصل هو أساس الشيء أو ما يتنى الشيء عليه وما يقوم عليه، فأصول الدين هي ما يقوم الدين عليه ويعتبر أصلاً له، والدين الإسلامي يقوم على عقيدة

1 التدمرية، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ص: 116، تحقيق محمد السعودي، مكتبة العبيكان، الرياض. الطبعة الرابعة، 1417هـ.

2 انظر التدمرية، ص: 116 - 146.

التوحيد...»¹، وكذلك إذا سميت قواعد الدين أو قواعد العقيدة فباعتبار أنها مجموعة من القواعد الكلية التي تندرج تحتها جزئيات يستدل بها عليها، للإثبات أو النفي، لكن ينبغي التنبيه في هذا المقام إلى أن بعض علماء الكلام قد يدخلون بقصد أو بغير قصد في مسمى "أصول الدين" أو "قواعد العقيدة" ما ليس من الأصول ولا من القواعد، بل ولا من فروع الدين أصلاً، مثل بعض الدلائل والمسائل الفاسدة في نفي صفات الله الثابتة، مما يقف عليه المطلع على تلك المؤلفات².

التنبيه الرابع: وكما يمكن أن تسمى القواعد العقدية بأصول العقيدة، فيمكن أن تسمى أيضاً القواعد العقدية بالكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، وقد وقفت على كتاب للدكتور أحمد الريسوني يحمل اسم "الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية"، والكتاب أورد فيه المؤلف الكليات الأساسية العقدية، والمقاصدية، والخلقية، والتشريعية.

وعرف الكليات الأساسية بأنها: «المعاني والمبادئ والقواعد العامة المجردة، التي تشكل أساساً ومنبعاً لما ينبثق عنها وينبني عليها من تشريعات تفصيلية وتكاليف عملية ومن أحكام وضوابط تطبيقية»³.

وشرح هذا التعريف شرحاً وافياً فقال: «فالكليات هنا ما يقابل الجزئيات، ولو عبرنا عن الصنفين بالأصول والفروع لكان صحيحاً ومطابقاً، لكن بالمعنى العام للأصول والفروع، وليس فقط بالمعنى الأصولي الفقهي، الذي يحصر الأصول في أدلة فقهية - الأدلة الأصولية-، ويحصر الفروع فيما تدل عليه من أحكام فقهية.. الكليات أو الأصول هنا تعني: معتقدات وتصورات عقدية، وتعني مبادئ عقلية فطرية..»⁴.

1 مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، للدكتور عثمان جمعة ضميري، ص: 43.

2 سيأتي ذكر هذا الأمر بشيء من التفصيل في الباب الثاني من هذا البحث، عند الحديث عن قاعدة عقدية مهمة، وهي قاعدة: "كل مسألة عقدية لا تنمّر عملاً، أو تكون عوناً عليه، فمضمونها العقدي عارٍ".

3 الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، الدكتور أحمد الريسوني، ص: 142.

4 المرجع السابق، ص: 43.

والشاهد من صنيع الدكتور أحمد الريسوني أنه لا مشاحة في تسمية القواعد العقدية باسم الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، لأنه ينطبق على قواعد العقيدة الوصف الذي ينطبق على الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

المصطلب الثالث: مفهوم العقيدة في اللغة وفي الاصطلاح.

أ- مفهوم العقيدة في اللغة: العقيدة في اللغة مشتقة من "عَقَدَ" على وزن "فَعِيلَةٌ" بمعنى مفعولة، كقتيلة بمعنى: مقتولة، وفريضة بمعنى: مفروضة، وطبيعة بمعنى: مطبوعة، فهنا عقيدة بمعنى شيء معتقد، أي: إن عقيدةً بمعنى معقودة، وأصل كلمة العقيدة من العَقْدِ، وهو الرَبْطُ، والإبرامُ، والإحكامُ، والتوثُّقُ، والشَّدُّ بقوة، والتماسُكُ، واليقينُ والجزم. علما أن «أصل العَقْد نقيض الحل، ثم استعمل في جميع أنواع العقود في البيوعات وغيرها، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم»¹.

وقبل إيراد كلام بعض اللغويين في تحديد معنى العقيدة لعةً أشير إلى أن هذه المعاني اللغوية تؤول كلها إلى معنيين اثنين وهما:

- نقيض الحل، ومنه قولهم: عقدت الحبل أعقده، فهو معقود، ومنه على سبيل المجاز: عقد النكاح.

- العهد والإلزام، تقول: عقدت إلى فلان في كذا وكذا، أي ألزمته بذلك، والمعاهدة: المعاهدة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾².

وفيما يلي أهم ما وقفت عليه من تعريفات اللغويين للعقيدة: فقد قال ابن فارس في معجمه: «العين والقاف والذال أصل واحد، يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها، من ذلك عقد البناء، والجمع أعقاد وعقود... وعقدت الحبل أعقده عقدا، وقد انعقد ... وعاقده مثل عاهدته ... والجمع عقود. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا

1 محمد مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ): "تاج العروس من جواهر القاموس"، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج 08، ص 394.

2 سورة المائدة، الآية: 01.

بِالْعُقُودِ¹، والعقد: عقد اليمين، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيهِ
أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ²، وعقدة النكاح وكل
شيء: وجوبه وإبرامه³.

وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته: «العقد: الجمع بين أطراف الشيء، ويُستعمل
ذلك في الأجسام الصلبة، كعقد الحبل وعقد البناء، ثم يُستعار ذلك للمعاني نحو: عقد
البيع، والعهد، وغيرهما، فيقال: عاقده، وعقدته، وتعاقدنا، وعقدت يمينه... ومنه ﴿أَوْفُوا
بِالْعُقُودِ⁴، والعقدة: اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرهما، قال تعالى: ﴿وَلَا
تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ⁵».

وقال ابن منظور: «عَقَدَ: العَقَدَ: نقيض الحلِّ عَقَدَهُ يَعْقِدُهُ عَقْدًا وَتَعْقَدًا
وعَقْدَةً، (...) واعتقده كعقده، قال جرير:

أَسِيلُهُ مَعْقِدِ السَّمْطَيْنِ مِنْهَا *** وَرِيًّا حَيْثُ تَعْتَقِدُ الْحَقَابَا⁶

... ويقال عقدت الحبل فهو معقود، وكذلك العهد، ومنه عقدة النكاح... وموضع العقد من
الحبل معقد، وجمعه معاقد... وعقد العهد واليمين يعقدهما عقداً وعقدهما: أكدهما... وقال
تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ⁷»⁸.

ويقال: عَقَدَهُ يَعْقِدُهُ عَقْدًا، ومنه عُقْدَةُ اليمين والنكاح، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ
اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ¹ وكل ما عقد الإنسان عليه قلبه
جازماً به - سواءً أكان حقاً أم باطلاً - فهو عقيدة².

1 سورة المائدة، الآية: 01.

2 سورة المائدة، الآية: 91.

3 معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، 86 / 4.

4 سورة المائدة، الآية: 1.

5 سورة البقرة، الآية: 233.

6 البيت لجرير في ديوانه، ص 814، وانظر: تاج العروس، مادة (عقد).

7 سورة المائدة، الآية: 01.

8 ابن منظور: "لسان العرب"، تحقيق عامر أحمد حيدر، 3 / 363. (بتصرف)

وعليه فالعقيدة: الحكم الذي لا يُقبل الشك فيه لدى معتقده. فهي أمور وقضايا لا تقبل الجدل ولا المناقشة.

أما المعتقد: فمصدر ميمي، بمعنى الاعتقاد، أي: ما يعتقده الإنسان، من معتقدات.

فتلخص مما سلف أن العقيدة في اللغة تفيد الثبوت على الشيء، والالتزام به، وهذا المعنى اللغوي سنلحظه أيضا في المعنى الاصطلاحي.

قال الزبيدي: «والذي صرح به أئمة الاشتقاق أن أصل العقد نقيض الحل...»³، ثم استعمل في أنواع العقود من البيوعات وغيرها، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم³.

ب- مفهوم العقيدة في الاصطلاح: عند البحث عن تعريف لمصطلح العقيدة في بعض المصادر المتقدمة لم أظفر بتعريف اصطلاحي يحدد معناه، والسبب في ذلك راجع إلى أن هذا المصطلح لم يُستعمل في بداية التأليف في العقيدة استعمالا كثيرا، وإنما كان المصطلح الشائع آنذاك هو "الإيمان" أو التوحيد، فلما شاع مصطلح العقيدة واشتهر وجدنا له تعريفات تحدد معناه في الاصطلاح.

وقبل ذكر أهم التعريفات الاصطلاحية للعقيدة، أشير أولاً إلى أن للعقيدة في الاصطلاح معنيين: معنى عام يشمل كل عقيدة، ومعنى خاص يشمل العقيدة الإسلامية فقط.

فالعقيدة بالمعنى العام هي: الإيمان اليقين الجازم الذي لا يتطرق إليه شكٌ لدى معتقده، سواء أكان هذا الاعتقاد حقا أم باطلاً.

أما العقيدة بالمعنى الخاص (أي الذي يخص العقيدة الإسلامية فقط) فهي: الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،

1 سورة المائدة، الآية: 89.

2 ابن منظور: "لسان العرب" و الفيروزابادي "القاموس المحيط"، مادة: عقد.

3 تاج العروس للزبيدي، مادة (عقد) 2/ 426.

والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبتت من أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله ﷺ.

والذي يهمني هنا هو تعريف العقيدة بالمعنى الخاص، لأن البحث موضوع لقواعد العقيدة الإسلامية، وسأكتفي هنا بنماذج من أشهر التعريفات للعقيدة الإسلامية حسب ما وقفت عليه، وهي:

1_ عرفها الإيجي بقوله: «علم العقائد: هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه. والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ»¹.

وهو بهذا التعريف يجعل علم العقيدة شاملاً للجانبين مهمين من جوانب علم العقيدة، ألا وهما جانب البناء والتأسيس، وهو المعبر عنه في التعريف بقوله: "إثبات العقائد الدينية"، وجانب الدفاع عن حمى هذه العقيدة برّد كل الشبه التي قد تُوجّه إليها، وهذا ما عبر عنه بقوله: "ودفع الشبه"، ويختتم الإيجي تعريفه للعقيدة ببيان أنه خاص بالنواحي النظرية غير العملية، وهذا رأي من يرى التفرقة بين علم الكلام وعلم الفقه، فجعلوا علم الكلام خاصاً ببحث الأمور النظرية، أما الفقه فهو عندهم خاص بالأمور العملية، وهذا الرأي - في نظري المتواضع - لا يتفق مع نظرية المعرفة في الإسلام، التي تتأسس على النظرة الكلية للعلوم والمعارف.

يقول الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل في نقده لتلك النظرة التجزئية القاصرة للعقيدة: «ونحن نرى أن قصر المسائل الكلامية على نواحي العقيدة النظرية البحتة أمر مستحذ، وأن أقدم تعريف لهذا العلم الذي نجده عند الفارابي وهو «صناعة الكلام ملكة يقتدر بها على نصره الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها

1 الموافق لعرض الدين عبد الرحمن الإيجي، 1/ 3- 38، الطبعة الثانية مصورة عن الطبعة الأولى التي طبعت بمطبعة السعادة بمصر سنة 1325هـ 1907م.

بالأقوال¹، يدخل فيه الآراء والأفعال، ويسوى بينه وبين الفقه من هذا الباب، ويجعل التفرقة بينهما راجعة فحسب إلى أن الكلام يأخذ ما صرح به الشارع لينصره ويقنع به، وأن الفقه يأخذه ليفرع عليه الأحكام»².

ونحن نرجح ما ذكره الفارابي الذي أدخل فيه نصرته الأفعال لأمر:

- منها انسجام ذلك مع المنهج العملي في الإسلام.
- ومنها ما وجدناه عند نشأة هذا العلم من شموله لمسألة الأسماء والأحكام ومرتكب الكبيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإمامة وهي موضوعات ذات طابع عملي واضح.

ومنها حاجة العقيدة في العصر الحاضر إلى نصرته لها من جانب ما يوجه إليها من طعن في شريعتها العملية في موضوعات مثل الجهاد وحقوق المرأة والديمقراطية وغيرها، إذ أن هذا الطعن يستهدف الطعن في العقيدة أساساً³.

2- وعرف السعد التفتازاني علم العقيدة بقوله: «علم الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية»⁴.

3- وعرفها الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل العقيدة بأنها: «العلم بالله تعالى وبآياته، وأسمائه، وصفاته، وحقوقه على عباده، وكذا العلم بالنبوت، وأمور الآخرة من بعث وجنة ونار... وكل ما يتعلق بأصول الدين»⁵.

1 إحصاء العلوم للفارابي، ص: 107.

2 إحصاء العلوم، ص: 107.

3 تجديد المنهج في العقيدة الإسلامية، للدكتور يحيى هاشم حسن فرغل، ص: 19-20، الطبعة الأولى، دار الأفاق العربية القاهرة، سنة 1428هـ 2007م.

4 المقاصد (مقاصد الطالبين) لسعد الدين التفتازاني، 1/ 163، تحقيق د عبد الرحمن عميرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب بيروت، سنة 1409هـ 1989م.

5 مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة، للدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، ص: 9.

4- وهي عند الدكتور حسن الشافعي: «القواعد أو الأحكام الشرعية الاعتقادية التي يُطلب من المكلف الاعتقاد بها، أي الإيمان بصحتها»¹.

5- وعند الدكتور عمر سليمان الأشقر هي: «هي الأمور التي تصدق بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقينا عند أصحابها لا يمازجها ولا يخالطها شك»².

ومما تقدم في التعريفات التي أوردتها يتبين لنا أن ميزان التمييز بين ما هو عقدي وما سواه، يتلخص في أن الاعتقاد يصدق على كل ما يعتقدُه المسلم اعتقاداً جازماً لا يقبل الشك ولا الظن، ويشمل ذلك الإيمان بالله وبرسله واليوم الآخر وكل ما أمر المؤمن أن يؤمن به ويعتقده، سواء في عالم الشهادة أو عالم الغيب، كما سيأتي بيانه في بعض القواعد العقدية.

ونلاحظ أن بعض التعاريف السابقة أشارت إلى فوائد دراسة علم العقيدة، كما هو واضح في تعريف عضد الدين الإيجي الذي لخص ذلك في إقامة الحجة، وحفظ عقائد الدين عن أن تزلزها شبه المبطلين.

المصلب الرابع: أسماء أخرى لعلم العقيدة.

وكما يسمى البحث في العقائد الدينية في الإسلام بعلم العقيدة، فإنه يسمى أيضاً بعلم التوحيد، وبأصول الدين، وبالفقه الأكبر، وبعلم الكلام.

أما وجه تسميته بعلم التوحيد فباعتبار أشرف وأشهر مسأله، وهي مسألة توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، ونفي كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى.

أما تسميته بعلم أصول الدين فلأن موضوع هذا العلم العقائد التي هي الأصول، وأصول الدين: جمع أصل، وهو خلاف الفرع، وفروع الدين هي الأحكام الشرعية العملية.³

1 المدخل إلى دراسة علم الكلام، للدكتور حسن الشافعي، ص: 25.

2 العقيدة في الله، للدكتور عمر سليمان الأشقر، ص: 39.

3 ينظر شرح العقيدة الطحاوية، للغنيمي، ص: 46.

فسمي بذلك لأنه «يتكفل ببيان الأصول الاعتقادية، وهي ما يتعلق بالإلهيات والنبويات واليوم الآخر.

وهذه التسمية مقابل علم الفقه الذي يتكفل ببيان الأحكام العملية الفروعية، ومقابل علم الأخلاق والسلوك»¹.

وأما وجه تسميته بالفقه الأكبر كما سماه بذلك الإمام أبو حنيفة رحمه الله حين ذكر أن «الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام، ولأن يتفقه الرجل كيف يعبد ربه خير له من أن يجمع العلم الكثير»²، فسمي بذلك لأن العقيدة هي الفقه الأكبر والينبوع الأعظم الذي تنفزع عنه جميع الأحكام الشرعية الأخرى من فقه العبادات وفقه المعاملات وفقه الأخلاق والسلوك وغيره.

وسمي بعلم الكلام لأمر واعتبارات كثيرة، من أهمها:

- أنه سمي بذلك من باب المقابلة مع علم المنطق للفلاسفة.
- وقيل لأن أبوابه عنونت بالكلام في كذا.
- وقيل لأنه يورث قدرة على الكلام مع الخصم في الشرعيات.
- وقيل لأنه أهله يتكلمون عادةً فيما سكت عنه الصحابة والتابعون.
- وقيل سمي بذلك لأن مسألة الكلام في كلام الله هي أشهر أجزائه وأكثرها تأثيراً في الفرق التي ظهرت في الأمة الإسلامية.

وأرجح هذه الأقوال في وجه تسمية علم العقيدة بعلم الكلام قولان هما:

1 كتاب أصول الدين، للدكتور قحطان عبد الرحمن الدوري ود رشدي عليان، ص: 15، ط: 6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عمان الأردن، سنة 1422هـ 2002م.

2 الفقه الأيسر، ص: 40، (والفقه الأيسر هو رواية أبي مطيع عن أبي حنيفة رحمه الله، وعرف بالفقه الأيسر تمييزاً له عن الفقه الأكبر رواية حماد بن أبي حنيفة عن أبيه)، نقلاً عن كتاب: العقيدة الإسلامية ومذاهبها، للدكتور قحطان عبد الرحمن الدوري، ص: 14، ط: 3، كتاب - ناشرون - 1433هـ 2012م.

1. قول من سماه بذلك لكون أشهر مسائله في بداية اختلاف الأمة الإسلامية في عقيدتها: الكلام في القرآن الكريم أهو صفة من صفات الباري تعالى وهو الرأي الراجح، أم هو مخلوق كما زعمت المعتزلة.

2. قول من سماه بذلك لكون أهله يتكلمون عادةً فيما سكت عنه الصحابة والتابعون مما لا يتعلق به عمل، ويشهد لهذا ما أثار عن إمامنا مالك رحمه الله من "النهي عن الكلام فيما ليس تحته عمل"، وهي في نظري إحدى أهم قواعد العقيدة الإسلامية التي ينبغي العز عليها بالنواجذ، لأنها فيصل في كثير من الاختلافات والآراء المبتوثة في كتب العقيدة، وفي ذلك يقول رحمه الله: «الكلام في الدين كله أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهنم والقدر وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في الدين، وفي الله عز وجل، فالسكوت أحب إلي، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل»¹.

وكلام الإمام مالك رضي الله عنه في تفضيل السكوت عن الخوض في مسائل العقيدة، لا ينبغي أخذه على عمومته وإطلاقه، إذ قد يعرض ما يجعل الكلام في تلك المسائل أولى من السكوت عنه، وهذا شبيه بما قرره علماء أصول الفقه في مبحث الفتوى من أن الفتوى تتغير بتغير الزمن والمكان والأحوال.

المبحث الثاني: مصادر قواعد العقيدة.

تمهيد:

مما يلحظه الدارس للكتب المصنفة في أصول الدين أن مصادر هذه الأصول تختلف من مؤلف لآخر، حيث إن هناك من المؤلفين من سلك في الاستدلال على مسائل العقيدة سبيل الدليل العقلي وجعله هو الفيصل في الاستدلال على تلك المسائل، ومنهم من وقف عند ظاهر النقل وألغى العقل وجعله خصماً للنقل، مع أن النقل الصحيح لا يمكن أن

1 هذا الأثر أورده الإمام ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله، 2/ 938.

يتعارض مع العقل الصريح، والفطرة السليمة لا يمكن إلا أن تقر وتشهد بصحة ما جاء به النص، ومنهم طائفة سلكت طريق الوسط فأخذت بالنقل وجعلته هو الأصل في إثبات العقيدة، لأن أمور العقيدة تندرج في الغيب، ومسائل الغيب مرجع إثباتها هو النقل عن صاحب الشريعة، ولم تلغ هذه الطائفة الاجتهاد في العقيدة، ولكن سؤرتة بقيود وضوابط تعود إلى اعتبار النقل هو المسدد والموجه لهذا الاجتهاد، لذلك جعلت مصادر العقيدة لا تخرج عن مصدرين اثنين:

- أحدهما مسدّد وهو الوحي.

- ثانيهما مستكشّفٌ وناظرٌ في الأول، وهو الإجماع والفطرة والعقل.

وأميل إلى هذا التوسط، لأنه جمع بين النص الذي هو الأصل عندنا في الدين، وبين الاجتهاد الذي رغب فيه الشرع الحكيم، وأيضاً به يتبين وجه التكامل بين مقتضيات النقل والعقل والفطرة السليمة.

وبناءً عليه فيستدعي المقام هنا وقفة مختصرة سأحاول فيها الحديث عن مصادر القواعد العقدية في تكاملها لبناء عقيدة سليمة، ويمكن إجمال هذه المصادر في أربعة مصادر وفق المطالب الآتية:

المصلب الأول: الوحي

والوحي هو أصل الأصول، والينبوع الأول للمعرفة والتصور والتشريع عند المسلمين، وإذا كانت العقيدة هي الركن الأول من أركان الإسلام، فإن طريق إثباتها بقواعدها الكلية وفروعها الجزئية هو الوحي، إذ: "لا عقيدة إلا بدليل"¹، والدليل حينما يُطلق عند المسلمين تنصرف أذهانهم في المقام الأول إلى الدليل من القرآن أو السنة، فكيف أثبت القرآن الكريم والسنة النبوية العقيدة الإسلامية في صفاتها ونقائنها ووضوحها؟.

1 هذه قاعدة تستحق أن تُفرد بالكلام، لأن العقيدة لا تثبت بمجرد الهوى أو التشهي، وإنما يحتاج الأمر إلى دليل يثبتها، وسيأتي تفصيل الكلام عنها في الباب الثاني من أبواب البحث.

وللجواب عن هذه الأسئلة سأحاول تقديم لمحة موجزة عن طريقة القرآن الكريم والسنة النبوية في إثبات قواعد العقيدة، على أن أعود -في فصل آخر- إلى بيان منهج القرآن الكريم في عرض العقيدة الإسلامية.

■ القرآن الكريم:

فقد جاء القرآن الكريم بالبيان الشافي في مسائل العقيدة على أكمل وجه وأتمه، وخاصة في السور المكية إجمالاً وتفصيلاً، حيث تضمنت السور المكية الحديث عن أصول الدين والعقيدة بأدلة عقلية وفطرية دالة على وجود الله وتوحيده، وصدق رسله فيما أخبروا به عن الله، وإثبات البعث والجزاء وجميع مسائل الغيب.

والمأمل مثلاً في سورة الإخلاص يدرك أن هذه السورة قد تحدثت عن العقيدة الإسلامية الصافية بإيجاز يفهمه السامع دون تعقيد أو غموض، «فإن في سورة الإخلاص معجزة تعدل آلاف المعجزات، وهي أنها على قصرها وصفت الله عز وجل وصفا لا تنتهي عجائبه، حتى إن كل ضلال وقعت فيه البشرية في موضوع معرفة الذات الإلهية فإن سورة الإخلاص قد أحاطت به، ونفته وخلصت الإنسان منه، ثم إن العقل البشري قد يصل إلى ما ذكرته هذه السورة في التعرف على الله عز وجل، ولكن بعد آماد، وآماد، وأقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري في موضوع تنزيه الذات الإلهية هو ما ورد في هذه السورة»¹.

لذلك استحقت هذه السورة أن تسمى سورة الإخلاص وهو أشهر أسمائها، لأنه جمع معاني السورة التي تعلم الناس إخلاص العبادة لله تعالى وسلامة الاعتقاد من أي نوع من أنواع الإشراف بالله، وتسمى أيضاً سورة الجمال، لأنها جمعت أصول صفات الله وهي أجمل الصفات وأكملها، وتسمى كذلك سورة المعرفة، لأنها أحاطت بأصول معرفة صفات الله تعالى التي لا تتم معرفة الله إلا بمعرفتها، وتسمى أيضاً بالأساس، لأنها أساس العقيدة

1 الأساس في التفسير، سعيد حوى، 11 / 6748.

الإسلامية، إلى غير ذلك من الأسماء التي ذكر أهمها الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره للسورة¹.

والغرض من إيراد أسماء سورة الإخلاص هنا الوقوف على أهمية السورة التي تعدل ثلث القرآن الكريم، فهي أساس العقيدة الإسلامية وينبوع معرفة صفات الله تعالى، فحري بكل باحث عن العقيدة الإسلامية في صفائها وجمالها وجلالها أن يعود إلى سورة الإخلاص ليبصر بها الحق الذي اختلف فيه الناس.

ويلخص لنا الإمام الشاطبي طريقة السور المكية في عرض العقيدة الإسلامية فيقول: «وغالب السور المكية تقرر ثلاث معان، أصلها معنى واحد، وهو الدعاء إلى عبادة الله وتوحيده:

أحدها: تقرير الوحدانية لله الواحد الحق، غير أنه يأتي على أوجه، كنفى الشريك بإطلاق، أو نفيه بقيده ما ادعاه الكفار في وقائع مختلفة، من كونه مقرباً إلى الله زلفى وكونه ولداً أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة.

والثاني: تقرير النبوة للنبي ﷺ، وأنه رسول الله إليهم جميعاً، صادق فيما جاء به من عند الله، وهذا المعنى وارد على وجوه أيضاً، كإثبات كونه رسولاً حقاً، ونفى ما ادعوه عليه من أنه كاذب، أو ساحر، أو مجنون، أو يعلمه بشر، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم.

والثالث: إثبات أمر البعث والدار الآخرة، وأنه حق لا ريب فيه، بالأدلة الواضحة، والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به، فرد بكل وجه يلزم الحجة، ويكت الخضم ويوضح الأمر.

فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامة الأمر، وما ظهر -بيادي الرأي- خروجها عنها فراجع إليها في محصول الأمر، ويتبع ذلك: الترغيب والترهيب، والأمثال والقصص، وذكر الجنة والنار، ووصف يوم القيامة، وأشبه ذلك»¹.

1 ينظر كتاب: تفسير التحرير والتنوير، للشيخ الطاهر بن عاشور، 15/ 609_610.

ولا يعني هذا الكلام أن حديث القرآن الكريم عن العقيدة قد توقف في السور المدنية، وإنما المقصود منه أن العقيدة كانت الموضوع الأساسي في المرحلة الأولى، لأنها مرحلة البناء والتأسيس، وإلا فإن السور المدنية التي نزلت لبناء القضايا التشريعية وغيرها للأمة عرضت كذلك لأمر العقيدة، من خلال ربط الالتزام بالجانب التشريعي والسلوكي وغيرهما بمقتضى الإيمان بالله، وهذا واضح جدا في الأحكام الواردة مثلا في سورة البقرة التي اشتملت على كثير من الأحكام، وهي أول سورة نزلت بالمدينة، فكانت قريية العهد بالمرحلة المكية، ولذلك وردت فيها أمور عقدية كثيرة من أجل تثبيت الإيمان في القلوب، وتظهر مقاصد علم التوحيد في سبب تسميتها، حيث سميت بالبقرة تخليداً للمعجزة العظيمة التي أكرم الله بها كليمه موسى عليه الصلاة والسلام وبيان قدرة الله على إحياء الموتى، مع بيان دلائل القدرة الإلهية على الخلق والتدبير وغير ذلك من النعم التي أكرم الله بها بني إسرائيل وغيرهم من الناس، وكل ذلك يجعل هذه السورة تطرد الشياطين وتحصن المؤمنين من العين والحسد ومن جميع الأمراض التي تفشت في الأمم قبلهم، وحُقَّ لها أن تكون مصدر البركة كما جاء في الحديث الصحيح الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة، والبطلة السحرة)²، وفي حديث آخر: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)³.

والمقصود أن القرآن الكريم بسوره المكية والمدنية مصدر أساسي للكليات العقدية، وفيه قواعد عقدية كثيرة، ومنها على سبيل المثال:

1 الموافقات، للإمام الشاطبي. 416/3.

2 الحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، 1 / 553 رقم الحديث: 804.

3 المصدر نفسه، رقم الحديث: 780، 1 / 539.

❖ قاعدة "نفي التشبيه عن الله تعالى"، وهي قاعدة منصوص عليها في نصوص كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾¹، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾².

❖ قاعدة "كل صفة واجبة في حق الله تعالى تقابلها صفة مستحيلة في

حقه"، وهي قاعدة منصوص عليها في نصوص كثيرة، كما في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢٥٦﴾ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٧﴾³،

وقوله تعالى في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ

الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾، فالإثبات

المحض ليس مدحا ولا كمالا، والنفي المحض ليس كذلك، وطريقة القرآن الكريم المزاجية

بين صفات الكمال للباري تعالى في الإثبات، وبين صفات النقص في النفي.

❖ قاعدة "العقل البشري لا يستقل بإدراك أسماء الله وصفاته بمهزل

عن الوحي"، فالعقل البشري عليه أن يثبت لربه ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسله، وأن

ينفي عنه ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل، وطريق

1 سورة الشورى، الآية: 9.

2 سورة الإخلاص، الآية: 4.

3 سورة البقرة، الآية: 253-254.

ذلك هو الوحي الإلهي، والقرآن الكريم قد وردت فيه كثير من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

والقرآن الكريم، وهو مصدر التوحيد الأول، ليس كتاب نخبة أو جماعة من الناس، وإنما هو كتاب أمة أنزله الله للأمة كلها إلى قيام الساعة، وهو ميسر للذكر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ¹﴾، «والتيسير للذكر هنا، لا يعني أبدا التبسيط والسذاجة في الفهم، بقدر ما يعني بأن التأمل في آياته، وما شرعه الله فيه من السنن، التي خضعت لها الأمم السابقة، وذكر هذه السنن، واستذكارها، أمر ميسر لكل من أقبل عليه.

إن بيان علل تدين الأمم السابقة، وما خضعت إليه من سنن، لا بد من استيعابها، لتصبح ثقافة شاملة لأبناء أمة الرسالة الخاتمة، فيأخذوا حذرهم، ويتحققوا بالاعتبار، والوقاية، والهداية.

فآلية: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، تكررت أربع مرات في سورة القمر، وجاءت في كل مرة تعقيبا على ما ذكر من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وإصابات التدين، وأهمية إدراك السنن، التي حكمت مسيرة النبوة، وكيف أن إدراكها ميسر، إذا توفرت عزيمة الاطلاع، والادكار، والاتقاء.

وليس تيسير القرآن للذكر -فيما أرى- هو فهم المعاني القريبة بدون صعوبة، وهذا جزء من المقصود، أما المقصد الأساس، فهو تيسير إدراك سنن السقوط والنهوض، من خلال تاريخ النبوة، الذي لم يخرج عن الصراع، بين الإيمان والكفر، بين التوحيد والشرك، بين عبودية الإنسان لله الواحد الأحد، التي تعني المساواة بين بني البشر، وبين تأله الإنسان، الذي ينتهي إلى تسلط الإنسان على الإنسان².

هذا بإيجاز ما يتعلق بطريقة القرآن الكريم في إثبات العقيدة، وسيأتي مزيد تفصيل للمسألة عند الحديث عن منهج القرآن الكريم في عرض العقيدة.

1 سورة القمر، الآية: 17.

2 من تقديم الشيخ عمر عبيد حسنة لكتاب: التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، تأليف الدكتور فريد الأنصاري، 17/1-

18، سلسلة كتاب الأمة الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، العدد: 47، جمادى الأولى 1416هـ.

■ السنة النبوية:

وإذا تقرر أن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر القواعد العقديّة، فإن السنة النبوية أيضاً جاءت لتأكيد هذا الأمر، لأنها وحي من الله تعالى، وقد صدق الله العظيم حين قال في وصف ما يصدر عن نبيه الكريم ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾¹.

وقد جاءت السنة المطهرة ببيان قواعد العقيدة أحسن بيان في جمل هي من جوامع الكلم ودل رسول الله ﷺ الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التي بها يعلمون إثبات ربوبية خالقهم، ووحدانيته، وصفاته، وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته. والسنة النبوية سلكت في بيان العقيدة مسلك القرآن الكريم في إيراد قواعد كلية للإيمان الجازم الصادق الذي لا يعرف الشك ولا الحيرة، إنه الإيمان الذي يبني الأمة بناء متكاملًا، يتكامل فيه الإيمان مع العمل الصالح، بمفهومه الشامل الذي لا يقتصر على جانب دون آخر.

ولذلك لا غرابة أن وجدنا الحديث في السنة النبوية عن الإيمان والإسلام والإحسان في سياق واحد يعبر عن الدين كله، ولهذا الجمع دلالاته.

فعن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ

1 سورة النجم، الآية: 3-4.

سَيِّئًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيْلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»¹.

فقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أهم قواعد العقيدة وجمع بين الأعمال الظاهرة والباطنة في الدين، حيث جعل الإسلام اسما للأعمال الظاهرة، وجعل الإيمان اسما للأعمال الباطنة من الاعتقاد، لكن ليس معنى هذا أن الأعمال ليست من الإيمان، أو أن التصديق ليس من الإسلام، وإنما ذلك تفصيل لجملة كلها شيء واحد ومتكامل، وجماعها الدين.

ومن القواعد المأخوذة من السنة الحديث النبوي:

❖ قاعدة: " **القلوب بين أصبهين من أطابع الرحمن يقلبها كيف**

يشاء "، وهي قاعدة عقدية مهمة تجيب عن كثير من الإشكالات في باب بالقضاء والقدر.

والقاعدة منصوص عليها في حديث أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ

1 الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، 37/1 381.

اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ
مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»¹.

❖ قاعدة "لا يكتمل إيمان العبد إلا بالعمل الصالح، ولا يهتد

بالعمل الصالح إلا بالإيمان الصحيح"، وهي قاعدة منصوص عليها في أحاديث كثيرة، وتفيد اقتران الإيمان والعمل، وأن الإيمان الكامل هو الذي يقترن بالعمل الصالح، كما أن العمل الصالح لا يكون صحيحاً إلا إذا وجهه إيمان صحيح راسخ في قلب المتصف به، ولهذا نجد النبي ﷺ يذكر الإيمان مقروناً بالعمل الصالح، ويذكر العمل الصالح فيقرنه بالإيمان في نصوص كثيرة، وفي ذلك ربط بين أمرين متلازمين، خلافاً لمن فصل بينهما كما فعلت طائفة المرجئة، والنصوص الحديثية التي تشهد للقاعدة كثيرة، ومنها حديث أنسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»².

وأخلص بعد ما تقدم في هذين المصدرين إلى التأكيد على أن القرآن الكريم والسنة هما المصدران المستقلان بإثبات العقيدة الجامعة المؤسسة للفكر الصحيح الواعي، والبناء الحضاري السليم، وما الإجماع والفترة والعقل إلا أدلة تكشف ما قرره الوحي، وليست أدلة ناشئة لمعتقد، فهي كاشفة ومعينة للوصول إلى ما تقرر بالنص المعصوم.

وقبل الانتقال إلى المصدر الثالث من مصادر القواعد العقديّة، لا بد من التنبيه إلى أن الوحي هو المصدر الذي يستقل بتعريف الناس بالعقيدة الصحيحة، التي تصلح لكل زمان ومكان، ذلك أنه «إذا كان مصدر العقيدة الإسلامية هو الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإنها تتصف بما يتصف به الكتاب وهو الدوام والصلوحية لكل زمان ومكان، بحيث لا يمكن لأحد أن يضيف معتقداً أو ينقصه تأويلاً أو تفسيراً، ومن هنا يتأسس الفرق بين العقيدة وبين التفكير فيها ودراسة قضاياها، نحو ما هو حاصل في علم الكلام الذي

1 الحديث أخرجه الترمذي، كتاب القدر عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم الحديث 2140، ص: 391.

2 الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث: 13، 14/1.

هو عبارة عن مجموعة من المفاهيم والتصورات المستنبطة عبر اجتهاد تأويلي نتج في سياق معرفي همه إثبات العقيدة والرد على مناقضيها، فرضته أوضاع سياسية في مرحلة من تاريخ المسلمين»¹.

لهذا وجب التنبيه إلى أن المصادر التي تلي المصدرين السابقين، هي مصادر تابعة لهما، غير مستقلين بإثبات العقيدة.

المصلب الثاني: الإجماع

من مصادر القواعد العقدية الإجماع الذي هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، ومن المسائل المقررة عند علماء أصول الفقه أن الإجماع لا بد أن يستند إلى نص من النصوص، وما قيل هناك يقال أيضاً هنا، فالإجماع الذي هو من مصادر القواعد العقدية لا بد له من دليل يشهد على صحته.

والقول الراجح أن الإجماع يدخل في مسائل العقيدة من أجل «تقوية الأدلة وتعاضدها، ولدفع احتمال الخطأ الذي قد يتطرق للظنيات، فيرتفع الدليل بسبب الإجماع إلى مقام القطعيات»².

يقول الإمام ابن القيم - وهو يتحدث عن أحاديث الصفات -: «انعقاد الإجماع المعلوم المتيقن على قبول هذه الأحاديث، وإثبات صفات الرب تعالى بها، فهذا لا يشك فيه من له أقل خبرة بالمنقول، فإن الصحابة هم الذين رووا هذه الأحاديث، وتلقاها بعضهم عن بعض بالقبول، ولم ينكر أحد منهم على من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومن لم يسمعها منهم تلقاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين.

1 الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، د عبد الرحمن العضاوي، ص: 66-67، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، الإصدار 34، ذو القعدة 1431هـ أكتوبر 2010م.

2 مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن، ص: 60.

هذا أمر يعلمه ضرورة أهل الحديث، كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم وأمانتهم، ونقلهم ذلك عن نبيهم ﷺ، كنقلهم الوضوء والغسل من الجنابة، وأعداد الصلوات وأوقاتها، ونقل الأذان والتشهد والجمعة والعيدين، فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها جاز عليهم ذلك في نقل غيرها مما ذكرنا، وحينئذ فلا وثوق لنا بشيء نُقل لنا عن نبينا ﷺ ألبتة، وهذا انسلاخ من الدين والعلم والعقل»¹.

وإذا تقرر بأن كل ما عُلم من الدين بالضرورة يدخل في الإجماع، فإن قواعد العقيدة تأتي في صدارة ما عُلم من الدين بالضرورة، وأمثلة ذلك كثيرة، ومنها:

الإجماع على وحدانية الله تعالى وربوبيته.

الإجماع على أحقية الله تعالى بالعبادة.

الإجماع على نبوة محمد ﷺ، وكونه خاتم الرسل.

الإجماع على الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله دون تفرقة بين أحد منهم.

الإجماع على الإيمان بجميع ما جاء به النقل من أمور الغيب: كقيام الساعة والمعاد، والبعث والجزاء..

المصلب الثالث: الفصرة

لما كانت معرفة الله تعالى هي حجر الأساس في جميع قضايا الإيمان، وهي نقطة البداية، ولأهميتها اقتضت الحكمة الإلهية ورحمته بعباده أن جعل هذه المعرفة فطرية، مشاعة للجميع، لا تقتصر على فئة دون أخرى، فالجميع قد فُطروا على معرفة خالقهم إلا من شذ عن هذه الفطرة بسبب الجحود والاستكبار.

وقد سلك القرآن الكريم في إقامة الدليل على وجوده وأحقيقته بالعبادة عدة مسالك، منها مسلك الفطرة السليمة التي لم تنتجس بوساوس شياطين الإنس والجن، لذلك وجدنا

1 مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله، ابن القيم، 2/ 577.

من مصادر القواعد العقدية الفطرة السليمة، والمراد بها «ما يعم الهداية الفطرية، والشعور الفطري، والقضايا التي يسميها أهل النظر ضروريات وبديهيات، والنظر العقلي العادي، وأعني به ما يتيسر للأمين ونحوهم ممن لم يعرف علم الكلام ولا الفلسفة»¹.

وهذا المصدر مع أهميته إلا أن المتكلمين أغفلوه، وقل منهم من ذكره في كتب العقيدة، مع أن الوحي الإلهي نبه عليه في نصوص كثيرة تدل على أن الله تعالى منذ أن خلق البشر فطرهم على التوحيد والإيمان بالله وحده، وأنه أخذ عليهم العهد والميثاق مذ كانوا ذرية في ظهر أبيهم آدم عليه السلام.

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَالَوْ بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْفَيْلَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غٰلِبِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلَ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَبَتُّهُلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾².

ولذلك جاء الأمر للعباد بأن يقيموا وجوههم لله، وأن يخلصوا دينهم له، لأنه مقتضى الفطرة التي فطرهم عليها، وتحقيق للعهد والميثاق، وأداء لشهادة الحق التي أشهدهم عليها فقال سبحانه وتعالى: ﴿بِأَفْئِمَّةٍ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيبًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١٤﴾﴾³.

1 القائد إلى تصحيح العقائد، لعبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، بتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني، ص: 37.

2 سورة الأعراف، الآية: 172_173.

3 سورة الروم، الآية: 26.

وقال رسول الله ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرؤوا إن شئتم (بِطَرَتَ اللَّهُ إِلَيْهِ بَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)¹.

وقال الله تعالى في حديث قدسي مشهور: (.واني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا..)².

وكون الفطرة من مصادر قواعد العقيدة الصحيحة يظهر في أن هذه العقيدة لم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ، ومضمونها الذي تعاقب الرسل والأنبياء كلهم على الدعوة إليه هو: «الإيمان بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار وما إلى ذلك، فكان كل رسول يدعو قومه إلى الاعتقاد بهذه الأمور، وكان كل منهم يؤكد بذلك دعوة من بعث قبله، وبشر ببعثة من سيأتي بعده..»³.

قال ابن أبي العز الحنفي شارح العقيدة الطحاوية: «أودع الله في الفطرة الإنسانية التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل، أنه سبحانه الكامل في أسمائه

1 الحديث أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله، 29113، رقم الحديث: 4497، وأخرجه مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم الحديث: 4804.

2 أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، 286/4.

3 كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 71.

وصفاته، وأنه الموصوف بما وصفه به نفسه ووصفه به رسوله، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه منه»¹.

وممن فصل الكلام في هذه المسألة الإمام الشهرستاني في كتابه " نهاية الإقدام في علم الكلام " تحت القاعدة الخامسة في "إبطال مذهب التعطيل وبيان وجوه التعطيل"، حيث اعتمد على دليل الفطرة في الرد على مسالك المتكلمين وغيرهم في هذه المسألة. فمن ذلك قوله: «فما عدت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان فإن الفطرة السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها، وبديها فكرتها على صانع حكيم عالم قدير...»².

ويقول أيضا: «وأما قول ما شهد به الحدوث أو دل عليه الإمكان بعد تقديم المقدمات دون ما شهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج في ذاته إلى مدبر هو منتهى الحاجات فيرغب إليه ولا يرغب عنه ويستغنى به ولا يستغنى عنه ويتوجه إليه ولا يعرض عنه ويفزع إليه في الشدائد والمهمات، فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج الممكن الخارج إلى الواجب والحادث إلى المحدث، وعن هذا كانت تعريفاته الخلق سبحانه في هذا التنزيل على هذا المنهاج... وعن هذا قال النبي ﷺ: (خلق الله تعالى الخلق على معرفته فاحتالهم الشياطين عنها..)³، فتلك المعرفة هي ضرورة الاحتياج وذلك الاحتيال من الشيطان هو تسويله الاستغناء ونفي الاحتياج، والرسول مبعوثون لتذكير وضع الفطرة وتطهيرها عن تسويل الشيطان فإنهم الباقون على أصل الفطرة وما كان له عليهم من سلطان...»⁴.

1 شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص: 95.

2 نهاية الإقدام في علم الكلام، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ص: 124.

3 لعل المؤلف روى الحديث بالمعنى، وقد سبق تخريج الحديث بلفظ: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهن عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا).

4 نهاية الإقدام في علم الكلام، ص: 125 بتصرف.

فمن أعظم ما تعرف به القواعد العقديّة تلك المعرفة الفطرية المغروزة في نفس الناس عن الله تعالى ووحدانيته وقدرته، لكن الفطرة وإن كانت مصدراً صحيحاً ومعتبراً في إدراك العقيدة الصحيحة فقد «يطراً عليها ما يغشيها ويحرفها عن صوابها، فتحتاج إلى ما يجلوها ويصحح مسارها، ويمنعها من الانحراف، وذلك هو الوحي الذي تكفل الله تعالى بإنزاله هداية للناس ورحمة بهم»¹.

وهذا المصدر الذي نطق به القرآن والسنة في نصوص كثيرة يبين أن الله خلق الإنسان مؤمناً بربه، يتجه إليه بفطرته، وبذلك يكون الأصل في البشرية هو التوحيد والتدين، خلافاً لمن زعم من الغربيين أن البشرية لم تعرف عقيدة التوحيد إلا بعد أن تطورت ومرت بمراحل، وهي النظرية المعروفة بنظرية التطور في الأديان، وهي نظرية خاطئة جاءت متأثرة بنظرية التطور التي ابتدعها داروين، وتأثر بها بعض الباحثين المسلمين².

يقول الشيخ عبد الرحمن المعلمي: «فمن جرى مع فطرته من حب الحق ورباها ونماها وآثر مقتضاها، وتفقد مسالك الهوى إلى نفسه فاحترس منها، لم تنزل تتجلى له البيّنات وتتضاءل عنده الشبهات، حتى يتجلى له الحق يقينا فيما يُطلب فيه اليقين، ورجحانا فيما يكفي فيه الرجحان، وبذلك يثبت له الهدى، ويستحق الفوز.. ومن اتبع الهوى وآثر الحياة الدنيا، تبرقت دونه البيّنات، واستهوته الشبهات»³.

ومن أمثلة القواعد العقديّة الثابتة بالفطرة السليمة:

❖ الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه لله تعالى.

❖ تنزيه الله عن النقائص والعيوب.

1 مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، للدكتور عثمان جمعة ضميرية، ص: 164 بتصرف يسير.

2 انظر رداً على هذه النظرية الخاطئة في كتاب "أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ" للدكتور جمال عبد الهادي، ص: 40 وما بعدها.

3 القائد إلى تصحيح العقائد، لعبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ص: 22، بتصرف يسير.

يقول الإمام ابن القيم مبيناً هاتين القاعدتين: «إن في الفطرة: الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق - سبحانه - ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقف على الرسل، وكذلك تنزيهه عن النقائص والعيوب: هو أمر مستقر في فطر الخلائق»¹.

والخلاصة أن خير وسيلة لغرس عقيدة التوحيد في النفوس هي سلوك طريق الشارع الحكيم المؤسس على الفطر الإنسانية السليمة، البعيد كل البعد عن الأوضاع والمصطلحات البشرية التي تعب الأوائل في وضعها وأرهقوا من جاء بعدهم في فهمها، وهذا لا يعني إغلاق الباب أمام الإفادة من مصادر أخرى، مثل العقل السليم الذي الذي نوه به الوحي وحث على استعماله للوصول إلى الحقائق، فهو أيضاً مصدر من مصادر الهداية بشرط أن يستنير بنور الوحي، وهذا ما سنراه في المطلب الرابع.

المطلب الرابع: العقل.

لقد نوه الإسلام بالعقل، وأعلى من مكانته وقيمته، وجعله مناط التكليف، ويدل على مكانة العقل أن مشتقات هذه الكلمة تكررت في القرآن الكريم نحو سبعين مرة. وأما الآيات التي تتصل بعمل العقل وتحت على التفكير والنظر والتبصر والتدبر في آيات الله في الأنفس وفي الآفاق، وفي حوادث التاريخ والسير في الأرض، وأحكام التشريع، وتتوجه بالخطاب لأولي الألباب.. فقد بلغت من الكثرة حداً أعطى للإسلام ميزة بين كل المذاهب والشرائع.

ففي مجال العقيدة الذي يهمننا الحديث عنه هنا نجد أن الإسلام قد رسم للعقل المنهج الصحيح للعمل والتفكير، ورفع عنه كل العوائق والموانع التي تعطله وتمنعه من إدراك وحدانية الله عن طريق التفكير والتدبر في ملكوت الله.

1 مختصر الصواعق المرسل على الجهمية والمعطلة لا بن القيم، 4 / 1337.

ومن ذلك أن القرآن الكريم نهى عن اتباع الظن والأوهام والخرافات، والخضوع لسيطرة العادات والتقاليد، أو تقليد الآباء، وكل ذلك حتى يتحرر العقل حرية حقيقية كاملة، تقوده إلى الاعتقاد الصحيح.

والآيات التي تدل على ما ذكرته كثيرة، ومنها على سبيل المثال:

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فِئَلٌ لَّهُمْ إِتَّبَعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالَُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْبَيْنَا

عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْفُلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٦٩﴾¹.

- وقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّنْ

رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿١٢٣﴾².

وهكذا يجعل الإسلام العقل - مع أدلة أخرى - مصدراً من مصادر إدراك الوجدانية لله، وقيم البراهين على صدق النبوة والبعث بعد الموت، فيكون إدراك تلك القضايا والكيلات العقدية وقبولها بالعقل مع النقل.

ولكن يبقى العقل دائماً قاصراً بذاته عن الوصول إلى الهدى سواء في العقائد أو غيرها، ما لم يسدّد بالوحي المعصوم، والتوسط والاعتدال مطلوب في كل شيء، إذ من المعلوم بالاستقراء أن دين الله تعالى وسط بين العالي والجافي، يقول الإمام الشاطبي في هذا الأمر: «الشرعية جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخلة تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصلاة والصيام.

فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى

أحد الطرفين، كان التشريع راداً إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب

1 سورة البقرة، الآية: 169.

2 سورة النجم، الآية: 23.

الآخر ليحصل الاعتدال فيه، فعَلَ الطبيب الرفيق أن يحمل المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله، وعاداته، وقوة مرضه، وضعفه، حتى إذا استقلت صحته، هياً له طريقاً في التدبير وسطاً لائقاً به في جميع أحواله»¹.

وقد فطن خطيب أهل السنة ابن قتيبة قبل الإمام الشاطبي لمسألة الإفراط أو التفريط في باب الصفات الإلهية، فحكى أمثلة من التضارب بين الجفأة والغلاة، وفي ذلك يقول: «لما رأى قوم من أهل الإثبات إفراط هؤلاء في القدر - أي في نفي القدر.. حملهم بغض لهم، واللجاج على أن قابلوا غلوهم بغلو، وعارضوا إفراطهم بإفراط، فقالوا بمذهب جهم في الجبر المحض، وجعلوا العبد المأمور المنهي المكلف لا يستطيع من الخير والشر شيئاً على الحقيقة.

وزعم آخرون تصحيح التوحيد، ونفي التشبيه عن الخالق، فأبطلوا الصفات مثل: الحلم، والقدرة، والجلال، والعفو، وأشبه ذلك.

فعارضهم قوم بالإفراط في التمثيل، فقالوا بالتشبيه المحض، وكلا الفريقين غالط، وقد جعل الله التوسط منزلة العدل، ونهى عن الغلو فيما دون صفاته من أمر ديننا، فضلاً عن صفاته..»².

ويقول أيضاً: «وقد رأيت هؤلاء - أيضاً - حين رأوا غلو الرافضة في حب علي رضي الله عنه وتقديمه على من قدمه رسول الله ﷺ، وصحابته عليه، وادعائهم له شركة النبي ﷺ في نبوته، وعلم الغيب للأئمة من ولده، وتلك الأقاويل، والأمور السرية التي جمعت إلى الكذب، والكفر، إفراط الجهل، والغباوة، قابلوا ذلك - أيضاً - بالغلو في تأخير علي رضي الله عنه، وبخسه حقه، واعتدوا عليه بسفك الدماء بغير الحق... والسلامة أن لا تهلك بمحبته، ولا تهلك ببغضه»³.

1 الموافقات للإمام الشاطبي، 2/ 163.

2 كتاب: الاختلاف في اللفظ، لابن قتيبة، ص: 231 بتصرف.

3 المصدر السابق، ص: 231 بتصرف.

ويوضح الإمام ابن تيمية العلاقة بين النقل والعقل ويذكر أمثلة من واقع بعض الطوائف التي وقع عندها خلل في هذا الأمر، ولم تحسن تنزيل علاقة التكامل بين النقل والعقل، ومن ذلك قوله: «لما أعرض كثير من أرباب الكلام، وأرباب العمل عن القرآن والإيمان، تجدهم في العقل على طريق كثير من المتكلمة، يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له.

وكثير من المتصوفة يدمون العقل، ويعيبونه، ويرون أن المقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، ويمدحون السكر، والجنون، والوله، وكلا الطرفين مذموم، بل العقل شرط في معرفة العلوم وكمال الأعمال وصلاتها، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك، لكنه غريزة في النفس وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس»¹.

ومن أمثلة القواعد العقديّة التي مصدرها العقل قاعدة:

❖ "كل كمال ثبت للمخلوق لا نقص فيه: فالخالق أحق به وأولى".

فهذه القاعدة العظيمة في باب الأسماء والصفات ثبتت بنوع من القياس يسمى قياس الأولى، وهو دليل عقلي، ويُعبر عنه في نصوص القرآن الكريم بـ "المثل الأعلى"²، وحقيقته: «أن كل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه يثبت للمخلوق، فالخالق أحق به، وكل نقص تنزه عنه مخلوق، فالخالق - سبحانه - أحق بتنزيهه عنه»³.

وإذا علمنا أن مصادر القواعد العقديّة هي القرآن الكريم والسنة النبوية، وأن المصادر الثلاثة الأخرى شاهدة ومعترفة بما تضمنه الوحي الإلهي، فلا بد من التعرف على الصيغ التي

1 مجموع الفتاوى لابن تيمية، 338/3 - 339، وبين أيضاً أنه لا يمكن أن يقع تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح وفصل القول في ذلك في مؤلفه العجيب "درء تعارض العقل والنقل" فليراجع.

2 سورة النحل، الآية: 60، وسورة الروم، الآية: 26.

3 درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، 2 / 341.

تستفاد منها القاعدة العقديّة، وهذا ما سنتعرف عليه في ثلاثة مطالب تضمنها المبحث الثالث.

المبحث الثالث: صيغ القاعدة العقديّة.

إن المتتبع للقواعد العقديّة سواء في القرآن والسنة، أو في كلام السلف الصالح، أو في كلام علماء الأمة، يجدها تأتي على أشكال متعددة، وصيغ مختلفة، ومن خلال تتبعي لما وقفت عليه من تلك القواعد، يمكن تصنيف صيغها إلى ما يأتي:

المصّلب الأول: قواعد في صيغ جمل خبرية مفيدة للعموم والشمول، سواء كانت للإثبات أو للنفي.

وفيما يلي جملة من القواعد العقديّة التي وردت في صيغ جمل خبرية مفيدة للعموم:

- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾¹، والقاعدة العقديّة المستفادّة من النصّ الكريم هي: "نفي جميع صفات النقص عن الله، مع إثبات صفات الكمال له"، وقد استُفيد الجزء الأول للقاعدة من النكرة في سياق النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، واستُفيد الشرط الثاني للقاعدة من الجملة الإسمية الخبرية ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وترشدنا القاعدة بشرطها إلى أن العقيدة الصحيحة لا تتحقّق إلا بالجمع بين النفي والإثبات، أي نفي العبد كل ما لا يليق بالله والبراءة من عبادة غيره من الأوثان والأصنام الجليّة والحفّية، وأن يثبت له كل ما يليق به سبحانه من الأسماء والصفات، وأن يفردّه وحده بالعبودية.

1 سورة الشورى، الآية: 9.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾¹، فالنص الكريم نصٌّ بجملة اسمية على إثبات القضاء والقدر الذي هو أصل عظيم وركن كبير من أركان الإيمان، لا يتم إيمان العبد إلا بالتسليم والإيمان بهذا الأصل الذي ضلت فيه أفهام وزلت فيه أقدام، وسيأتي مزيد كلام عنه في الباب الأخير من هذا البحث.

- قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَغَدِ إِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا إِنْهِيَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾²، فقد بينت الآية الكريمة بصيغة الجملة الخبرية المقترنة بأسلوب النفي قاعدة كبرى من قواعد العقيدة الإسلامية، ويمكن صياغة هذه القاعدة المستنبطة من الآية بعبارته: "لا تفرض العقيدة على الناس، ولكن تُعرض عليهم"، وأحسن صياغة للقاعدة هي الصيغة الواردة في النص الكريم "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"، وهي قاعدة متفق عليها، لأنه «مما عَلَّمَ من دين الإسلام بالضرورة وثبت بالسنة، وإجماع الصحابة رضي الله عنهم، أن العقائد والعبادات الإسلامية لا يُكره أحد على اعتناقها ابتداءً، حيث أقر الإسلام مبدأ "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"، لغير المسلمين في عقائدهم وعباداتهم، وطبق الرسول ﷺ ذلك عملياً في تعامله مع غير المسلمين، سواء أكانوا كفاراً من أهل الكتاب كيهود المدينة، وخيبر، ونصارى نجران، أم كانوا لا يدينون بكتاب كمجوس هجر، وإنما يلزم غير المسلمين بالخضوع للأحكام الشرعية، المنظمة للواقع الاجتماعي، التي لا تتعارض مع عقائدهم وعباداتهم... حيث يلتزم غير المسلم بتلك الأحكام العامة من جانبها التشريعي نفسه، كأنظمة قانونية للمجتمع، دون

1 سورة القمر، الآية: 49.

2 سورة البقرة، الآية: 255.

الجانب التعبدي الروحي لها، كما يعنى من الالتزام بالأحكام التي تتعارض مع عقيدته، ودينه كأحكام العبادات، والانضمام إلى جيش المسلمين، وكذلك تلك الأحكام التي نظمها دينه نحو أحكام الزواج والطلاق والمأكل والمشرب، بحسب ما فصله الفقه الإسلامي»¹.

— قوله ﷺ: (أَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْفَرُ رَجُلًا مُسْلِمًا فَإِنْ كَانَ كَافِرًا وَإِلَّا كَانَ هُوَ الْكَافِرُ)²، والقاعدة العقدية المستمدة من هذا الحديث النبوي الشريف تفيد أن الحكم على الناس بالكفر مسألة في غاية الخطورة، وقد جاءت القاعدة كما نرى بصيغة العموم "أَيُّمَا" في جملة اسمية مفيدة للإثبات.

وأختم هذا المطلب ببعض القواعد العقدية الاجتهادية المستنبطة من نصوص شرعية جاءت أيضاً في صيغ جمل خبرية، ومنها على سبيل المثال:

- "القول في الصفات كالقول في الذات، لأل العلم بالصفات فرع عن العلم بالذات، فإن كانت له ذات موجودة فله صفات موجودة..".

- وقريب منها قاعدة "القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر نفياً وإثباتاً، فمن لوازم إثبات بعض الصفات إثبات نظائرها، ومن لوازم نفي بعض الصفات نفي نظائرها، إذ القول في الكل واحد، فإن الشرع لا يفرق بين المتماثلات ولا يجمع بين المتفرقات، والعقل يقضي بما يقضي به الشرع..".

1 النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة، للدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل، ص: 92-93، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 25، شهر شوال 1410هـ.

2 الحديث أخرجه أبو داود عن ابن عمر، رقم الحديث 4687، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط، رقم الحديث 2251، وورد الحديث بصيغ أخرى. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، رقم الحديث 2727.

- "معنى أسماء الله وصفاته معلوم من وجه، ومجهول من وجه آخر، فهي معلومة المعنى الحام المدلول عليه باللغة، وهو المعنى اللغوي، ومجهولة المعنى الخاص، وهو الكيفية..."
وهذه القاعدة شبيهة بالقاعدة الذهبية المأثورة عن الإمام مالك وهي قوله:
"الإستواء غير مجهول، والكيف غير محقول، والسؤال عنه بدعة.."¹.

- "أسماء الله وصفاته توقيفية، فلا يشتق له من صفاته أسماء إلا ما دل الدليل الشرعي على إثباته له"².

- ومن وصف الله تعالى بمعنى من معاني البشر فقد كفر³.

- وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفيذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كما، وما لم يشأ لهم لم يكن⁴.

فهذه القواعد وما أشبهها وردت في صيغ جمل خبرية مفيدة للعموم والاستغراق.

المصلب الثاني: قواعد في صيغ جمل إنشائية مفيدة للعموم، سواء كانت للأمر أو النهي.

وغالب هذا النوع من القواعد هي قواعد من نصوص شرعية من القرآن أو السنة، وسأكتفي هنا بإيراد بعض الآيات القرآنية التي تضمنت أمهات قواعد العقيدة في صيغ جمل إنشائية طلبية، مفيدة للأمر، أو النهي:

1 جزء من أثر صحيح أخرجه الإمام الذهبي في كتابه "العلو للعلي الغفار" ص: 141 اعتنى به أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى 1416هـ 1996.

2 هذه القاعدة والقواعد الثلاث قبلها من كلام ابن تيمية، انظر منهاج السنة النبوية، وبهامشه: "بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول" لابن تيمية، 1/175، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، نشر مكتبة مصطفى الباز بمكة المكرمة 1399هـ 1979م. وانظر الرسالة التدمرية، ص: 219، مكتبة السنة الحمديّة بدون تاريخ.

3 العقيدة الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي، ص: 14.

4 المرجع نفسه، ص: 11.

- قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالذِّمَّةَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ ۗ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِئُ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١١﴾﴾¹.

- قوله تعالى: ﴿فَلْ تَعَالَوْا آتَلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۗ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾².

- قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَا رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾³.

- قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾⁴.

المصطلب الثالث: قواعد في صيغ تستفاد من عبارات شتو،

والسياق هو الذي يُعين الدارس على معرفة تلك الصيغ الأخرى للقاعدة العقديّة، من

غير ما سبق في المطلبين المتقدمين، فمن ذلك مثلاً:

- عبارة "الأصل"، والأصل في اللغة يجمع على أصول، «يقال: أصل مؤصل، واستأصله، أي: قلعه من أصله، وأصل الشيء أساسه الذي يقوم عليه ومنشؤه الذي ينبت منه... والأصلي ما كان أصلاً في معناه، ويقابل بالفرعي أو الزائد أو الاحتياطي أو المقلد. والأصول: أصل العلوم وقواعدها التي تُبنى عليها الأحكام»⁵.

1 سورة الشورى، الآية: 11.

2 سورة الأنعام، جزء من الآية: 152.

3 سورة الإسراء، جزء من الآية: 23.

4 سورة النساء، جزء من الآية: 36.

5 للتوسع في معنى الأصل ينظر: (الصحاح للجوهري، 4/ 1623)، و (المعجم الوسيط لمجموعة من المؤلفين، ص: 20).

وما تقدم من تعريف للأصل فهو تعريف له في اللغة وفي الاصطلاح العام، أما تعريفه عند علماء العقيدة، وهو الذي يهمنا هنا فإنهم يطلقونه على عدة معان مختلفة، لكنها متقاربة فيما بينها، فقد يطلقونه تارة ويريدون به القاعدة العقيدية الكلية، وهذه الصيغة نجدها عند بعض علماء العقيدة، بل وجدنا بعض المؤلفات تحمل هذا الاسم، مثل كتاب "أصول السنة" لأبي بكر الحميدي (ت219هـ)، وكتاب "أصول السنة" للإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ)، والمتأمل في تلك المصنفات التي سميت بالأصول، يجدها قد اشتملت على كثير من القواعد العقيدية المهمة.

ومن ذلك قولهم: «من أصول التوحيد أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وأن الألوهية يتضمن توحيد الربوبية»¹.

فالأصل هنا يراد به القاعدة العامة من قواعد علم العقيدة.

ومن ذلك أيضا قول ابن تيمية: «فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر»²، وهذا كثير في كلامه.

وتارة يطلق علماء العقيدة الأصل ويقصدون به تلك الأحكام الاعتقادية التي تتفرع عنها الأحكام العملية، وتارة أخرى يطلقون الأصل على الدليل تثبت به العقائد قرآنا كان أو سنة أو إجماعا، وهذا شبيه بمصادر القواعد العقيدية التي سبق الحديث عنها ذكرها، فيمكن أن نعبر بأصول العقيدة ونقصد بها مصادرها، ولا مشاحة في الاصطلاح.

● عبارة "هذا معلوم بالضرورة، أو معلوم بالاضطرار، ومن وجدته يستعمل هذه العبارة في معرض عرض قواعد العقيدة الإمام ابن تيمية.

1 المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة، للدكتور إبراهيم بن محمد البريكان، ص: 16.

2 مجموع الفتاوى 18 / 163.

يقول في كتابه "القاعدة المراكشية" وهو يقرر قاعدة الإيمان بالقرآن والسنة: «..وبالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام لا يحتاج إلى تقرير، وهو الإقرار بما جاء به النبي ﷺ، وهو ما جاء به القرآن والسنة..»¹.

والخلاصة أن صيغ القاعدة العقدية متنوعة، فمنها ما يستفاد من صيغ العموم المعروفة في علم أصول الفقه في مبحث العام والخاص، ومنها ما يستفاد من صيغ أخرى بمعونة السياق والقرائن التي تدل على ذلك.

1 القاعدة المراكشية، لا بن تيمية، ص: 25، تحقيق ناصر بن سعد الرشيد، ورضا بن نعيان معطي، مطابع الصفا بمكة المكرمة، الطبعة الأولى 1401هـ.

الفصل الثاني

منهج الوحي

في عرض القواعد العقدية

تمهيد:

للقرآن الكريم منهج فريد وواضح في عرض العقيدة الإسلامية، كما هو الشأن في جميع موضوعاته التي اشتمل عليها، ولا غرابة في ذلك، فهو: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ - آيَتُهُ، ثُمَّ بُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾¹، وهو الكتاب الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾².

والقرآن الكريم دعوة الله ورسالته للناس جميعاً، على اختلاف حظوظهم من العقل والقدرة على التفكير، فكان منه ما يتجه إلى القلب ليتفتح للموعظة، وكان منه ما يتجه للعقل ليدعن للمنطق والدليل، وكان منه بجانب هذا وذاك ما يشتمل على الحقيقة سافرةً يفهمها الجميع، وكان منه ما يجيء في شكل أمثال "ما يعقلها إلا العالمون"، وهذا «لأن الأمثال والتشبيهات هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار»³، من أجل هذا كله، كان القرآن جديراً بأن يصل إلى ما أراد من الهداية وتبيين الحق من الباطل، فيما كان الناس فيه من أمر مريج قبل نزوله، مما يتصل بالله والعالم والإنسان.

والقرآن نزل بلسان عربي مبين، والسنة النبوية شارحة له ومتممة له، فهما وحيان من عند الله أنقذ الله بهما البشرية من الضلال «بعد فترة اختلط فيها الباطل بالحق، ودخل - على مر الزمن - في ما أوحاه الله من قبل من الدين الصحيح ما ليس منه، وبسبب هذا ابتعد العالم كثيراً أو قليلاً عن العقيدة الحقّة. فكان لا بد إذاً من أن يتجه القرآن لتصحيح العقيدة قبل كل شيء ولبیان الحق فيما كان عليه الناس»⁴.

1 سورة هود، الآية: 1.

2 سورة فصلت، الآية: 41.

3 انظر: الكشف للزمخشري، 3/ 191.

4 أثر العقيدة في اختفاء الجريمة، للدكتور عثمان بن جمعة ضميرية، ص: 93، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى 1421هـ 2000م.

وقد نزل القرآن الكريم لمعالجة القضية الأساسية الكبرى في الدعوة الإسلامية، ألا وهي قضية العقيدة، وكان يخاطب بذلك الإنسان بما أنه إنسان يستوي فيه عربي ذلك الزمان وعربي كل زمان، كما يستوي العربي وكل إنسان في ذلك الزمان وفي كل زمان إلى قيام الساعة، وهي قضية لا تتغير ولا تتبدل لأنها قضية وجود الإنسان ومصيره وعلاقته بهذا الكون وبخالقه.

وجاءت كل تنظيمات هذا الدين العظيم وتشريعاته إجمالاً وتفصيلاً منبثقة من قاعدة الألوهية الواحدة لله سبحانه، سواء في الحياة الدنيا أو في عالم الغيب أو في أعماق القلوب.. فأكمل دين الإسلام في كلياته وجزئياته بمقتضى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾¹.

وإكمال الدين وكمال إيمان الصحابة رضي الله عنهم الذين شاهدوا نزول هذه الآية الكريمة صريح في أن «جميع العقائد المطلوب معرفتها في الإسلام كانت مبينة موضحة حاصلة لهم، وليس هذا كالأحكام العملية، فإنه لا يُطلب معرفة ما لم يقع سببه منها، فقد يُكتفى في عهد النبي ﷺ ببيان الأصل الذي إذا رجع إليه عند وقوع سبب الحكم عُرف منه الحكم، والأحكام العملية لا تكاد تنحصر في عدد، بل تتزايد بتعاقب الحوادث الفعلية فلا يتأتى أن يُحاط بها.. بخلاف العقائد فإنها مضبوطة لا تتزايد فيها أنفسها، فلا تعذر الإحاطة بها»².

ولما كانت العقيدة بهذه المنزلة وجب ضبط الاختلاف فيها وتقليله، لأن ذلك سبيل إلى تقليل الخلاف وضبطه فيما سواها، إذ هي الأصل الذي يبنى عليه غيره. وقبل الحديث عن أهم المسالك التي سلكها القرآن الكريم في عرض العقيدة الإسلامية، أذكر أربعة أسس كبرى يتميز بها منهج القرآن الكريم، وقد لخصها الأستاذ سيد

1 المائدة الآية: 4

2 القائد إلى تصحيح العقائد، للمعلمي اليماني، ص: 42 بتصرف.

قطب رحمه الله، بقوله: «إن المنهج القرآني في عرض مقومات التصور الإسلامي يمتاز عن كل المناهج:

أولاً: بكونه يعرض "الحقيقة" كما هي في عالم الواقع، في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها، وكل جوانبها، وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها. وهو مع هذا الشمول، لا يعقّد هذه الحقيقة، ولا يلفها بالضباب! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها.. ولم يشأ الله - سبحانه - رحمةً منه بالعباد أن يجعل مخاطبتهم بمقومات هذا التصور، أو إدراكهم لها، متوقفاً على درجة معينة من العلم.. لأن العقيدة هي حاجة حياتهم الأولى، والتصور الذي تنشئه في عقولهم وقلوبهم هو الذي يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله، ويحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلم أي علم، ولطلب أي معرفة... لهذا السبب لم يجعل الله إدراك هذه العقيدة متوقفاً على علم سابق... ولسبب آخر كذلك: هو أن الله يريد أن يكون التصور الذي تنشئه العقيدة هو قاعدة علم البشر ومعرفتهم - بما أنه هو قاعدة تصورهم وتفسيرهم للكون من حولهم، ولما يجري فيه ولما يجري فيهم - كي يقوم علمهم وتقوم معرفتهم على أساس من الحق المستيقن الذي ليس هنالك غيره حق مستيقن. ذلك أن كل ما يتلقاه الإنسان وكل ما يصل إليه - عن غير هذا المصدر - هو معرفة ظنية ونتائج "محمّلة"، لا "قطعية". حتى ذلك "العلم التجريبي"، فطريق العلم التجريبي هو القياس، لا الاستقراء والاستقصاء. فما يتسنى للبشر الاستقراء والاستقصاء في أية تجربة. هذا على فرض صحة جميع الملاحظات والاستنتاجات والأحكام البشرية على الظواهر! إنما قصارى العلم أن يقوم بعدد من التجارب ثم يقيس على نتائجها. والعلم نفسه يسلم بأن النتائج الناشئة عن هذا القياس ظنية محتملة لا يقينية قطعية وذلك بالإضافة إلى أن نتيجة كل تجربة على حدة تقوم على ترجيح أحد "الاحتمالات" لا على القطع الحتمي. فلم يبق من علم مستيقن يمكن أن يحصل عليه البشر إلا العلم الذي يأتيهم من عند العليم الخبير، والذي يقصه عليهم من يقص الحق، وهو خير الفاصلين...

ثانياً: بكونه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات " العلمية "

والتأملات " الفلسفية " والومضات " الفنية " جميعاً، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب "الكل" الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية. وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب. وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة الناس في الأرض بحياة الملائة الأعلى... في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده. لأن الأسلوب البشري عندما يحاول تقليده في هذه الخصيصة، تبدو فيه الحقائق مختلطة غامضة مضطربة، غير واضحة ولا محددة ولا منسقة كما تبدو في المنهج القرآني!

وهذا الاتصال والارتباط في عرض جملة الحقائق في السياق القرآني الواحد قد يختلف في التركيز في أي منها بين موضع وموضع. ولكن هذا الترابط يبدو دائماً فعندما يكون التركيز في موضع من السياق القرآني مثلاً على تعريف الناس برهم الحق، تتجلى هذه الحقائق الكبيرة في آثار القدرة الإلهية الفاعلة في الكون والحياة والإنسان. في عالم الغيب وعالم الشهادة سواء...وعندما يكون التركيز في موضع آخر على التعريف "بحقيقة الكون" تتجلى العلاقة بين "حقيقة الألوهية" وحقيقة الكون، ويتطرق السياق كثيراً إلى حقيقة الحياة والأحياء، وإلى سنن الله في الكون والحياة...وعندما يكون التركيز على "حقيقة الإنسان" يتجلى ارتباطها بحقيقة الألوهية، وبالكون والأحياء، وبالعالم الغيب وعالم الشهادة على السواء...وعندما يكون التركيز على الدار الآخرة تذكر الحياة الدنيا وترتبطان بالله، وبسائر الحقائق الأخرى.. وكذلك عندما يكون التركيز على قضايا الحياة الدنيا..إلى آخر هذا النسق من العرض الواضح الملامح في القرآن.

ثالثاً: بكونه -مع تماسك جوانب " الحقيقة " وتناسقها- يحافظ تماماً على

إعطاء كل من جوانبها - في الكل المتناسق - مساحته، التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله - وهو الميزان - ومن ثم تبدو "حقيقة الألوهية" وخصائصها وقضية "الألوهية والعبودية"

بارزة مسيطرة محيطة شاملة، حتى يبدو أن التعريف بتلك الحقيقة، وتحلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي.. وتشغل حقيقة عالم الغيب بما فيه القدر والدار الآخرة مساحة بارزة. ثم تنال حقيقة الإنسان، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، أنصبه متناسقة تناسق هذه الحقائق في عالم الواقع... وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق، ولا تهمل، ولا تضيع معالمها، في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق.. وكما أن هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في التصور الإسلامي ذاته - حيث لا ينتهي الإعجاب بالكون المادي ودقة نواميسه، وتناسق أجزائه وقوانينه.. إلى تأليهه - كمؤلهة العوالم المادية والأكوان الطبيعية قديماً وحديثاً! - ولا ينتهي الإعجاب بعظمة الحياة، واهتدائها إلى وظائفها، وتناسقها مع نفسها ومع المحيط الكوني إلى تأليهها - كأصحاب المذهب الحيوي! - ولا ينتهي الإعجاب بالإنسان وتفرد في خصائصه والاستعدادات الكامنة في كيانه، المنطلقة في تعامله مع الكون.. إلى تأليه الإنسان، أو "العقل" في صورة من الصور - كالمثاليين في عمومهم! - ولا ينتهي الإجلال للحقيقة الإلهية ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية أو احتقارها، أو احتقار الكائن الإنساني - كالمذاهب الهندوكية والبوذية والنصرانية المحرفة! -... كما أن هذا التوازن هو طابع التصور الإسلامي ذاته، فكذلك هو طابع منهج العرض القرآني لمقومات هذا التصور والحقائق التي يقوم عليها. بحيث تبدو كلها واضحة في المشهد الفريد الذي يرسمه لكل في السياق القرآني الواحد! وهي خصيصة قرآنية لا يملكها الأداء الإنساني!

رابعاً: بتلك الحيوية الدافقة الموحية - مع الدقة والتقريب والتحديد الحاسم -

وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض، ولا الأسلوب البشري في التعبير. ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة، وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجوز الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجوز التحديد على الإيقاع والروعة!

ولا يمكن أن نصف نحن، في الأسلوب البشري، ملامح المنهج القرآني فنبغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج»¹.

وبعد تعرفنا على أهم خصائص المنهج القرآني بوجه عام، نخلص الآن إلى تلخيص أهم ما انفرد به القرآن الكريم في عرض العقيدة الإسلامية، وقد سلكت لتحديد هذا المنهج طريق التأمل في آيات العقيدة الإسلامية كما عرضها القرآن الكريم، منتبهاً عن مقصدي ما ذكره جل المتكلمين في هذا الباب، فأمكن لي تحديد ملامح ذلك المنهج الفريد في المباحث الآتية:

المبحث الأول: الاستدلال بكليتي العقل والكون.

قد سلك الوحي الإلهي مسلكاً عجيباً في الاستدلال على العقيدة الصحيحة، ومن ذلك استدلاله عليها بالدليل العقلي والدليل الكوني، وقد آثرت البدء بالدليل العقلي على باقي الأدلة الأخرى التي ستأتي بعده، لكون العقل مناط التكليف، وهو المرشد إلى تأمل وتدبر باقي الأدلة.

المصلب الأول: الاستدلال بكليتي العقل.

إن الدعوة إلى إعمال العقل منهج سلكه الوحي في الدعوة إلى الإيمان بالله، ونبذ جميع أنواع الشرك والخرافات، فقد دعا القرآن الكريم الناس جميعاً إلى إعمال عقولهم حتى يهتدوا إلى خالقهم ورازقهم وأنه وحده من يستحق العبادة، لأنه هو الحق وهو العلي الكبير، وأن ما يتمسك به المشركون من الشرك باطل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا كَفَرُوا بِهِ فَسُخَّرَ لَهُمْ﴾²، فمن أعمل عقله وتدبر وتفكر ونظر في ملكوت السموات والأرض اهتدى إلى أن وراء هذا العالم إلهاً

1 مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ص: 65-68 بتصرف، دار الشروق. بيروت.

2 سورة الحج، الآية: 60.

خالقاً هو: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ﴾¹.

قال الإمام ابن جرير الطبري عند تفسير الآية الكريمة السابقة من سورة الحج: «هذا الذي أخبرتك يا محمد أن الله فعله من إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل، وغير ذلك من عظيم قدرته، إنما فعله بأنه الله حقاً، وأن ما يدعو هؤلاء المشركون به، وأنه لا يقدر على فعل ذلك سواه، ولا تصلح الألوهة إلا لمن فعل ذلك بقدرته»². وحكى الله تعالى في كتابه الخالد مقالة الكفار يوم القيامة، وندمهم على ما فاتهم من الخير في الدنيا وأنهم لو استعملوا عقولهم لهدتهم إلى عبادة ربهم، وبذلك يفوزون برضاه وينجون من عذابه السعير، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾³.

وعاب كتاب الله العزيز على الذين عطلوا عقولهم وعبدوا غير الله، كما نقرأ في هذا الحوار الممتع الذي جرى بين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وبين أبيه وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ لَتَمَائِيلٍ أَلَيْسَ لَكُمْ عَقْلٌ فَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾⁴ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ ءَأَبَاءُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٥﴾ فَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي بَطَّرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَالِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَتَاللَّهِ

1 سورة البقرة، الآية: 116.

2 جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري، تحقيق: محمود شاكر، 155/20، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، 1421هـ - 2001م.

3 سورة الملك، الآية: 11_12.

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَبَجَعَلَهُمْ جُدُذًا إِلَّا
كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَىٰ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ فَالُوا مَسَ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا إِنَّهُ،
لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ فَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ فَالُوا
فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ فَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا
بِإِلَهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ بَعَلَهُ، كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ: إِنْ كَانُوا
يَنْطِفُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَفَالُوا إِنَّكُمْ: أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَفَدَّ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِفُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْبَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؕ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ أَقْبَلًا تَعْفَلُونَ ﴿٦٦﴾¹

وفي حوار آخر بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه يقول الله تعالى: ﴿وَآتَلَ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ فَالُوا نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَنظَّلُ لَهَا عَكِيمِينَ ﴿٦٨﴾ فَالْ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ؕ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ أَوْ
يَنْبَعُونَكُمْ ؕ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٠﴾ فَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَأَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ
﴿٧١﴾ فَالْ أَقْرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾ أَنْتُمْ وءَأَبَاؤُكُمْ أَلَأَفْدَمُونَ ﴿٧٣﴾
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٤﴾ أَلذِ خَلَفَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٥﴾ وَالذِ

1 سورة الأنبياء، من الآية: 52 إلى الآية: 66.

هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧٦﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴿٨١﴾¹.

وأنكر كتاب الله تعالى أشدَّ الإنكار على الذين ألغوا عقولهم ورضوا لأنفسهم بتقليد آبائهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا فِئَلٌ لَهُمْ بِتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْفِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١١٦﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ بِهِمْ لَا يَعْفِلُونَ ﴿١١٧﴾﴾².

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فِئَلٌ لَهُمْ بِتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢٠﴾﴾³.

قال الإمام محمد عبده رحمه الله: «وتأخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل»⁴.

لكن العقل البشري له حدود لا يمكنه تجاوزها، لذلك احتاج هذا العقل إلى النقل الذي يسدده ويصوبه، فالله تعالى «جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه ولا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراكه جميع ما كان وما لا يكون، وقد دخل في هذه الكلية ذوات الأشياء جملة وتفصيلاً، وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلاً.

1 سورة الشعراء، من الآية: 69 إلى الآية: 81.

2 سورة البقرة، الآية: 169_170.

3 سورة لقمان، الآية: 20.

4 رسالة التوحيد، للشيخ الإمام محمد عبده، ص: 9.

فالشيء الواحد من جملة الأشياء يعلمه الباري تعالى على التمام والكمال، بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أحواله، بخلاف العبد فإن علمه بذلك الشيء قاصر ناقص»¹.

ومن طرق القرآن الكريم في إثارة العقل لإدراك حقيقة التوحيد الخالص لله وبطلان عبادة غيره من الأصنام والأوثان أنه يضرب الأمثال ويقص القصة القصيرة، وهي أمثال وقصص في منتهى الوضوح والإيجاز، بحيث إذا تأمل فيها أي عاقل ستهديه إلى الحق الذي لا ريب فيه.

فمن القصص القصيرة التي جاءت في معرض الحجاج والمناظرة لإثبات وحدانية الله بين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام وبين النمرود بن كنعان الذي ادعى الربوبية، فأفحمه نبي الله إبراهيم كما تصور هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ اتَّيَهُ اللَّهُ الْمَلِكَ إِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾²

وفي بيان عظمة الله وقدرته على إحياء الموتى يسوق الله تعالى هذين المثلين العجيبين من قصة صاحب القرية، وقصة إبراهيم عليه السلام، فيقول سبحانه: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى فَرِيَّةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أُنَبِّئُكَ هَلْ جَاءَكَ مِنْهُ بَعْثٌ مِمَّا بَعَثْنَا قَالَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَذُقُوا نَارًا الَّتِي تَصَدَّقُ فِيهَا النَّفْسُ الْكَافِرَةُ إِذْ تُنْفَخُ مِنَ الْعَصَافِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ﴾³

1 الاعتصام، للإمام الشاطبي، 1/ 216.

2 سورة البقرة، الآية: 257.

وَانظُرِ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانظُرِ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ
نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ، قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
فَدِيرٌ ﴿٢٥٨﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِرْ
قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُ فَالِ بَحْثِ أَرْبَعَةَ مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ
ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٥٩﴾¹.

وتأمل هذا الأسلوب البليغ من التشبيه الذي يوضح أن الأصنام لا تملك نفعاً ولا ضرراً
لعبادها لو كانوا يعقلون: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا
يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَقَبِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاةً وَمَا هُوَ
بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾².

ويقول الله تعالى أيضاً في نفس السياق: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ
قُلِ اللّٰهُ قُلْ اَبَاتُحَدِّثُكُمْ مِّنْ دُونِهِۦٓ اَوْلِيَاۗءَ لَا يَمْلِكُوْنَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الِاعْمٰى وَالْبَصِيْرُ اَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمٰتُ وَالنُّوْرُ﴾^٤ اَمْ
جَعَلُوْا لِلّٰهِ شُرَكَآءَ خَلَفُوْا كَخَلْفِهِۦٓ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّٰهُ خَلِقُ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْفَهْرُ ﴿١٨﴾ اَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ اَوْدِيَةٌ
بِفَدْرِهَآ فَاَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا تُوفِدُوْنَ عَلَيْهِ فِي الْبَارِ اِبْتِغَآءَ

1 سورة البقرة، الآية: 258 _ 259.

2 سورة الرعد، الآية: 15.

حِلْيَةٍ أَوْ مَتَعٍ زَبَدٌ مِّثْلَهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْبَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١١﴾¹.

ويزداد الأمر إيضاحاً بهذين المثليين لأعمال الكفار في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ إِشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَنْ
يَفْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴿١١﴾²، وقوله تعالى:
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِفِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا
جَاءَهُ، لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ، فَوَقَّيْهِ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ
﴿٣٨﴾ أَوْ كَظَلَمْتِ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشِيهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْفِهِ، مَوْجٌ مِّنْ
فَوْفِهِ، سَحَابٌ ظَلَمْتَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ، لَمْ يَكَدْ يَرِيهَا
وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ، نُوراً فَمَا لَهُ، مِّنْ نُورٍ ﴿١١﴾³.

ويضرب الله تعالى المثل بيت العنكبوت لبيان ضعف وبطلان ما يتمسك به
المشركون من عبادة غير الله، فيقول في محكم التنزيل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ
اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ
الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ، مِّنْ

1 سورة الرعد، الآية: 17_19.

2 سورة إبراهيم، الآية: 21.

3 سورة النور، الآية: 38_39.

شَعْرٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٤﴾¹.

فهذه الأمثال وغيرها كافية في إرشاد العقل السليم إلى صدق ما يدعو إليه الدين الصحيح من إفراد الله بالعبودية، ونبذ جميع أنواع الشرك الظاهرة والخفية. ولا يكتفي القرآن الكريم بهذا الدليل وحده، بل ينوع الأدلة الدالة على وحدانيته، ومن ذلك إقامته الأدلة الكونية برهاناً آخر على عظمته، وهو ما سنتعرف عليه في المطلب الثاني.

المصلب الثاني: الاستدلال بدلائل الكون.

فالوحي الإلهي يعرض نظام الكون الفسيح ويدعو الناس إلى النظر والتأمل فيه وإدراك أسرارهِ للبرهنة بها على وحدانية الله وصدق ما أوحى به لرسله عليهم الصلاة والسلام، وهذه نماذج من النصوص الناطقة بذلك:

- فأول أمر بتوحيد الله تعالى في سورة البقرة أعقبه الله عز وجل بذكر مجموعة من آياته الكونية الدالة على عظمته وانفراده بالخلق والتدبير، وقد عرض الله تعالى تلك الدلائل والبراهين بأسلوب متسلسل جامع بين الإقناع والإمتاع، لا يملك أمامه كل عاقل منصف إلا الإقرار بتوحيد الله، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾².

1 سورة العنكبوت، الآية: 41_43.

2 سورة البقرة، الآيتان: 20_21.

- وفي التحذير من الكفر بالله تعالى ساق الحق سبحانه هذه الآيات الباهرات التي يقف أمامها كل عاقل مدعناً، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾¹.

- وفي سورة الأنبياء يعرض الله على عباده بعض آياته الكونية التي تدعو الناس جميعاً إلى إفراده بالعبودية، فيقول- في أسلوب الاستفهام الذي قُصد به التقرير والتعجب من حال المكذبين بهذه الآيات الواضحات-: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْفًا فَبِتْتَفَنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْعًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٧﴾².

- ومن الآيات الكونية التي يقيمها الله تعالى دليلاً واضحاً على قدرته الباهرة على كل شيء، ودليل عجز غيره من المخلوقات آية الليل والنهار، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَآ آرَآئْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْفِيئَةِ مَنِ إِلَهٌ غَيْرُ

1 سورة البقرة، الآيتان: 27_28.

2 سورة الأنبياء: الآية: 30_33.

اللَّهُ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَقْلًا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ فَلْأَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ
النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ مَنِ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَقْلًا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا
فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
أَيُّ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٩﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٨٠﴾¹

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الْشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٨١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِيلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٨٢﴾²

- ومن الآيات الكونية التي ورد ذكرها كثيراً في القرآن الكريم في سياق الدعوة إلى توحيد الله:
آية الأرض الميتة بسبب القحط، فإذا بها تحيا بعد نزول الغيث، فالذي أحيها بالمطر قادر
على إحياء الموتى وقادر على كل شيء، وهو وحده من يستحق أن يُفرد بالعبودية، وقد
تكرر ضرب المثل بهذه الآية في القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ
الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿١١٠﴾ وَجَعَلْنَا

1 سورة القصص، الآية: 70_75.

2 سورة لقمان، الآية: 28_29.

فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٣﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ، وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾¹.

ولا يملك الإنسان أمام هذه الأدلة العظيمة إلا الإذعان و «الإيمان بالله والاحتكام إلى شرعه، فأمام كل إنسان برهانان من ربه لا ينخرمان: برهان الكون بما عليه من دقة وإحكام، يجعل القول بوجوده مصادفة أحموقة لا مكان لها في عالم العقلاء.

وبرهان القرآن المبين لكل كلام. وكما يقف أي كان عاجزاً عن إضافة ذرة إلى الكون، بله ما فوقها؛ يعجز أي كان عن إنشاء سورة من القرآن أو أكثر منها»².

المبحث الثاني: الاستدلال بكليتي الفطرة والنعم

وستتعرف في هذا المبحث على طريقة القرآن الكريم في الاستدلال بدليل الفطرة ودليل النعم على إثبات العقيدة الصحيحة وإبطال العقائد الباطلة.

المصلب الأول: الاستدلال بكليتي الفطرة.

يقرر كتاب الله في نصوص كثيرة حقيقة كبرى، مفادها أن الإنسان قد خلقه الله على فطرة سليمة تتجه إلى خالقها وبارئها وتلجأ إليه، وأن الناس مجبولون على معرفة ربهم الحق، منذ أن أخذ الله العهد على بني آدم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِمَّنْ ظَهَرِ لَهُمْ دُرِّيَّتُهُمْ وَآشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۗ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۗ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْفِيلَةِ ۗ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا

1 سورة يس، الآية: 32-34.

2 محاضرات في علوم القرآن والحديث، للدكتور عبد السلام الخرشى، تقديم الدكتور عباس ارجيلة، ص: 109، المطبعة والوراقة الوطنية - الداوديات مراكش المغرب - الطبعة الأولى 2014م.

عَلَيْهِمْ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَفُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَتَتْهُلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٢﴾¹.

وقال الله تعالى: ﴿بِأَفْئِمَّةٍ وَجَهَكَ لِلدِّينِ حَنِيبًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾².

وبين الرسول ﷺ أن كل مولود يولد على الفطرة، كما ورد في الحديث الصحيح المشهور، ولذلك يخاطب الله الإنسان ويذكره بهذه الفطرة، بأسلوب عاطفي حي، ليوظ إحساسه بأمور الإيمان والعقيدة، وأهمها: توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وما يتفرع عن ذلك من قضايا الاعتقاد، ويزيل الله تعالى عن هذه الفطرة كل ما يمكن أن يحرفها ويخرجها عن طريقها السوي.

وتفسير الفطرة بالعهد الذي أخذه الله من الناس وهم في أصلا بآبائهم قال به بعض العلماء، ومنهم ابن قتيبة، الذي أولها بالعهد رداً على طائفة القدرية، فقد قال- بعد أن ساق بعض النصوص التي جاء فيها ذكر الفطرة-: «فكل مولود في العالم على ذلك العهد والإقرار، وهي الحنيفية التي وقعت في أول الخلق، وجرت في فطر العقول»³. وقال الإمام الزمخشري في بيان معنى كلمة الفطرة الواردة في الآية السابقة من سورة الروم: «الخلقة، ألا ترى إلى قوله- لا تبديل لخلق الله- والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ومن عوي منهم فباغواء شياطين الإنس والجن»⁴.

1 سورة الأعراف، الآيتان: 172_173.

2 سورة الروم، الآية: 30.

3 انظر تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص: 121.

4 الكشف، للزمخشري، 3/ 222.

ويشير الحافظ ابن حجر في فتح الباري إلى رأي القدرية الشاذ في الفطرة، وأنه من أسباب اختلاف العلماء في بيان معنى هذا اللفظ في النص النبوي فبين أن «القدرية كانوا يحتجون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله بل مما ابتدأ الناس إحداثه، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرية»¹.

المصلب الثاني: الاستدلال بكيل النعم

ومن نماذج هذا في كتاب الله تعالى سورة النحل التي استحقت أن تسمى أيضاً بسورة النعم، لما اشتملت عليه من نعم كثيرة امتن الله بها على عباده وساقها في معرض الدعوة إلى إفراده سبحانه بالوحدانية، فتطالعنا السورة من بدايتها بتنزيه الله تعالى عن جميع صفات النقص التي وصفه به المشركون، ويمتن الله على عباده بأعظم نعمة وهي نعمة الوحي الذي به يحيى الإنسان الحياة الحقيقية، يقول تعالى: ﴿أَتَبَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ، وَتَعَلَّبَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

ثم تأتي نعمة الخلق: بدءاً بخلق السماوات والأرض بالحق، وخلق الإنسان من أضعف شيء وهو النطفة، وخلق الأنعام الكثيرة التي سخرها الله لهذا الإنسان المستخلف ليحقق بها منفعه من ضروريات وكماليات، ألا تكفي هذه النعم دلائل وبراهين لشكر المنعم العظيم، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّبَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ

1 فتح الباري، ج: 3، ص: 294.

2 سورة النحل، الآية: 2_1.

﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَفَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْبَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾¹

وتنقلنا السورة من نعم إلى أخرى، فنقرأ مثلاً قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١﴾ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿٤﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾ وَالْفَبَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارٌ وَسُبُلٌ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٦﴾ وَعَلَّمَتِ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٧﴾ أَقَمْنَ يَخْلُقُ كَمَا لَا يَخْلُقُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ ﴿٨﴾²، وبين هذه النعم ونعم أخرى ستأتي في السورة يذكر الله عباده المنعمين

1 سورة النحل، الآيات: 3_8.

2 سورة النحل، الآيات: 10_17.

بهذه الحقيقة الكبرى، ألا وهي: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾¹، ويقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَعَّرُونَ﴾². وبعد ذكر بطلان عبادة المشركين لغير الله، وبعد سرد مشاهد من مشاهد النعيم المقيم الذي أعده الله لعباده الموحدين، والرحيم الذي أعده للمشركين، بعد ذلك كله تعود سورة النعم إلى الحديث عن نعم الله على عباده لتكون شاهدة على أن الله وحده هو من يستحق العبادة، فتحدثت السورة مرة أخرى عن نعمة الماء: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾³، وعن نعمة الأنعام وما فيها من العبرة للمعتبرين يقول الحق تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْفِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِمَّا خَلْفَهَا نَسْفِئُهَا حَالِحَةً لِّلشَّرِبِ﴾⁴، ويمتن الله على عباده بما أباحه لهم من الخيرات الكثيرة، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْفِلُونَ﴾⁵، ويأتي الحديث عن النحل الذي به سميت السورة لبيان بديع صنع الله في هذا المخلوق العجيب ﴿وَأَوْجِبِي رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾⁶ ثم كلِّ من كلِّ الثَّمَرَاتِ فَاَسْأَلِكِ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا

1 سورة النحل، الآية: 18.

2 سورة النحل، الآية: 53.

3 سورة النحل، الآية: 65.

4 سورة النحل، الآية: 66.

5 سورة النحل، الآية: 67.

يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾¹، ويتكرر لفظ "النعمة" عقب الحديث عن نعم أخرى
 في السورة، تذكيراً من المنعم العظيم لعباده حتى لا يخرجوا من دائرة الشكر الواسعة إلى دائرة
 الكفر الضيقة: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا
 بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلْبِنِعْمَةَ اللَّهِ
 يَجْحَدُونَ ﴿٦٧﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
 أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَبَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَقْبَالِ بَطِلٍ يُؤْمِنُونَ
 وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا
 مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٦٩﴾²، ويستمر الحديث عن النعم
 في السورة، فبينه الله تعالى عباده بهذه النعم الدالة على عظمته وكمال قدرته: ﴿وَاللَّهُ
 أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ امَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ
 وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي
 جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ
 جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
 تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا
 وَأَشْجَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعَا إِلَى حِينٍ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ

1 سورة النحل، الآيتان: 68_69.

2 سورة النحل، الآية: 71_73.

لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَّا وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ
تَفِيكُم بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن
تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾¹.

حقاً إنها سورة النعم، وهي كافية وحدها لمن تأملها ليخرج منها بدلائل وبراهين تغرس
في القلوب والعقول توحيد الخالق العظيم.

وفي سورة يونس يعرض كتاب الله مجموعة من النعم الكبرى على الناس بأسلوب
استفهامي إنكاري، لا يجد السامع له إلا الخضوع والإذعان لربوبية وألوهية الحق عز
وجل، فيقول الله الكريم: ﴿قُلْ مَنْ يَّرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ
وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ
رَبُّكُمْ الْحَقُّ بِمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَلُ فَإِنِّي تُصْرَفُونَ ﴿١٠٢﴾ كَذَلِكَ
حَفَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَفَوْا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَلِ اللَّهِ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ، فَإِنِّي تُؤْفَكُونَ ﴿١٠٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
فَلِ اللَّهِ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي

1 سورة النحل، الآية: 78_83.

إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ بِمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا

ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾¹.

وفي مطلع سورة الرعد - بعد أن تحدث الله تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون - أقام

الحجج الكثيرة على بطلان كفرهم بذكره كثيراً من النعم التي يتقلب فيها الإنسان، فقال

عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

يُقِضِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوفِنُونَ ﴿٣٨﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ ابْتِغَاءً

لِيُخْشِيَ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ

فِطْعٌ مَّتَجَلِّرَاتٌ وَمَنْجَنَاتٌ وَمِنْ آعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ

تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْبَضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٠﴾².

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي يمتن الله فيها على عباده بما أنعم عليهم من نعمه

التي لا تعد ولا تحصى، ويلاحظ القارئ لهذه النصوص أنها تُساق دائماً - إما سؤفاً

سابقاً أو لاحقاً في معرض الدعوة إلى ترسيخ العقيدة الصحيحة في القلوب، والتنفير

من الشرك بالله.

1 سورة يونس، الآية: 31_36.

2 سورة الرعد، الآية: 2_4.

تلك إشارات مهمة تبرز لنا أهم سمات المنهج القرآني الفريد في الاستدلال وتثبيت قواعد العقيدة في القلوب، حتى غدت بناءً شامخاً لا يضاهى، ومن هذه الإشارات الواردة في الفصل نخلص إلى التأكيد على ما يلي:

● القرآن الكريم لم يخاطب جانباً واحداً من جوانب الإنسان، بل خاطب الإنسان كله، خاطبه بعقله وقلبه... وبحواسه كلها، وبالكون كله، لذلك كان منهجاً شاملاً يجد فيه كل إنسان نفسه.

● خاطب القرآن الكريم عقل الإنسان، بدعوته إلى التفكير في ملكوت السماوات والأرض والنفس والحياة، وحثه على استعمال عقله، والتحرر من سلطان التقليد لما كان عليه الآباء والأجداد.

● وخاطب كتاب الله العزيز قلب الإنسان، باستثارة دوافع الرغبة والرغبة والحب والكراهية، وتنمية حاسة إدراك مواطن الجمال والجلال في خلق الله العظيم.

● وخاطب القرآن الكريم حواس الإنسان كلها: خاطب فيه عينه، وهو يدعو إلى النظر فيما خلق الله مما يقع تحت بصره، وخاطب سمعه وهو يدعو إلى تدبر ما تدركه أذناه، وخاطب ذوقه وشمه... خاطبه بكليته... ودعاه إلى كامل الكون كله... والحياة كلها.

● ومن هنا ندرك سرَّ روعة الخطاب القرآني الشامل الواضح الذي لم يترك باباً يلج منه إلى الإنسان إلا سلكه، ليحقق الحق ويبطل الباطل.

الفصل الثالث

الملامح الكبرى لظهور التّعيد
العقدي في الأمة الإسلامية
قبل نشوء المدارس الكلامية.

تمهيد:

من الحقائق التي يعرضها علينا تاريخ الفكر البشري، بما في ذلك تاريخ العلم، أن الناس يبدأون في ممارسة فن من القول أو نوع من المعرفة قبل أن يسموه ويقننوه، تماماً مثلما تكلموا اللغة قبل وضع قواعد لها. إن إعطاء اسم لجملة من المعارف يأتي دائماً في مرحلة لاحقة، أي عندما تصبح تلك المعارف في حاجة إلى تبويب وتنظيم، وقابلة للتقعيد والترسيم. و«علم الكلام في الحضارة العربية الإسلامية شأنه هذا الشأن. لقد "تكلم" الناس وخاضوا في "الكلام" قبل أن يطلقوا على جملة المسائل، التي صارت موضوعاً لنوع خاص من الخطاب، اسم "علم الكلام"¹.

إن هذه الإشارة المهمة من محمد عابد الجابري تبرز لنا أن تاريخ العلوم عامة تبدأ من الممارسة العفوية لمسائلها، وإن لم يسمها أهلها أو يضعوا لها قوانين وقواعد يصطلحون عليها، ثم تأتي مرحلة التقعيد ووضع المصطلحات لتلك العلوم، حينما تقتضي الحاجة ذلك، وهذا الأمر يسري على جميع العلوم، و"علم الكلام"، أو "علم العقيدة" أو "علم أصول الدين" عند المسلمين لا يخرج عن هذا القانون العام للعلوم.

وإذا كانت المصادر لا تسعفنا بتاريخ دقيق لظهور مصطلح "علم الكلام" عند الأمة الإسلامية فإنه يمكن الاستئناس بما أورده الإمام الشهرستاني في هذه المسألة، وهو يفرق بين ظهور علم الكلام في بدايته الأولى المرتبطة بممارسة نظرية امتزج فيها الشق اللاهوتي بالشق السياسي، وبين ظهور مصطلح علم الكلام بقواعده المعروفة فيما بعد. إذ يرى الشهرستاني أن البداية الأولى لعلم الكلام بالوصف السابق ارتبطت بظهور خلاف في الرأي بين المسلمين في موضوعات ذكرها بتفصيل في الكتاب².

1 من مقدمة محمد عابد الجابري لكتاب ابن رشد "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة"، ص: 12، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى 1998

2 ينظر كتاب: الملل والنحل للشهرستاني، 1/ 25_29، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1968،

وسأحاول في هذا الفصل الإشارة إلى أهم الملامح الكبرى لظهور التعقيد العقدي لدى المسلمين، وسيكون ذلك في المباحث والمطالب الآتية:

المبحث الأول: منهج الصحابة في فهم العقيدة الإسلامية.

وإنما بدأت بمنهج الصحابة رضي الله عنهم، لأنهم الرعيل الأول الذي شهد نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وقد أخذوا عقائدهم وسائر مسائل دينهم من مشكاة النبوة، وفي المطالب الآتية بيان أهم ما يميز منهجهم في فهم العقيدة الإسلامية.

المصلب الأول: منهج الصحابة في إثبات ما أثبتته الوحي.

تلقي الصحابة رضي الله عنهم الوحي مباشرة من النبي ﷺ غصاً طرياً، فحصلت لهم الهداية التامة، لذلك لم يكونوا يعارضون الوحي بأرائهم سواء في العقيدة أو في جميع أمور الدين، وإنما كانوا يقفون عند حدود النص الشرعي إثباتاً أو نفيًا، ويمكن تحديد منهجهم في تلقي الوحي إجمالاً فيما يلي:

- أن منهجهم يقوم على السمع والطاعة والتسليم المطلق لمقتضى نصوص الوحي، وهذا منهجهم في كل صغيرة أو كبيرة من أمور الدين، سواء في العقيدة أو غيرها، متمسكين في ذلك بما رسمه الوحي للمؤمن الكامل الإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾¹، وقوله تعالى: ﴿بَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا فَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾²، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَإِلَيْكَ هُمُ الْمُنْقَلِبُونَ﴾³ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،

1 سورة البقرة، جزء من الآية: 284.

2 سورة النساء، الآية: 64.

وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ، فَإِنَّكَ هُمْ الْقَائِمُونَ ﴿٥٥﴾¹، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا﴾².

فقد دلت هذه النصوص على أن الواجب على المؤمن أن يتلقى أوامر ربه بالسمع والطاعة، وأن لا يكون كمن وصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^{٤٦} وَإِنْ يَكُ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٧﴾ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^{٤٨}﴾³.

- أن منهجهم يقوم على الإيمان بجميع ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا يؤمنون ببعض النصوص، ويكفرون ببعض! كما هو شأن أهل الكتاب، ومن جاء بعدهم من أهل الأهواء، لأن شأن أهل الحق أن يؤمنوا بالله، وبكل ما جاء عن الله على مراد الله، كما أنهم يؤمنون بالرسول ﷺ، وبما جاء به الرسول على مراد الرسول عليه الصلاة والسلام.

هذا شأنهم، وبذلك أمرهم الله تعالى أن يدخلوا في السلم كافة، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا دَخَلُوا فِي السَّلْمِ كَأَقْبَةِ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^{٤٩}، فقد أمر الله في الآية عباده المؤمنين به أن يأخذوا بجميع شرائع الإسلام جملةً وتفصيلاً.

1 سورة النور، الآية: 49 - 50.

2 سورة الأحزاب، الآية: 36.

3 سورة النور، الآية: 46 - 48.

4 سورة البقرة، الآية: 206.

وبين الله تعالى في كتابه الكريم أن من صفات أهل العلم الراسخين أنهم يؤمنون بكل ما جاء في الكتاب المبين، فقال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾¹.

المصلب الثاني: منهج الصحابة في النظر والتدبر.

لقد تربي الصحابة رضي الله عنهم في مدرسة الوحي، فاستمدوا منه أسس وقواعد المنهج الصحيح في العقيدة والعبادات والمعاملات، وسائر مناحي الحياة، ومن ذلك أنهم أخذوا بمنهج النظر والتدبر الذي جاء به الوحي وحث عليه في نصوص كثيرة.

وهكذا استمد الصحابة الكرام من كتاب الله تعالى معرفة وحدانية الله عز وجل، وإثبات صفاته، وعرفوا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وقصصهم مع أممهم، ووقفوا منه على أصل خلق آدم عليه السلام وعداوة إبليس له ولبنيه وعرفوا مكانة الملائكة ووظائفهم من بين مخلوقات الله، واستمدوا منه معلوماتهم عن اليوم الآخر وحساب الله تعالى وجنته وناره والقدر خيره وشره إلى غير ذلك من القضايا التي تشكل أركاناً رئيسية وأصولاً في الإيمان. وكلها جمعها القرآن الكريم في ثلاثة أقسام: توحيد وتذكير وأحكام. «فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتذكير ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام ومنها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب. فالأول: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾²، فيه التوحيد كله في الذات والصفات والأفعال، والثاني: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾³، والثالث: ﴿وَأَنْحَسْكُمْ

1 سورة آل عمران، جزء من الآية: 7.

2 سورة البقرة، الآية: 162.

3 سورة الذاريات، الآية: 55.

بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَبِعَلْمِ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ
ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَلْبَاسِفُونَ ﴿١﴾¹»².

ومن كتاب الله تعالى تعلّم الصحابة الكرام منهج النظر والتدبر والاستدلال
بمخلوقات الله عز وجل على وحدانيته وعلمه وحكمته، فإن النظر في تلك المخلوقات التي
أبدع الله صنعها وأتقن خلقها يؤدي إلى إثبات الألوهية لله الواحد الأحد، كما دعاهم
القرآن الكريم إلى تدبر آثار الصنعة في أنفسهم، كما قال الحق سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ
آيَاتِنَا فِي الْأَقْبَابِ وَيَجِئُ أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ
بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٣﴾³.

ونهاهم رسول الله ﷺ عن التفكير في الخالق سبحانه وتعالى، فجاء في
الأثر: (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق)، وتعليل النهي أنه تعالى ليس كمثله
شيء، فمهما تفكر الإنسان وتخيل، فرينا أكبر وأعظم من ذلك، (فالتفكر والذي مبناه
على القياس ممتنع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة، فيذكره العبد)⁴. كذلك جاء النبي عليه
الصلاة والسلام بسنته المطهرة التي هي المصدر الثاني للإسلام، ولذلك أصبح المنهج
الصحيح يقتضي معرفة سنته وتنفيذها، فمن كان أعلم بسنته وأتبع لها كان الصواب معه،
وتلك الأوصاف تنطبق على الرعيل الأول جيل الصحابة رضوان الله عليهم، ثم على من

1 سورة المائدة، الآية: 51.

2 البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي، 1/ 17، مطبعة الحلبي، 1957م.

3 سورة فصلت، الآية: 52.

4 نقض المنطق، للإمام ابن تيمية، ص: 35.

جاء بعدهم واقتفى سنتهم، «وهؤلاء هم الذين لا ينتصرون إلا لقوله، ولا يضافون إلا إليه، وهم أعلم الناس بسنته وأتبع لها لكن التفرق والاختلاف كثير في المتأخرين»¹.

قال الإمام ابن تيمية: «وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور من السنة وأحوال الرسول ﷺ لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل وعانوا الرسول، وعرفوا من أقواله وأفعاله مما يستدلون به على مرادهم ما لم يعرفه أكثر المتأخرين، الذين لم يعرفوا ذلك، فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس»².

وبتلك المميزات التي تميز بها منهج الصحابة رضوان الله عليهم، يكونون قد وضعوا الأسس السليمة للمنهج الصحيح في معرفة العقيدة الإسلامية.

1 منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، 3/ 46.

2 فتاوى ابن تيمية، 19/ 300.

المبحث الثاني: سمات منهج الأئمة الأربعة في العقيدة الإسلامية.

تمهيد:

لقد كان المسلمون إلى وفاة رسول الله ﷺ وصدر من عصر الصحابة رضي الله عنهم على منهج واحد في تلقي العقيدة الصافية وجميع أحكام الدين الحنيف، وكان بينهم من الوفاق والوثام ما جعلهم كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص، وما جعلهم أيضاً أولى الناس باستحقاق الخيرية الواردة في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾¹، كانوا يصدرون ويعتمدون على مصدري الهداية: القرآن الكريم والسنة النبوية، ولم يُعرضوا عنهما، ولا عارضوهما، ولم يعطلوا أحكامهما ولا حرفوا الكلم عن مواضعه.

وقد سار على نهجهم وسلك طريقهم من جاء بعدهم ممن تربي على أيديهم من كبار التابعين وأتباعهم، حتى إذا كان آخر عهدهم بدأت تلوح في الأفق بعض الاتجاهات الشاذة وتطل بقرونها على واقع الأمة الإسلامية، وتلقي شبهاً هنا وهناك، تأثراً منها بأفكار دخيلة لا عهد للمسلمين بها في زمن الوحي والنبوة ولا في عهد خير القرون، كالكلام في الصفات الإلهية والقضاء والقدر: نفيًا وإثباتاً والخوض في نصوص الوعد والوعيد، والطعن في الصحابة، أو الغلو فيهم، إلى غير ذلك مما يطول فيه الحديث، وكانت الأمة في عافية منه قبل ذلك.

فما هي أهم سمات منهج التقعيد العقدي لدى الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب الفقهية المعروفة شرقاً وغرباً؟

1 سورة آل عمران، جزء من الآية: 110.

هذا ما سأحاول الإجابة عنه في هذا المبحث، لكن قبل الحديث عن أهم سمات منهج التقييد لدى هؤلاء الأئمة الكبار بعد الصحابة وقبل ظهور المدارس الكلامية، أرى أن أقدم للموضوع بإشارتين، وهما:

الإشارة الأولى: القصد الأصلي بكبار الأئمة هنا: الأئمة الأربعة الذين ذاع صيتهم شرقاً وغرباً، وهم: الإمام مالك بن أنس، والإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام محمد بن إدريس الشافعي، رحمة الله عليهم أجمعين¹، ويلحق بهم بالتبع كل العلماء المعروفون في زمانهم من الفقهاء والمحدثين الذين كانوا يشتركون معهم في نفس الملامح والسمات المنهجية العقدية التي سيأتي ذكرها.

الإشارة الثانية: وأشير كذلك إلى أن القصد بذكر هذه السمات واللامح الكبرى عند هؤلاء الأئمة الأعلام ليس هو الاستقصاء، وإنما ذكر أهم ما ظهر لي للتنبية به على ما سواه من الجزئيات، وقد وجدت أن منهجهم في التقييد للعقيدة الإسلامية متشابه ومتداخل، فهم كما قال ابن تيمية: «...ولكن من رحمة الله بعباده أن الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق كالأئمة الأربعة وغيرهم... كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن والإيمان وصفات الرب، وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من أن الله يرى في الآخرة وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الإيمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسان...»².

وقال أيضاً: «إن الأئمة المشهورين كلهم يثبتون الصفات لله تعالى ويقولون: إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ويقولون: إن الله يرى في الآخرة، هذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت وغيرهم وهذا مذهب الأئمة المتبوعين مثل مالك بن

1 لم أعرف هؤلاء الأعلام الكبار، عملاً بالقاعدة اللغوية التي تقول: "المعْرَف لا يُعْرَفُ"، فشهرتهم تغني عن التعريف بهم، وأيضاً فلا تخلو كتب من كتب التراجم والطبقات من التعريف بهم، مثل: سير أعلام النبلاء للذهبي.

2 كتاب الإيمان ص350، 351 دار الطباعة المحمدية، تعليق محمد الهراس.

أنس والثوري والليث بن سعد، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد...»¹.

وهذا ما اختاره أيضاً العلامة صديق حسن خان حيث يقول: «فمذهبنا مذهب السلف إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل وهو مذهب أئمة الإسلام كمالك والشافعي والثوري وابن المبارك والإمام أحمد... وغيرهم فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة نزاع في أصول الدين وكذلك أبو حنيفة - رضي الله عنه - فإن الاعتقاد الثابت عنه موافق لاعتقاد هؤلاء وهو الذي نطق به الكتاب والسنة...»².

لذلك لم أفرد كل واحد منهم بالحديث عن منهجه، وإنما أوردت الحديث عن سمات منهجهم إجمالاً في المطلبين الآتين:

المصلب الأول: سمة منهجهم العقدي في كيفية إثبات أسماء الله وصفاته، واقتران الإيمان بالعمل.

والحديث في هذا المطلب ينتظم في مسألتين:

❖ **المسألة الأولى: سمة منهجهم العقدي في كيفية إثبات أسماء الله وصفاته.**

ويتلخص منهج الأئمة الأربعة في هذه المسألة في أنهم يتركون الخوض في كيفية أسماء الله الحسنی وصفاته العلی، إذ يكتفون بالإيمان بها كما وردت في نصوص الوحيين، ونلاحظ أن هذا المنهج قد ورثوه عن صحابة رسول الله ﷺ، إنه المنهج الذي جاء به القرآن الكريم القائم على إثبات ما أثبتته الله لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله المصطفى الأمين، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله الكريم، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تكييف.

1 منهاج السنة (2/106).

2 قطف الثمر ص: (47، 48).

ويكفي في الاستدلال على رسوخ هذا المنهج العقدي عندهم، أنهم كانوا يتهون عن الجدل في القضايا العقديّة، فقد نُقل عن غير واحد منهم ذمه للجدال في أمور الدين، وجواب الإمام مالك بن أنس عن كيفية استواء الله على عرشه يعدُّ قاعدة منهجية في هذا الباب استند إليها أهل السنة والجماعة بعده.

فقد أخرج أبو نعيم عن جعفر بن عبد الله قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟».

فما وجد¹ مالك من شيء ما وجد من مسألته. فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرخضاء -يعني العرق- ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: كيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج².

فكلام الإمام مالك في هذا المقام يعدُّ قاعدة مهمة لضبط منهجية فهم نصوص العقيدة، وخاصة تلك النصوص التي يكون فيها مجال الاحتمال والتأويل واسعاً، ولذلك وضع إمامنا مالك هذه القاعدة الذهبية، وبين فيها أن التكييف هو الذي لا يُعقل، إذ لا يصح في صفات الله عز وجل، لما يوجبه من التشبيه بخلقه تعالى، سبحانه عن ذلك، أما الاستواء فهو معلوم غير مجهول كما قال، لأن الله وصف به نفسه، فوجب الإيمان بذلك، وأن يوصف بما وصف به نفسه من ذلك، ويعتقد أنها صفة من صفات ذاته وهي العلو، وبذلك يُغلق باب الجدل العقيم في صفات الله تعالى، لأنه لم يفد الأمة في شيء.

1 جاء في لسان العرب (446/3) (وجد عليه في الغضب يجد ويجد وجدًا موجدًا ووجدانًا غضب وفي حديث الإيمان أني سائلك فلا تجد علي، أي لا تغضب من سؤالي).

(2) الحلية (325/6، 326) وأخرجه أيضًا الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث ص 17-18، من طريق جعفر بن عبد الله عن مالك وابن عبد البر في التمهيد (151/7) من طريق عبد الله بن نافع عن مالك والبيهقي في الأسماء والصفات ص 408. من طريق عبد الله بن وهب عن مالك قال الحافظ بن حجر في الفتح (406/13، 407) إسناده جيد وصححه الذهبي في العلو ص 103.

ويحكي معن بن عيسى - وهو من تلاميذ الإمام مالك - عنه ما يدل على نفوره من الجدل في الدين وإعراضه عن مجادلة أهل الأهواء فيقول:

«انصرف مالك بن أنس رضي الله عنه يوماً من المسجد وهو متكئ على يدي، فلحقه رجل يقال له: أبو الحورية، كان يُتهم بالإرجاء. فقال: يا أبا عبد الله، اسمع مني شيئاً أكلمك به، وأحاجك وأحبرك برأيي، قال: فإن غلبتني. قال: إن غلبتك اتبعني. قال: فإن جاء رجل آخر، فكلمنا فغلبنا؟ قال: نتبعه، فقال مالك رحمه الله تعالى: يا عبد الله بعث الله عز وجل محمداً ﷺ بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى دين، قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»¹.

وسأل رجل الإمام أبا حنيفة قائلاً: «ما تقول فيما أحدثه الناس في الكلام في الأعراض والأجسام، فقال: (مقالات الفلاسفة عليك بالأثر وطريق السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة)»².

وأوصى تلميذه أبا يوسف فقال له: «إياك أن تكلم العامة في أصول الدين من الكلام فإنهم قوم يقلدونك فيشتغلون بذلك»³.

ونقل مثل ذلك عن أئمة آخرين، والذي دعاهم إلى التحذير من فتح باب الجدل في هذه الأمور أنهم أدركوا خطورتها في شق صفوف المسلمين وإشغالهم بما لا يفيد، ولو كان في الاشتغال بها خيراً لحث رسول الله ﷺ أمته على ذلك، كما حثها ورغبها في أبواب الخير الكثيرة، ولتقل لنا ذلك عن الصحابة رضي الله عنهم، هم أحرص الناس على كل خير، لهذا سلك الأئمة الكبار منهج الصحابة ونهوا عن الخوض فيما خاض فيه بعض الناس مما هو معلوم في كتب الفرق والطوائف الكلامية.

1 هذا الأثر رواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة، 1/ 133، والآجري في الشريعة، 1/ 437.

2 ذم الكلام للهروي (194/ب).

3 مناقب أبي حنيفة للمكي ص 373.

❖ المسألة الثانية: سمة منهجهم في اقتران الإيمان بالعمل.

فقد كان هؤلاء الأئمة يرون أن الإيمان الكامل لا يتحقق إلا إذا اقترن بالعمل الصالح، إذ لا خير في إيمان نظري مجرد عن العمل الصالح، وهذا المنهج هو الذي يوافق ما جاءت به نصوص الوحي من أن الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، ويتفاضل، فبعضه أفضل من بعض، والإيمان بضع وسبعون شعبة.

ونصوص هؤلاء الأئمة في اقتران الإيمان بالعمل كثيرة، ومنها على سبيل المثال:

- جاء في العتبية، قلنا لمالك: «فالإيمان قول وعمل، أو قول بلا عمل؟ قال مالك: بل قول وعمل»¹.
- وروي عن مالك أيضاً أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾²: «هي الصلاة إلى بيت المقدس قبل أن تصرف القبلة إلى الكعبة، وقال مالك: إنني لأذكر بقراءة هذه الآية قول المرجئة: إن الصلاة ليست من الإيمان، وقد سماها الله عز وجل من الإيمان»³.
- وأورد ابن الجوزي عن الإمام أحمد قال: «الإيمان يزيد وينقص كما جاء في الخبر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»⁽⁴⁾...»⁵.

1 البيان والتحصيل، 18 / 585.

2 سورة البقرة، جزء من الآية: 142.

3 ترتيب المدارك، 2 / 43، والبيان والتحصيل، 17 / 542-543، والإمام مالك مفسراً رضي الله عنه، للأستاذ حميد لحر، ص: 78_79.

4 أخرجه أحمد في المسند (250/2) وأبو داود في كتاب السنّة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (60/5) ح (4682)، والترمذي في الرضاع باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (457/3) ح (1162) جميعهم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة، وقال عنه الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

5 مناقب الإمام أحمد ص173، وانظر أيضاً ص153، 168.

- وأخرج الخلال عن سليمان بن أشعث، قال: «إن أبا عبد الله - يعني به الإمام أحمد - قال: الصلاة والزكاة والحج والبر من الإيمان والمعاصي تنقص الإيمان»¹.
- ولالإمام الشافعي كلام طويل في هذا الباب نقله الإمام البيهقي جواباً من الإمام لرجل جاء يسأله عن أي الأعمال عند الله أفضل، فقد أخرج البيهقي عن أبي محمد الزبيري قال: «قال رجل للشافعي أي الأعمال عند الله أفضل؟ قال الشافعي: ما لا يقبل عملاً إلا به، قال: وما ذلك؟ قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو، أعلى الأعمال درجة، وأشرفها منزلة، وأسناها حظاً.

قال الرجل: ألا تخبرني عن الإيمان: قول وعمل، أو قول بلا عمل؟

قال الشافعي: الإيمان عمل لله والقول بعض ذلك العمل.

قال الرجل: صف لي ذلك حتى أفهمه.

قال الشافعي: إن للإيمان حالات ودرجات وطبقات فمنها التام المنتهي تمامه، والناقص البين نقصانه، والراجح الزائد رجحانه.

قال الرجل: وإن الإيمان لا يتم وينقص ويزيد؟

قال الشافعي: نعم.

قال: وما الدليل على ذلك؟

قال الشافعي: إن الله جل ذكره فرض الإيمان على جوارح بني آدم، فقسّمه فيها، وفرّقه عليها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها بفرض من الله تعالى:

فمنها: قلبه الذي يعقل به، ويفقه ويفهم وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر

1 السُّنَّة للخلال ، ص: 96.

إلا عن رأيه وأمره.

ومنها: عيناه اللتان ينظر بهما، وأذناه اللتان يسمع بهما، ويداه اللتان يبطن بهما، ورجلاه اللتان يمشي بهما، وفرجه الذي البأه من قبله، ولسانه الذي ينطق به، ورأسه الذي فيه وجهه.

فرض على القلب غير ما فرض على اللسان، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين، وفرض على الفرج غير ما فرض على الوجه...

قال الشافعي: ولو كان هذا الإيمان كله واحداً لا نقصان فيه ولا زيادة - لم يكن لأحد فيه فضل، واستوى الناس، وبطل التفضيل. ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله في الجنة، وبالنقصان من الإيمان دخل المفرطون النار.

قال الشافعي: إن الله، جل وعز، سابق بين عباده كما سُبوق بين الخيل يوم الرهان. ثم إنهم على درجاتهم من سبق عليه، فجعل كل امرئ على درجة سبقه، لا ينقصه فيها حقه، ولا يقدم مسبوق على سابق، ولا مفضل على فاضل. وبذلك فضل أول هذه الأمة على آخرها. ولو لم يكن لمن سبق إلى الإيمان فضل على من أبطأ عنه - للحق آخر هذه الأمة بأولها»¹.

فتلخص من هذه النقول أن من سمات المنهج التعيدي للعقيدة عند هؤلاء الأئمة: اقتران الإيمان بالعمل، وهذا ما نطقت به نصوص القرآن والسنة، حيث إن الإيمان والعمل قد وردا مقترنين فيما يزيد على سبعين موضعاً من القرآن الكريم، وتكرر ذكر الإيمان مقترناً بالعمل في نصوص كثيرة من السنة النبوية، وسيأتي في الباب الثاني ذكر طرف من تلك

1 النص بتمامه في كتاب: مناقب الشافعي مناقب الشافعي للبيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، (1/393-387)، ط الأولى 1391هـ، دار التراث مصر.

النصوص، والمؤمن الموفق من وُفِّقَ للتسليم المطلق لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية،
لأنهما مصدرا الهداية الكاملة.

المصطلب الثاني: سمة منهجهم في التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة، ووحدة المصدر.

والكلام أيضاً في هذا المطلب ينتظم في مسألتين:

❖ المسألة الأولى: سمة منهجهم في التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة.

وأكتفي هنا بإيراد بعض النصوص من كلام أبي حنيفة النعمان ومالك بن أنس تبين
المنهج العقدي لهؤلاء بناءً على هذا الأصل المشار إليه في المسألة، وهو التسليم المطلق
لنصوص الكتاب والسنة، وإنما اكتفيت بهما في هذه المسألة لأن ما نُقل عن غيرهما أيضاً لا
يختلف عنهما، وأبدأ بجملة من أقوال الإمام أبي حنيفة في توحيد الله وبيان التوسل المشروع،
وإثبات الصفات والرد على الجهمية:

أولاً: عقيدته في توحيد الله وبيان التوسل الشرعي:

1. قال أبو حنيفة: «لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به والدعاء المأذون فيه المأمور به ما
استفيد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]...»¹.
2. قال أبو حنيفة: «يكره أن يقول الداعي أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق
البيت الحرام والمشعر الحرام»².
3. وقال أبو حنيفة: «لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول بمعاقدة العز من

1 الدر المختار مع حاشية رد المحتار (396/6 - 397).

2 شرح العقيدة الطحاوية ص 234، واثخاف السادة المتقين (285/2)، وشرح الفقه الأكبر للقاري ص 198.

عرشك¹، أو بحق خلقك»².

ثانيًا: قوله في إثبات الصفات والرد على الجهمية:

1. وقال: «لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف، وهو قول أهل السنّة والجماعة وهو يغضب ويرضى ولا يقال: غضبه عقوبته ورضاه ثوابه، ونصفه كما وصف نفسه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، حيٌّ قادر سميع بصير عالم، يد الله فوق أيديهم ليست كأيدي خلقه ووجهه ليس كوجوه خلقه»³.

2. وقال: «وله يد ووجه ونفس، كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس، فهو له صفات بلا كيف ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته، لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال»⁴.

3. وقال: «لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء بل يصفه بما وصف به نفسه ولا يقول فيه برأيه شيئاً تبارك الله وتعالى رب العالمين»⁵.

4. ولما سُئل عن النزول الإلهي قال: «ينزل بلا كيف»⁶.

5. وقال أبو حنيفة: «والله تعالى يدعى من أعلى لا من أسفل لأن الأسفل ليس من وصف

1 كره الإمام أبو حنيفة ومحمد بن الحسن أن يقول الرجل في دعائه: «اللهم إني أسألك بمعاهد العزّ من عرشك» لعدم وجود النص في الأذن به، وأما أبو يوسف فقد جوز لوقوفه على نص من السنة، وفيه أن النبي ﷺ، كان من دعائه: «اللهم إني أسألك بمعاهد العزّ من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك»... وهذا الحديث أخرجه البيهقي في كتاب الدعوات الكبيرة كما في البناية 382/9، ونصب الراية (272/4)، انظر تهذيب التهذيب (189/3)، (405/6)، (501/7)، وتقريب التهذيب (520/1).

2 التوسل والوسيلة، ص82، وانظر شرح الفقه الأكبر ص198.

3 الفقه الأيسر ص56.

4 الفقه الأكبر ص302.

5 شرح العقيدة الطحاوية (427/2)، تحقيق د. التركي، جلاء العينين ص368.

6 عقيدة السلف أصحاب الحديث ص42، ط دار السلفية، الأسماء والصفات للبيهقي ص456، وسكت عليه الكوثري، وشرح العقيدة الطحاوية ص245، تخريج الألباني، وشرح الفقه الأكبر للقاري ص60.

- الربوبية والألوهية في شيء»¹.
6. وقال: «وهو يغضب ويرضى ولا يقال غضبه عقوبته ورضاه ثوابه»².
7. وقال: «ولا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه ولا يشبهه من خلقه لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته»³.
8. وقال: «وصفاته بخلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلم لا ككلامنا»⁴.
9. وقال: «لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين»⁵.
10. وقال: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر»⁶.
11. وقال: «وصفاته الذاتية والفعلية، أما الذاتية فالحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة، وأما الفعلية فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك من صفات الفعل لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته»⁷.
12. وقال: «ولم يزل فاعلاً بفعله والفعل صفة في الأزل والفاعل هو الله تعالى والفعل صفة في الأزل والمفعول مخلوق وفعل الله تعالى غير مخلوق»⁸.
13. وقال: «من قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر، وكذا من قال إنه على العرش ولا أدري العرش أفي السماء أم في الأرض»⁹.

1 الفقه الأبسط ص51.

2 الفقه الأبسط ص56، وسكت عليه محقق الكتاب الكوثري.

3 الفقه الأكبر ص301.

4 الفقه الأكبر ص302.

5 الفقه الأبسط ص56.

6 العقيدة الطحاوية بتعليق الألباني ص25.

7 الفقه الأكبر ص301.

8 الفقه الأكبر ص301.

9 الفقه الأبسط ص46، ونقل نحو هذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (48/5)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص139، والذهبي في العلو ص101-102، وابن قدامة في العلو ص116، وابن أبي العزّ في شرح الطحاوية ص301.

14. وقال للمرأة التي سألته أين إلهك الذي تعبدته قال: «إن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الأرض، فقال له رجل: أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: 4] قال: هو كما تكتب للرجل إني معك وأنت غائب عنه»¹.
15. وقال كذلك: «يد الله فوق أيديهم ليست كأيدي خلقه»².
16. وقال: «إن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الأرض، فقال له رجل: أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: 4]، قال: هو كما تكتب لرجل إني معك وأنت غائب عنه»³.
17. وقال: «قد كان متكلمًا ولم يكن كلم موسى عليه السلام»⁴.
18. وقال: «ومتكلمًا بكلامه والكلام صفة في الأزل»⁵.
19. وقال: «ويتكلم لا ككلامنا»⁶.
20. وقال: «وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، وقد كان الله تعالى متكلمًا ولم يكن كلم موسى عليه السلام»⁷.
21. وقال: «والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ، أنزل»⁸.
22. وقال: «والقرآن غير مخلوق»⁹.

1 الأسماء والصفات ص 429.

2 الفقه الأيسر ص 56.

3 الأسماء والصفات (2/170).

4 الفقه الأكبر ص 302.

5 الفقه الأكبر ص 301.

6 الفقه الأكبر ص 302.

7 الفقه الأكبر ص 302.

8 الفقه الأكبر ص 301.

9 الفقه الأكبر ص 301.

أما الإمام مالك بن أنس فنُقلت عنه أقوال كثيرة في هذا الباب، ومن ذلك

- ما أخرجه أبو نعيم عن ابن وهب قال: «سمعت مالكا يقول لرجل: سألتني أمس عن القدر؟ قال: نعم، قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13]. فلا بد أن يكون ما قال الله تعالى»¹.

وقد قصدت في هذا المطلب بإيراد نصوص كثيرة من كلام الإمام أبي حنيفة أن أنبه على أمرين اثنين، وهما:

1. بيان منزلة هذا الإمام وعلو كعبه في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وخاصة في بلاد العراق التي كانت تروج بفتن كثيرة، والمتأمل في النصوص السابقة يدرك أن أبا حنيفة كان على دراية بواقع عصره، وما يثيره بعض الناس من قضايا كلامية بدأت تتسرب إلى المسلمين بسبب اتصافهم بثقافات الملل الأخرى، وأن درايته بالفقه كانت دراية واسعة، فلم يكن الفقه عنده منحصرًا فيما يصطلح عليه بالفقه الفروع الذي هو خاص بمعرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد، وإنما جمع بين الفقه الأكبر الذي فقه أصول الدين، وما تفرع منه من فقه العبادات وفقه المعاملات... وهذه ميزة تميز بها الفقهاء الأوائل، فقد كانت نظرهم إلى الفقه نظرة شاملة.

2. بيان أهمية تكامل الدليل النقلي مع الدليل العقلي، وهذا ما تنبئ عنه النصوص السابقة من كلام أبي حنيفة، فقد جمع فيها بين الاستدلال بالنصوص من الوحي، وبين الاستدلال العقلي المنطقي، فيعمد أحياناً إلى استعمال القياس ليبرهن للسائل على صحة ما استدل به، ولا يكتفي بذكر الدليل، ومن أمثلة ذلك محاورته مع الرجل الذي استشكل آية سورة الحديد في ذكر معية الله لعباده، ففرق له بين نوعين من المعية، وسياق الحوار أن أبا حنيفة قرر أن الله تعالى مستوٍ على عرشه في السماء،

1 الخلية (326/6).

كما جاء في نصوص كثيرة، : «إن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الأرض»، فاعترض عليه رجل قائلاً: «أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: 4]»، وهنا انتقل الإمام من الدليل النقلي إلى الدليل العقلي، ولجأ إلى استعمال القياس ليبين للمعترض أن التأويل لا مفر منه هنا فقال: «هو كما تكتب لرجل إني معك وأنت غائب عنه»¹، وسيأتي مزيد إيضاح لهذه المسألة في الباب الثاني عند الحديث عن قاعدة التأويل في العقيدة، وبيان المنهج الوسط في ذلك.

❖ المسألة الثانية: سمة منهجهم في وحدة المصدر.

إن وحدة مصدر التلقي كانت قضية مسلّمة عند هؤلاء الأئمة الأعلام، لقرب عهدهم بزمن الصحابة وكبار التابعين رضوان الله عليهم قبل أن يختلط المسلمون بغيرهم من أهل الملل الأخرى، فليس عجباً إذن أن نجدهم يتلقون جميع أمور دينهم من الوحي الإلهي، بدءاً بالعقيدة، وانتهاءً بأدق الجزئيات في الدين، لهذا لا نسمع أن أحدهم نُقل عنه أنه كان يستند إلى غير نصوص الوحي في العقيدة، فلا كشفَ ولا ذوقَ... ولا غيرها من المصطلحات التي حدثت في الأمة بعد، والدليل العقلي عندهم يأتي معضداً لحجة الدليل السمعي من كتاب وسنة، ولا يمكن أن يُعارض به.

ومسألة التأكيد على وحدة المصدر مسألة في غاية الأهمية، خصوصاً في قضايا العقيدة التي هي أصل الأصول في ديننا الإسلامي، وبهذا نفهم كيف أن رسول الله ﷺ أنكر على سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظره في صحيفة من التوراة، مع أن التوراة كتاب منزل من عند الله، وإن شابهه التحريف، فهو أفضل من كثير من الأقيسة العقلية، والخيالات الباطلة التي عورضت بها نصوص من الوحي.

1 الأسماء والصفات (170/2).

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن ثابت أنه قال: «جاء عمر بن الخطاب إلى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله (ﷺ)، قال عبد الله: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله (ﷺ) فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد (ﷺ) رسولاً، قال: فسري عن النبي (ﷺ) ثم قال: والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين¹، وفي رواية: "...أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية...والذي نفسي بيده لولا أن موسى (ﷺ) كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»².

فموسى عليه الصلاة والسلام وهو من هو عند الله وعند الناس، لو كان موجوداً بعد بعثة رسول الله محمد (ﷺ) لما جاز لأحد متابعته وترك ما جاء به محمد (ﷺ)، بل ما جاز لموسى عليه السلام ترك متابعة محمد (ﷺ)، فكيف تُتلقى أمور الديانة _ أصولها وفروعها _ عن رأي بشر يصيب ويخطئ؟

قال الحافظ ابن عبد البر: «ليس في الاعتقاد كله، في صفات الله وأسمائه، إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله، أو صح عن رسول الله (ﷺ)، أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه»³.

وبعد تعرفنا على أهم الملامح الكبرى للتقعيد العقدي لدى كبار الأئمة المقتدى بهم شرقاً وغرباً، كانت خلاصة ما وصلنا إليه أن الأمة الإسلامية ما زالت محافظة على نهج واحد

1 رواه الإمام أحمد في مسنده، 3/ 470_471، وانظر: المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، ج: 6، ص: 113، رقم الحديث 10164، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى 1392هـ - 1972م بيروت لبنان.

2 رواه الإمام أحمد في مسنده، ج: 3، ص: 387، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، 1/ 479-480، رقم الحديث: 174.

3 جامع بيان العلم وفضله، 2/ 117_118.

في العقيدة، وهو نهج الصحابة وكبار التابعين المستمد من نور الوحي، رغم ظهور بعض الاختلافات هنا وهناك، وكانت السمة السائدة هي المحافظة على ما كان عليه الأمر في عهد الصحابة، والتصدي بحزم لكل انحراف عقدي، لكن ما إن انقضت هذه الفترة الذهبية من تاريخ الأمة الإسلامية، وأفل نجم هذه المرحلة المباركة حتى بدأت الفتن تظهر، لتعلن عن بداية نشوء مدارس كلامية كثيرة، سيكون لنقاشها واختلافها صداه وآثاره إلى يوم الناس هذا، وهي - كما سلف - مدارس كثيرة يصعب الحديث عنها في بحث، وقد تُحدث فيها وكتب عنها الشيء الكثير، لكن الذي يهمني التوقف عنده هنا هو الإشارة إلى أصل ظهور هذه المدارس الكلامية، مع التوقف عند بعض النماذج التي كان له آثارها إيجاباً أو سلباً في التقعيد العقدي، وهذا ما سأحاول الحديث عنه في الفصل الرابع من الباب الأول، وسيكون جواباً عن الأسئلة الآتية:

- ما هي أهم أسباب ظهور الخلاف العقدي في الأمة الإسلامية بعد أن كانت أمة واحدة على نهج واحد في العقيدة، وسائر أحكام الدين الحنيف؟
- وما هي أهم خصائص المدارس الكبرى في التقعيد العقدي بعد ظهور أسباب الخلاف العقدي؟
- وما هي بعض الجهود المعاصرة للاجتهد في التقعيد العقدي؟

الفصل الرابع

مرحلة المدارس الكبرى
في التّقييد العقدي بعد
ظهور الخلاف.

المبحث الأول: أهم أسباب ظهور الخلاف في التقعيد العقدي عند المسلمين.

لقد جرت عادة المؤلفين في أسباب الخلاف أن يتحدثوا كثيراً عن أسباب الخلاف الفقهي، وألفوا في ذلك مؤلفات¹، والذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى أهم أسباب الخلاف في التقعيد العقدي لدى المسلمين، لأن الخلاف العقدي غير الخلاف الفقهي، وسأمهد بتمهيد بين يدي أهم هذه الأسباب.

تمهيد:

لمعرفة أسباب الانحراف في التقعيد العقدي لدى طوائف كثيرة من المسلمين، يحسن بنا أن نرجع إلى البحث عن أهم أسباب وقوع الخلاف التي نتج عنها هذا الانحراف عن المنهج القويم الذي رسمه الوحي، وسار عليه الصحابة ومن تبعهم بإحسان، لأن بمعرفة الأسباب تُعرف النتائج والمسببات، لكن قبل ذلك لا بد من الإشارة إلى أمرين في غاية الأهمية:

الأمر الأول: أن الاختلاف الذي تنشأ الفرق هو الاختلاف في أصول العقيدة، وليس في جزئي من جزئيات الدين، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي: «الفرق إنما تصير فرقا بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات، إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعا، وإنما ينشأ التفرق عن وقوع المخالفة في الأمور الكلية»².

1 من الكتب المطبوعة التي تناول مؤلفوها الحديث عن أسباب الخلاف بين الفقهاء وربطوا ذلك بتاريخ التشريع الإسلامي:

- رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية.
- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، لشاه ولي الله الدهلوي.
- أسباب اختلاف الفقهاء، للشيخ علي الحفيف.
- أسباب اختلاف الفقهاء، للدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.

2 الاعتصام، للإمام الشاطبي، 2/ 200-201.

الأمر الثاني: أن الباحثين اختلفوا في أسباب نشوء الخلاف العقدي بين المسلمين، فمن هم من أرجع ذلك إلى أسباب داخلية، كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين ككرادي فو، ورينان¹، وتبعهم في هذا بعض المفكرين العرب، مثل عبد الرحمن بدوي، وعرفان عبد الحميد، وغيرهما².

ومنهم من يرى أن أسباب الخلاف تعود إلى أسباب خارجية، كما يرى علي سامي النشار³.

ومنهم من يرى أن أسباب الخلاف الداخلية والخارجية قد تضافرت فيما بينها فأنجحت لنا هذا الخلاف والتفرق في الأمة الإسلامية، وهذا هو الرأي الراجح الذي يركن إليه الباحث، لأنه يصعب الفصل بين الأسباب الداخلية والخارجية، ولا يمكن إغفال أيٍّ منها عند الحديث عن أسباب الخلاف بين المسلمين.

وبعد هذه المقدمة أنتقل إلى ذكر أهم أسباب أهم أسباب الانحراف العقدي في الأمة، سواء كانت داخلية أو خارجية، ويجسن البدء بالأسباب الداخلية أولاً، ثم تليها الأسباب الخارجية، على النحو الآتي:

المصلب الأول: الأسباب الداخلية.

ونعني بها تلك المؤثرات الداخلية النابعة من داخل الأمة المسلمة فأدت إلى نشوء الخلاف والانحراف العقدي، ومن أهمها:

أولاً: الجهل بالدين وبمقاصده، وهذا أساس كل انحراف وخلاف وشقاق في البشرية عامة، وفي الأمة الإسلامية خاصة، فالجهل بالدين سواء كان جهلاً بسيطاً أو مركباً

1 ينظر كتاب: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، لحسام الدين الألوسي، ص: 81-82.

2 التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، عبد الرحمن بدوي، نقلاً عن أحمد عوض الله الحربي في كتابه: "الماتريدية دراسة وتقويمًا" ص: 22، ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، عرفان عبد الحميد، ص: 7_8_9_17.

3 ينظر كتابه: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، 1/ 61.

من أعظم أسباب الخلاف، فإن «الاختلاف في القواعد الكلية لا يقع... بين المتبحرين في علم الشريعة الخائضين في لجتها العظمى، العالمين بمواردها ومصادرها، والدليل على ذلك اتفاق العصر الأول وعامة العصر الثاني...»¹.

وأما «الجهل بمقاصد الشريعة، والتخصرص على معانيها بالظن من غير تثبيت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول...، لا يكون ذلك من راسخ في العلم»².

ومما يؤكد هذا ما أورده الإمام الشاطبي في كتابه "الاعتصام" عن إبراهيم التيمي أنه قال: «خلا عمر رضي الله عنه ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبينا واحدا؟، فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبينا واحد وقبلتها واحدة... وكتابها واحد، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين: إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما أنزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيما نزل فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان كذلك اختلفوا...»³.

وعلق الإمام الشاطبي على كلام ابن عباس السابق قائلا: «ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما هو الحق، فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها، فلم يتعد ذلك فيها، وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أوجهها، فذهب كل إنسان مذهبا لا يذهب إليه الآخر، وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم إلى الصواب، أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات، فلم يكن بد من الأخذ ببادي الرأي أو التأويل بالتخصرص الذي لا يغني من الحق شيئا، إذ لا دليل عليه من الشريعة فضلوا وأضلوا»⁴.

1 الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي، 2/ 182.

2 المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسها.

3 المصدر نفسه، 2/ 183.

4 المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسها.

وممن وقع في الانحراف بهذا السبب في الأمة الإسلامية طائفة الخوارج، حيث إنهم لم يفهموا نصوص القرآن الكريم ونصوص الحديث النبوي فهما صحيحا فخرجوا بأحكام خاطئة وأحدثوا في الأمة فتنا عظيمة، ما زالت الأمة إلى اليوم تعاني منها.

ومما يدل على خطورة مثل هذا الفهم السيئ للنصوص الذي وقع فيه الخوارج أن نافعاً رحمه الله سئل عن رأي ابن عمر رضي الله عنهما في الخوارج فقال: «يراهم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين»¹.

وروى الإمام البغوي عن الشعبي أنه قال: «خرج ناس من أهل الكوفة إلى الجبانة يتعبدون، واتخذوا مسجداً، وبنوا بنياناً، فأتاهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقالوا: مرحباً بك يا أبا عبد الرحمن، لقد سرنا أن تزورنا، قال: ما أتيتكم زائراً، ولست بالذي أترك حتى يهدم مسجد الجبان، إنكم لأهدى من أصحاب رسول الله ﷺ؟ أرايتم لو أن الناس صنعوا كما صنعتم، من كان يجاهد العدو ومن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ومن كان يقيم الحدود؟، ارجعوا فتعلموا ممن هو أعلم منكم، وعلموا من أنتم أعلم منهم.

قال: واسترجع فما برح حتى قلع أبنيتهم ورددهم»².

وقال الحسن البصري: «العامل على غير علم كالسائر على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بترك العبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بترك العلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيا فهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدهم على ما فعلوا...3، قال الشاطبي معلقاً على كلام الحسن البصري: يعني الخوارج... لأنهم قرأوا القرآن ولم يتفقهوا»⁴.

1 الاعتصام، للشاطبي، 2/ 183.

2 شرح السنة، للإمام البغوي، 10/ 54.

3 الاعتصام، للشاطبي، 2/ 175.

4 المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسها.

والشاهد مما تقدم أن الجهل بالدين وبمقاصده له أثر بالغ وخطير في نشوء الخلاف والانحراف في أمتنا المسلمة.

ثانياً: الجهل باللغة العربية التي هي لغة الوحي، فالجهل باللغة العربية التي هي وسيلة لفهم ما أنزل الله وما تكلم به رسوله المصطفى ﷺ كان وما يزال من أسباب الانحراف والخلاف والافتراق في الأمة.

وقد استشعر الإمام الشاطبي أهمية معرفة اللغة العربية وكون ذلك من شروط الفهم السليم لنصوص الوحي، وهو ما جعله يؤكد على هذا الأمر ويبدئ فيه ويعيد في غير موطن من كتائبه: الاعتصام والموافقات.

وسأكتفي هنا بإيراد نص من نصوصه في كتابه الاعتصام الذي بين فيه «أن الله عز وجل أنزل القرآن عربياً لا عجمة فيه، بمعنى أنه جارٍ في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾¹، وكان المنزل عليه القرآن عربياً أفصح من نطق بالضاد وهو محمد بن عبد الله ﷺ، وكان الذين بعث فيهم عرباً أيضاً، فجرى الخطاب به على معتادهم في لسانهم...، وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها»².

وأورد الإمام جلال الدين السيوطي كلاماً نفيساً للإمام الشافعي قال فيه: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس»³.

وعلق السيوطي على كلام الشافعي بقوله: «أشار الشافعي بذلك إلى ما حدث في زمن المأمون من القول بخلق القرآن ونفي الرؤية وغير ذلك من البدع وأن سببها الجهل بالعربية والبلاغة الموضوعية فيها من المعاني والبيان والبدیع...»⁴.

1 سورة الزخرف، الآية: 2.

2 الاعتصام، 2/ 293_294.

3 صون المنطق، ص: 15.

4 المصدر نفسه، ص: 15.

ومن الوقائع العملية التي توضح ذلك أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء يناظره في وجوب عذاب الفاسق، فقال له يا أبا عمرو: الله يخلف وعده؟ فقال: لن يخلف الله وعده، فقال عمرو: فقد قال، وذكر آية وعيد، فقال أبو عمرو: من العجمة أتيت، الوعد غير الإيعاد ثم أنشد:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومُنجز موعدي¹

وخلاصة الكلام أن الجهل باللغة العربية وقواعدها وأساليبها المختلفة كان من أسباب ظهور الانحراف والخلاف، ومن ذلك مثلاً أن خطأ المرجئة قد نجم من جهلهم باصطلاحات اللغة العربية، فزعموا أن الإيمان في اللغة هو التصديق، وأن التصديق إنما يكون بالقلب واللسان، أو بالقلب فقط، فالأعمال عندهم حسب هذا الفهم المنحرف ليست من الإيمان.

ثالثاً: اتباع الهوى، وهو سبب كل بلاء حلّ بالأمم، وقد ذمه الله ونهى عنه

وبين أنه طريق المشركين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَفَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [سورة النجم آية: 23].

وقوله تعالى: ﴿أَقِمَّسَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَسَ زَيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [سورة محمد آية: 15].

ومما يوضح خطورة اتباع الهوى أنه أصل الزيغ عن صراط الله المستقيم، كما قال تعالى -في وصف الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولا يردونه إلى النصوص المحكمة-: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

1 عيون الأخبار، 2/ 142، سير أعلام النبلاء، 6/ 408، الاعتصام، 2/ 299.

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ [سورة آل
عمران آية: 7].

يقول ابن تيمية: «وأما أهل البدع فهم أهل أهواء وشبهات يتبعون الظن وما تهوى
الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى، فكل فريق منهم قد أصل لنفسه أصل دين وضعه إما
برأيه وقياسه الذي يسميه عقليات، وإما بذوقه وهواه الذي يسميه ذوقيات، وإما بما يتأوله
من القرآن ويجرف فيه الكلم عن مواضعه، ويقول إنه إنما يتبع القرآن كالخوارج، وإما بما يدعيه
من الحديث والسنة ويكون كذبا وضعيفا كما يدعيه الروافض من النص والآيات، وكثير ممن
يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتج من القرآن بما يتأوله على غير تأويله ويجعل ذلك
حجة لا عمدة، وعمدته في الباطن على رأيه كالجهمية والمعتزلة في الصفات والأفعال...»¹.

رابعا: ظهور الجدل في الدين: فهذا أيضا من أسباب ظهور الخلاف
والانحراف في الأمة الإسلامية، وقد حذر النبي ﷺ أمته من الجدل في الدين وأخبر أنه
سبب ضلال من قبلنا من الأمم. فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: (أن نفرا كانوا
جلوسا بباب النبي ﷺ، فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ وقال بعضهم: ألم يقل
الله كذا وكذا؟ فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فخرج كأنما فقيء في وجهه حب الرمان،
فقال: بهذا أمرتم!! أو بهذا بعثتم!! أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض!! إنما ضلت
الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هاهنا في شيء، انظروا الذي أمرتم به
فاعملوا به، والذي نهيتم عنه فانتهوا)².

1 كتاب النبوات، لابن تيمية، ص: 129، طبعة دار الكتب العلمية.

2 رواه الإمام أحمد في المسند، رقم الحديث: 6845، تحقيق أحمد شاكر، وقال عنه: إسناده صحيح، ورواه الترمذي في: القدر،
باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، رقم الحديث: 2134.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف جزء من الآية: 58]¹.

وسلك الصحابة ومن اقتفى أثرهم هذا المنهج السديد، فلم يجادلوا في الدين، وحذروا غيرهم من المراء والجدال في الدين.

قال وهب بن منبه رحمه الله: «كنت أنا وعكرمة نقود ابن عباس بعدما ذهب بصره حتى دخلنا المسجد الحرام فإذا قوم يمترون في حلقة لهم، فقال لنا: أمّا بي حلقة المراء، فانطلقنا به إليهم، فوقف عليهم، فقال: ما علمتم أن الله عبادة أصمتهم خشيته من غير عي ولا بكم؟ وأنهم لهم العلماء الفصحاء النبلاء الطلقاء، ثم قال: فأين أنتم منهم»².

وهذا إمامنا مالك رضي الله عنه يحكي عنه تلميذه معن بن عيسى ما يدل على نفوره من الجدال في الدين وإعراضه عن مجادلة أهل الأهواء فيقول: «انصرف مالك بن أنس رضي الله عنه يوماً من المسجد وهو متكئ على يدي، فلحقه رجل يقال له: أبو الحورية، كان يُتهم بالإرجاء. فقال: يا أبا عبد الله، اسمع مني شيئاً أكلمك به، وأحاجك وأخبرك برأبي، قال: فإن غلبتني. قال: إن غلبتك اتبعني. قال: فإن جاء رجل آخر، فكلمنا فغلبنا؟ قال: نتبعه، فقال مالك رحمه الله تعالى: يا عبد الله بعث الله عز وجل محمداً ﷺ بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى دين، قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»³.

وهناك آثار أخرى لا يتسع المقام لذكرها، وهي تُجمع على التحذير من الجدال العقيم في الدين، لأنه سبب الخلاف والانحراف الذي يصيب الأمة ويصرفها عن أداء رسالتها.

1 رواه الترمذي في التفسير، باب تفسير سورة الزخرف، رقم الحديث: 3250، وقال: حسن صحيح.

2 الشريعة، للإمام الآجري، ص: 59.

3 هذا الأثر رواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة، 1/ 133، والآجري في الشريعة، 1/ 437.

خامسا: الخلافات السياسية، وهذا السبب لا يقل خطورة عن الأسباب السابقة، ذلك أن الصراع الداخلي بين المسلمين حول الحكم وما نتج عنه من حروب وفتن أثمر تأثيرا كبيرا في ظهور كثير من الفرق، إذ بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله بدأت الفتنة بين المسلمين، فافتتلوا في معركة صفين، وظهرت طائفة الخوارج والشيعة بعد قضية التحكيم المشهورة.

فهذه خمسة أسباب داخلية كانت من أهم بؤادر ظهور الخلاف والفرقة بين المسلمين.

المصلب الثاني: الأسباب الخارجية.

أما الأسباب الخارجية التي أدت إلى ظهور الانحراف والخلاف العقدي بين المسلمين، فهي كثيرة، ومن أهمها:

أولا: التأثير بالنصارى، فقد تأثر بعض المسلمين بالفكر النصراني، إما عن طريق الاتصال الشخصي والمخالطة، أو عن طريق المناقشات والمناظرات. وكانت مراكز الثقافة اليونانية - مثل حران، والإسكندرية، وغيرها - مراكز للتأثير النصراني لأن أكثر القائمين على هذه المراكز كانوا من النصارى¹.

وهذا التأثير النصراني في الانحراف العقدي الذي وقعت فيه بعض الطوائف نجده مثلا عند طائفة القدرية والمعتزلة وغلاة الشيعة والصوفية.

فطائفة القدرية قد أخذت قولها في القدر عن النصرانية، وتذكر لنا المصادر اسمين ارتبط بهما انتشار الفكر القدري المنحرف الذي دخل إلى عقيدة المسلمين، وهما معبد الجهني وغيلان الدمشقي.

قال ابن قتيبة - رحمه الله وهو يتحدث عن غيلان الدمشقي - : «كان قبطيا، قدريا،

لم يتكلم أحد في القدر قبله ودعا إليه إلا معبد الجهني»².

1 انظر كتاب: دراسات في الفكر الفلسفي، للألوسي، ص: 93_95.

2 كتاب المعارف، لابن قتيبة، ص: 484، تحقيق: د. ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة.

وروى عن الأوزاعي أنه قال: «أول من تكلم في القدر: معبد الجهني ثم غيلان بعده»¹.

وقال المقرئزي: «وكان أول من قال بالقدر في الإسلام معبد بن خالد الجهني وكان يجالس الحسن البصري، فتكلم في القدر بالبصرة وسلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله، وأخذ معبد هذا الرأي عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسوية ويعرف بالأسواري...»².

وأما طائفة المعتزلة فقد تجلّى تأثيرها بالفكر النصراني في النزعة العقلانية، ذلك أن النصارى كانوا يقدمون أفكارهم وعقائدهم بأسلوب فلسفي، فتأثر بهم المعتزلة في جدالهم ومناظراتهم لهم، أي أنهم سلكوا في مناظرات النصارى ومحاوراتهم مسلكهم وواجهوهم بسلاحهم.

يقول الخياط وهو من كبار علماء المعتزلة: «أشد ما احتاج إليه الإسلام في ذلك العصر وهو الاستعانة بما استعانت به الأديان المحيطة به من أسلوب متين وطريق فلسفي لإبراز ما كمن في الدين من القوى والفضائل...»³.

ويقول الشهرستاني-وهو يتحدث عن أحمد بن خابط من زعماء فرقة من فرق المعتزلة تنسب إليه-: «زعم أحمد بن خابط أن المسيح تدرع بالجسد الجسماني وهو الكلمة القديمة المتحدة، كما قالت النصارى». وقال إنه يرى (إثبات حكم من أحكام الإلهية في المسيح عليه السلام موافقة للنصارى على اعتقادهم أن المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة...»⁴.

1 كتاب المعارف، لا بن قتيبة، ص: 484.

2 الخنط، للمقرئزي، 2/ 356،

3 الانتصار في الرد على ابن الراوندي، لأبي الحسين الخياط المعتزلي، ص: 58، ط القاهرة 1925.

4 الملل والنحل، للشهرستاني، ص: 27.

وأما تأثر غلاة الشيعة بالنصارى فواضح في فكرتهم المزعومة عن ألوهية علي رضي الله عنه ورجعته وقيامه بمعجزات تشبه معجزات المسيح عيسى عليه السلام، وكذا فكرة المهدي عندهم، لا شك أنهم استمدوها من الفكر النصراني إلى جانب الآثار الأخرى¹.

أما علاقة غلاة الصوفية بالفكر النصراني فهي علاقة لا تحتاج إلى كبير عناء في إثباتها، وخاصة في قولهم بوحدة الوجود والحلول والاتحاد.

قال ابن تيمية: «وهذا الاتحاد الخاص من النصارى يشبه... قول أهل الوحدة والاتحاد العام»².

وقال في موضع آخر: «ومن قال من ضلال المسلمين: إن الرب يتحد أو يحل في الأنبياء والأولياء. فقله من جنس قول النصارى في المسيح...»³.

فتلخص من هذه الروايات أن انحراف بعض طوائف المسلمين كان من أهم أسبابه تأثرهم بالفكر النصراني الوافد على عقيدة المسلمين.

ثانياً: التأثير باليهود، وقد كان لليهود دور كبير وأثر سيء في الانحراف العقدي لدى بعض طوائف المسلمين، فطائفة الشيعة الغلاة تكاد المصادر تجمع على أن كثيراً من عقائدها مستوحاة من الفكر اليهودي، وهذا يظهر في علاقة الشيعة الغلاة بعبد الله بن سبأ الذي هو أول من دعا إلى فكرة قداسة علي رضي الله عنه، والقول بالرجعة والبداء والطعن في الصحابة، واتهام القرآن الكريم بالنقص... وغير ذلك من العقائد الفاسدة عند غلاة الشيعة.

1 أنظر: دراسات في الفكر الفلسفي، للألوسي، ص: 96.

2 الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، 3/ 73، الطبعة الأولى، مطبعة المدني، القاهرة، 1383هـ.

3 المصدر نفسه، 3/ 199.

وقد اعترف بهذا التأثير بالفكر اليهودي كبار علماء الشيعة المتقدمين، مثل الإمام القمي والنويختي. فقد ذكرا: أن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية، وأن عبد الله بن سبأ كان أول من أظهر الطعن في أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة¹.

ويؤكد الإمام الرازي أن عقيدة التشبيه ظهرت أول ما ظهرت عند الشيعة تأثراً منهم بالفكر اليهودي، فيقول: «اعلم أن اليهود أكثرهم مشبهة، وكان بدو ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض...»².

وقال الإسفراييني: «اعلم أن جميع اليهود في أصول التوحيد فريقان: فريق منهم المشبهة وهم الأصل في التشبيه، وكل من قال قولاً في دولة الإسلام بشيء من التشبيه فقد نسج على منوالهم...»³.

إلى غير ذلك من النقول التي تؤكد أن الفكر اليهودي كان من أسباب ظهور الانحراف العقدي لدى طوائف من المسلمين.

ثالثاً: التأثير بالفكر الفارسي، فمما لا شك فيه أن المسلمين اختلطوا بالفرس منذ وقت مبكر، وقوي ذلك وعظم بعد انتقال الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد، وأصبح للفرس سلطة قوية في الحكم.

وبين أيدينا نص نقله الإمام السيوطي عن الفقيه المالكي أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني يوضح فيها هذا السبب، فيقول: «رحم الله بني أمية لم يكن فيهم قط خليفة ابتدع في الإسلام بدعة، وكان أكثر عمالهم وأصحاب ولايتهم العرب، فلما زالت الخلافة عنهم، ودارت إلى بني العباس قامت دولتهم بالفرس، وكانت الرياسة فيهم، وفي قلوب أكثر

1 انظر كتاب: المقالات والفرق، سعد بن عبد الله القمي، ص: 20، طبعة طهران 1963، وفرق الشيعة، للحسن بن موسى النويختي، ص: 44، المطبعة الحيدرية، النجف، 1379هـ.

2 اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص: 97، طبعة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1398هـ.

3 التبصرة في الدين، ص: 90، تحقيق عزت العطار، الطبعة الأولى، القاهرة، 1359هـ.

الرؤساء منهم الكفر والبغض للعرب ودولة الإسلام، فأحدثوا في الإسلام الحوادث التي تؤذن بهلاك الإسلام، ولولا أن الله تبارك وتعالى وعد نبيه ﷺ أن ملته وأهلها هم الظاهرون إلى يوم القيامة¹، لأبطلوا الإسلام ولكنهم قد ثلموه، وعوروا أركانه، والله منجز وعده إن شاء الله.

فأول الحوادث التي أحدثوها إخراج كتب اليونانية إلى أرض الإسلام، فترجمت بالعربية وشاعت في أيدي المسلمين، وسبب خروجها من أرض الروم إلى بلاد الإسلام يحيى بن خالد بن برمك. ذلك أن كتب اليونانية كانت ببلد الروم وكان ملك الروم خاف على الروم إن نظروا في كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا إلى دين اليونانية وتتشتت كلمتهم وتتفرق جماعتهم. فجمع الكتب في موضع وبني عليها بناء مطمسا بالحجر والجص حتى لا يوصل إليها. فلما أفضت رئاسة دولة بني العباس إلى يحيى بن خالد، وكان زنديقا، بلغه خبر الكتب التي في البناء ببلد الروم فصانع ملك الروم الذي كان في وقته بالهدايا... فبعث بالكتب إلى يحيى بن خالد، فلما وصلت إليه جمع عليها كل زنديق وفيلسوف، فمما أخرج منها كتاب حد المنطق.. وقلَّ من أمعن النظر في هذا الكتاب وسلم من زندقة.

... ثم جعل يحيى المناظرة في داره والجدال فيما لا ينبغي فيتكلم كل ذي دين في دينه ويجادل عليه آمنا على نفسه»².

والفكر اليوناني الذي ترجم إلى العربية عن طريق الفرس كان مشبعا بروح المذاهب الفارسية والزرادشتية، مما جعل للأثر الفارسي الدور الأهم في ظهور مجموعة من طوائف الباطنية وغلاة الشيعة والقرامطة، وغلاة الصوفية¹.

1 يشير بهذا إلى الحديث الصحيح الذي يقول فيه النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)، رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي...، 13 / 293)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة...، رقم الحديث: 1920).

2 صون المنطق، للسيوطي، ص: 6_7_8، تحقيق علي سامي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت.

رابعاً: التأثير بالفكر اليوناني، دخل الفكر اليوناني إلى بلاد المسلمين عن طريق الترجمة كما أسلفنا في السبب الثالث، لكن أشير هنا إلى أن المسلمين قد تعرفوا قبل على الفكر اليوناني في القرن الأول الهجري حينما فتحوا بلاد العجم، إلا أن الفلسفة اليونانية لم تشتهر عند المتقدمين من المسلمين في تلك الحقبة التاريخية، لأن السلف كانوا يمتنعون ويحذرون من الخوض فيها، إلى أن جاء زمن البرمكي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ثم قوي انتشارها في عهد المأمون العباسي (لما أثاره من البدع وحث عليه من الاشتغال بعلوم الأوائل وإخماد السنة)².

ولا يخفى لدى الباحثين في الفلسفة عموماً، ولدى الباحثين في الفلسفة الإسلامية خاصةً أثر الفلسفة اليونانية باختلاف اتجاهاتها في تفكير فلاسفة المسلمين، مما نتج عنه اختلاف بين فلاسفة الإسلام في كثير من القضايا العقدية.

والمقام لا يتسع لسرد وتفصيل الكلام في هذا التأثير، لكن أشير بإيجاز إلى أثر الفلسفة اليونانية في ظهور الاختلاف والانحراف العقدي عند بعض متكلمي المسلمين تأثراً منهم بالفكر اليوناني، وينتظم ذلك في عدة مسائل:

المسألة الأولى: تأثير بعض المتكلمين بالاتجاه الأرسطي، وقد سلك طريقته عدد كبير من فلاسفة الإسلام، وخاصة في الطبيعيات والأخلاق وما وراء الطبيعيات، ومن أقرب من يمثل هذا الاتجاه من علماء المسلمين: الإمام الفقيه المتكلم القاضي ابن رشد.

1 ينظر كتاب: دراسات في الفكر الفلسفي، للألوسي، ص: 98_100، وأيضاً كتاب: ضحى الإسلام، لأحمد أمين، 138/1.

2 صون المنطق، للسيوطي، ص: 12.

يقول الإمام الشهرستاني بعد ذكره عددا من أسماء الفلاسفة الإسلاميين: «قد سلكوا كلهم طريقة أرسطاطاليس في جميع ما ذهب إليه وانفرد به، سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي أفلاطون والمتقدمين...»¹.

المسألة الثانية: تأثير بعض المتكلمين بالاتجاه الأفلاطوني²: ويمثل هذا الاتجاه

من المتكلمين أصحاب "المذهب الذري"، ومن القائلين به ابن زكرياء الرازي، وأصحاب "نظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ"، ومن القائلين بها أبو البركات البغدادي.

وجوهر الانحراف في هذا الاتجاه أن أصحابه يرون أن الله تعالى صانع للعالم كما يصنع النجار الكرسي من الخشب، أي أن الله صنع وصور الأشياء وتراكيبها من مادة أولى قديمة، وهذا يتنافى مع جوهر العقيدة الإسلامية الصحيحة التي تؤكد أن الله تعالى خلق العالم بما شاء وكيف شاء، وأن على المؤمن أن يؤمن بذلك ويجزم به، ولم يكلفه الله أن يخوض فيما لا علم له به من مسائل الغيب التي طريق معرفتها الوحي.

والإنسان مهما حاول أن يتعرف على قضية خلق العالم بعقله المجرد فلن يصل إلى نتيجة صحيحة، والقرآن الكريم حسم في ذلك وما أشبهه من أمور الغيب.

قال تعالى: ﴿فَلْ أَيْنَٰكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِّمَّةِ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُٗٓ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ جَبَلٍ مَّوَدَّعٍ وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمۡوَاطَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآبِلِينَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

1 الملل والنحل، ص: 198.

2 من المراجع المهمة في هذا الباب: ما كتبه الدكتور مصطفى النشار في بحثه القيم "فكرة الألوهية عند أفلاطون وأثرها في الفلسفة الإسلامية والغربية"، وخاصة الباب الرابع من الكتاب بعنوان: "إله أفلاطون بنظرة نقدية"، حيث ناقش في الفصل الأول من هذا الباب "أفلاطون الإلهي في الفكر الإسلامي" مجموعة من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بفكر أفلاطون في نظرتهم للإله وفي قدم العالم... انظر الكتاب المشار إليه، ص: 247_307. مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، 1997.

فَأَلْتَمَأَ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١﴾ بِفَضِيلِهِمْ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْجَىٰ فِي كُلِّ
سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَفْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿٢﴾¹.

المسألة الثالثة: تأثير بعض المتكلمين بالاتجاه الأفلوطيني² المحدث: ويعتبر هذا
الاتجاه من أقوى الاتجاهات اليونانية تأثيراً، ومن فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بهذا الاتجاه:
الفارابي وابن سينا³.

ونجد الفارابي لا يخفي تأثره الكبير بالفيلسوفين: أفلاطون وأرسطو، وصنف في ذلك
تصانيف كثيرة، منها: (الجمع بين رأيي الحكيمين)، و (آراء أهل المدينة الفاضلة)، ومن
ذلك قوله في كتابه "الجمع بين رأيي الحكيمين": «لولا ما أنقذ الله به أهل العقول
والأذهان بهذين الحكيمين أفلاطون وأرسطو ومن سلك سبيلهما... لكان الناس في
حيرة ولبس»⁴.

المسألة الرابعة: تأثير بعض المتكلمين بالاتجاه الفيثاغورسي، الممزوج بنظرية
الفيثاغورس المشهورة، وكذا مع بعض العناصر الأرسطية الغنوصية، وممن ذهب في هذا الاتجاه:
إخوان الصفا.

1 سورة فصلت، الآيات: 8 _ 11.

2 نسبةً إلى فلسفة أفلوطين ومن شايحه من الذين تأثروا به، وهي فلسفة تقوم على الوجدان والتجربة الذوقية، وتمزج بين الفلسفة
والدين، انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة، مترجمة بإشراف زكي نجيب محمود، ص: 58 _ 61، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو،
القاهرة، 1963، وموسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، 1/ 190 _ 209، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر، بيروت، 1984، والموسوعة الفلسفية، عبد المنعم الحنفي، ص: 56 _ 57، الطبعة الأولى، دار ابن زيدون، بيروت.

3 انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، 1/ 40 _ 67، وابن سينا بين الدين والفلسفة، حمودة غرابة، الطبعة الأولى،
1392هـ، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.

4 الجمع بين رأيي الحكيمين، ص: 29 _ 30، طبعة السعادة بمصر، 1907.

والإتجاه الفيثاغورسي نسبة إلى الفيلسوف اليوناني (فيثاغورس)، وهي مدرسة فلسفية دينية أخلاقية على نظام الطرق الصوفية، ومن أهم مبادئ هذه المدرسة: أن الأشياء كلها ترجع إلى الأعداد، فجوهر الأشياء جميعا عند هذه المدرسة أعداد وأرقام، والظواهر كلها تعبر عن قيم ونسب رياضية¹.

المسألة الخامسة: الإتجاه الكلامي العقلي، وهذا التأثير نجده عند معظم المعتزلة، فقد ذكر الإمام أبو الحسن الأشعري أن المعتزلة أخذوا قولهم في ذات الله عن الفلاسفة، ومنعهم الخوف من إظهاره تصريحاً، فأظهروا معناه بنفي الصفات². وقال الإمام الشهرستاني عن الجاحظ إنه: «قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط وروج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة...»³.

تلك أهم مؤثرات الفكر اليوناني حصرتها في خمس اتجاهات كبرى حسب تنوع الفرق الكلامية التي تأثرت بالفكر الفلسفي اليوناني، ولا عجب أن يقف النقاد عند مواطن الانحراف العقدي لدى هذه الاتجاهات، لأن الاجتهاد البشري في قضية العقيدة محفوف بالمخاطر، وكم ضلَّت فيه أفهام، وزلَّت فيه أقدام، حينما اقتحمت أبواب العقيدة التي مبنها الغيب والتسليم بعيدا عن نور الوحي الذي يعصم عن الضلال والزلل.

خامسا: التأثير بالفكر الهندي، فمن أسباب ظهور الخلاف والانحراف العقدي عند طوائف من المسلمين تأثرهم بالفكر الهندي الوافد على بلاد المسلمين بسبب التواصل بين الطرفين، وقد اتصل المسلمون بالهنود في العصر العباسي، حيث استقدم خلفاء الدولة العباسية الأطباء من الهند لمعالجتهم، واتصلوا بهم أيضا عن طريق البصرة، سواء من بلاد

1 انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، 2/ 228 _ 232، والموسوعة الفلسفية المختصرة، ص: 238 _ 239.

2 مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري، ص: 483، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1369هـ.

3 الملل والنحل، ص: 31.

فارس أو الهند، وانتشر السنديون في البصرة وغيرها، ثم نُقلت آراؤهم وكتبهم من اللغة الفارسية ومن السنسكريتية.

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست قوائم بأسماء كتب الهند في الطب والأسماء والخرافات نُقلت إلى العربية، وذكر أنه قرأ في كتاب "ملل الهند وأديانها": أن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاير موجودة في بلادهم، وأن يكتب له عن أديانهم، فكتب له هذا الكتاب¹.

ونقل البيروني عقائد الهند ومللها ونحلها، وذكر أن الكتب التي كتبت في الموضوع من قبل كانت كتب حجاج ومجادلة، وبين أنه ترجم إلى اللغة العربية كتابين من كتب عقائد الهنود².

لكن الدكتور علي سامي النشار يرى أن العقائد الهندية لم يكن لها أثر في الفلسفة وعلم الكلام، وأن أثر الفكر الهندي تجلّى في التصوف³، وهذا أيضا ذهب إليه البيروني ورأى أن الصوفية تنسب إلى الهنود وذلك لتقارب الأمر بينهم⁴، حيث يوجد شبه كبير بين بعض مظاهر التصوف وما ورد في بعض الكتب الهندية الدينية من عقائد وأدعية وأناشيد، وما يصطنعه فقراء الهنود من طرق في الرياضة والعبادة والتفكير والذكر والمعرفة.

قال أبو العلاء عفيفي: «كان للتصوف الهندي أثره في بعض نواحي التصوف الإسلامي لا سيما ما يتصل منها بالطقوس الدينية والرياضيات الروحية وأساليب مجاهدة النفس... ولقد كانت مدينة بلخ من أهم مراكز التصوف البوذي، ومركز لكثير من الأديرة القديمة. ولقد نشأ في هذه المدينة عدد كبير من أوائل الصوفية وشيوخها...»⁵.

1 الفهرست، لابن النديم، ص: 435_438_498، مكتبة خياط، بيروت.

2 في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، لأبي الريحان البيروني، ص: 5_6، طبعة الهند، 1377 هـ.

3 نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د.علي سامي النشار، 1/ 219_22، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة.

4 في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، لأبي الريحان البيروني، ص: 25_26.

5 التصوف الثورة الروحية في الإسلام، لأبي العلاء عفيفي، ص: 77_87، دار المعارف، القاهرة، 1962.

تلك كانت أهم أسباب ظهور الخلاف والانحراف العقدي عند المسلمين، نشأت عن تلك الأسباب اتجاهات مختلفة، وتطورت عنها فرقٌ ونحلٌ، لكل منها من المقالات والاعتقادات ما تخالف به أخرى، فظهرت الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة، ثم أخذت هذه الفرق الكبرى في الانشطار والانقسام والاختلاف، وكان لكل فرقة منهم مقالات واعتقادات تخالف بها نظيراتها، وتدعي أنها على الحق والصواب، وتصف غيرها بالضلال والانحراف، وقد يصل بها الأمر إلى أن تكفر الفرق الأخرى التي تخالفها في الرأي وتخرجها من الملة.

بل أغرب من ذلك أن تجد كل فرقة وطائفة من الطوائف المختلفة في نصوص من الوحي المعصوم ما تتوكل عليه وتلوي أعناق نصوصه لتأييد ونصرة آرائها المنحرفة، وقد تضع أحاديث وتكذب على رسول الله ﷺ حتى تعطي الشرعية لأفكارها.

ف نجد مثلاً طائفة الوعيدية (الخوارج والمعتزلة) يستندون إلى حديث رسول الله ﷺ: **"والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"**¹.

وفي مقابل هذه الطائفة نجد طائفة المرجئة التي تحتج بحديث رسول الله ﷺ: **"ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة"**².

وطائفة القدرية الذين نفوا القدر يحتجون بحديث رسول الله ﷺ: **"كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه..."**³.

وفي مقابلهم طائفة الجبرية الغالون في القدر، وقد احتجوا لغلوهم في إثبات القدر بحديث رسول الله ﷺ: **"اعملوا فكل ميسر لما خلق له..."**¹.

1 أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم الحديث: 6016، فتح الباري، 10/ 443.

2 صحيح البخاري مع فتح الباري، 10/ 383، كتاب اللباس، باب الثياب البيض، رقم الحديث: 5827.

3 أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة... رقم الحديث: 2658.

هذه أمثلة فقط مما أسعف به المقام تبين لنا خطورة الانحراف عن منهج الوحي في المسائل العقديّة، وقد استشعر كبار الأئمة من الصحابة والتابعين وأصحاب المذاهب المعتمدة خطورة هذا الانحراف في الركن الأول من أركان الإسلام، سواء قبل وقوع الانحراف، أو بعد وقوعه، فهبوا لنصرة العقيدة، ودعوا إلى التمسك بالعقيدة الإسلامية كما وضع قواعدها وأرسى أسسها الوحي المعصوم، فأسدوا بذلك خدمة جليّة للدين الخفيف، ووضعوا منهجاً سليماً للتقعيد العقدي، كما رأينا أهم سماته ومعالجه في الفصل الثالث، وإذ أفضى بنا القول في الفصل الرابع إلى ذكر أسباب الخلاف التي تمخض عنها وقوع بعض الانحرافات العقديّة عند المسلمين، فليكن تمام الفصل بذكر أهم معالم وأسس المدارس التي جاءت بعد مرحلة وقوع الخلاف وظهور الانحراف، وإنني أستشعر صعوبة الإمام في هذا المقام بمعالم وأسس كل المدارس الكلامية، لتشعب ذلك وكثرته تبعاً لكثرة الفرق الكلامية وتنوع الطوائف قديماً وحديثاً، مما يصعب عمل الباحث إذا رام الإيجاز كما هو الشأن هنا، ولذلك سأقف بعض الوقفات عند أهم ما يميز المدارس الكبرى، بعيداً عن الغوص في التفاصيل التي يجدها الباحثون في المصادر والمراجع الباحثة في ظهور الفرق الكلامية².

المبحث الثاني: أسس الاتجاهات الكبرى في التقعيد العقدي بعد ظهور الخلاف.

وسيقصر الحديث في هذا المبحث على رصد ثلاث اتجاهات كبرى في التقعيد العقدي عند السُّنة بعد ظهور الخلاف بين المسلمين، وهذه الاتجاهات الكبرى هي التي ذاع

1 أخرجه البخاري في كتاب التفسير، - سورة الليل - باب " فسنيسره للعسرى"، 8 / 709، رقم الحديث: 4949.
2 ومن المصادر التي لا يستغني عنها الباحثون في الفرق الكلامية أذكر: الملل والنحل، للشهرستاني، والفرق بين الفرق للبغدادي، والفصل في الملل والنحل، لابن حزم.

أمرها، وشغلت بالباحثين قديماً وحديثاً، ولكل واحد منها امتدادات فكرية هنا وهناك، والاتجاهات المقصودة بالبحث هنا هي:

● مدرسة المعتزلة.

● مدرسة الأشاعرة.

● مدرسة أهل الحديث.

وإنما اقتصرنا على هذه المدارس الثلاثة دون غيرها للأسباب الآتية:

1. أن هذه المدارس الثلاثة تشترك في قضية النقل والعقل، بين من نزعت منها إلى

اعتبار أحدهما أكثر من الآخر، وبين من حاولت التوسط في الجمع بينهما.

2. أن هذه المدارس الثلاثة، - ما عدا مدرسة المعتزلة في بعض الفترات - كُتبت لأفكارها

أن تسود هنا وهناك في العالم الإسلامي الشُّني.

3. أن المدارس الأخرى تلتقي مع هذه المدارس الثلاثة في بعض أسسها، ولو ظاهرياً، إذ

هي كلها تعلن أنها تعتمد على مصدري الهداية: القرآن الكريم، والسنة النبوية.

4. أن الحديث عن المدارس الأخرى، مثل الشيعة، حديث طويل الذبول، لا تكفي فيه

بعض الإشارات هنا.

لهذه الأسباب اخترت الحديث عن المدارس الثلاثة، ولست أزعم أنني استقصيت

الحديث عنها، كما أنني أوضح أنه ليس غرضي إعادة ما قيل عن هذه المدارس الكبرى، إلا

بقدر ما يخدم قضية البحث، وهذا أوان الشروع في المقصود وفق المطالب الآتية:

المصلب الأول: أسس التقييد العقدي عند المعتزلة.

لقد تعددت آراء الباحثين حول أصل كلمة الاعتزال، وذهبوا في تفسير ذلك طرائق

قديداً، فمنهم من يرى أن التسمية ترتبط بالظروف السياسية، ومنهم من يرى أنها ترتبط بلون

من ألوان الزهد والعبادة والتقشف والعزوف عن الحياة الدنيا، وآخرون يؤكدون أنها تتعلق

بموقف ديني له أبعاد سياسية وبقضية جدلية أثيرت في مجلس الحسن البصري.

والرأي الثالث الذي يرد سبب تسمية المعتزلة بهذا الاسم إلى موقف ديني له أبعاد سياسية وبقضية جدلية أثرت في مجلس الحسن البصري، فيكاد يجمع على القول به مؤرخو الفرق الإسلامية.

يقول الشهرستاني: (ت 548هـ) «دخل واحد على الحسن البصري، فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج. وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة. فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟

فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة¹ من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة^{2،3}.

والذي دعاني إلى التذكير بهذه اللمحة الموجزة في سبب تسمية المعتزلة هو التعرف من خلال ذلك على أهم أسس التععيد العقدي عندهم، وحتى نتعرف على تلك الأسس أكثر وجب التذكير أيضاً ببعض عوامل نشأتهم في البصرة التي كانت منطلق دعوتهم الفكرية، إذ مما لا شك فيه أن البصرة لعبت دوراً مهماً وفعالاً في التاريخ السياسي والثقافي العربي الإسلامي، الأمر الذي أسهم في تنامي ظاهرة الاعتزال باعتبارها ظاهرة فكرية تشكلت بفعل عوامل عدة: ارتبط فيها ما هو سياسي بما هو ديني وثقافي. لكن الذي يهمنا في هذا المقام هو إبراز بعض العوامل المباشرة التي كانت السبب في نشأة الاعتزال وظهوره.

1 - المقصود بها: عمود المسجد أو السارية.

2 - الملل والنحل"، للشهرستاني، تحقيق عبد العزيز وكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة 1/48.

3- ينظر في ذلك: "تاريخ الرسل والملوك"، أبو جعفر الطبري: دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1387، 4/554، الملل والنحل"، للشهرستاني، تحقيق عبد العزيز وكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة 1/48، و"مدرسة البصرة الاعتزالية"، سعيد مراد مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، طبعة 1992، ص: 22.

ولعل أكبر ما أشعل نار الخلاف بين المعتزلة وغيرهم هو موقفهم من الحكم على مرتكب الكبيرة، والذي يهمننا في هذا المقام هو التعرف على موقفهم، وكيف أدى هذا الموقف بهم إلى تشكيل نسق فكري خاص بهم، والمهم عندنا أن مشكلة الحكم على مرتكب الكبيرة فجرت مجموعة من القضايا الاعتقادية التي أدت إلى الصراع الفكري والعقائدي بين كثير من الفرق الكلامية.

فإذا كانت الخوارج فجّرت قضية الكفر، خاصة بعد معركة صفين بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما، وقالت بتكفير علي رضي الله عنه في قضية التحكيم الشهيرة، وكفرت أيضاً الحكيمين أبا موسى وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر¹، والمرجئة قد فجرت قضية الإيمان: حيث فصلوا بين الإيمان والعمل، "فالعمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية"².

فإن المعتزلة فجرت قضية الفسق: مفهومه وأبعاده. وربما كان هذا بعض السر في كون مسألة مرتكب الكبيرة تلقب بمسألة الأسماء والأحكام³.

يقول الشهرستاني: (ت 548 هـ) «دخل واحد على الحسن البصري فقال: يا إمام، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر، يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة. فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ ففكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر»⁴.

1 - الأشعري، مقالات الإسلاميين، 1/ 156، بتصرف.

2 - الشهرستاني: "الملل والنحل"، تحقيق عبد العزيز وكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة 1/ 60.

3 - ينظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص، 137.

4 - "الملل والنحل"، للشهرستاني، تحقيق عبد العزيز وكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة 1/ 48.

وربما كان هذا هو السبب الذي أدى بالمعتزلة إلى القول بمبدأ القول: بالمنزلة بين المنزلتين، وهذا القول يستند إلى رؤية غير واضحة بخصوص مرتكب الكبيرة، ويمكن اعتبار هذا المبدأ إطاراً ذهنياً فارغاً من المضمون العملي الواقعي، فالمعتزلة أسقطوا مفهوم التدرج الإيماني، وأثبتوا وجود الإيمان المطلق، ولا شك أن السبب في مثل هذه الأحكام هو مرده إلى سلطة العقل، إذ العقل عندهم مجدد له سلطة مطلقة على كل ما عداه. وعن المعتزلة يقول الشهرستاني: (ت 548 هـ): «وهم يقولون المعارف كلها معقولة بالعقل، واجبة بنظر العقل»¹.

إن مشكلة الحكم على مرتكب الكبيرة، كانت فرصة لظهور تيارات فكرية أسهمت في نشأة الاعتزال نذكر منها ثلاث تيارات، وهي:

تيار القدرين الأوائل: أمثال، محمد بن الحنفية (ت 81 هـ)، في المدينة، والحسن البصري (ت 110 هـ) في البصرة، وغيلان الديمشقي (ت 105 هـ)، الذين كان لهم الأثر الكبير خاصة فيما يتعلق بنظرية العدل الإلهي، يقول محمد علي أبو ريان: «لقد ورثت المعتزلة فكرة القدر أي القول بحرية الإرادة الإنسانية، وتأكيد قدرة الإنسان على اختيار أفعاله من القدرية وتبنته، وجعلته أساساً لعقيدتها في نفي القدر، دفاعاً على العدل الإلهي»².

تيار الجهمية: يربط كثير³ من مفكري الإسلام بين الجهمية والمعتزلة، فالجهمية فرقة إسلامية انتحلت مذهب الجهم بن صفوان (ت 132 هـ)، رغم أن المعتزلة يتنكرون للجهم وأصحابه. ومن المقالات التي اتفقت فيها الفرقتان نذكر:

1 - المصدر السابق، 1/ 45.

2 - "تاريخ الفكر الإسلامي في الإسلام" محمد علي أبو ريان، 1/ 145. دار المعارف. (د.ت).

3 - ومن هؤلاء نذكر:

✓ الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ)، في كتابه: "الرد على الزنادقة والجهمية".

✓ لإمام عثمان بن سعيد الدرامي (ت 280 هـ) في كتابه: "الرد على الجهمية".

✓ الإمام تقي الدين بن تيمية (ت 728 هـ) في كتابه: "تلخيص التلخيص من كتاب التأسيس".

✓ الإمام بن القيم الجوزية (ت 851 هـ) في كتابه: "الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة".

أ. **القول بنفي الصفات:** يقول الخطيب البغدادي (ت 463 هـ): «إن أول من تكلم في نفي الصفات هو الجعد بن درهم (ت 120 هـ)، ومنه اقتبس جهم رأيه في ذلك»¹ ويذكر ابن تيمية أن المعتزلة أخذت عن الجهمية نفي الصفات يقول: «ثم ظهر بهذا المذهب -يعني نفي الصفات- الجهم بن صفوان، ودخلت بعد ذلك المعتزلة وهؤلاء أول من عرف عنهم في الإسلام أنهم أثبتوا حدوث العالم بحدوث الأجسام، وأثبتوا حدوث الأجسام بحدوث ما يستلزمها من الأعراض»².

ب. **القول بخلق القرآن:** حيث ذهب المعتزلة إلى أن كلام الله تعالى صفة فعل مخلوق وقالوا إن الله عز وجل كلم موسى بكلام أحدثه في الشجرة.

ج. **القول بخلق الجنة والنار:** يقول عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت 429 هـ): «زعم جهم بن صفوان أن الجنة والنار تبيدان وتفتيان»³

من خلال ما سبق يتبين لنا أن هناك نقط اتفاق وتقاطع بين الجهمية والمعتزلة، غير أن هناك نقطة اختلاف حادة خاصة في نسبة الفعل إلى الله، فبينما نرى الجهمية جبرية، نجد أن المعتزلة اختيارية.

تيار الخوارج: إنّ لتيار الخوارج تأثيراً قوياً على فرقة المعتزلة، يظهر جلياً في موقف الفرقتين من مرتكب الكبيرة، إذ هو خالد في النار، في نظرهما، غير أن الخوارج سموه كافراً وحاربه، بينما المعتزلة سمته فاسقاً، ولم تجسر على تسميته كافراً، ولم تقاتله. لكن رغم اختلافهما في الأسماء إلا أنهما اتفقتا في الأحكام.

1 - الخطيب البغدادي: "تاريخ بغداد وذيوله"، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط. 01، 1417 هـ، ص: 245.

2 - "منهاج السنة" ابن تيمية، 84/1، القاهرة مطبعة بولاق، 1322 هـ.

3 - "الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية"، عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي، 199/1 دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط. 02، 1977.

ونخلص- بعد كل ما سلف من بيان عوامل نشأة المعتزلة، وتأثرهم بغيرهم من الفرق الكلامية- إلى الأصول الخمسة التي تلخص لنا ركائز أسس التقعيد العقدي لدى المعتزلة، فنقول:

لقد نُعتَ المعتزلةُ بألقاب كثيرة، اشتق معظمها من الأصول الخمسة التي قالوا بها، ولأن هذه الأصول تمثل بالنسبة لهم نظرية فكرية عقلية، تنطلق منها هذه الفرقة، يقول الخياط: «وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا اكتملت فيه هذه الخصال فهو معتزلي»¹.

وقد كثر الحديث حول هذه الأصول، حيث ألفت حولها مؤلفات عديدة: منها ما ألفه أرباب الاعتزال أنفسهم، أمثال أبو هذيل العلاف واضع الأصول، أو غيره، كما أن النقاش والجدال قد احتدم حول هذه الأصول، من حيث: واضعها أو عددها أو ترتيبها... إلخ.

لكن الذي يهمنا هو معرفة هذه الأصول، لأنها هي التي تلخص لنا أسس الفكر الاعتزالي، وتبرز لنا أيضاً أسسه في التقعيد العقدي، وبما أن المقام لا يتسع لتفصيل الكلام في تلك الأصول الخمسة، فسأحاول التلخيص وأبدأ بأول أصل من أصولهم، وهو:

الأصل الأول: التوحيد

ويعرفه القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415 هـ) فيقول: «التوحيد في اصطلاح المتكلمين، هو العلم بأن الله تعالى واحد، لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً على الحد يستحقه والإقرار به، ولا بد من اعتبار هذين الشرطين: العلم، والإقرار جميعاً، لأنه لو علم ولم يقر، أو أقر ولم يعلم، لم يكن موحداً»²، لقد عد المعتزلة هذا المبدأ

1 - "الانتصار"، الخياط، تحقيق نبرج، دار الكتب المصرية، 1925، ص 126،

2 - "شرح الأصول الخمسة"، القاضي عبد الجبار، ص 128.

من أهم مبادئهم لأنهم ذهبوا في تفسيره تفسيراً خاصاً وبلغوا في تحليله أقصى حد فمن تم نسب إليهم خاصة.

يقول الشهرستاني (ت 548 هـ): «قال أهل العدل - يقصد المعتزلة - إن الله تعالى واحد في ذاته، لا قسمة ولا صفة له، وواحد في أفعاله، لا شريك له، فلا قديم غير ذاته، ولا قسيم له في أفعاله، ومحال وجود قديمين ومقدور بين قادرين، وذلك هو التوحيد»¹.

وربما فهم من هذا الكلام أن فيه إشارة خفية إلى نفي القدم عن الكلام في قولهم: "لا قديم غير ذاته" كما أن في كلامهم ما يحمل إشارة إلى نفي الصفات.

1 - "الملل والنحل"، الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز وكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة الجزء 1/ 42.

الأصل الثاني: العدل

يقول القاضي عبد الجبار في تعريف هذا الأصل عندهم: «اعلم أن العدل مصدر عدل يعدل عدلا، كما أن الضرب مصدر ضرب يضرب ضربا، والشتم مصدر شتم يشتم شتما. وقد يذكر ويراد به الفعل، ويذكر ويراد به الفاعل، فإذا أريد به الفاعل، فذلك على طريق المبالغة، لأنه معدول به عما يجري على الفاعلين..وله حد إذا استعمل في الفعل، وحد إذا استعمل في الفاعل، أما حقيقته إذا استعمل في الفعل على ما قيل: توفية حق الغير واستيفاء الحق منه، وقد قيل في حده: كل فعل حسن، يفعله الفاعل، لينفع به الغير، أو ليضره، إلا أن هذا يوجب أن يكون خلق العالم عدلا من الله تعالى، ليتضمن هذا المعنى، وليس كذلك، بل خلق العالم من الله تعالى تفضل. فالصحيح الحد الأول لأن هذه اللفظة، لا تكاد تدخل إلا فيما يتعلق بالحدود، وقولنا: ليضره احترازا عن العقاب، لأن ذلك من الله تعالى عدل، وإن كان اضرازا بالغير. وأما إذا استعمل في الفاعل فهو فاعل هذه الأمور»¹

ويقول الشهرستاني: «العدل على مذهب أهل الاعتزال، ما يقتضيه العقل من الحكمة، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة»².

وللعدل عند المعتزلة علوم، يحسن بالملكف معرفتها، فمنها: «أن يعلم أن أفعال الله تعالى كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح، ولا يخل بما هو واجب عليه، وأنه لا يكذب في خبره، ولا يجور في حكمه، ولا يعذب أطفال المشركين بذنوب آبائهم»³.

ويتساءل القاضي عبد الجبار المعتزلي قائلا: «كيف يصح قولكم أن أفعاله كلها حسنة، مع أنه هو الفاعل لهذه الصور القبيحة المنكرة؟

1 - "شرح الأصول الخمسة"، القاضي عبد الجبار، ص 128.

2 - "الملل والنحل"، الشهرستاني، 1/ 42.

3 - "الفرق بين الفرق"، للبغدادي، ص 63.

والأصل في الجواب عنه، إنا لا نعني أنه يحسن من جهة الرأي والمنظر، حتى يستحيله كل واحد، وإنما نريد أنه يحسن من جهة الحكمة، وهذه الصور كلها حسنة من جهة الحكمة، ولا يمتنع أن يكون الفعل حسنا من جهة المرأى والمنظر، قبيحا من جهة الحكمة. كما أنه يكون حسنا من جهة الحكمة، قبيحا من جهة المرأى والمنظر: ألا ترى أن أحدنا لو مشى مشية عرجاء في إنقاذ محبوس، فإن تلك المشية حسنة من جهة الحكمة، قبيحة من جهة الصورة، وبالعكس من هذا، لو مشى مشية حسنة في سعاية بمسلم إلى السلطان الجائر، فإنها قبيحة من جهة الحكمة، حسنة من جهة المرأى والمنظر»¹.

ورما قصد المعتزلة بنظريتهم هذه في العدل أن ينزهوا الله عن الظلم، فارتفعوا بالإرادة الإنسانية وجعلوها مسئولة عن عملها، وإن كان الأشاعرة يرون في ذلك تضييقا من قدرة الله ولذلك قالوا بنظرية الكسب².

الأصل الثالث: الوعد والوعيد:

الوعد هو: كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه في المستقبل. أما الوعيد فهو: كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل. ويرتبط هذا الأصل بمفهومي: الكذب والخلف، وعليه فالمعتزلة ذهبت إلى أن الله صادق في وعده ووعيده، وقد وعد المحسنين بالثواب، وتوعد العاصين بالعقاب، وهو لا يخلف وعده أو وعيده فمرتكب الكبيرة مخلد في النار ولا بد من توبة العبد قبل موته. يقول المسعودي في مروج الذهب: «أما القول بالوعد وهو الأصل الثالث: فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وإنه لصادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته»³.

1 - "شرح الأصول الخمسة"، القاضي عبد الجبار، ص 128.

2 - يقصد بنظرية الكسب عند الأشاعرة، أنه لا فاعل إلا الله، وأنه قد قدر كل شيء قبل خلقه، ويقتربن خلق الله لأفعال الانسان بكسبه، فالأفعال مخلوقة من الله مكسوبة من العبد، وسيأتي لهذه النظرية مزيد إيضاح في الباب الثالث عند ذكر القاعدة العقدية المتعلقة بالقضاء والقدر.

3 - "مروج الذهب"، للمسعودي، 3/ 435.

والملاحظ في هذا الأصل-وغيره من أصول المعتزلة- أن المعتزلة يحكمون العقل بل يجعلونه الأس الأساس الذي يشيدون عليه تصوراتهم التي تحكم منهجهم في التفكير. وهي تصورات مجردة، مصاغة على شكل مقدمات عقلية تعطي الأسبقية للعقل على حساب النقل.

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين

يذهب معظم المؤرخين إلى أن هذا الأصل هو أول الأصول الخمسة ظهوراً، أما معناه اللغوي فالعبارة تستعمل في شيء بين شيئين ينحذب إلى كل واحد منهما. أما معناه في اصطلاح المتكلمين فهو العلم بأن لصاحب الكبيرة اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين. ولعل اختلاف الناس في الحكم على مرتكب الكبيرة، جعل المسألة تلقب بمسألة "الأسماء والأحكام" حيث نجد الخوارج ذهبت إلى أن صاحب الكبيرة كافر، وذهبت المرجئة إلى أنه مؤمن، وذهب الحسن البصري إلى أنه ليس بمؤمن ولا كافر وإنما يكون منافقاً، وذهب واصل بن عطاء إلى أنه لا يكون مؤمناً ولا كافراً ولا منافقاً بل يكون فاسقاً.

والمعتزلة يرون أن حكمهم لم يخرج على إجماع الأمة ولم يخالف النص الصريح، بدليل قوله تعالى، في آية القاذف: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾¹

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من التحديدات المفهومية لهذا الأصل نذكر:

* الأمر هو: قول القائل لمن دونه "افعل"

* النهي هو: قول القائل لمن دونه "لا تفعل"

* المعروف هو: كل فعل عرف فاعله حسنه، أو دل عليه¹

* المنكر هو: فعل عرف فاعله قبحه أو دل عليه.

أن هذا الأصل ليس من أصول المعتزلة الخمسة فحسب، وإنما هو شرط من شرائط الإيمان، وقد جعل الله جل وعلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في خيار أمة الإسلام الممكنين في الأرض باعتصامهم بأوامر الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾² وعلى هذا الأساس فلا خلاف في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدليل قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾³

وللدارسين في مناقشة هذه الأصول ملاحظة لو قورنت بأركان الإسلام وأصوله الخمسة، مفادها: كما أن للإسلام أركانا خمسة: أولها نظري مرتبط بالإقرار والتصديق بمقتضى الشهادتين، أما الأربعة الأخرى من: (صلاة وزكاة وصيام وحج) فأركان عملية، على العكس من ذلك عند المعتزلة فأصل واحد منها عملي، وهو الأصل الأخير: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما الأصول الأربعة الأخرى من (توحيد وعدل ووعد ووعد والمنزلة بين المنزلتين) فأصول نظرية. وهذا يؤكد لنا ما سبق وأن أشرت إليه من أن المعتزلة التزمت نسقا فكريا صوريا قائما على تصورات العقل.

وتلخص مما سبق أن مدرسة المعتزلة عرفت بأصولها الخمسة، وتميزت عن غيرها من المدارس بتمجيد العقل، وهذا التمجيد للعقل قد يبلغ بهم درجة رد بعض النصوص إذا لم يقدروا على تأويلها، بدعوى مصادمتها للعقل، وهذا ما جعل بعض الدارسين يعتبرون كل المدارس التي تعلي من شأن العقل إلى درجة تقديمه على النصوص، يعتبرونها امتداداً للفكر الاعتزالي، لكن الإنصاف يقتضي أن يميز الباحث بين ما لهم من الإيجابيات فيأخذ بها،

1 - وفي هذا الصدد يقرر القاضي عبد الجبار المعتزلي أنه: "في حق الله جل وعلا، لا يقال في أفعاله معروف، لما لم يعرف حسنها ولا دل عليه. كما أنه لو وقع المنكر من الله تعالى لا يقال إنه منكر لما لم يعرف قبحه ولا دل عليه".

2 - سورة الحج، الآية: 41.

3 - سورة آل عمران، الآية: 110.

وتتلخص في التفكير الحر ونبذ التقليد، وبين السلبيات التي لا تخلو منها أي تجربة بشرية، فتطرح، وهذا ما فعله أبو الحسن الأشعري، حيث قام بعملية نقدية للفكر الاعتزالي الذي خبره بعد تجربة طويلة عاشها في كنف المعتزلة، ثم أسس مدرسة تنسب إليه، وهذا ما سنتعرف عليه في المطلب الثاني.

المطلب الثاني: أسس التقعيد العقدي عند الأشاعرة.

والحديث عن مدرسة الأشاعرة حديث ذو شجون، لأن مدرسة الأشاعرة تفرعت عنها مدارس، وإن كانت كلها تنتمي إلى المدرسة الأم التي أسسها أبو الحسن الأشعري، إلا أنها تميزت بتنوع اجتهاداتها الكلامية، بل إن أبا الحسن الأشعري نفسه له أكثر من اجتهاد في قضية واحدة، ومن ذلك على سبيل المثال أن التأسيس العقلي لمقولة الإيمان لدى هذا الإمام يختلف تفسيره له من كتاب لآخر، إذ نجد في كتاب "الإبانة" و"رسالة إلى أهل الثغر" يوافق مدرسة أهل الحديث والأثر في جعل العمل جزءاً من الإيمان¹، ونجد في كتاب "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" يناقش الموضوع مناقشة أخرى²، والمقام هنا ليس مقام مناقشة ذلك، وإنما أشرت بذلك لبيان صعوبة الإمام في هذا المطلب بأسس التقعيد العقدي لدى مدرسة الأشاعرة، لكن حسبي أن أشير إشارات مختصرات، توضح أهم أسس هذه المدرسة في التقعيد العقدي³، مع الإشارة إلى مدرسة الماتريدية التي هي أقرب المدارس الكلامية إليها، وذلك في المسائل الآتية:

1 ينظر: "الإبانة"، ص: 20، و "رسالة إلى أهل الثغر" ص: 155.

2 ينظر: "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" ص: 154.

3 آثرت في الحديث عن مدرسة الأشاعرة أن يكون حل كلامي عن مؤسس المدرسة أبي الحسن الأشعري، لأنه هو من وضع الأسس الكبرى للمدرسة، ولأن العودة إلى الجذور المؤسسة لأي مدرسة فكرية هو الأساس الذي ينبغي فهمه قبل الخوض في معرفة الفروع والتفاصيل التي بُنيت على تلك الأصول، ومؤسس المدرسة الأشعرية معروف، وهو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (ت 324 هـ)، وكنيته أبو الحسن، والأشعري نسبة إلى قبيلة "أشعر" إحدى قبائل اليمن من ولد سبأ، ولد بالبصرة سنة ستين ومائتين من الهجرة (ت 260 هـ)، وسكن بغداد وتوفي سنة أربعة وعشرين وثلاثمائة على القول الأرجح (ت 324 هـ)، يقول الإمام القاضي عياض

المسألة الأولى: مراحل أبي الحسن الأشعري في التأسيس العقدي

وتتلخص مراحل أبي الحسن الأشعري في التأسيس العقدي في ثلاثة مراحل كبرى، وهي:

أ - المرحلة الاعتزالية

وهذه المرحلة كان سببها ملازمته لشيخه أبي علي الجبائي، زوج أمه، واستمر على الاعتزال إلى سن الأربعين، ثم فارقه لما لم يجد إجابات كافية في مسألة الصلاح والأصلح على الله تعالى، وقيل إنه رأى النبي ﷺ مناما وأمره أن يروي العقائد المروية عنه لأنها الحق، ولهذا اعتمد الأدلة النقلية في تقرير العقائد.

ب - المرحلة الكلائية

يقول المقدسي، معرفا الكلائية: «الكلائية: أصحاب عبد الله ابن كلاب¹، مناظرهم ولسانهم وصدورهم»²، ويقول التاج السبكي: «رأيت الإمام ضياء الدين الخطيب، والد الإمام فخر الدين الرّازي، قد ذكر عبد الله بن سعيد في آخر كتابه: "غاية المرام في علم الكلام"، فقال: ومن متكلمي أهل السنة في أيام المأمون: عبد الله بن سعيد التميمي، الذي

في ترجمته: «صنّف أبو الحسن الأشعري لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة، وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط والميزان والشفاعاة والحوض وفتنة القبر التي نفت المعتزلة، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة، وناظر المعتزلة، وكان يقصدهم بنفسه للمناظرة.

وكُلّم في ذلك، وقيل له: كيف تخالط أهل البدع وقد أمرت بحجرهم؟ - وكان أمرهم في ذلك الوقت شائعا، وكلمتهم غالبية-، فقال: هم أهل الرياسة، وفيهم الوالي والقاضي، فهم لرياستهم لا ينزلون إليّ، فإن لم نسر إليهم فكيف يظهر الحق ويُعلم أن لأهله ناصرا بالحجة؟»، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"، للقاضي عياض، تحقيق: علي عمر، ط. الأولى 2009، مكتبة الثقافة الدينية، دار الأمان، الرباط، 524/2.

1 - هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة. وكان يرد على الجهمية، وأصحابه هم الكلائية، أمثال: أبو العباس القلانسي، والحارث المحاسبي، وغيرهما.

2 - "البدء والتاريخ"، مطهر بن طاهر المقدسي، 5/ 150.

دَمَّرَ المعتزلة في مجلس المأمون، وَفَضَّحَهُم ببيانه»¹، وقد أخذ الأشعري بمذهب ابن كلاب في الصفات وتأثر به في أقواله وأقوال أتباعه الكلابية، وزاد على قول ابن كلاب في الصفات والإيمان قوله بالجبر. وقد يمثل هذه المرحلة، كتابه: "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع".

ج - المرحلة السُّنِّيَّة

يقول تاج الدين السبكي عن الأشعري: «وكان أولاً قد أخذ عن أبي علي الجبائي وتبعه في الاعتزال، يقال: أقام على الاعتزال أربعين سنة - أي إلى أن بلغ سن الأربعين - حتى صار للمعتزلة إماماً، فلما أراد الله لنصرة دينه، شرح صدره لاتباع الحق - غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، ثم خرج إلى الجامع، وصعد المنبر وقال: معاشر الناس، إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء على شيء، فاستهديت الله تعالى، فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتيبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا. وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به، ودفع الكتب التي ألفها على مذهب أهل السنة والجماعة إلى الناس»².

وإن انتهاء الإمام أبي الحسن الأشعري إلى تبني المرحلة السُّنِّيَّة بعد مراحل فكرية خاض فيها تجارب عدة، للدليل قاطع على أن الرجل كان يبحث عن الحقيقة، وللوصول إلى الحقيقة لا بد من مراجعات فكرية، وهذا الأمر ليس غريباً على علمائنا الأجلاء، وليس عيباً أو نقصاً فيهم، بل هو وصف حميد، والمدرسة الأشعرية عرفت هذا النوع من النقد الذاتي على يد أئمة فحول كانوا عمدة في علم الكلام، وقد عبروا عن مراجعاتهم الفكرية نثراً وشعراً بعد تجربة طويلة خاضوها مع البحث والنظر في مسائل العقيدة على طريقة المتكلمين، ثم في النهاية سجلوا شهادتهم للتاريخ، ولست بهذا أتقص من قيمة علم الكلام وما كان لرجاله من الدفاع المحمود عن جناب العقيدة الإسلامية وصد الهجمات التي كانت تسعى

1 - السبكي: "طبقات الشافعية"، 2/ 299.

2 - تاج الدين السبكي: "طبقات الشافعية الكبرى"، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الطبعة 2، 1976، 347/3.

للقضاء عليها وتشويهها، وإنما أسجل هذه الاعترافات لما لها من قيمة علمية تبرز أن علماءنا الأجلاء لم يكونوا جامدين على آرائهم جمود الصخر، ولا كانوا يخشون النقد الذاتي، وتلك الشهادات دليل واضح على أن النقد والمراجعات الفكرية لم تتوقف في تاريخ المسلمين.

فمن تلك المراجعات ما نُقل عن الفخر الرازي أنه قال:

نهاية إقدام العقول عقال *** وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسمونا *** وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا *** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

فكم قد رأينا من رجال ودولة *** فبادوا جميعا مسرعين وزالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن... ثم قال: " من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي"¹.

ونقل عن الإمام الشهرستاني أنه قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها *** وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائر *** على ذقن أو قارعاً سن نادماً²

وقال ابن أبي الحديد:

فيك يا أغلوطة الفكر حا *** ر أمري وانقضى عمري

سافرت فيك العقول فما *** ربحت إلا أذى السفر

فلحى الله الأولى زعموا *** أنك المعروف بالنظر

1 انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، 5/ 21، وطبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، 40/ 5، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحي، القاهرة، 1964م، والبداية والنهاية، لابن كثير، 56/ 13، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الرابعة، 1401هـ.

2 شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص: 193، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الأولى 1405هـ.

كذبوا، إن الذي ذكروا *** خارج عن قوة البشر¹

وقال الإمام إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: «لقد خضت البحر الخضم، وخلت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على دين العجائز»².

وقال ابن واصل الحموي: «أستلقي على قفائي وأضع الملحفة على نصف وجهي، ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي شيء»³.

المسألة الثانية: مراحل تطور المذهب الأشعري وأهم خصائصه.

أما فيما يخص تطور المذهب الأشعري، فقد عرف انتشارا كبيرا في العالم الإسلامي، وتلقته أغلبية الأمة بالقبول، وعمل العلماء على التوسع في هذا المذهب العقدي، وإدخال تعديلات ومراجعات في المذهب، تعديلات لا تخرجهم من الإطار العام للمؤسس العقدي الإمام أبي الحسن الأشعري.

هذا التطور والنبوغ من علماء المذهب الأشعري لم يكن مستمدا فقط من معرفتهم بعلوم الدين وحدها، وإنما استمدوا قوة الحجة والمقدرة على الجدل وعمق الاستدلال من معرفة بالمنطق والفلسفة.

هذا الانتشار هو نتاج للطبيعة الحجاجية والاستدلالية الذي تميز بها الفكر العقدي الأشعري من جهة، وكذا التوجه السني المعتدل في تقرير وترسيم المسائل العقدية الإسلامية التوحيدية.

أما بخصوص تطور المذهب الأشعري بالمشرق ففي ذلك يقول العلامة ابن خلدون: «وكثر أتباع الشيخ أبي حسن الأشعري، واقتفى طريقه من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيرهم،

1 انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، 51/13، وشرح العقيدة الطحاوية، ص: 194.

2 انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي، 9/ 19، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الهند - الطبعة الأولى 1347هـ وسير أعلام النبلاء، 18/ 471، وطبقات الشافعية لابن السبكي، 5/ 585، وشرح الطحاوية، ص: 193.

3 انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، 4/ 28.

وهذبها ووضع لها المقدمات العقلية، وجعلها تبعا للعقائد الإيمانية، ثم جاء بعده إمام الحرمين أبو المعالي والغزالي¹.

أما أهم ما يميز مدرسة الأشاعرة عن غيرها، وخاصة مع مدرسة المعتزلة، فيمكن تلخيصه في خاصيتين:

■ **الأولى** أنها حاولت التوفيق بين العقل والنقل، وكأنها بذلك تقدم حلاً وسطاً لهذه القضية التي وقع فيها مَنْ قبلها من المدارس بين غلو وإجحاف في النظر إلى النقل والعقل، وهذا شبيه بما وقع في الأدب العربي من خلاف بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى، والمطلوب هو الجمع والتوفيق في مثل هذا الذي يُظن أنه صراع، وهو ما فطن إليه الإمام أبو الحسن الأشعري، وسواء وُفق هو وأتباعه في ذلك أم لا؟ فيكفيه شرف المحاولة والاجتهاد، وقد كان الفكر العقدي زمن الأشعري يحتاج إلى إصلاح تراعى فيه العقلية السائدة_ التي تستجيب للمنهج العقلي_ دون خروج عن أصول منهج السلف في تناول العقائد وتفسير نصها المؤسس. وقد اضطلع بمهمة الإصلاح هذه ثلة من العلماء كان من بينهم الإمام أبو الحسن الأشعري²، ذلك أن مناهج دراسة العقيدة في زمن أبي الحسن الأشعري كانت ترجع إلى طريقتين كبيرتين، إحداهما طريقة النقل، وثانيهما طريقة العقل، والاستغناء بأحد المنهجين عن الآخر كان سيؤول بعلم العقيدة إما إلى العجز عن أداء وظيفة الدفاع، أو إلى إهمال النصوص المؤسسة، والخروج عن المنظومة الإسلامية.

ولقد أدرك الإمام أبو الحسن الأشعري-وهو الخبير بمذهب المعتزلة الذين أسرفوا في تحكيم العقل- أدرك أن للعقل حداً لا يمكن أن يتجاوزه، وخاصة في العقيدة، وأدرك أيضاً أن الفهم الحرفي الظاهري للنصوص المؤسسة للعقيدة لا يقل خطورةً عن خطورة

1 - المقدمة، لعبد الرحمن بن خلدون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الأولى 1413، ص: 368

2 ينظر: التأصيل القرآني للعقيدة عند الإمام أبي الحسن الأشعري من خلال كتابه: "رسالة إلى أهل النغر" ذ. عبد الحميد مومن، ص: 29.

الإسراف في اعتماد العقل دليلاً، فتوسط بين النقل والعقل، وتلك خاصية من خصائص مدرسة الأشاعرة التي أسسها أبو الحسن.

■ والثانية أن مدرسة الأشاعرة عُرِفَتْ بتنوع وغزارة إنتاجها في علم الكلام، وقد بين مؤسس هذه المدرسة مشروعية الاشتغال بعلم الكلام معللاً مشروعية الاشتغال به - بأن أصول هذا العلم موجودة في الكتاب والسنة - وفي ذلك يقول: «والجواب الثالث: أن هذه المسائل التي سألوها عنها قد علمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يجهل شيئاً منها، غير أنها لم تحدث في أيامه معينةً فيتكلم فيها أو لا يتكلم فيها، وإن كانت أصولها موجودة في القرآن والسنة»¹، فأنت ترى هنا أن الإمام أبا الحسن الأشعري يؤسس لمشروعية الاشتغال بعلم الكلام بكون أصوله موجودة في القرآن الكريم والسنة النبوية، بمعنى أنه حاول أن يعيد علم الكلام إلى مصدره الكتاب والسنة.

ويقول أيضاً: «وأما الكلام في أصول التوحيد فمأخوذ أيضاً من الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَاءُ إِلَهَةٍ إِلَّا اللَّهُ لَبَسَدَتَا فَبَسُحَسَّ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾²، وهذا الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له، وكلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد بالتمانع والتغالب وإنما مرجعه إلى هذه الآية»³.

ويقول الإمام ابن تيمية في وصفه لفكر أبي الحسن الأشعري: «حتى إن الأشعري وأمثاله قد بينوا طريقة السلف في أصول الدين، واستغنائها عن الطريقة الكلامية، كطريقة الأعراس ونحوها، وأن القرآن نبه على الأدلة، ليس دلالاته، كما يظن بعض أهل الكلام من

1 رسالة استحسان الخوض في علم الكلام، لأبي الحسن الأشعري، ص: 47.

2 سورة الأنبياء، الآية: 22.

3 رسالة استحسان الخوض في علم الكلام، لأبي الحسن الأشعري، ص: 40.

جهة الخبر فقط. وأين هذا من أهل الكلام الذين يقولون: إن الكتاب والسنة لا يدلان على أصول الدين بحال، وإن أصول الدين تستفاد بقياس العقل المعلوم بغيرها»¹.

وبهذا يتضح لنا أن مدرسة الأشاعرة مدرسة مستقلة بذاتها تحاول التوفيق بين النقل والعقل، ولها اجتهادات محمودة وافقت فيها عين الصواب، كما أن لها اجتهادات لم تسلم من المناقشة، وخاصة في قضية الكسب المرتبطة بأفعال العباد، وكذا في مسألة حصر صفات الله تعالى في عدد معين، ولكن من الصعب التسليم بما ذهب إليه المفكر المغربي المشهور محمد عابد الجابري من أن «طريقة الأشاعرة في الاستدلال هي أصلاً طريقة المعتزلة، وقد امتصتها الأشاعرة امتصاصاً، ووظفوها في نصرة عقائدهم»²، نعم يمكن الحديث عن جوانب التأثير والتأثر بين المدرستين، وهو أمر اقتضته نشأة مؤسس المدرسة الإمام الأشعري معتزلياً في بداية أمره قبل أن يخرج من عباءة المعتزلة ويؤسس مدرسته، أما القول بأن طريقة الأشاعرة هي امتصاص تام لطريقة المعتزلة كما في كلام الجابري فهو أمر يحتاج إلى تدقيق، ثم إن سلمنا بصحة هذا الكلام ودقته، فعلى أي مدارس الأشاعرة ينطبق؟ هل على المتقدمين منهم؟ أم على المتأخرين؟ أم على الذين كانوا وسطاً بين المتقدمين والمتأخرين؟ وهذا يستدعي بسط الكلام عن طبقات الأشاعرة، ومميزات كل طبقة، والمقام لا يتسع لذلك كله ولا لبعضه.

المسألة الثالثة: المدرسة الماتريدية.

وهي من المدارس الكلامية التي لا تختلف كثيراً عن المدرسة الأشعرية، ولهذا ناسب ذكرها هنا، وتنسب هذه المدرسة إلى مؤسسها الإمام أبي منصور محمد بن محمد بن محمود

1 كتاب الاستقامة، للإمام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، 6/1، الطبعة الثانية، 1411هـ 1991م، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

2 من مقدمة محمد عابد الجابري لكتاب ابن رشد "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص: 11_12، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى 1998م.

الماتريدي، الملقب بعلم الهدى، المتوفى عام 333هـ. والماتريدي نسبة إلى القرية التي ولد فيها وهي "ماتريد"، أو "ماتريت" وهي قرية من قرى سمرقند في بلاد ما وراء النهر.

وتعتبر المدرسة الماتريدية امتدادا لمدرسة أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، المتوفى عام 150هـ، وهو أول متكلم من الفقهاء، كما أنه أول من أطلق على العقيدة اسم: الفقه الأكبر، وله في ذلك كتاب مشهور.

ويذهب مرتضى الزبيدي، إلى أن مصطلح أهل السنة والجماعة إذا ما أطلق "فالمراد بهم الأشاعر والماتريدية"¹.

ويقول طاش كبرى زاده (ت 968 هـ): «ثم اعلم أن رئيسا أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلا، أحدهما حنفي والآخر شافعي، أما الحنفي فهو أبو منصور الماتريدي، إمام الهدى... وأما الآخر الشافعي فهو شيخ السنة ورئيس الجماعة إمام المتكلمين وناصر سنة سيد المرسلين والذّب عن الدين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين أبو الحسن الأشعري...»².

ومما ثبت عن الإمام في تنزيه الله عز وجل عن المكان أنه قال: «الأصل فيه أن الله سبحانه كان ولا مكان، وجائز ارتفاع الأمكنة وبقاؤه على ما كان، فهو على ما كان، وكان على ما عليه الآن، جل عن التغيير والزوال والاستحالة والبطلان... فيجب القول بالرحمن على العرش استوى على ما جاء به التنزيل، وثبت ذلك في العقل، ثم لا نقطع تأويله على شيء لاحتماله غيره، مما ذكرنا، واحتماله أيضا ما لم يبلغنا مما يعلم أنه غير متحمل شبه

1 - "إنحاف السادة المتقين، بشرح إحياء علوم الدين" المرتضى الزبيدي، 2/ 17.

2 - "مفتاح السعادة ومصباح السيادة" طاش كبرى زاده، ص: 45، طبعة حيدر آباد، سنة 1329هـ.

الخلق، ونؤمن بما أراد الله به، وكذلك في كل أمر ثبت التنزيل فيه نحو الرؤية وغير ذلك، يجب نفي الشبه عنه والإيمان بما أراده من غير تحقيق شيء على شيء»¹.

ومن أهم مصادر معرفة الآراء الكلامية لدى المدرسة الماتريدية نذكر ما يلي:

■ كتاب التوحيد، وهو لأبي منصور الماتريدي مؤسس المدرسة، وهو مطبوع بتحقيق

الدكتور فتح الله خليف

■ إشارات المرام من عبارات المرام، مؤلفه الإمام أحمد بن حسام الدين البياضي

المتوفى سنة 1098هـ، وهذا الكتاب لخص فيه المؤلف رسائل الإمام أبي حنيفة وأقواله في العقائد، ثم شرحه في كتاب سماه: " غاية المرام من عبارات المرام"، فكان هذا الشرح من أهم الكتب التي جمعت بين آراء أبي حنيفة وآراء المتكلمين من الماتريدية، وقد طبع الكتاب بمصر.

■ التبصرة، أو " تبصرة الأدلة في الكلام"، يقول شمس الأفغاني نقلاً عن الدكتور فتح

الله خليف: «هذا الكتاب يعد ينبوع الثاني للماتريدية بعد كتاب "التوحيد" للماتريدي، وليست "العقائد النسفية" لنجم الدين إلا فهرساً له، وكان نور الدين الصابوني الماتريدي - 580هـ - إذا ناظر الفخر الرازي الأشعري 606هـ - يحتج عليه بأقوال أبي المعين النسفي، من كتابه "تبصرة الأدلة»².

■ "التمهيد لقواعد التوحيد" وهو أيضاً لأبي المعين ميمون بن محمد المكحولي

النسفي، ويتناول فيه المؤلف (عقائد المتقشفة)، ويقصد بهم غلاة المتصوفة والكرامية والمعتزلة.

■ كتاب "العقائد النسفية"، وهذا الكتاب لقي رواجاً كبيراً عند السادة الحنفية،

لم يبلغ كتاب عندهم مبلغه من الاهتمام في العهود التالية للعهد العباسي، وهو متن متين

1 - أبو منصور الماتريدي: "كتاب التوحيد"، تحقيق الدكتور فتح الله خليف، دار المشرق بيروت، ص 74.

2 ينظر: الماتريدية، شمس الأفغاني، 311/1.

من تأليف الإمام الشيخ نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد، المتوفى سنة 537هـ، طبع هذا الكتاب في لندن سنة 1259هـ، ثم طبع ضمن مجموعة " أمهات المتون " بمصر سنة 1310، وعليه شروح وحواش، وقد نُظِم، وعلى النظم عدة شروح¹.

ومن الكتب التي لها اعتبار كبير عند الماتريدية متن "العقيدة الطحاوية"، للإمام أبي جعفر أحمد الطحاوي المتوفى سنة 321هـ، لكن هذا الكتاب في واقع الأمر لا يمكن عده من الماتريدية ولا من الأشعرية فالكتاب عند التحقيق من كتب المدرسة السلفية في العقيدة. وطبع المتن الصغير عدة طبعات، وعليه شروح ومن أشهر شروحه شرح ابن أبي العز علي بن محمد الحنفي المتوفى سنة 792هـ، وهو حنفي المذهب على عقيدة السلف، سلك في شرحه مسلك الإمام أبي جعفر الطحاوي في إقرار عقيدة السلف، طبع الشرح عدة طبعات، منها: طبعة مكة المكرمة سنة 1349هـ وطبعة دار المعارف بمصر سنة 1954م بتصحيح الأستاذ المحقق الكبير أحمد محمد شاكر .

المصطلب الثالث: أسس التعميد العقدي عند مدرسة أهل الحديث.

والحديث عن هذه المدرسة يضع الباحث أمام جملة من الأسئلة، تتلخص في كون أصحاب هذه المدرسة وسموا أنفسهم، أو سَمَّهم غيرهم بأسماء كثيرة، مثل: الطائفة الناجية، أو الطائفة المنصورة، أو أهل الحديث، أو أهل الأثر، أو أتباع السلف الصالح، فتردد الباحث طويلاً في اختيار المصطلح الأنسب هنا، ثم اهتدى إلى المصطلح الأخير، ليس تحيزاً إلى فئة حاولت السطو على كلمة "السلف"، وإنما من أجل إيضاح أن مصطلح السلف قد استعمله بعض الناس استعمالاً سيئاً وأن ذلك يندرج في قضية التلاعب بالكلمات والمصطلحات، فلزم تحديد مفهوم السلف أولاً، ثم ذكر بعض خصائص مدرسة السلف الحقيقية، وهذا ما حاولت بيانه في الفروع الآتية:

1 انظر: المعجم الشامل، 5/ 241.

الفرع الأول: مفهوم السلف في اللغة.

السلف في اللغة جمع سالف على وزن حارس وحرس، وخادم وخدم، والسالف: المتقدم، والسلفُ: ...الجماعة المتقدمون¹.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا إِنْتَفَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ سَلْبًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾².

قال الإمام البغوي: (...والسلف: من تقدم من الآباء، فجعلناهم متقدمين، ليتعظ بهم الآخرون)³.

وقال ابن الأثير: (...سلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين: السلف الصالح)⁴.

الفرع الثاني: مفهوم السلف في الاصطلاح:

وقع اختلاف بين الدارسين في تحديد مفهوم السلف زمنيا على عدة أقوال يمكن تلخيصها في أربعة أقوال وهي:

1. أن المراد بالسلف: الصحابة فقط، وهذا اختيار أكثر شراح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، الملقب بـ: "مالك الصغير"⁵.

2. أن المراد بالسلف: الصحابة والتابعون، وهذا ما ذهب إليه الإمام أبو حامد الغزالي، وفي ذلك يقول رحمه الله: (اعلم أن الحق الصريح الذي لا مرء فيه فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعني: مذهب الصحابة والتابعين)¹.

1 لسان العرب، لابن منظور، 9 / 158.

2 سورة الزخرف، الآيتان: 55-56.

3 معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين البغوي، 4 / 142، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، طبعة دار المعرفة، بيروت.

4 النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، 2 / 390، تحقيق: أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، نشر المكتبة العلمية، بيروت.

5 انظر: تحرير المقالة من شرح الرسالة، ق: 36، مخطوط بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، تحت رقم: 604، وحاشية

على شرح الرسالة، للشيخ علي الصعيدي العدوي، 1 / 106، طبعة دار إحياء الكتب، والثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للشيخ عبد السميع الأزهرى، ص: 24، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

3. أن المراد بالسلف: الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين، أي: القرون الثلاثة التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية، كما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة...) ².

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته) ³.

وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء قديما وحديثا، أقتصر على خمسة من النماذج وهم:

الإمام الآجري الذي قال _ وهو يتحدث عن الأئمة المقتدى بهم بعد القرآن الكريم والسنة النبوية _ : «علامة من أراد الله عز وجل به خيرا: سلوك هذا الطريق: كتاب الله عز وجل، وسنن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان رحمة الله عليهم، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلى آخر ما كان عن العلماء مثل: الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلام، ومن كان على طريقتهم، ومجانبة كل مذهب لا يذهب إليه هؤلاء العلماء» ⁴.

- ابن رجب الحنبلي الذي حدد السلف المقتدى بهم إلى عصر الإمام أحمد وأقرانه، وفي ذلك يقول: «...وفي زماننا يتعين كتابة كلام السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي،

1 الجام العوام عن علم الكلام، للغزالي أبي حامد، ص: 53، بتحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الأولى، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، 1406هـ / 1985م.

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، فتح الباري، 7 / 3، رقم الحديث: 3650.

3 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، فتح الباري، 7 / 3، رقم الحديث: 3651.

4 انظر: كتاب الشريعة، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ص: 14، تحقيق محمد حامد الفقي، الطبعة الأولى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ / 1983م.

- وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم، فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة...»¹.
- واختاره أيضا الإمام الشوكاني².
- ورجح هذا الرأي من المعاصرين الدكتور محمد الجليند، حيث قال: «وحسماً للموقف أرى أن لا نتخطى القرون الثلاثة للهجرة، وندعي أن هناك آراء سلفية مهما بلغ بنا حسن الظن بالمتقدمين، خاصة وأن تراثنا الإسلامي قد تعرض لهزات عنيفة ابتداءً من القرن الثالث الهجري وعبثت به الأهواء»³.
- ورجح هذا أيضا من المعاصرين الدكتور محمود خفاجي، حيث قال: «فإنني أرى أن من يحدد السلف بالصحابة والتابعين، وتابعي التابعين هو الأميل للصواب، لموافقته الأثر 4 من ناحية، ولما نجد من الاتفاق بين من يذكرون السلف بطريق الاسم من عد تابعي التابعين من السلف من ناحية أخرى»⁵.
4. أن المراد بالسلف: هم من كانوا قبل المائة الخامسة للهجرة، وممن قال بهذا القول: الإمام البيجوري في شرحه لجوهرة التوحيد، قال: «السلف: وهم من كانوا قبل الخمسمائة، وقيل: القرون الثلاثة والتابعون وأتباع التابعين»⁶.

1 انظر: كتاب فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب الحنبلي، ص: 60، بتحقيق يحيى مختار غزاوي، الطبعة الأولى، نشر دار البشائر الإسلامية 1403هـ/ 1983م.

2 انظر: كتاب التحف في مذاهب السلف، للشوكاني، ص: 7-8-11، مطبعة المدني، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

3 أنظر: كتاب الإمام ابن تيمية وقضية التأويل، للدكتور محمد السيد الجليند، ص: 52، الطبعة الثالثة، نشر شركة مكنتبات عكاظ للنشر والتوزيع 1403هـ/ 1983م.

4 يشير بذلك إلى الحديثين السابقين، وهما حديث عمران بن حصين وحديث ابن مسعود رضي الله عنهما.

5 في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة، للدكتور محمود أحمد خفاجي، ص: 20، الطبعة الأولى 1399هـ/ 1979م.

6 تحفة المرید شرح جوهرة التوحيد، إبراهيم بن محمد البيجوري، ص: 91، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ/ 1983م.

وعقب على كلامه الدكتور محمود خفاجي فقال: «وإذا تساءلنا عن السبب لما ذا انسحب مفهوم لفظ السلف ليشمل من عاش في أو قبل القرن الخامس الهجري دون غيره؟ ذلك ما لم أجد له إجابة عند هؤلاء الذين حددوا السلف بهذا الحد»¹.
وبعد هذا البيان لمفهوم السلف زمانياً نتساءل: هل هذا التحديد الزمني كافٍ وحدّه لمفهوم السلف؟

في حقيقة الأمر يبدو أن التحديد الزمني وحدّه ليس كافياً ليعطينا مفهوماً دقيقاً للسلف، لذلك فأرى أن الإمام السفاريني كان موقفاً في تعريفه لمذهب السلف، حين قال:
فليس زمن القرون الثلاثة وحدّه كافياً ليجعل من عاش فيه أهلاً للاقتداء به، «وذلك لما نعلمه جميعاً من وجود الكثير من أئمة أهل البدع والأهواء في تلك الحقبة.
ففيها خرجت الخوارج في عهد الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث اعترضوا على التحكيم سنة 37هـ، فكان بداية خروجهم.
وفيها ظهر التشيع والرفض على يد ابن سبأ اليهودي الذي ادعى الإسلام وزعم محبة آل البيت.

وفيها نبتت فتنة القدرية على يد معبد الجهني. (ت 80هـ).
وفيها أيضاً ظهرت بدعة الإرجاء وكان من زعماء المرجئة الأوائل غيلان الدمشقي (ت 105هـ).

1 في العقيدة الإسلامية بين السلفية بين السلفية والمعتزلة، ص: 91.

وفيها نجم قرن التَّجَهُم والاعتزال، فعاش في هذا الوقت: الجعد بن درهم (ت 124هـ) أستاذ الجهم بن صفوان (ت 128هـ) زعماء الجهمية الأوائل منكري الصفات، كما عاش فيها واصل بن عطاء مؤسس فرقة المعتزلة الأول (ت 131هـ).

وبهذا يتضح أن القرون الثلاثة عاش فيها سلف صالح يُقتدى به، كما عاش فيها أصحاب أهواء ورواد ابتداع أدخلوا على الإسلام والمسلمين أموراً ليست من الدين، وفتحوا عليهم أبواب شر عظيم، ما زالت الأمة تعاني من آثاره إلى اليوم»¹.

والخلاصة أن مذهب السلف الذين يُقتدى بهم لا بد أن يقيد بموافقة آرائهم للقرآن الكريم والسنة النبوية، ولا نكتفي بالسبق الزمني، «فمن خالف رأيه الكتاب والسنة، فليس بسلفي وإن عاش بين ظهرائي الصحابة والتابعين»².

الفرع الثالث: أهم خصائص مدرسة السلف في التقعيد لقواعد العقيدة.

بعد أن تعرفنا على مفهوم مدرسة السلف، يحسن بنا أن نتوقف عند أهم الخصائص والمميزات التي تميز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس الإسلامية في التقعيد لقواعد العقيدة الإسلامية، فمن أهم تلك الخصائص:

❖ الاستدلال على إثبات مسائل العقيدة بكل ما صح من الأدلة الشرعية:

وهذا المميز يمكن عده قاعدةً من قواعد العقيدة، ومعنى ذلك أنهم يستدلون ويعملون بجميع ما صح من الأدلة الشرعية في العقيدة دون تفريق بين ما ثبت بطريق التواتر أو بطريق الآحاد، فهم يرون حجة الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ سواء في الأحكام العملية أو في الأحكام العقديّة.

¹ وسطية أهل السنة بين الفرق، تأليف الدكتور محمد باكريم محمد با عبد الله، ص: 100-101، دار الراجعية للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الأولى 1415هـ/ 1994م.

² الإمام ابن تيمية وقضية التأويل، للدكتور محمد السيد الجليند، ص: 52.

يقول الإمام ابن عبد البر رحمه الله: «ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يُناظر فيه»¹.

ويقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: «والناظر في كلام سلفنا الصالح يعلم أنهم كانوا يشتون العقائد بنصوص القرآن والحديث، لا يفرقون بين المتواتر والآحاد، ولا يفرقون في الاحتجاج بين العقائد والأحكام، ولم يُعرف أحدٌ خالف في هذا من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، ولا من الأئمة المرضيين أمثال الأئمة الأربعة، وكان السلف الصالح وما يزال أتباعهم ينكرون أشدَّ الإنكار على الذين يرغبون إلى ترك الأحاديث والنصوص، والاحتكام إلى العقل، ويسفّهون من قال بذلك»².

وقد ألف بعض العلماء المعاصرين كتباً مستقلةً في إثبات حجية خبر الآحاد في التشريع الإسلامي عموماً، وفي إثبات العقائد خصوصاً.

ومن أنفع وأوسع الكتب المؤلفة في هذا الموضوع كتاب: "خبر الواحد في التشريع الإسلامي وحجتيه"³ للشيخ القاضي برهون المغربي، وقد دفعه إلى توسيع البحث في الموضوع " ما شاع وذاع عند كثير من الباحثين، سواء بشعب الدراسات الإسلامية أو غيرها أن أخبار الآحاد تفيد الظن ومن ثم لا تثبت بها العقائد، أو ليست بحجة، أو لا يحتج بها في الحدود، ولا يقبلها أئمة الفقه والأصول إلا بشروط، إلى غير ذلك مما قالوا ويقولون، ثم ما لاحظته من تضارب الأقوال واختلاف المذاهب في تثبيت حجية أحاديث الآحاد أو إنكار حجيتها أصلاً"⁴.

1 جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، 2/ 96.

2 أصل الاعتقاد، للدكتور عمر سليمان الأشقر، ص: 11، الطبعة الثالثة 1405هـ/ 1985م، وقد ألف هذا الكتاب لنصرة الرأي القائل بالاحتجاج بحديث الآحاد إذا صح دون تفريق بين العقائد والأحكام، قال في مقدمة الكتاب ص 3: (والأدلة التي تثبت بها العقيدة هي أدلة الكتاب والسنة، وكان لا ينبغي أن يُختلف في هذا الأمر إلا أن النصوص قد تعرضت خلال القرون الماضية إلى هجوم شديد بزعم أنها لا تصلح كلياً أو جزئياً لإثبات العقيدة، فأحينا أن نذكر مذاهب العلماء في ذلك على وجه الاختصار مع التركيز على بدعة القول: بأن أحاديث الآحاد الصحيحة لا يحتج بها في العقائد، وبيان بطلانها).

3 أصل الكتاب رسالة جامعية نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (جامعة محمد الخامس) يوم الإثنين 25 جمادى الثانية 1413هـ/ 21 دجنبر 1992م، ونال بها المؤلف دبلوم الدراسات العليا ماجستير في الدراسات الإسلامية/ تخصص السنة وعلومها، بإشراف الدكتور فاروق حمادة، وطبع الكتاب الطبعة الأولى 1415هـ/ 1995م.

4 خبر الواحد في التشريع الإسلامي وحجتيه، للقاضي برهون، ص: 7 بتصرف.

- وخصص المؤلف الباب الثاني من الكتاب للحديث عن خبر الواحد في العقائد والأحكام، وفيه أورد مباحث مهمة تتعلق بالموضوع، مثل:
- الاحتجاج بأحاديث الآحاد في العقائد.
 - أدلة قبول أحاديث الآحاد في العقائد.
 - منكرو الاحتجاج بأحاديث الآحاد قديماً ومناقشتهم.
 - منكرو الاحتجاج بأحاديث الآحاد حديثاً ومناقشتهم.

ثم ذكر في الفصل الثاني من الباب مباحث مهمة في الاحتجاج بأحاديث الآحاد في الأحكام، مستدلاً بعمل الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية، وبذلك تتكامل الأحكام مع العقائد في قبول الاحتجاج لها بخبر الآحاد، خلافاً لمن رد ذلك بحجج وشبهه، ردها المؤلف ردّاً علمياً يقف عليه من رجع إلى الكتاب.

❖ مراعاة قواعد الاستدلال: ومعنى ذلك أنهم يراعون في الاستدلال على إثبات العقيدة المنهجية المتبعة في ترتيب قواعد الاستدلال، فلا يضربون الأدلة الشرعية بعضها ببعض، بل يردون المتشابه إلى المحكم، والمجمل إلى المبين، ولا يعارضون القرآن الكريم أو السنة النبوية بالعقل أو بالقياس، وسيأتي مزيد إيضاح لهذه المسألة في المسألتين: الثالثة والرابعة، وهما:

❖ تقديم النقل على العقل: فمن خصائص منهج السلف في العقيدة تقديم الدليل النقلية وهو الكتاب والسنة الثابتة وفق ضوابط علماء الحديث على العقل، بمعنى أنه إذا حصل ما يوهم التعارض بين العقل والنقل وجب عندهم تقديم النقل على العقل، عملاً بأدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُفَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ ءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾¹.

1 سورة الحجرات، الآية: 1.

❖ العمل بالمحکم والإيمان بالمتشابه: ومعنى ذلك أن من خصائص منهج السلف أنهم يعملون بالمحکم ويؤمنون بالمتشابه، فما بلغهم وعلموه من النصوص في العقيدة أو في غيرها صدقوا وآمنوا به، وما اشتبه عليهم علمه_ مثل بعض نصوص الغيبات والقدر_ سلّموا به وردّوا علمه إلى الله تعالى الذي يعلم تأويله ولا يخوضون في ذلك، عملاً بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ء كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٠٧﴾¹.

❖ الاحتياط في مسألة التأويل في باب العقائد: فمما يميز منهج مدرسة السلف في العقيدة أنهم يحتاطون أكثر من غيرهم في تأويل مسائل العقيدة والغيبات، ويتجنبونه إلا إذا دل عليه دليل شرعي صريح، لأنهم يعتبرون التأويل في باب العقيدة على الإطلاق قولاً على الله بغير علم، ويستدلون على ذلك بأن مسائل العقيدة والغيبات توقيفية لا مجال للرأي ولا للعقل فيها ولا تدرك بالعلوم الحسية.

❖ الاقتصار في التلقي على الكتاب والسنة: فمن خصائص منهج مدرسة السلف «اعتماد كتاب الله الله، والصحيح من سنة رسول الله ﷺ، قبل تفسيرات المذاهب المختلفة وتأويلات أصحابها في مرحلة الاختلاط، والاستشهاد بما عند الأقدمين من أصحاب الأديان والفلسفات والمذاهب الأخرى»².

1 سورة آل عمران، الآية: 7.

2 مقدمة كتاب: العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، للشيخ عبد الحميد بن باديس، تقديم محمد الصالح رمضان، ص: 10.

ويلخص الدكتور مصطفى حلمي أهم خصائص مدرسة السلف في العقيدة، فيقول: «وتكمن قوة العقيدة الإسلامية كما فهمها السلف الصالح- تكمن في مصدرها الإلهي وشموها للكيان الإنساني كله روحاً وجسداً، وتغطي مجال نشاطه لأعمال الدنيا والآخرة، حيث تغذي في الأفئدة حب الحق والدعوة له، وبذل المهج في سبيل جعل كلمة الله هي العليا، فلا عجب أن تجمع الناس حولها فاستطاع العرب بعد إسلامهم - وليس قبله كما يروج القوميون العرب- أن يهزموا دولتي الفرس والروم، وينشروا دعوة الحق والخير في ربوع بلاد العالم المعروفة آنذاك»¹.

هذه أهم خصائص المدرسة السلفية، أو مدرسة أهل الحديث وهي كما رأينا تتلخص في تغليب النقل على العقل في الاستدلال، والاحتياط في مسألة التأويل، وقد سلك مسلك هذه المدرسة أئمة كبار في القدم والحديث، وقد تسمى هذه المدرسة أيضاً بمدرسة أهل الحديث، لأن معظم المحدثين كانوا من أنصارها، كالإمام أحمد بن حنبل، والإمام مالك، والبخاري، وغيرهم كثير، وألف في نصرتها وإظهار محاسنها جلة من العلماء، كالإمام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب... ومؤلفاتهم تشهد على ذلك. ولوضوح منهج هذه المدرسة في عرض العقيدة الإسلامية لقيت قبولاً حسناً عند طائفة من جماهير الأمة، وكان ذلك مما دعا بعض المجددين المصلحين إلى ضرورة العودة إلى إصلاح العقائد الإسلامية، وشرح المصطلحات، وحل القضايا على نمط سلفي واضح، بصريح نص الكتاب الصحيحة، لا برأي الجبرية والقدرية وغير ذلك من الآراء الفلسفية².

1 السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، للدكتور مصطفى حلمي، ص: 51، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية مصر.

2 ينظر: العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، للشيخ عبد الحميد بن باديس، تقدم محمد الصالح رمضان ص: 10، ويعد هذا الكتاب من كتب عصر النهضة المؤلفة في العقيدة على منهج المدرسة السلفية، وهو في الأصل: دروس أملاها الشيخ عبد الحميد بن باديس العالم الجزائري المشهور رحمه الله في الجامع الأخضر بقسنطينة في الفترة ما بين 16 رجب 1353 و 25 صفر 1354 هـ الموافقة لأكتوبر 1934 وماي 1935 م، أي في ثمانية أشهر، بنسبة حصة واحدة في الأسبوع، لا تتجاوز الثلاثين دقيقة، وسط جمع من الطلاب يقارب أحياناً المائة، ثم أخرجها تلميذه محمد الصالح رمضان وطبعت أول مرة في فاتح السنة الدراسية 1963-1964م لما احتيج إليها لتكون مقررًا لتلاميذ المعاهد الإسلامية بالجزائر، وقد سلك الشيخ ابن باديس في تلك الدروس مسلك السهولة والوضوح في عرض العقيدة الإسلامية كما جاءت في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، بعيداً عن الجدل والصراع الذي لا تخلو منه أكثر مصنفات العقيدة الإسلامية، وخاصة في العصور المتأخرة التي ساد فيها التقليد والجمود، وكان الشيخ- منذ طلبه للعلم بتونس وهو في مقتبل الشباب كما وصفه صديقه الشيخ البشير

تلك كانت لمحة مختصرة عن أسس أهم المدارس الكبرى في التقعيد العقدي بعد ظهور الخلاف العقدي عند المسلمين، ولم أقصد بالذي أوردته الاستيعاب، وإنما أشرت به إشارات فقط لعلها تفي بالعرض، وليكن ختام الباب بخطاطة جامعة لأهم محاوره.

الإبراهيمي- : (ينكر بذوقه ما كان يبني عليه مشايخه من تربية تلامذتهم على طريقة المتكلمين في العقائد الإسلامية، ويتمنى أن يخرج تلامذته على الطريقة القرآنية السلفية في العقائد يوم يصبح معلما، وقد بلغه الله أمنيته: فأخرج للأمة الجزائرية أجيالاً على هذه الطريقة السلفية قاموا بحمل الأمانة من بعده، ووراءهم أجيال أخرى من العوام الذين سعدوا بحضور دروسه ومجالسه العلمية) مقتطف من تقديم الشيخ البشير الإبراهيمي للكتاب، ص: 15.

خلاصة نازمة للباب الأول

القواعد العقيدية وتطورها التاريخي

الفصل الأول:

قواعد العقيدة مفهومها ومصادرها وصيغها



الفصل الثاني:

منهج الوحي في عرض القواعد العقيدية



الفصل الثالث:

الملاحم الكبرى لظهور التقعيد العقدي في الأمة الإسلامية قبل نشوء المدارس الكلامية

سمات منهج الأئمة الأربعة في التقعيد العقدي

منهج الصحابة في فهم العقيدة الإسلامية

الفصل الرابع:

أسس الاتجاهات الكبرى في التقعيد العقدي بعد ظهور الخلاف

أسس التقعيد العقدي عند
مدرسة أهل الحديث

أسس التقعيد العقدي عند
الأشاعرة

أسس التقعيد العقدي عند
المعتزلة

وإذا تقرر في الباب السابق مفهوم القواعد العقدية ومصادرها وصيغها، وتبين لنا منهج الوحي في عرض القواعد العقدية، وتعرفنا على أهم الملامح الكبرى لظهور التقعيد العقدي في الأمة الإسلامية قبل نشوء المدارس الكلامية، وختمنا الباب ببيان أهم أسس الاتجاهات الكبرى في التقعيد العقدي بعد ظهور الخلاف، إذا تقرر كل ما سبق حسبما سمح به المقام، فإنه من المناسب أن أذكر نماذج من القواعد العقدية في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، وهذا ما خصصت له الباب الثاني من أبواب البحث:

الباب الثاني

القواعد العقديَّة
والإصلاحُ الفكريُّ والبناءُ
الحضاريُّ

تمهيد:

حينما نستحضر معاني كلمة "العقيدة" ندرك أن هذا المصطلح يفيد الالتزام والإبرام، فهو نقيض الحل، تقول: عقدت الحبل فهو معقود.. ومنه العهد، وعقدة النكاح، والبيع.. وغير ذلك. والجمع عقود وهي أوكد العهود¹، وتؤول جميع تلك المعاني إلى معنى يجمع بين شتاتها، وهو: الالتزام والإلزام الذي أساسه الاقتناع النابع من القلب، سواء كان اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، قال الزبيدي: «والذي صرح به أئمة الاشتقاق أن أصل العقد نقيض الحل...، ثم استعمل في أنواع العقود من البيوعات وغيرها، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم»².

ومن هنا ندرك أهمية تصحيح المعتقد، لأن مبتدأه من القلب، وأمر القلب عجيب، لأنه المضغة التي إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسدت سائر الجسد كما جاء في الحديث الصحيح.

إذا علمنا هذا في جانب "العقد" الذي يدل عليه مصطلح العقيدة، أدركنا سر عناية رسول الله ﷺ ببناء قلوب صفوة أمته من الجيل الأول في مكة المكرمة بناءً عقدياً لا ترحزحه رياح الفتن مهما اشتدت، فقد «عكف الرسول ﷺ على ذلك التكوين العقدي للصفوة الأولى التي التحقت برسالته عقداً ونيفاً من السنين، التكوين القائم على تعاليم أصل التوحيد في صفائه وكمال تجليه بشموله لمختلف مناحي ومناشط الحياة، يوحد وجهتها وقصدها، كما يوحد مناهج عملها ورؤاها وتصوراتها. وفهمنا أيضاً سر تلك التضحيات والبلاء الحسن في بناء المجتمع الإسلامي الأول، والنشاط في نشر الدعوة بفتح مختلف الأقطار والأمصار. وبالمنطق نفسه، وهذه المرة في سياق "الحل" لا "العقد" نفهم كذلك أنه لما بدأت تنحل عقد ذلك الأصل، وتنقسم عراه، وتشوبه الشوائب المختلفة.. بانحساره عن توجيه

1 قد سبق تعريف العقيدة لغة واصطلاحاً في الباب الأول، وينظر: لسان العرب لابن منظور، 3/ 296.

2 تاج العروس للزبيدي، مادة (عقد) 2/ 426.

وتأطير قطاعات الحياة والمجتمع، وانطوائه في نفوس حامله لينزوي في ركن "إيماني" نظري محض، نفهم لما ذا أسرع الوهن إلى جسم الأمة ودبَّ فيها الانهيار بفقد تلك الروح والطاقة الكامنة لفاعليتها وتعطيل لدورها. ولتحل محلها مباشرة العصبية الخاصة والضيقة، والأنانيات والمصالح الفردية، والخلاف المفرق والمجزئ، والاستبداد والطغيان»¹.

والإيمان الحقيقي الذي أخرج الأمة من الظلمات إلى النور ليس «مقولة تجريدية، أو بناء منطقياً رياضياً، تنتهي حدوده في التناظر العقلي، بل هو قوة حية، وسند عميق، تستمد منه الذات المسلمة رؤيتها للعالم، هذه الرؤية التي تعيد تفسير الوجود وتأويله، وتُنسّق بين تفاصيله وجزئياته في وحدة روحية تحقق المعنى، وتجب عن إشكال المعيش، وقلق الحياة، وفضلاً عن هذا يشكل الإيمان الآصرة التي تصل بين أفراد الأمة، وتحفظ هويتها الدينية المتماسكة»².

ونظراً لأهمية العقيدة الإسلامية في بناء الأمة، فقد حاولت في هذا الباب أن أبرز أثر القاعدة العقدية في الإصلاح الفكري للأمة الذي هو أساس ومقدمة للبناء الحضاري بتجلياته المختلفة.

ومما لا شك فيه أن هناك تلازماً تاماً بين الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، إذ الأول مقدمة وشرط، والثاني نتيجة ومشروط، وبذلك تستخلص العلاقة الجدلية بين التصور العقدي الذي يُعنى بإصلاح فكر الإنسان، وبين فعل هذا الإنسان وتصرفاته في الواقع، بمعنى أن الحديث عن أي عمران وبناء حضاري شامل ومتكامل للإنسان المستخلف في الواقع لا بد أن يسبقه ويصاحبه عمران للقلب وإصلاح للفكر، ولا يتأتى ذلك إلا بعقيدة صحيحة من الشوائب، فيتعلق الإنسان المستخلف بربه، ويدرك الغاية من وجوده، ويعرف ما ينتظره

1 الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، د سعيد شبار، ص: 555، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 2007 م .

2 من افتتاحية الدكتور أحمد عبادي الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب مجلة "الإبانة"، ص: 7، العدد الخامس/ ربيع الأول 1440هـ - نونبر 2018م.

في الحال والمآل وفق تصوري عقدي يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، لذلك انتظم هذا
الباب بعد التمهيد في فصلين اثنين:

الفصل الأول

القاعدة العقديّة والإصلاح الفكري.

المبحث الأول: مفهوم الإصلاح الفكري.

والحديث في هذا المبحث ينتظم في المطالب الآتية:

المصطلب الأول: مفهوم الإصلاح في اللغة وفي الاصطلاح

الإصلاح في اللغة مصدر للفعل الثلاثي المزيد بالهمزة، وهو نقيض الإفساد، وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه¹، ومنه قوله: «وَإِذَا فِئَلٌ لَّهُمْ لَا تُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَالْوَأِ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٢﴾»²، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة: «الإصلاح ضد الإفساد، أي جعل الشيء صالحاً، والإصلاح ضد الفساد، يقال: صلح بعد أن كان فاسداً ويقال: صلح بمعنى وُجد من أول وهلة صالحاً»³.

ولا يكاد يختلف المعنى الاصطلاحي للإصلاح عن معناه اللغوي، فقد وقفت على إشارة من الراغب الأصفهاني يمكن أن تكون تعريفاً اصطلاحياً للإصلاح، وهي قوله: «وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصالح»⁴.

وأوضح تعريف اصطلاحى للإصلاح نجده عند الشيخ الطاهر بن عاشور، حيث يقول: «وإصلاح جعل الشيء صالحاً، أي: ذا صلاح والصلاح ضد الفساد، وهو كون شيء بحيث يحصل به منتهى ما يُطلب لأجله، فصلاح الرجل صدور الأفعال والأقوال الحسنة

1 لسان العرب، لابن منظور، مادة (صلح)، 2/ 617.

2 سورة البقرة، الآية: 10_11.

3 التحرير والتنوير، 1/ 285.

4 المفردات، للراغب الأصفهاني، ص: 490.

منه، وصلاح الثمرة كونها بحيث ينتفع بأكلها دون ضرر، وصلاح المال نمائه المقصود منه،
وصلاح الحال كونها بحيث تترتب عليها الآثار الحسنة»¹.

ونستنتج مما سبق في تعريف الإصلاح أنه عمل شاق يتطلب جهداً مستمراً، لأن جعل الشيء صالحاً بعد أن كان فاسداً ليس بالأمر الهين، ولذلك كان عمل المجتهدين والمصلحين في كل زمان ومكان مخوفاً بالمكانة والمشاقة، وفي مقدمتهم صفوة الخلق: أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، وتلك سنة الله تعالى حتى يميز الخبيث من الطيب، وسيأتي مزيد إيضاح لهذا الأمر في المبحث الثاني عند الحديث عن أهمية الإصلاح الفكري.

المصطلب الثاني: مفهوم الفكر.

من التعاريف التي عرّف بها الفكر أنه: «إعمال الخاطر في شيء»²، أو «هو النظر فيما وراء الشيء، وربما يسمّى اعتباراً، فهو سلّم إلى فوق، فإذا انتهى إلى ما هو المنتهى رجع القهقري أو وقف، ولكن التوقّف ليس من شأن الفكر، فلا بد من رجعة بعد المنتهى...»³.

وهذه التعاريف تناسب الفكر بمعنى: التفكير والتأمل والنظر والتدبر في الشيء، وهذه كلها مقدمات ضرورية لإصلاح الفكر بمعناه الشامل الذي أعنيه هنا، وهو أشبه بما اصطلح عليه بإعادة تشكيل العقل المسلم بعد، والخروج من مرحلة التيه والحيرة التي وقع فيها بعد عصور الانحطاط والجمود، ومن أشهر من استعمل هذا المصطلح - إعادة تشكيل العقل المسلم - حسب علمي: الدكتور عماد الدين خليل، وألف كتاباً يحمل هذا العنوان⁴، ولا بأس من وقفة مختصرة مع مضامين هذا الكتاب حتى نتبين أن المؤلف يروم من خلال هذا

1 المرجع السابق، 2/ 355-356.

2 انظر: ابن منظور، لسان العرب، 5/ 65.

3 مفردات القرآن، الفراهي، ص: 302.

4 صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في شهر رمضان 1403هـ ضمن سلسلة كتاب الأمة الصادر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، وهو من أوائل السلسلة، حيث يحمل رقم: 4.

الكتاب دراسة أهم أسس الإصلاح الفكري لدى المسلمين، باعتباره شرطاً ضرورياً للبناء الحضاري، فقد تناول الدكتور عماد الدين خليل في كتابه أهم مقومات بناء العقلية المسلمة القادرة على البناء الحضاري للخروج مما أصاب هذه العقلية من عقم وتخلف، محذراً من الرؤية التجزيئية أو الموقف النصفني عند الحديث عن أي عملية تروم الإصلاح والتجديد، وقد ركز في كتابه على بحث التحولات الكبيرة التي أعادت تشكيل العقل البشري بنزول الوحي الخاتم «وطرحت تجاهه آفاق شاسعة، ممتدة الجوانب، بعيدة الحدود، دُعي للتحرك إليها والاستجابة لنداءاتها.. على المستويات كافة: التصورية، الاعتقادية، المعرفية، المنهجية.. والحضارية وكان جديراً حقاً بتلبية النداء، قديراً على التحقق بمعطياته..»¹، ليخلص إلى أن النتيجة المحتومة التي تمنحنت عن تلك التحولات الكبيرة «الحاسمة عقدياً ومعرفياً ومنهجياً.. تشكل عقل جديد قدير على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع»²، ولذلك فصل القول في أبعاد التحقق التاريخي، ليرز أن «النقلة أو التحول الحضاري الكبير الذي نفذه المسلمون، وتحققوا به عبر قرون التألق والعطاء، إنما جاء ثمرة " للعقلية " التي صاغها الإسلام ومكنها بتحولاته الخطيرة تلك من أن تؤدي جوهرها الشامل في تكوين وإغناء الحضارة الإسلامية.. إن الأفكار، أو النشاط العقلي، بعبارة أخرى، هو الذي يسهم جنباً إلى جنب مع قوى الإنسان الأخرى وطاقاته المتشعبة، في صناعة الحضارات وليس العكس مما تقول به بعض النظريات التي أكدت رجعتها آخر معطيات العلم الحديث..»³، ثم انتقل إلى الفصل الثالث فشرح لنا فيه الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية، ومثل ذلك «بمثلث متساوي الأضلاع، محكم الزوايا، أو بمعادلة ذات ثلاثة أطراف، أو بعمارة مؤلفة من أدوار ثلاثة، يقوم أحدها على الآخر، ويتناظر معه بتطابق هندسي معماري مرسوم: الأرضية، والإنسان، وبرنامج العمل.. وسنجد، دون تمحل ولا تشنج ولا تعمد مسبق على حساب المنهج، كيف أن الأطراف الثلاثة هذه

1 حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص: 28.

2 المرجع السابق، ص: 63.

3 المرجع السابق، ص: 64.

تؤول، من خلال معطياتها الخاصة وطبيعتها علاقتها بالطرفين الآخرين، إلى موقف حضاري، سداه العمل والإنجاز، ولحمته الكشف والإبداع.¹ ويختتم بفصل رابع يرتبط أشد الارتباط بالهيكل الحضاري الذي جاء به الإسلام، فتحدث عن الملامح الأساسية للفعل الحضاري الإسلامي، وهي الملامح الأساسية التي تميز معطيات الهيكل الحضاري الإسلامي، وتمنح للمسلم شخصيته المتفردة «بما أنها حصيلة لقاء ذي توجه إيماني بين العالم والإنسان والدين»².

والخلاصة - بعد تعريف الإصلاح والفكر - أن الإصلاح الفكري هنا يرادف أو يشبه ما سمي بإعادة تشكيل العقل المسلم، وقد يسمى أيضاً: بناء الوعي.

المصطلب الثالث: التلازم بين الإصلاح والصلاح.

عند الحديث عن الإصلاح تبرز قضية جدية بالتنبيه عليها، ألا وهي التلازم بين الإصلاح والصلاح، والمتأمل في القرآن الكريم يجد هذا التلازم بينهما، والسر في ذلك أن الإصلاح ثمرة الصلاح، إذ لا يتصور أن يصدر الإصلاح إلا ممن صلح في نفسه أولاً، فالصالح هو الذي كفى الخلق همه، والمصلح هو الذي حمل هم الخلق.

وقدوة البشرية في الصلاح والإصلاح هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، لهذا وجدنا خطاب القرآن الكريم عنهم تارة بوصفهم صالحين في أنفسهم، وتارة أخرى بوصفهم مصلحين لغيرهم، وفي ذلك إشارة مهمة إلى أن من ينصب نفسه للإصلاح ينبغي أن يتحقق فيه الإصلاح حتى يكون قدوة لغيره، وقد تحقق هذا التلازم بينهما في صفوة الخلق، ومن ذلك ما نقرأه في قول الله تعالى على لسان نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَلْفَومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ

1 المرجع السابق، 92.

2 المرجع السابق، ص: 113.

أَخَالِفْكُمْ ۖ إِلَىٰ مَا أَنهَيْكُمْ عَنْهُ ۖ إِنِ ارِيدُ إِلَّا الصَّالِحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾¹، فقد ذكّر نبي الله شعيب قومه بأنه أول من يجتنب ما ينهاهم عنه وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ارِيدُ أَنْ أَخَالِفْكُمْ ۖ إِلَىٰ مَا أَنهَيْكُمْ عَنْهُ﴾، وهذا هو عين الصلاح، ثم بيّن لهم أن مهمته تتمثل في القيام بالإصلاح حسب استطاعته، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِ ارِيدُ إِلَّا الصَّالِحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، فجمع النص الكريم بين الصلاح والإصلاح.

وقال تعالى على لسان نبي الله موسى لما أراد أن يستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون عليهما السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾².

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل ولوط عليهما السلام: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾³.

وقال تعالى في وصف مجموعة من أنبيائه عليهم السلام: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۗ إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾⁴.

1 سورة هود، الآية: 88.

2 سورة الأعراف، الآية: 142.

3 سورة الأنبياء، الآية: 70-71.

4 سورة الأنبياء، الآية: 84-85.

وبين القرآن الكريم أن الإصلاح الحقيقي لا يتحقق إلا بالرجوع إلى مصدر الهداية: القرآن الكريم والتمسك به حقّ التمسك، فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾¹.

قال صاحب الظلال في تفسير هذه الآية - وقد لاحظ هذا التلازم بين الإصلاح والإصلاح-: «والتمسك بالكتاب في جدّ وقوة وصرامة، وإقامة الصلاة، أي: شعائر العبادة، هما طرفا المنهج الرباني لإصلاح الحياة، والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر يعني مدلولاً معيّنًا، إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس، فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح بسواه، والإشارة إلى الإصلاح في الآية: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾² يشير إلى هذه الحقيقة، حقيقة أن الاستمسك الجاد بالكتاب عملاً، وإقامة الشعائر عبادةً هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين»².

إن هذا التلازم بين الإصلاح والصالح برهان واضح يبرز ما للإصلاح من أهمية، وهذا ما سنتعرف عليه في المبحث الثاني، مقتصرين على ذكر أهمية الإصلاح الفكري، لأنه مقدمة وشرط لأي إصلاح آخر.

المبحث الثاني: أهمية الإصلاح الفكري

ولبيان أهمية الإصلاح الفكري، أرى لزاماً أن أذكر بعض المقدمات المختصرات التي يستفاد منها أن إصلاح الفكر شرط لإصلاح ما سواه.

1 سورة الأعراف، الآية: 170.

2 في ظلال القرآن، سيد قطب، 3/ 1388.

المطلب الأول: مقدمات ممهّدات بين يدي المصلب الثاني.

وهذه المقدمات ممهّدات للمطلب الثاني، وتروم إبراز أهمية الإصلاح بوجه عام، وينتظم الحديث عن هذه المقدمات في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: الإسلام بما تضمنه من أحكام وتشريعات هو رسالة إصلاحية، جاءت لإصلاح الفرد والمجتمع، وقد كانت دعوة جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام صريحة في الدعوة إلى الإصلاح من أجل الوصول إلى صلاح الدنيا والبشرية والفوز بسعادة الدنيا والآخرة، وشعارهم قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الصَّالِحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾¹.

المسألة الثانية: الإسلام يحارب الفساد والإفساد، لأنه لا يمكن أن تقوم للإصلاح قائمة عند وجود ضده الذي هو الفساد، ولذلك نجد القرآن الكريم ينهى عن الفساد والإفساد في نصوص كثيرة، منها قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَا فِئَلٌ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾².

- ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْقَبْسَادَ ﴿٢٤﴾﴾³.

- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾⁴.

1 سورة هود، الآية: 88.

2 سورة البقرة، الآية: 10_11.

3 سورة البقرة، الآية: 203.

4 سورة الأعراف، جزء من الآية: 55.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾¹.

- ﴿وَلَا تَبْغِ الْبَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾².

المسألة الثالثة: الإصلاح والدعوة إليه ضمانان من ضمانات نزول الرحمة بأهل الأرض،

و ضمانان لمنع نزول العقوبة بهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ

الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾³.

المسألة الرابعة: الإصلاح ليس «كلمة عابرة، أو حركة عشوائية، أو منتجاً يتم استيراده،

وإنما هو مسألة كبرى لها أحكامها وقواعدها وشروطها ومقاصدها ووسائلها، بما يجعلها

عملية منهجية منضبطة محكومة بقواعد وأسس علمية مستمدة من أصول الإسلام»⁴.

المصلب الثاني: لا إصلاح للفكر إلا بعقيدة صحيحة.

وهذه إحدى القواعد العقدية المهمة في هذا الباب، وبيانها أن الإصلاح الفكري هو

أساس أي إصلاح، لأن الفكر إذا استقام توجه إلى المجالات الأخرى بالإصلاح، وإذا فسد

الفكر فسد ما سواه، والمدخل الأعظم لإصلاح الفكر البشري هو الإصلاح العقدي، فإن

أي بناء للإنسان-فكراً وحضارة وعمراناً...- لا يهتم بالبناء العقدي هو بناء غير متوازن،

لأن الإنسان قبضة من تراب ونفخة من روح، والذي يحفظ للإنسان توازنه، ويجعله يعيش

منسجماً بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد هو الإيمان الصحيح، يقول الدكتور عبد

المجيد النجار: «ولا يمكن أن يحدث في حياة الأمة الإسلامية انتعاش معتبر إلا بإصلاح

1 سورة يونس، الآية: 81.

2 سورة القصص، الآية: 77.

3 سورة هود، الآية: 117.

4 مناهج الإصلاح، للدكتور عبد الناصر أبو البصل، ص: 5، وهو مقال مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر

"الاجتماع المسلم.. الثوابت والمتغيرات" الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، 4_5 ذو الحجة 1433هـ

20_21 أكتوبر 2012م.

عقدي يرشد تحمل الأمة لعقيدتها لتقع في النفوس من جديد موقع الدفع إلى العمل الصالح المعمر في الأرض والمنمي للحياة»¹.

ولأهمية العقيدة ودورها في الإصلاح وجدنا أنها أول ما بدأت به الدعوة الإسلامية، واستمر رسول الله ﷺ يغرستها في القلوب ثلاثة عشر سنة في مكة المكرمة، يقول الإمام الطاهر بن عاشور: «إن المقصد الأعظم من الشريعة هو جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان ودفع فساده، فإنه لما كان هو المهيمن على هذا العالم، كان في صلاحه صلاح العالم وأحواله، ولذلك نرى الإسلام عاجل صلاح الإنسان بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعته وهو النوع كله، فابتدأ الدعوة بإصلاح الاعتقاد الذي هو إصلاح مبدأ التفكير الإنساني الذي يسوقه إلى التفكير الحق في أحوال هذا العالم»².

والمأمل في عرض القرآن الكريم للعقيدة، يلحظ أنه جعل المسائل الغيبية وكل ما يرجع إلى العقيدة مبنية على التسليم والإذعان، وهذا بخلاف القضايا العقلية والمسائل الفكرية التي أطلق فيها الإسلام للعقل حرية التفكير والنظر فيها، والسر في هذا -والله أعلم- أنه لما كانت مسائل العقيدة تندرج في مجال القطعيات والثوابت، وكانت تستند إلى عالم الغيب، طُلب من المؤمن أن يكتفي فيها بالتسليم والإذعان، ولعل هذا ما يقصده الإمام الطاهر بن عاشور لما قال: «...لأنني نظرت في هذا إلى ما امتازت به العقيدة من كونها تفكيراً مقدساً ومختصاً بموضوع معين، وهو وجود الله تعالى وصفاته وصفات رسله، ومن كونها تفكيراً نتلقى مبادئه وأوائله بصورة التقليد³ والتسليم للرسول، الموثوق بصدقه

1 مقال مهم للدكتور عبد المجيد النجار بعنوان: "دور الإصلاح العقدي في نهضة الأمة"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد: 1، بتاريخ 19/07/2008.

2 مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص: 70.

3 لو عبر -رحمه الله- هنا بالمتابعة أو الاتباع، بدل "التقليد" لكان أحسن وأدق، لأن مصطلح التقليد يطلق غالباً على قبول قول القائل بغير دليل، والرسول ﷺ دليلٌ وحجة في نفسه، فكيف يوصف اتباعه بالتقليد!

لتحصيل العلم بما يجب سلوكه للنجاح في الحياتين، كي يسلم صاحبه من الوقوع في مهاوي الأغلاط في الحياة العاجلة وفي مهاوي الخسران في الحياة الآخرة»¹.

ولقد أفاض القرآن الكريم في حديثه عن العقيدة الإسلامية وحسم فيها، وقدم الأجابة المقنعة للجوانب المثيرة للجدل عبر التاريخ البشري، مثل حقيقة الإنسان وأصله ونشأته، وكذا بيان الحقيقة والغاية من وجوده، والحديث عن مصير هذا الإنسان بعد موته، وغير ذلك من القضايا التي تشغل بال الإنسان، وتاهت فيها كثير من العقول، ولم تهتد كثير من الأفهام لإدراك حقيقتها، ولن تهتدي فيها إلى الصواب إلا إذا استرشدت بنور الوحي، لأنها من أنباء الغيب التي لا يمكن للعقل البشري المجرد الاهتداء إليها ما لم يستضيء بالوحي المعصوم، فكل ذلك أجاب عنه القرآن الكريم إجابات شافية، سواء تعلق الأمر بالكون أو الحياة أو الإنسان، وإن اهتمام القرآن الكريم ببيان كليات العقيدة الإسلامية، كان من أجل بناء الإنسان بناءً صحيحاً متوازناً، حتى يحقق الاستخلاف المنوط به، المنصوص عليه في نصوص كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّنِي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾²، ولا عجب أن كان من مقاصد الشريعة الإسلامية رعاية هذا الإنسان المستخلف وصلاحه، لأن في صلاحه صلاحاً لما سواه مما يقع تحت مسؤوليته، وهذا ما دلت عليه موارد الشريعة الإسلامية التي استفيدت منها مقاصدها، كما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا من كليات دلائلها ومن جزئياتها المستقرأة أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان»³.

1 أصول النظام الاجتماعي، للطاهر بن عاشور، ص: 51.

2 سورة البقرة، جزء من الآية: 28.

3 مقاصد الشريعة الإسلامية، للطاهر بن عاشور، ص: 68.

ونظراً لأهمية الإصلاح بشكل عام، والإصلاح العقدي بشكل خاص كان له نصيب كبير في القرآن الكريم، ويكفي أن ندرك بأن من أسمى مقاصد القرآن الكريم إصلاح العقيدة، وقد عبر عن هذا الأمر الشيخ الطاهر بن عاشور فقال: «المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبianaها بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا ثمانية أمور: الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح...»¹، وممن نصَّ على ذلك أيضاً الإمام محمد رشيد رضا، فقد قال -وهو يذكر أنواع مقاصد القرآن الكريم-: «النوع الأول من مقاصده الإصلاح الديني لأركان الدين الثلاثة»².

وإنما كانت عناية القرآن الكريم بالإصلاح العقدي في المقام الأول قبل الحديث عن شُعب الإصلاح الأخرى، لأن العقيدة هي التي توجه وتحرك جميع التصرفات، وما أشبهها بالقلب مع سائر أعضاء جسم الإنسان، فإذا صلح القلب صلح معه سائر الأعضاء، وإذا فسد فسدت الأعضاء كلها، وهذا ما نشاهده في الأمة الإسلامية، فقد كانت أمة متماسكة سالحة ومُصلحةً وبانيةً للحضارة حينما تمسكت بعقيدة سليمة صحيحة، ولما وقع عندها خلل في العقيدة حصل الخلل في جميع التصرفات، لذلك لا غرو أن وجدنا من أول مقاصد القرآن الكريم الكبرى إصلاح العقيدة وبيان مقاصدها، ومعالجة جميع القضايا التي تشغل بال الإنسان في كل زمان ومكان، ولقد «اتجه السياق دائماً إلى الحديث عن وحدة الألوهية، بوصفها التصحيح الضروري للتصور، والقاعدة الأساسية لإقامة هذا التصور، ثم لإقامة سائر القواعد الأخلاقية والنظم الاجتماعية، المنبثقة من هذا التصور»³.

إن ما تقدم في المبحثين السابقين من بيان أهمية الإصلاح الفكري بعقيدة صحيحة يقودنا إلى طرق باب مهم، وهو قطب رحي هذا الفصل، ألا وهو عرض نماذج من القواعد

1 التحرير والتنوير، 1/ 40.

2 تفسير المنار، 11/ 171.

3 في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 151.

العقدية في الإصلاح الفكري، ولن يتسع المجال لذكر كل القواعد التي وقفت عليها، لذلك سأكتفي بذكر أكثرها أهميةً حسب جهدي المتواضع، متجاوزاً بعض الجزئيات والتفاصيل.

المبحث الثالث: نماذج من القواعد العقدية في الإصلاح الفكري

وهذه القواعد كثيرة، وسأكتفي بإيراد بعضها حسب الشرط الذي أشرت إليه سابقاً، مع التنبيه إلى أن هذه القواعد أو بعضها قد تصلح أيضاً أن تكون قواعد للبناء الحضاري، وإنما آثرت أن أذكرها هنا لأن الإصلاح الفكري مقدمة للبناء الحضاري، فسواء ذكرت هذه القواعد هنا أو هناك فلا مشاحة في ذلك، إذ الغرض هو التوسل بتلك القواعد العقدية إلى الإصلاح الفكري والبناء الحضاري للأمة.

المصطلب الأول: قاعدة "الأصل في النص العقدي العمل علماً اللغة بدليل العمل"¹.

والقاعدة محاولة لوضع منهاج يتجاوز الخلاف القائم بين علماء العقيدة قديماً وحديثاً حول مسألة التأويل لنصوص العقيدة أو عدمه، وتُقدم القاعدة حلاً وسطاً خلاصته أن الأصل في نصوص العقيدة أن يُنظر فيها إلى ما يقتضيه المقام ويستدعيه السياق، فلا يُترك حملها على معانيها الحقيقية للمجاز الذي هو التأويل هنا، ولا يُمنع فيها التأويل إذا لزم الأمر وتعين بدليل مقبول منه، والقاعدة بهذه الصيغة قاعدة عامة ترسم المنهج الوسطي للتعامل مع النصوص العقدية بحملها تارة على الحقيقة، وهذا هو الأصل والأساس، وبحملها على المجاز للضرورة، وقد تُصاغ القاعدة بصيغة أخرى، إذا أريد التنبيه على الأصل والأساس الذي هو

1 من الواجب العلمي عليّ أن أصرح هنا أن فضيلة أستاذي المشرف الدكتور عبد الرحمن العضاوي قد ساعدني كثيراً في صياغة بعض القواعد العقدية سواء في هذا الفصل، أو في الفصل الثاني، ومن الأمانة العلمية أن أعترف أن القاعدة الأولى التي صدرت بما هذا الفصل هي من صياغته، فجزاه الله عني كل خير.

عدم التأويل إلا بدليل، فتصاغ مثلاً بالصيغة الآتية: **الأصل حمل النص العقدي على ظاهره من اللغة، ولا يلجأ فيه إلى التأويل إلا بدليل.**

وإنما بدأت بهذه القاعدة لأنها تتعلق بالتأويل الذي أرى أن عدم تحرير النزاع فيه هو سبب كثير من الخلافات الفكرية وما نتج عنها بين الأمة قديماً وحديثاً، ويطول الحديث فيه، وخاصة عند المتكلمين، والخلاف فيه مشهور بينهم، فمنهم من يجيزه ويتوسع فيه توسعاً كبيراً، ومنهم من يمنعه مطلقاً، ومنهم من يجيزه للضرورة، والرأي الأخير هو ما قصدته في القاعدة، وهو الرأي الراجح.

ويصور لنا أحد كبار المتكلمين وهو إمام الحرمين في الرسالة النظامية هذا الخلاف بين علماء العقيدة الإسلامية فيقول: «اختلف مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في أي الكتاب وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله عز وجل، والذي نرتضيه رأياً وندين الله تعالى عقيدة اتباع سلف الأمة للدليل القاطع أن إجماع الأمة حجة فلو كان تأويل هذه الظواهر حتماً لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع»¹.

ويصنف الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي التأويل - الذي لا يستند إلى دليل في هذا الباب - من عوامل الانحراف الفكري الذي لا عذر فيه ولا وجه له، فيقول: «ومما يدخل في العامل الثالث كل تصور أو اعتقاد أو سلوك، يستند فيه صاحبه إلى تأويل نص من نصوص القرآن أو السنة بطريقة لا تقره عليها قواعد اللغة العربية في أي من المذاهب الواردة. أكثرها يعود إلى العقائد وأصول الفكر الإسلامي، وبعضها يعود إلى الفروع السلوكية... فمن ذلك تأويل كثير من آيات الصفات، بما يستلزم تعطيل الذات الإلهية عن تلك

1 أورد هذا الكلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري، 13/ 407_408.

الصفات، كمن ينفي عن الله اليد التي أثبتتها لنفسه في مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْهَوْنَ كَيْفَ يَشَاءُ﴾¹، أو ينفي الاستواء الذي أثبتته لنفسه بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾²، أو ينفي المحيء الذي نسبه إلى ذاته في قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَبَأًا صَبًّا﴾³، وإنما يفعل ذلك من يفعله بحجة تنزيه الله تعالى عن مستلزمات الحدوث ومظاهر التشبيه، فيقع فيما يشبه تكذيب الله فيما وصف به ذاته أو نسبه إلى نفسه. وليس هذا الثاني أقل خطراً أو سوءاً من التشبيه أو التجسيم الذي حاول أن يفر منه.

ولعلك أدركت معنى التعطيل الذي نعنيه، والذي يوقع صاحبه في هذه المغبة الخطيرة، بل قد يؤدي به إلى منزلق الكفر، إن المعنى المراد منه هو تفرغ الكلمة من مضمونها اللغوي الذي وُضِعَتْ له فيما يحتمل معناه الحقيقي، أو من مضمونها المجازي فيما دلت القرائن على ضرورة صرفه إلى المعنى المجازي. فلا هو يترك الكلمة دالة على معناها الحقيقي، ما دام ذلك متأثراً وممكناً، ولا يصرفها إلى المعنى المجازي الذي تقتضيه الضرورة وتنطق به الأدلة والنصوص الأخرى. ولا ريب أن هذا العمل يسمى تعطيلاً للغة، وتعطيلاً للنص القرآني أن يدل على المعنى الذي سيق من أجله»⁴.

وتتفرع عن القاعدة السابقة قواعد أخرى هي بمنزلة الشرح والبيان والتفصيل لها، ويمكن استحضار قاعدتين منها في هذا المقام:

1 سورة المائدة، جزء من الآية: 66.

2 سورة طه، الآية: 4.

3 سورة الفجر، الآية: 24.

4 السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 120_121، دار الفكر دمشق، الطبعة الرابعة عشرة، 1437هـ 2016م.

القاعدة الأولى: " ما غاب عن العيون، فلا يصفه ذوو العقول إلا

بغير"، ومن ذكر هذه القاعدة العقديّة من علماء الغرب الإسلامي المالكيين الحافظ ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وتعتبر القاعدة من " من الأسس المنهجية الكبرى لمالكية المغرب في التعامل مع النصوص المتشابهات، احتياطاً من حملها على المجاز فيما محمله الحقيقة، أو حملها على الحقيقة فيما محمله المجاز"¹.

القاعدة الثانية: " لا يُنقل من الحقيقة إلا بالبرهان، وهي قاعدة

مهمة في باب التأويل، وتظهر أهميتها في أنّها تضبط التأويل ضبطاً محكماً، وذلك بمنع المتأول من مخالفة ما دل عليه ظاهر دلالات الألفاظ اللغوية على معانيها، فالأصل في الكلام أن يُحمل على الحقيقة التي وُضِعَ لها ظاهر اللفظ، وتكمن أهمية القاعدة أيضاً في كونها تمنع المتأول من الإفلات من ضوابط القواعد الشرعية العامة، والقواعد العقلية الصريحة. ومن أشار إلى القاعدة الإمام المازري المالكي عند شرحه حديث الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ، فقد بين في كتابه " المعلم بفوائد مسلم " -استناداً إلى هذه القاعدة- أن معجزة الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ كانت بالجسد والروح، وليس هناك ما يمنع من ذلك نصاً ولا عقلاً، كما أنه ليس لمن يصرف المعنى هنا عن عمومته إلى تخصيصه بالروح أو الجسد أي دليل لا من الشرع ولا من العقل"².

وإذا عُلم أن الأصل والقاعدة الكلية في هذا الباب هو التمسك بظاهر النص حذراً من الزلل في الفهم المفضي إلى الضلال في العمل، فقد يقتضي الأمر أحياناً اللجوء إلى التأويل إذا تعذر حمل النص على ظاهره المتبادر منه، ولذلك شروطه وضوابطه التي تُعلم في

1 تأصيل المباحث العقديّة من خلال برهانية السلاجي (ت 564هـ) بشرح أبي بكر الخفاف الأنصاري (ت ق 7 هـ) دراسة وتحقيق الدكتور محمد جمال، ص: 6-7، وتوجد نسخة من هذا البحث المرقون في خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال.

2 ينظر كتاب: المعلم بفوائد مسلم، 1/ 220.

مظانها، وأكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاث ضوابط كلية أوردتها الإمام الغزالي في رسالته الموسومة بـ "قانون التأويل" على شكل وصايا ثلاث، وهي:

«الوصية الأولى: أن لا يطمع في الاطلاع على جميع ذلك، وإلى هذا الغرض كنت أسوق الكلام. فإن ذلك في غير مطمع، وليتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا فَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: 85].

ولا ينبغي أن يستبعد استتار بعض هذه الأمور على أكابر العلماء فضلاً عن المتوسطين، وليعلم أن العالم الذي يدعي الاطلاع على مراد النبي صلى الله عليه وعليه وسلم في جميع ذلك فدعواه لقصور عقله لا لوفوره.

الوصية الثانية: أن لا يكذب برهان العقل أصلاً، فإن العقل لا يكذب، ولو كذب العقل فلعله كذب في إثبات الشرع، إذ به عرفنا الشرع، فكيف يعرف صدق الشاهد بتزكية المزكي الكاذب. والشرع شاهد بالتفاصيل، والعقل مزكي الشرع.

الوصية الثالثة: أن يكف عن تعيين التأويل عند تعارض الاحتمالات، فإن الحكم على مراد الله سبحانه، ومراد رسوله ﷺ بالظن والتخمين خطر. فإنما نعلم مراد المتكلم بإظهار مراده، فإذا لم يظهر فمن أين تعلم مراده إلا أن تنحصر وجوه الاحتمالات، ويبطل الجميع إلا واحداً فيتعين الواحد بالبرهان.

ولكن وجوه الاحتمالات في كلام العرب، وطرق التوسع فيها كثير، فمتى ينحصر ذلك. فالتوقف في التأويل أسلم»¹.

ونخلص بعد هذا كله إلى أن القاعدة العقدية السالفة الذكر وما تفرع منها، تصلح أن تكون ركيزة كبرى من ركائز الإصلاح الفكري، ومقدمة لضبط ميزان النظر الفكري العقدي لدى الأمة، لأنها قاعدة تعصم من التأويل الذي لا ينضبط بضوابط الشرع واللغة

1 قانون التأويل، للإمام الغزالي، قرأه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد دبيجو، ص: 21_22، الطبعة الأولى 1413هـ 1992م

والعقل، وهي أيضاً تقف موقفاً وسطاً بين غلاة النقل وغلاة العقل، وقد لخص الإمام الغزالي في كتابه " قانون التأويل " آراء الخائضين في المنقول والمعقول في هذا الباب، فقال: «بين المعقول والمنقول تصادم في أول النظر. وظاهر الفكر، والخائضون فيه تحزبوا إلى مفرط بتجريد النظر إلى المنقول، وإلى مفرط بتجريد النظر إلى المعقول، وإلى متوسط طمع في الجمع والتلفيق.

والمتوسطون انقسموا إلى من جعل المعقول أصلاً، والمنقول تابعاً، فلم تشتد عنايتهم بالبحث عنه، وإلى من جعل المنقول أصلاً، والمعقول تابعاً، فلم تشتد عنايتهم بالبحث عنه، وإلى من جعل كل واحد أصلاً، ويسعى في التأليف والتوفيق بينهما، فهم إذن خمس فرق»¹.
والتوسط في القاعدة يظهر في كونها لا تلغي التأويل بالجملة، وإنما تبرز أن الأصل الحافظ من الزيغ في باب العقيدة هو التمسك بظواهر² النصوص الواردة فيها، مما هو مفهوم من الوضع اللغوي العربي، وإذا اقتضت الضرورة أن يلجأ المتأول إلى التأويل فالقاعدة لا تمنعه إذا توفرت شروطه، أما أن يُفتح باب التأويل على مصراعيه لكل من هب ودب، فتلك فتنة تؤذن بخراب فكري لا يبقي ولا يذر، وهل اكتوت الأمة بنار الفتن ما ظهر منها وما بطن إلا بسبب تأويلات فاسدة باطلة؟ وهل تفرقت الأمة أحزاباً وشيعاً يكفر بعضها بعضاً ويلعن بعضها بعضاً إلا بسبب التأويل الفاسد؟ وما أكثر الدماء التي سفكت، والأرواح التي أزهقت بسبب التأويل!

1 قانون التأويل، ص: 15.

2 لست أعني بالظاهر هنا ما يقابل الباطن عند غلاة المتصوفة وغيرهم ممن ذهبوا في التأويل مذاهب شتى لا يشهد لها عقل ولا شرع، ولا يتسع المقام لمناقشة تلك المذاهب، ولكن أقصد بالظاهر ذلك المصطلح الأصولي المقابل للنص، إذ هو الأنسب هنا، وخاصة إذا أخذنا بتعريف الإمام الرازي له الذي يقول فيه: (هو ما لا يفتقر في إفادته لمعناه إلى غيره)، المحصول في علم الأصول، للإمام الرازي، ج: 3، ص: 152، هذا ما أقصده بالظاهر في هذا المقام، لأنه _ كما يقول الشيخ مصطفى سانو في معجم مصطلحات أصول الفقه: " هو الذي يحتمل التخصيص والتأويل والنسخ في عهد الرسالة وهو أحد أنواع الواضح. وهو لفظة معقولة المعنى لها حقيقة ومجاز، فإن أجريت على حقيقتها كانت ظاهراً، وإن أجريت على مجازها كانت مؤولة"، معجم مصطلحات أصول الفقه، ص: 459.

والتجربة التاريخية سواء عند الأمة المحمدية أو عند غيرها من الأمم السابقة أثبتت هذه الحقيقة التي عبر عنها الإمام ابن القيم بقوله: «والدين إذا أحيل على تأويلات المتأولين انتقضت عراة كلها ولا تشأ طائفة من طوائف أهل الضلال أن تتأول النصوص على مذهبها إلا وجدت السبيل إليه وقالت لمن فتح باب التأويل: إنا تأولنا كما تأولتم والنصوص أخبرت بما تأولناه كما أخبرت بما تأولتموه، فما الذي جعلكم في تأويلكم مأجورين وجعلنا عليه مأجورين والذي قادكم إلى التأويل ما تقولون: - إنه معقول - فمعنى نظيره أو أقوى منه أو دونه»¹.

وأختم هذا المطلب بالإشارة إلى ثلاثة قواعد أوردها الدكتور عبد الرحمن العضاوي في كتابه "الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية"²، وشرحها شرحاً وافياً، مبيناً قيمتها في تسييج التأويل وضبطه حذراً من الوقوع في التأويل الفاسد، والقواعد الثلاثة هي:

- ❖ لا تأويل في النصوص القطعية.
- ❖ لا تأويل إلا بدليل.
- ❖ لا تعارض للتأويل مع المحافظة على مقاصد الشارع.

المطلب الثاني: قاعدة "لا تثبت العقائد إلا بدليل".

إذا عُلم في القاعدة السابقة بأن الأصل في النص العقدي أن يُحمل على ما يدل عليه لسان الشرع وفق معهود العرب في الخطاب، فإن هذه القاعدة تأتي لتثبت أمراً في غاية الأهمية، ألا وهو أن جميع مسائل العقيدة، لا تثبت إلا بدليل، ومعنى ذلك أن مصدر العقائد الإسلامية هو الوحي المعصوم، وبذلك انحصرت مسائل العقيدة في الأخبار الشرعية،

1 الصواعق المرسله، لابن القيم، 1/ 151.

2 أورد أستاذنا هذه القواعد الثلاثة وشرحها في الكتاب من ص: 125 إلى 130.

وتلك الأخبار الشرعية لا مجال فيها للزيادة، أو النقصان، أو التبديل، مهما تغير الزمان أو المكان¹.

وقد اقتضت حكمة الله أن يختم الكتب السماوية بالقرآن الكريم، فجعله مهيمناً ومصداقاً لما بين يديه من كتب الله، وكان من خصائص هذا الوحي الخاتم أنه تضمن مجموعة من الأحكام الكلية التي تناسب كل زمان ومكان، يقول ابن تيمية: «إن القرآن والحديث فيهما كلمات جامعة هي قواعد عامة وقضايا كلية، تتناول كل ما دخل فيها، وكل ما دخل فيها فهو مذكور في القرآن والحديث باسمه العام، وإلا فلا يمكن ذكر كل شيء باسمه الخاص»².

ويقول تلميذه ابن القيم: «.. فإنه ﷺ يأتي بالكلمة الجامعة وهي قاعدة عامة وقضية كلية»³.

والمقصود أن الوحي قد تضمن من القواعد الجامعة والشفافية والكافية ما يضيء الطريق للبشرية، وقد كانت العقيدة في صدارة ما بينته نصوص الوحي، فظهر بهذا أن العقيدة توفيقية المصدر، أما المصادر الأخرى التي تُذكر في مصادر العقيدة الإسلامية، مثل الإجماع، والعقل، والفطرة، فليست مصادر مستقلة بذاتها في إثبات العقائد، وقد سبق التنبيه على ذلك في الباب الأول.

وتأسيساً على ذلك، فإن مجال الاجتهاد في القاعدة العقدية يكون في طريقة الاستنباط من الدليل الشرعي الذي ثبتت به القاعدة العقدية، ويحصل الاجتهاد فيها أيضاً تبعاً لتفاوت أفهام المجتهدين في فهم النص المؤسس، ومن هنا كانت الإشارات السابقة إلى

1 ينظر كتاب: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية، ص: 383.

2 مجموع فتاوى ابن تيمية، 34 / 206 - 207.

3 إعلام الموقعين عن رب العالمين، 1 / 251.

ضرورة ضبط التأويل العقدي، لأن الخطأ في العقيدة ليس كالخطأ في غيرها من الأحكام الشرعية.

ومن صور الاجتهاد المقبول الذي لا يتعارض مع هذه القاعدة، ما وجدناه عند مجتهدي المدارس الكلامية من قواعد عقلية مستنبطة من نصوص شرعية بدون تعسف أو تمحل، وقد توسل بها أولئك العلماء لدحض الشبه، والدفاع عن العقيدة الإسلامية، ومن ذلك ما ذكره العلامة ابن خلدون في المقدمة - وهو يتحدث عن دور الباقلاني في المذهب الأشعري-: «وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعريّ واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره. وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلانيّ فتصدّر للإمامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء. وأنّ العرض لا يقوم بالعرض وأنّه لا يبقى زمانين. وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم. وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها وأنّ بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول. وجملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية»¹

المصلب الثالث: قاعدة "كل صلاح في الأمة فمرجهه إلوا صلاح العقيدة".

تشير هذه القاعدة إلى أن صلاح عقيدة الأمة هو شرط لكل صلاح ونهضة وتقدم بالمعنى الشامل للصلاح الذي يبدأ بالإصلاح الفكري، وتفيد القاعدة بمفهوم المخالفة أن أي خلل في معتقد الأمة مؤذن بفساد قلّ أو كثر، كما هو مشاهد من حال الأمة قديماً وحديثاً، فقد كان التوهج الإيماني يصحبه تطور كبير في جميع المجالات «ولم يكن تطوراً اعتيادياً بالحسابات التقليدية.. لقد كان بمثابة قفزات في منظوري الزمان والمكان.. أما من الداخل، من تشكّل العقل المؤمن الجديد فقد كان بمثابة رجّات كهربائية متلاحقة أسقطت

1 - "المقدمة"، لابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، طبعة مكتبة الأسرة 2006، 2/ 465.

عنه الرين، ولاحتت زوايا العتمة في طياته، ودفعت به إلى العالم: فاعلاً، متألقاً، متوهجاً،
قديراً على الفعل والتحقق والإبداع..

لقد تم -بإعجاز مذهل- تجاوز صيغ المعادلات القديمة.. وكسرت الأرقام القياسية،
وُبعث عقل جديد عرف كيف يعيد صياغة العالم..

لقد أريد للعقل المسلم أن يظل متوهجاً منذ لحظة الوعي الأولى حتى اللحظة التي
يطفئه فيها برد الموت ويطمس عليه ظلامه العميق..»¹.

إن بناء عالم الأفكار وتحقيق الوعي الكامل هو الذي يحصن الأمة من الغزو الفكري
الذي هو أخطر أنواع الغزو، وإن أعظم ما يُبنى به عالم الأفكار ويتحقق به وعي الأمة هو
المعتقد الصحيح.

والمأمل في واقع الأمة الإسلامية اليوم يلحظ أنه برزت مشكلات كثيرة في الوضع
العقدي، ويُرجع الدكتور عبد المجيد النجار تلك المشكلات إلى مشكلتين كبيرتين هما:

- «الانفصال أو شبه الانفصال الذي وقع بين المرجعية العقدية وبين المظاهر التطبيقية في
مختلف وجوه الحياة، فالدين الإسلامي هو عقيدة تتفرع عنها شريعة تشمل كل أوجه
التصرف الإنساني»².

ولما غاب ذلك المعنى الكلي للعقيدة الإسلامية في زمن الانحطاط والتخلف
الحضاري «وقع في نفوس كثير من متأخري المسلمين بأن مدلول العقيدة الإسلامية إنما هو

1 حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، ص: 27- 28، سلسلة كتاب الأمة، رقم: 4، ط: 1،
رمضان 1403هـ.

2 مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، د عبد المجيد النجار، ص: 150، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، الطبعة
الأولى 1992.

محدود بحدود المسائل التي انتظمها علم العقيدة وانغلق عليها بحكم توقفه عن النمو قروناً طويلاً»¹.

- أما المشكلة الثانية فتكمن في الغزو الثقافي والفكري الخارجي الذي دخل على المسلمين ولم يستثن مجالاً من مجالات حياتهم، وقد أصاب العقيدة الإسلامية بشرارته، وهذا الغزو الفكري، أو «هذا التأثير الأيديولوجي وسع الشقة بين المظاهر السلوكية في مختلف مظاهر الحياة لدى المسلمين وبين مرجعيتهم العقدية، سواء على المستوى الفكري الثقافي أو على المستوى السلوكي العام»².

ولا يعني هذا أن منتهى الأمانى هو التوقف عند الجانب النظري في بناء التصورات وإصلاح الأفكار، بل لا بد أن يمشي بناء الأفكار وصلاحتها جنباً إلى جنب مع إصلاح العمل وتقويم السلوك، وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، فلا يكفي النطق والعلم بها إذا لم يتضافر العلم مع العمل، يقول الدكتور عبد الرحمن العضاوي: «فلا يكفي العلم بلا إله إلا الله ولا النطق بها، بل لا بد من العمل بما تتضمنه من وحدة في التصور ووحدة في الغاية ووحدة في الوسيلة التي يتغى بها وجه الله المعبود. والعمل كما أنه محول للتصورات العقدية إلى حركة والتزام بما تقتضيه من البراءة من الشرك والإخلاص في القول والعمل، يمثل أيضاً الرقابة الاجتماعية للحفاظ على مقصد التدين»³.

ومن المؤكد لدى الباحثين، أن العقيدة هي الأمر الذي تثق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقيناً عند صاحبه، ولا يمازجه شك فيه، ويذكر العقاد: أننا نعني بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنما نعني بها حاجة النفس، كما يحس

1 دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية، مقال للدكتور عبد المجيد النجار في مجلة إسلامية المعرفة، العدد الأول، السنة الأولى: 1416هـ 1995م، ص: 85.

2 مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، د عبد المجيد النجار، ص: 151، بتصرف.

3 الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، د عبد الرحمن العضاوي، ص: 65.

بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة، ليرتقب مكان العقيدة من قرارة ضميره، إنما نعني بها ما يملأ النفس، لا ما يملأ الرؤوس والصفحات¹.

إن العقيدة التي يصح أن توصف بالعقيدة الدينية وتكون أساس كل صلاح، هي التي لا يستغني عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها بمعتصم، واستقر فيها على قرار².

إنها العقيدة التي ترسخ التفكير الحر لدى الإنسان، فيتحرر من جميع أشكال الاستعباد والاستبداد.

المصلب الرابع: قاعدة "لا إكراه في الدين".

وهذه القاعدة جزء من الآية الكريمة من سورة البقرة التي سيأتي ذكرها قريباً، وتدرج تحتها جميع جزئيات هذا الدين العظيم، فلا يُكره أحد في الدخول فيه، والعقيدة الصحيحة تأتي في أول مراتب هذا الدين، بل هي أم قواعد دين الإسلام.

وتفيد القاعدة أن العقيدة الإسلامية تتميز بكونها "تُعرض على الناس، ولا تُفرض عليهم" بمعنى أن الله تعالى يعرض على الناس هذه العقيدة بأدلتها وبراهينها ولا يفرضها عليهم، وبذلك نطقت نصوص كثيرة، منها على سبيل المثال:

- قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ

بِالطَّغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٥﴾³.

1 العقائد والمذاهب، عباس محمود العقاد، 11 / 402، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

2 ينظر: المرجع السابق، ص: 431.

3 سورة البقرة، الآية: 255.

يقول الدكتور عبد الله دراز: «ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة في القرآن: قاعدة حرية العقيدة (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)، ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾¹.

على أن الإسلام - لا يكتفي منا بهذا الموقف السلمي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية أخرى نكرم بها الإنسانية في شخص غير المسلمين.

فهل ترى أسمى وأنبى من تلك الوصية الذهبية التي يوصينا بها القرآن في معاملة الوثنية التي هي أبعد الديانات عن الإسلام، فضلاً عن الديانات الأخرى التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوي؟ اقرأ في سورة التوبة ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾²، فأنت تراه لا يكتفي منا بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن في جوارنا فحسب، ولا يكتفي منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى، بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل عائلة.

ثم هل ترى أعدل وأرحم، وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية، التي لا تكتفي بأن تكفل لغير المسلمين في بلاد الإسلام حرية عقائدهم

1 سورة النحل، الآية: 125.

2 سورة التوبة، الآية: 6.

وعوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا".

ثم هل ترى أوسع أفقاً، وأرحب صدرًا، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والتعايش السلمي بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التي لا تكتفي في تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التي لا تدين بدينها، ولا تتحاكم إلى قوانينها- لا تكتفي في تحديد هذه العلاقة بأن تجعلها مبادلة سِلمٍ بسِلمٍ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾¹، ﴿بِإِنْ إِعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُفْتَلُوكُمْ وَالْفِرَاقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾²، بل تندب المسلمين أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبرٍّ، وعدل وقسط ﴿لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفْتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾³،⁴

- ومن النصوص الدالة على القاعدة السابقة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمْسَ مَسَّ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

1 سورة الأنفال، الآية: 62.

2 سورة النساء، جزء من الآية: 89.

3 سورة الممتحنة، الآية: 8.

4الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، للدكتور محمد عبد الله دراز، ص: 183-184، دار القلم الكويت،

(د.ت)

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا

يَعْقِلُونَ ﴾¹.

فقد وضح لنا النص السابق وغيره من النصوص في الموضوع «الصورة الحية للمنهج الإسلامي، الذي يجعل المركز الأول في العقيدة للحجة والبرهان، فلا إيمان بدون حجة، ولا مسؤولية إلا بعد إقامة الحجة وإثارة الأجواء التي تنطلق منها الحجج الإلهية، لتدفع المخاطبين إلى التفكير والحوار في رحلة الإنسان من الشك إلى الإيمان، ولذلك أراد الله أن يقيم على الناس الحجة البالغة، لئلا يكون لهم عليه حجة، في انحرافهم عنه عندما ينحرفون عن الخط المستقيم، ولئلا يكون لهم حجة على المؤمنين، عندما يدخل الإيمان المعركة في مقابل الكفر»².

إن قاعدة "لا إكراه في الدين" تحث الإنسان على أن الانعتاق والتحرر من آصار الأغلال والقيود الفكرية التي تحول بينه وبين تقرير مصيره بنفسه، وهي بذلك مفتاح أساس من مفاتيح الإصلاح الفكري، فهذا ما قرره القاعدة العقدية العظيمة، ودعك مما يُتهم به الدين الإسلامي من أنه دين الاستبداد، وأنه انتشر بالسيف، وغيرها من التهم الباطلة التي يرددها بعض الكتاب متأثرين بالدراسات الاستشراقية التي تصنف في دائرة طلائع الغزو الفكري، والباحث الذكي يقف من كتابات المستشرقين موقف الحذر، لتضمنها في أغلب الحالات، معلومات تبدو في شكل حقائق، وهي عند التمحيص والتدقيق ما هي إلا نتائج خاطئة، لأنها مؤسسة على افتراضات خاطئة، وهذا ليس غريباً، ف«لقد عودنا المستشرقون. رغم جهودات بعضهم في خدمة الحضارة الإسلامية بموضوعية، على الدس والتشكيك

1 سورة يونس، الآيتان: 99-100.

2 الحوار في القرآن، قواعده وأساليبه ومعانيه، محمد حسين فضل الله، ص: 63، بتصرف يسير.

والتنقيب عن مظان النقص ومظاهر الاختلاف، واهتموا كثيراً بالأقليات المتطرفة، ومقالاتهم المغالية، لحجب ما يتميز به الإسلام من يسر وشمولية، وحركية، وتطور»¹.

ومن الإشارات المهمة في سياق الحديث عن هذه القاعدة أنه ربما يتكئ عليها بعض المغرضين الذين يريدون التحرر من الدين وضرب ثوابت الأمة، فيزعمون أن معنى "لا إكراه في الدين"، هو تحرر من الدين، وفتح الباب على مصراعيه، ليختار الإنسان ما يشاء من الدين ويدع ما لا يريد تبعاً لهواه، وكأن الدين ليست له ضوابط وقيود، وهذا كله بسبب الفهم السيء للدين.

وإذا نظر المرء بعين البصيرة إلى مثل هذه الوقائع يجد أنها وفدت إلينا مع موجات الغزو الفكري الخطير الذي زلزل كثيراً من الأفكار وأحدث عندنا فوضى ومعارك كنا منها في عافية، مثل «ذلك الصراع المفتعل بين الوحي، وبين العقل، أو بين الدين، وبين العلم، الذي مارسته الكهانة الدينية الكنسية، حيث احتكرت الفهم والتفسير، والاجتهاد، والتعليم، وجعلت الدين نقيض العلم، والعقل، وجعلت من مقتضيات الدين الصحيح، إلغاء العقل، وإغلاقه، (فمن تفلسف فقد تنذق)، وكان شعارها: (أطفئ سراج عقلك واتبعني)، وحالت دون العقل، ووظيفته في النظر، والتفكير، واكتشاف السنن والأسباب، وإدراك علة الخلق، بدعوى أن ذلك من إرادة الله، وكأن في الأمر تعارضاً بين الأسباب التي لم تخرج في الأصل عن إرادة الله الذي خلقها، وجعلها موصلة إلى النتائج، وبين إرادة الله، وتسرب هذا البلاء، أو هذه الثنائية، بين الوحي والعقل، إلى الفكر الإسلامي، واستنزفت منه الجدليات العقيمة، البعيدة عن طبيعة الإسلام وقيمه، رداً طويلاً، مزق نسيج الأمة الثقافي، وفرق طاقاتها وبعثر وحدتها الفكرية، وملاً حياتها بالفرق والاختلافات، بعيداً عن المواقع الفكرية المجدية، وبدل أن تترجم قيم ومبادئ الإسلام، إلى الأمم الأخرى، لتخليصها من شقوتها، وما يمارس عليها من الإرهاب الديني، ومن ثم إلحاق الرحمة بها، ترجمت تلك الجدليات إلى الإسلام،

1 المصدر السابق، ص: 14.

وفصّلت عليه، فأدى ذلك إلى لون من الانشطار الثقافي الرهيب، الذي لا يزال يفعل فعله في واقع الأمة اليوم»¹.

فوجب الحذر من استغلال مثل هذه القواعد بإخراجها عن معناها الصحيح الذي يفيد أنه لا يُكره أحد على الدخول في الدين، وأنه يحرم ويُمنع إخراج الإنسان من دينه الذي يعتقده، ولو كان باطلاً، وأن أقصى ما يملكه الدعاة إلى الدين الحق هو الدعوة والإبلاغ، والذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم هو الله خالق الناس ومحاسبهم على أفعالهم، وهذا ما قرره مجموعة من نصوص الكتاب الخاتم، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾²، والخطاب في الآية الكريمة لسيد الخلق محمد ﷺ، وهو أحرص الناس على هداية الناس، فكيف بغيره!! ومنها قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾³ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ⁴.

والخلاصة أنه لا إيمان بلا حرية، وأن كمال حرية الإنسان، لا يتحقق إلا بتمام التوحيد الخالص لله تعالى، وبذلك يخرج الإنسان من ظلمات الفكر والجهل والتخلف والعصبية المقهورة والجاهلية السلوكية والنفسية، إلى عالم تسوده الرحمة والتآخي والتعاون والتحاب، وغيرها من القيم التي النبيلة التي جاءت بها رسالة التوحيد الخاتمة.

المصلب الخامس: قاعدة "كل بدعة ضلالة"

وهذه القاعدة منصوص عليها في حديث نبوي شريف صحيح⁴، والقاعدة تنبه على خطورة الابتداع في الدين الذي هو أصل فساد الأفكار، «فما أوجز هذه العبارة، ويدخل

1 من تقديم الشيخ عمر عبيد حسنه - بتصرف - لكتاب الأمة: " في الغزو الفكري" للدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، ص: 15-16، العدد: 38، الطبعة الأولى، رجب 1414هـ.

2 سورة القصص، الآية: 56.

3 سورة الغاشية، الآية: 21-22.

4 رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث: 867.

فيها كل ما يمكن أن يحدث في الدين، فكل بدعة أيا كانت ضلالة، وهذه العبارة قاعدة تشمل آلاف الوقائع»¹.

وشملت القاعدة آلاف الوقائع، لأنها قضية كلية، والكلية من أعظم خصائص القاعدة العقدية، ودخلت عليها الكلية من ناحية «تعدد المسائل التي ينطبق عليها حكم القضية الكلي، فأفراد هذه القضية الكلية مسائل: كالحكم بالضلالة على الإرجاء، والحكم بالضلالة على التجهم، والحكم بالضلالة على الرفض إلى غير ذلك من البدع التي سيحكم عليها بالضلالة.

فالكلية في هذا الحديث مقصود بها تعدد المسائل التي ينطبق عليها الحكم الكلي، لا تعدد الأشخاص، ولذا فإن هذا الحديث يُعدّ قاعدةً»².

وإنما تنشأ البدع في الدين بوجه عام، وفي باب العقائد بوجه خاص، بسبب فتح باب الوساطة³ على مصراعية، سواء في العقيدة، أو في الفقه، أو فيما يتصل بالتصوف، إذ الوساطة باب خطير، منه دخلت كثير من البدع التي شوهدت جمال العقيدة الإسلامية، وأحالت الفكر الإسلامي ردهاً من الزمن إلى فكر خرافي، بعد عصور التوهج الإيماني، وقد كان من نتائج شيوع فكر الوساطة في الأمة الإسلامية الغلو في الأشخاص إلى درجة

1 شرح العقيدة الطحاوية، سفر الحوالي، 1/ 103،

2 القواعد العقدية عند أهل السنة والجماعة دراسة تأصيلية، عادل بن عبد الغفور قد أسرار ص: 40، بحث مرقون، وتوجد نسخة منه بجامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة.

3 أُلّف الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله كتاباً بعنوان: "التوحيد والوساطة في التربية الدعوية" في جزأين، نشرتهما وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر في سلسلة "كتاب الأمة" العدد: 47 و 48 لشهر جمادى الأولى، وشهر رجب 1416هـ، وقد وضع المؤلف يده على الخلل الذي دخل على الأمة الإسلامية من باب الوساطة في التوحيد وفي التربية السلوكية، ذاكراً نماذج من المدارس الفكرية، والفقهية، والتربوية، وكانت له وقفات تحليلية، مع تراث بعض رواد تجديد التوحيد، والعودة به إلى نقائه وصفائه، كما ورد في نصوص الوحي المعصوم، وطُبق في مجتمع خير القرون، وألقى أضواء كاشفة على نماذج من الإصابات التربوية، والدعوية في حركة الوعي الإسلامي المعاصرة، ويقوم منهج الكتاب على تتبع مواطن الخلل في تراث أسلافنا فيما يتعلق بموضوع الدراسة، مبرزاً مخاطره، دون أن يخس الناس أشياءهم، وبذلك يعدّ كتاب الدكتور فريد الأنصاري بحق مساهمة جيدة في محاولات التقويم، والمراجعة المنضبطة لتراثنا في مجالين كان لفكر الوساطة آثاره فيهما، وهما مجال العقيدة، ومجال السلوك، أو التصوف.

تقديسهم، والتوقف عند اجتهاداتهم، وآرائهم، والدوران في فلك تلك الاجتهادات، بالشرح والاختصار، وشرح الشرح، واختصار الاختصار، ووضع الحواشي والمتون¹، فعَمَّ التقليد والجمود، وحوّرت كل حركة تصحيحية أرادت أن تعيد للدين صفاءه، وتنفي عنه كل زيف، وتخلصه من الشوائب والبدع التي ألصقت به ظلماً وزوراً.

وأكتفي هنا بالإشارة إلى نموذجين من القرن الثامن الهجري، أحدهما من مشرق العالم الإسلامي، والآخر من الغرب الإسلامي، تصديا بكل حزم وعزم لفكر الوساطة بجميع أشكالها، وما زال تراث هذين العلمين نبزاً يشكل مادة مرجعية، لكثير من الحركات الإصلاحية الحديثة والمعاصرة.

أما النموذج المشرقي فيمثله ابن تيمية المتوفى سنة 728هـ، "وقد كان ابن تيمية رحمه الله، أمة وحده، ذلك أن عصره قد شهد سيطرة التقليد بصورة مخيفة، إلى درجة استسلام ذوي العقول والأذكياء من العلماء، لهذه المقولة، التي نظمها أحدهم في قوله:

لم يدع من مضى للذي غبر فضل علمٍ سوى الأخذ بالأثر²

قال عنه الحجوي الثعالبي في الفكر السامي - وهو يتحدث عن مشاهير الحنابلة بعد القرن الرابع الهجري - : «كان ابن تيمية من أمهر أهل وقته في علوم الدين، وأعرف الناس بالقرآن العظيم، وأحفظهم للسنة، وأتقنهم للتفسير، ومعرفة ناسخه ومنسوخه، وتنزيل أحكامه عارفاً بالرجال، بصيراً بالأسانيد لا يكاد يشذ عنه الحديث من أحاديث الرسول إلا وعرف مخرجه ورجال سنده، وما هي رتبته قوة وضعفاً من أئمة هذا الشأن، متبحر في الأصول والفنون الموصلة لذلك، وبالجملة كان فحلاً في العلوم الإسلامية، شديد الرد على

1 لست أقصد بهذا التقليل من قيمة تلك المتون، وما وُضع عليها من شروح وحواشي، وإنما قصدت التنبيه على مآلات الفكر السائد في قرون الانحطاط، وقد كانت الوساطة أهم سماته.

2 الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الحجوي الثعالبي، 2/ 516، وقد علق العلامة الحجوي على الفكرة التي تضمنها البيت الشعري قائلاً: "فإنها خيال شاعر ليست حجة عقلية ولا شرعية، أوجبها تأخر الأفكار الإسلامية وركونها للجمود،" المصدر نفسه، 2/ 516.

الفرق الضالة، وعلى البدع الحادثة في الإسلام، وعلى العلماء المتساهلين وذلك ما أوجب تألبهم عليه»¹.

ومع ما لاقاه ابن تيمية من معارضة شديدة في دعوته لمحاربة فكر الوساطات العقدية والفقهيّة والسلوكية، فقد استطاع أن «يزحف ضد تيار التقليد الواسع، ويحقق انتصاراً على المقلدة، بنفي جميع الوساطات الفكرية، عقدياً وفقهياً، سلوكياً وتربوياً، ويؤسس جيلاً من التلاميذ الذين حملوا راية التوحيد بعده»².

وأسس ابن تيمية دعوته الإصلاحية وأقام مشروعه في نبذ جميع الوساطات الفكرية على مصدري الهداية: القرآن الكريم، والسنة النبوية، ولا يفتأ يُذكر بهذه القضية في مصنفاته الكثيرة، ومن عباراته الجامعة في ذلك قوله: «فأحسن الحديث، وأصدق كتاب الله، خبره أصدق الخبر، وبيانه أوضح البيان، وأمره أحكم الأمور، ﴿تَلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ قِبَائِي حَدِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَعَآيَاتِهِ يَوْمِنُونَ﴾»³، وكل من اتبع كلاماً، أو حديثاً مما يقال: إنه يُلهمه صاحبه، فهو من أعظم الظالمين»⁴.

والكلام يطول عن هذا الإمام المجدد، وخاصة في ذكر ما قيل فيه، وأختم الحديث عنه بنص للحجوي الثعالبي، يذكر فيه موقف الناس من ابن تيمية، فقال: «وقد خصت ترجمته بتأليف، منها في الإنكار عليه لابن السبكي... ومنها ما هو في الانتصار له، وتضليل من ضلله وهي كثيرة، ومن أحسنها "الصارم المنكي" لابن عبد الهادي الألويسي البغدادي، وهو من أحسن ما ألف، وهناك تنظر ترجمة هذا الإمام، وما قيل فيه، وأجيب عنه وقد ظهرت فضائله بظهور تأليفه، وتبين بها توهين كثير مما نسب إليه وأنه ما كان إلا لحدة لسانه

1 الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، 2/ 433-434.

2 التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، د فريد الأنصاري، 2/ 115.

3 سورة الجاثية، الآية: 5.

4 مجموع الفتاوى، لابن تيمية، 4/ 85-86.

في الرد على خصومه، فافترق الناس فيه فرقتين: مبغض قال يرميه بالعظائم الكفر فما دونه، ومحب غال يفضله على كل ما سواه، وهذا عادة الله في أعظم العلماء، ولا سيما من كان منهم مستقل الفكر، حر اللسان ويتألب الناس ضده حياته، ويكون له صدق في الآخرين، وأفكاره في فهم حقيقة الدين الإسلامي وتجريده عن زوائد الابتداع، وإخلاص الدعوة للتوحيد الحق، وترك المغالات في تعظيم المخلوق كي لا يلحق بالخالق هي الأصل في مذهب الوهابية، فتواليفه ومبادئه هي الأصول التي يرجعون إليها، ومجمل مذهبهم توحيد خالص، والعمل بالكتاب، والسنة الصحيحة أو الحسنة، وترك تقاليد الأوهام، واستقلال الفكر في فهم الشريعة من كتاب وسنة وقياس، وابتاع السلف، ونبد المحدثات، على هذا تدور سائر كتبه، وهذا ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم، فهو من المجددين، وبسبب محنته تعلق الناس بأفكاره، وبحثوا عنها، وطبعوا كتبه، وبعثوها من خمولها، وتمذهبوا بمبادئه، فصار زعيم حزب عظيم في الإسلام، وعم ذكره الآفاق نظير ما وقع للإمام أحمد بن حنبل، ومالك وغيرهما رحمهم الله على أنه كغيره من المجتهدين عرضة للصواب والخطأ والمجتهد مأجور في خطئه كصوابه على أن خطأه مغمور في بحار علومه..»¹.

وأما النموذج الثاني في القرن الثامن الهجري من الغرب الإسلامي، فيمثلته الإمام أبو إسحاق الشاطبي، المتوفى سنة 790هـ، وهو وإن كان مُقلداً في التأليف عكس ابن تيمية، لكنه ألف مصنفين أغنيا عن عشرات من المصنفات، وأودعهما زبدة اجتهاده وآرائه الإصلاحية، وهما:

- **كتاب الاعتصام**، وقد صنفه لبيان ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة، ونبد البدع التي نتجت عن شيوع فكر الوساطات.

- **كتاب الموافقات**، وكتاب الموافقات، وإن كان الشاطبي قد عبر في مقدمته أنه «حاول التوفيق فيه، بين مذهب المالكية، والحنفية، إلا أنه وُفق فيه أيضاً، بين ظاهر التدين

1 الفكر السامي، 2/ 434-435.

وباطنه، لدى المكلف، أو بعبارة أخرى: عمل على تعميق مغزى التكاليف الظاهرة، وربطها بأصولها، من التكاليف الباطنة، وذلك بربط مفهوم الإسلام بمفهوم الإيمان، ربطاً قوياً، حتى ينتج عنهما (الإحسان)، الذي هو غاية المناهج التربوية، على اختلاف مشاربها وطرائقها في الإسلام، أخطأت أم أصابت.

ولم يسلم للشاطبي هذا المشروع ويكتمل، إلا بتوحيد المنهج، وذلك بنبذ جميع التأثيرات الواسطية، والاستقلال الحُرّ، عن كل السلط المذهبية والشيخية، إلا سلطة النص الشرعي، التي أمدته بتجديداته الفائقة، وإشراقاته التوحيدية الرائقة»¹.

ولم يختلف منهج الشاطبي عن ابن تيمية في إقامة مشروعه الإصلاحية على التمسك بالكتاب والسنة، وعرض جميع الآراء الاجتهادية عليهما، للحكم عليها بالصواب، أو الخطأ، وقد عبر عن ذلك في مقدمة كتاب الاعتصام، فقال: «مَنْ عَلِيَ الرَّبُّ الْكَرِيمَ الرَّؤُوفَ، الرَّحِيمَ، فَشَرَحَ لِي مِنْ مَعَانِي الشَّرِيعَةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حَسَابِي، وَأَلْقَى فِي نَفْسِي الْقَاصِرَةَ، أَنْ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ لَمْ يَتْرُكَا فِي سَبِيلِ الْهُدَايَةِ لِقَائِلٍ مَا يَقُولُ، وَلَا أَبْقِيَا لِغَيْرِهِمَا مَجَالاً يَعْتَدُ بِهِ فِيهِ، وَأَنْ الدِّينَ قَدْ كَمَلَ، وَالسَّعَادَةَ الْكُبْرَى فِيهَا وَضَعُ، وَالطَّلْبَةَ فِيهَا شَرَعَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَضَلَالٌ وَبُهْتَانٌ، وَإِفْكَ وَخُسْرَانٌ، وَأَنْ الْعَاقِدَ عَلَيْهِمَا بِكِلْتَا يَدَيْهِ، مَسْتَمْسِكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَمَحْصَلٌ لِكَلِمَةِ الْخَيْرِ، دُنْيَا وَأُخْرَى، وَمَا سِوَاهُمَا فَأَحْلَامٌ، وَخِيَالَاتٌ وَأَوْهَامٌ، وَقَامَ لِي عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ الْبَرَهَانِ الَّذِي لَا شُبُهَةَ تَطْرُقُ حَوْلَ حِمَاهِ، وَلَا تَرْتَمِي نَحْوَ مَرْمَاهِ»².

وهو كسلفه ابن تيمية لم يسلم منهاجه الإصلاحية - في نبذ فكر الواسطات - من المعارضة الشديدة، والنقد اللاذع، وخاصة من متعصبة المذاهب الفقهية، وأرباب الطرق الصوفية، وقد بسط القول فيما كان يتوقعه من أهل زمانه، فقال - وهو يشرح خطته في نقد الفكر السائد في زمانه-: «..فابتدأت بأصول الدين عملاً واعتقاداً، ثم بفروعه المبنية

1 التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، د فريد الأنصاري، ص: 125 - 126.

2 الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي، 1/ 19 - 20، تحقيق ودراسة د محمد بن عبد الرحمن الشقير، ود سعد آل حميد، ود هشام الصيني، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى 1429هـ - 2008م.

على تلك الأصول، وفي خلال ذلك أتبين ما هو من السنن أو من البدع، كما أتبين ما هو من الجائز وما هو من الممتنع، وأعرض كل ذلك على علم الأصول الدينية والفقهية، ثم أطلب نفسي بالمشي مع الجماعة التي سماها رسول الله ﷺ بالسواد الأعظم، في الوصف الذي كان عليه هو وأصحابه، وترك البدع التي نص عليها العلماء أنها بدع مضلة، وأعمال مختلفة.. وكنت في أثناء ذلك قد دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها، فلما أردت الاستقامة على الطريق، وجدت نفسي غريباً في جمهور أهل الوقت، لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد، ولم يكن ذلك بدعاً في الأزمنة المتقدمة، فكيف في زماننا هذا؟.. فتردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس، فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفني العوائد، لا سيما إذا ادعى أهلها أن ما هم عليه هو السنة لا سواها، إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل، وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال، عائداً بالله من ذلك، إلا أنني أوافق المعتاد، وأعد من المؤلفين لا من المخالفين، فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئاً، فأخذت في ذلك على حكم التدرج في بعض الأمور، فقامت عليّ القيامة، وتواترت عليّ الملامة، وفوق إلي العتاب سهامه، ونسبت إلى البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة.. وتارةً نسبت إلى معاداة أولياء الله تعالى، وسبب ذلك أنني عادت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة، المنتصبين - بزعمهم - لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم..¹

ولا يكتمل فهم منهج الشاطبي الذي أرسى معالمه الأولى في كتاب "الاعتصام" إلا بدراسة كتابه الثاني "الموافقات"، فهما كتابان متكاملان في الدعوة إلى التحديد والاجتهاد، ونبذ فكر الوساطات وفق القاعدة الشرعية العامة التي تفيد أن النص الشرعي

1 المصدر السابق، 1/ 24-27.

نص جامع وكافٍ وشفافٍ، وهو حاكم على جميع الخلق، وأن جميع الآراء الاجتهادية، يجب أن تخضع لسلطة النص الشرعي، وتوزن بميزانه، وله كلام كثير في "الموافقات" يؤكد به هذه القاعدة الكلية، ومن ذلك قوله: «الشريعة بحسب المكلفين، كلية عامة، بمعنى أنه لا يختص بالخطاب، بحكم من أحكامها الطلبية، بعضٌ دون بعضٍ، ولا يحاشى من الدخول تحت أحكامها مكلف البتة»¹، وساق نصوصاً كثيرة من القرآن والسنة للبرهنة على هذه القاعدة الكلية من قواعد الشريعة.

تلك فقط إشارات وومضات من تجربتين: إحداها مشرقية، والأخرى مغربية، كان لهما آثار عظيمة إلى اليوم في التنبيه على خطورة فكر الوساطات، ذلك الفكر الذي تنمو فيه غالباً البدع والضلالات، نظراً لبعدها عن الاستسقاء المباشر، من مصدري الهداية والنور: كتاب الله، وسنة رسوله محمد ﷺ، وفي القرآن الكريم آية محكمة واضحة في دعوة الخلق جميعاً إلى التوجه إلى الله دون البحث عن الواسطة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ اجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾²، قال الطاهر بن عاشور في تفسير الآية الكريمة: «وإنما قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: (فقل لهم إني قريب) إيجازاً لظهوره من قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وتنبيها على أن السؤال مفروض غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفة قرآنية وهي إيهام أن الله تعالى تولى جوابهم عن سؤالهم بنفسه إذ حذف في اللفظ ما يدل على وساطة النبي ﷺ تنبيها على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء»³.

1 الموافقات، 2/ 244.

2 سورة البقرة، الآية: 185.

3 التحرير والتنوير، 2/ 179.

والآية الكريمة وإن جاءت في سياق الحديث عن الدعاء، ففيها الإشارة إلى نفي الوساطة بين الله وعباده، سواء في الدعاء، أو في التشريع، أو غيرهما مما لا مجال للرأي فيه.

المصلب السادس قاعدة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

والقاعدة مأخوذة من الحديث النبوي الشريف¹، وقد أوردها الإمام الترمذي وجعلها باباً من أبواب الجهاد في كتابه "السنن"، باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وإنما أوردها بعد القاعدة الخامسة، لأنها شديدة الارتباط بها، وتكامل معها في ترسيخ تعظيم النص الشرعي لدى المتلقي، وبيان أن مقتضى العبودية لله الذي تترجمه كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، أن الطاعة المطلقة هي لله الواحد الأحد، وألا يُطاع أحدٌ في أمر يعود على تلك الطاعة بالبطلان، وإنما يُطاع من يطاع في دائرة طاعة الله.

إن هذه القاعدة تحرر فكر الإنسان أولاً من التعلق بغير الله، فإذا تحرر فكر الإنسان من التعلق بغير الله الخالق، سهّل عليه ثانياً أن يتحرر من كل ما يعيق سيره في الحياة، وهنا يتجلى التكريم الإلهي للإنسان، حيث خلقه في أحسن تقويم، وميزه بالعقل، وفضله على سائر مخلوقاته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَبَصَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾²، فلا يليق بمن أكرمه الله وفضله أن يقابل هذه النعمة بالتمرد على مسبغ هذه

النعمة، ولهذا جاءت القاعدة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" بصيغة الجملة الخبرية التي دخلت عليها "لا" النافية للجنس، للتنصيص على نفي أي طاعة لأي مخلوق، إذا تعارضت مع طاعة الله تعالى، وبذلك وضعت القاعدة منهاجاً وميزاناً للمؤمنين حقاً، إليه مأجهم في قضية الطاعة.

1 أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 1/ 131، وقال عنه الأرنبوط: إسناده صحيح على شرط الشيعين، ينظر: مسند الإمام أحمد بتحقيق الأرنبوط، 2/ 333.

2 سورة الإسراء، الآية: 70.

وقد حكى الله لنا ما كان عليه بعض أهل الكتاب من اتخاذهم لأخبارهم ورباهم
أرباباً من دون الله، وما ذلك إلا ليحذرننا من الوقوع فيما وقعوا فيه، فقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا
أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا مِرْوَأَ إِلَّا
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾¹.

قال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ «يعني: سادة
لهم من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم،
ويحرمون ما يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم، كما حدثني الحسين بن يزيد الطحان قال،
حدثنا عبد السلام بن حرب الملائي، عن غطيف بن أعين، عن مصعب بن سعد، عن
عدي بن حاتم قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ في "سورة براءة": ﴿اتَّخَذُوا
أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، فقال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم،
ولكن كانوا يحلون لهم فيحلون"²»³.

والخطاب القرآني خطاب شامل وعام، صالح لكل زمان ومكان، ولذلك فالخطاب في
الآية السابقة، وإن وصف حال بعض أهل الكتاب، فإنه خطاب عام، يشمل بلفظه كل من
يتنكب صراط الله المستقيم، ويتخذ أرباباً من دون الله، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص
السبب، كما هو معلوم، وقد ثبت بالملاحظة أن الأمراض الفكرية، وعلل التدين، التي وقعت

1 سورة التوبة، الآية: 31.

2 أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (1607)، وأخرجه الترمذي (3095) وقال عقبه: (هذا حديث غريب، لا
نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث)، وأخرجه الطبراني في المعجم
الكبير (17 92 برقم 218)، والبيهقي في السنن الكبرى (20137)، والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن
الترمذي.

3 جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، 14 / 209، تحقيق أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة
الرسالة، الطبعة الأولى 1420 هـ 2000 م.

لأهل الكتاب في الأعم الأغلب وقع فيها المسلمون، فكانت القاعدة تذكيراً وتنبهاً على ضرورة تحقيق الطاعة لله وحده، وكل طاعة لغيره، فهي تابعة لطاعته، لأنه هو من أمر بها، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

المصلب السابع: قاعدة "لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام".

هذه قاعدة عظيمة من قواعد العقيدة الإسلامية، وهي صالحة لأن تذكر في مبحث قواعد الإصلاح الفكري، أو في قواعد البناء الحضاري، لكن إيرادها هنا أولى، لأنها تؤسس للتصور العقدي السليم تجاه جميع مسائل العقيدة الإسلامية، وممن نصَّ على هذه القاعدة الإمام أبو جعفر الطحاوي في كتابه المختصر الذي جمع فيه أمهات قواعد العقيدة، فقد قال: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً، لا مؤمناً مصداقاً، ولا جاحداً مكذباً»¹.

وقال أيضاً- بعد حديثه عن رؤية المؤمنين ربه يوم القيامة-: «وتفسيره على ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أَرَادَ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه»².

وفي القاعدة مجاز عقلي، حيث أسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، إذ المقصود الحقيقي من القاعدة أن إسلام المسلم لا يتحقق إلا بالتسليم، والمراد بالتسليم: استسلام المسلم لربه وخضوعه له في كل شيء، وهو معنى إسلام الوجه لله، الذي صرح به القرآن

1 العقيدة الطحاوية، شرح وتعليق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ص: 13.

2 العقيدة الطحاوية، شرح وتعليق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ص: 12-13.

الكريم في نصوص كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾¹.

فهذا هو الاستسلام المحمود، وهو قمة الحرية، حيث ينقاد العبد ويخضع لخالقه، ويتحرر من جميع المعبودات من دون الله، أما الاستسلام الذي يرادف التواكل والعجز والخنوع لغير الله، فهو مناف للتوحيد الخالص، وليس من الاستسلام المحمود، أن يسلم المرء ويصدق بكل خبر يسمعه قبل التأكد من صحة النقل وثبوت الرواية، فلا بد من تصحيح الأقوال المنسوبة إلى قائلها، وتنقيح الأدلة المستدل بها تنقيحاً علمياً دقيقاً، والكشف عن الأصول التاريخية لنشأة بعض المسائل الخلافية وأسباب الخلاف، إذ كثيراً ما كان سبب الخلاف بين فريقين راجعاً إلى رواية من الروايات، يظن أحد الفريقين أنها رواية صحيحة، ويؤسس عليها أفكاراً أو معتقدات، مستسلماً لها ومنقاداً لما يترتب عنها من أحكام، وعند البحث الدقيق في تلك الرواية يُكتشف أنها رواية واهية لا سند لها ولا أصل تبنى عليه، وإنما هي مزاعم وتخرصات، لا تصمد أمام النقد العلمي، وهذا يوجد بكثرة فاحشة في الروايات التي يستند إليها أهل الكتاب، سواء في روايات العهد القديم أو العهد الجديد².

ويوجد منه أيضاً شيء كثير في أسباب الخلاف بين السنة والشيعة، حيث يلحظ الباحث المنصف أن أغلب ما يتمسك به الشيعة من الروايات في حق الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم أجمعين، هي روايات لا سند لها³.

1 سورة لقمان، الآية: 21.

2 قد وقفنا على شيء كثير من هذا عند دراستنا لمادة "مقارنة الأديان"، عند أستاذنا الدكتور بن سالم الساهل، ومادة "تطبيقات في الكتاب المقدس" عند أستاذنا الدكتور سعيد شبار، في ماستر الحوار الديني بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، في الموسم الدراسي 2011/2012م

3 ينظر كتاب "أصول الرواية عند الشيعة الإمامية عرض ونقد"، للدكتور عمر محمد عبد المنعم الفرماوي.

ووعيا من العلماء المحققين بأهمية هذا الأمر فقد قرروا قواعد مهمة، حتى صارت مشهورة على الألسنة، ومن ذلك قولهم: "إِذَا كُنْتَ مَرْعِيًا فَالدَّلِيلُ، وَإِذَا كُنْتَ نَاقِلًا فَالصَّحَّةُ"، وقول عبد

الله بن المبارك رحمه الله: "الإِسْنَادُ عِنْدِي مِنَ الدِّينِ، وَهُوَ الإِسْنَادُ لِقَالَ مِنْ شَاءَ مَا شَاءَ"¹.

ويظهر أثر القاعدة في الإصلاح الفكري، من خلال استحضار المسائل الآتية:

المسألة الأولى: من المعلوم أن مسائل العقيدة تقوم على الإيمان بالغيب، فهو جوهر

العقيدة الإسلامية ولبها وأساسها، والإيمان بالغيب لا يخرج عن التسليم الذي أكدته القاعدة

العقدية، فظهر بهذا أثر قاعدة "لا تثبت قلم الإسلام إلا على نضج التسليم

والاستسلام" في الإصلاح الفكري، لأنها تعصم الفكر البشري من التخبط في قضية

الإيمان بالغيب، التي ضلت فيها أفهام، وزلت فيها أقدام، والعاصم من عصمه الله وثبت

قدمه، فأمن وصدّق، وسلّم الأمر لربه.

المسألة الثانية: تشير القاعدة بمنطوقها ومفهومها إلى أهمية الدليل النقلي، فهو النور

المبين، والسراج المنير، وينبوع الهداية، وبه يستنير العقل الصريح في البحث والاجتهاد.

والقاعدة المعمول بها أنه لا يمكن للعقل الصحيح أن يناقض العقل الصريح، بمعنى أن

الأدلة العقلية الصريحة التي لا تشوبها شوائب الهوى والضلال، لا يمكن إلا أن توافق ما

جاءت به الرسل، وقد بين ابن تيمية بالأدلة والحجج الكثيرة «أن صريح المعقول لا يناقض

صريح المنقول، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في

العقل وليس منه»².

ومجال القاعدة واسع، وهي في باب العقيدة أكثر من غيره، لعدم قدرة العقل البشري

على تعليل أحكام العقائد، بخلاف أحكام الفقه مثلا.

1 هذا الأثر أخرجه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه، باب أن الإسناد من الدين والرواية لا تكون إلا عن الثقات...، 1/15.

2 درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، 1/ 231_232.

وبناء عليه فلا يمكن تصور التعارض بين العقل والنقل في مسائل الغيب، لأنه لا مدخل للعقل البشري فيها.

وقد عمل الصحابة رضوان الله عليهم بهذه القاعدة العظيمة، وتلقى عنهم التابعون ذلك، وتواترت عبارات أهل العلم بذكرها والإشادة بأهميتها.

يقول الإمام مالك رحمه الله: «أو كلما جاء رجل أجدل من الآخر، رد ما أنزل جبريل على محمد ﷺ»¹.

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله: «كل شيء خالف أمر رسول الله ﷺ يسقط، ولا يقوم معه رأي ولا قياس، فإن الله تعالى قطع العذر بقول رسول الله ﷺ، فليس لأحد معه أمر ولا نهي غير ما أمر به»².

وتكلم الإمام ابن تيمية رحمه الله عن هذه القاعدة وفصل القول فيها، وخاصة في كتابه "درء تعارض العقل والنقل"، ولا يتسع المقام لإيراد بعض كلامه عنها من كتابه، وإنما أكتفي هنا بعبارات أوردها في كتابه "مجموع الفتاوى".

يقول: «فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يُقبل من أحد قط أن يعارض القرآن برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجدده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات، والآيات البيّنات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم»³.

وكل ما زُعم فيه التعارض بين النقل والعقل في باب العقائد أو في غيرها، فإنه عائد إلى أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن النقل لم يثبت، وهذا قد يُتصور في الحديث النبوي دون القرآن الكريم، إذ القرآن كله منقول بالتواتر، وإما أن العقل غير صريح.

1 شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، 1/ 144، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان.

2 كتاب الأم للشافعي، 2/ 193،

3 مجموع الفتاوى لابن تيمية، 13/ 28.

أما ما عدا ذلك فلا يمكن تصور تعارض حقيقي بين النقل والعقل، لأن العقل الصريح لا يمكن إلا أن يشهد بصحة النقل، والنقل الصحيح لا يتعارض مع ما تقرر في العقل الصريح السليم.

وإذا وقع وحصل تعارض بين نقل صحيح وعقل صريح في الظاهر، فإن النقل الصحيح يُقدم على العقل، لأن العصمة للنقل الصحيح، «إذ العلم إما نقل مصدق، وإما استدلال محقق، والمنقول إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم»¹.

وقد عنيت الأمة الإسلامية من لدن عصر الرسول ﷺ، بحفظ الروايات والتثبت من صحتها وجمعها وتدوينها في كتب الأحاديث والسنن، من الصحاح والسنن، والمسانيد والمعاجم، والجوامع، والمشيخات، والأجزاء، ونحوها.

وكذلك عنيت بالرواة والمرويات من حيث القبول والرد، ووضع علماء الحديث في ذلك أدق وأحكم قواعد النقد العلمي الصحيح، التي لم يسبقهم إليها أحد، ولم يلحقهم فيها أحد، «فكانت قواعدهم التي ساروا عليها أصح القواعد للإثبات التاريخي وأعلىها وأدقها، وإن أعرض عنها _ في هذه العصور المتأخرة _ كثير من الناس وتحاموها بغير علم منهم ولا بينة»².

وكانت تلك العناية ممثلة في علماء الحديث وجهابذته، وأئمة النقاد الذين قضوا حياتهم في الارتحال والأسفار، وجانبوا الراحة والاستقرار في سبيل لقاء الرواة، والبحث عنهم، ووزنهم بميزان دقيق، لا تحيف فيه على أحد منهم ولا غبن له، ولا نقص لحقه، وعنوا أيضا بضبط متون الأحاديث ضبطا محكما متقنا، وتحقيق الروايات وتحريها، ويبدو ذلك جليا في النسخة المحققة من صحيح الإمام البخاري، وتركوا لنا في علم تاريخ الرجال ثروة نادرة لا توجد في أية أمة من الأمم الأخرى، وفي علم الجرح والتعديل ما لم يعرف عند أمة أخرى³.

1 مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص: 48.

2 الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، للحافظ ابن كثير، تأليف الشيخ أحمد محمد شاكر، ص: 6.

3 ينظر ما كتبه الشيخ محمد بن محمد أبو شهبة في مقدمة كتابه " الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، ص: 5- 6.

فأثمرت هذه الجهود كلها علما قائما بذاته له أصوله وقواعده، وهو علم مصطلح الحديث الذي يضمن للأمة سلامة النقل وتمييز الغث من السمين.

المسألة الثالثة: وفي القاعدة إشارة مهمة إلى ضرورة سد جميع الذرائع المفضية إلى الانحراف في العقيدة الإسلامية، فقد أقام الإسلام أول ما أقام في نفوس المسلمين التوحيد، وأركان الإيمان، فلما استقر ذلك واكتمل «شرع من الأحكام ما يحمي التوحيد والإيمان، ويحققه على أكمل وجه، وذلك بسد أبواب نواقضه ومفاسده التي تؤدي إلى الشرك وعبادة غير الله. وبذلك أكمل الله تعالى الدين، وأتم على عباده النعمة، فلم تترك الشريعة باباً من الفضائل يرسخ التوحيد، ويقوي الإيمان إلا فتحت، ودعت إليه، ورغبت فيه، ولم تترك باباً للخرافات والمفاسد يخلُّ بالتوحيد وينقض عُرى الإيمان، أو يذهب به إلا سدته وحذرت منه أعظم تحذير، بالنهي الصريح، أو بضرب الأمثلة وأخذ العبرة من الأمم السابقة، ممن خرجوا عن طريق الحق، وما آل إليه حالهم من الكفر والعصيان، وما نزل بهم من العذاب، في مبتدعات ظنوها في بادئ أمرهم عبادات وطاعة تقرب إلى الله تعالى..»¹، وعلاج ذلك كله بسد جميع الذرائع المفضية إلى الشرك ونقض التوحيد الخالص، والتسليم المطلق لنصوص الوحي المعصوم من الخطأ.

وبذلك تتخلص الأمة من أنواع الشرك التي تظهر في كل زمان ومكان بمظاهر شتى، فقد تتجلى مظاهر الشرك مثلاً في تقديس الأشخاص والغلو فيهم واستصنامهم، ثم التسليم لأمرهم ونهيهم، والإعراض عن نصوص الوحي، وقد كان مبدأ الشرك في البشرية بتقديس الصالحين والمبالغة في حبهم، فكان «مبدأ التوحيد من عهد آدم عليه السلام إلى نبينا عليه الصلاة والسلام، يعالج علل الانحرافات وأمراض القلوب والعقول، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ

1 العقيدة الإسلامية وربطها بشعب الإيمان (السلوك والعمل)، د. الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، ص: 216، عالم الأدب للترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2018م.

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا إِيخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا إِيخْتَلَفَ فِيهِ
إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا لِمَا إِيخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١١﴾¹. فكان من أسباب بعثة الأنبياء اختلاف الناس عما كانوا عليه من الدين
الصحيح، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا إِيخْتَلَفُوا﴾².

ووحدة الأمة لا يتحقق استواء أركانها واكتمال أجزائها إلا على مبدأ التوحيد، من
حيث إنه سنة إلهية تنتصب إزاء الانحرافات الشركية التي تتبدل وتتنوع تبعاً للظروف
والأحوال. وهكذا كان الشرك الجاهلي اعتقاداً في الأحرار والرهبان، وكان اعتقاداً في المادة
والطبيعة والنظر الفلسفي.

وبعد أن بعث الله خاتم النبيين، فدعا الناس إلى التوحيد واتباع ملة إبراهيم، جاهد في
الله حق جهاده حتى توطدت عقيدة التوحيد، وكملت دعائمها، واستمرت قروناً تنشر
خيرها، إلى أن فشت علل التدين وعلل السياسة في القرون المتأخرة، ونبتت تحديات شركية
جديدة أدت إلى ضعف فقه التوحيد، وأظهرت أن العلم والعمل في اعتقاد التوحيد
متلازمان انحطاطاً ورقياً، تقادماً وتجديداً. ووقعت البشرية كلها في أنماط شركية تأخذ لبوس
العقلانية وزخرف التطور العلمي والمعرفي، تفرض على أهل التوحيد فقهاً متجدداً له يكون
بحق أصلاً للاجتهاد المبني على اعتبار المصالح ونظم الاجتماع وقوانين الشورى، والمتعلق
بمشمولات الحياة وتقلباتها ودور الإنسان فيها مبدأً وقيمة وغاية...³.

1 سورة البقرة، الآية: 213.

2 سورة يونس، الآية: 19.

3 الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، د عبد الرحمن العضراوي، ص: 67 - 68.

تلك كانت أهم القواعد العقدية للإصلاح الفكري، التي يسّر الله جمعها ودراستها، وقد حاولت أن أصوغها صياغة تقرب معانيها، مع الاستدلال عليها من نصوص قرآنية وحديثية، وبيان أثرها في إصلاح فكر الأمة.

وفي الفصل الثاني من الباب طائفة أخرى من القواعد العقدية في البناء الحضاري، وذلك في مبحثين:

الأول: يتضمن تعريفاً للحضارة لغة واصطلاحاً.

والثاني: يشتمل على ذكر نماذج من القواعد العقدية، وبيان أثرها في البناء الحضاري.

وتفصيل هذا الإجمال في مباحث ومطالب الفصل الثاني الآتي:

الفصل الثاني

القاعدة العقدية والبناء الحضاري.

المبحث الأول مفهوم الحضارة في تناول اللغوي والاصلاحي.

قبل الحديث عن أهم القواعد العقديّة المرتبطة بالبناء الحضاري لزم الوقوف في هذا المبحث على تعريف للحضارة لغة واصلاحاً، وهذا أوان الشروع في ذلك:

المصطلب الأول: تعريف الحضارة في اللغة.

لفظ الحضارة مأخوذاً من الفعل حضر: والحضر: خلاف البدو. والحضارة: سكون الحضر.

قال [القطامي]:

فمن تكن الحضارة أعجبته فأبي رجال بادية ترانا¹

وهذا الذي يؤكد المعجم الوسيط، فقد ورد فيه أن: "الحضارة) الإقامة في الحضر، وضد البداوة وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر، و(الحضر) المدن والقرى والريف ومن الناس ساكن الحضر ومن لا يصلح للسفر"²

ومن الحضارة: التخلق بأخلاق أهل الحضر وعاداتهم

(الحاضرة) القوم الحضور وحاضرة الشيء القريبة منه وفي التنزيل العزيز {واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر} وخلاف البادية وهي المدن والقرى والريف والتجارة الحاضرة ما يُباع نقداً يدا بيد³.

1 مجمل اللغة لابن فارس، أحمد بن فارس، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - 1406 هـ - 1986 م. 1/ 240

2 المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، دار الدعوة 1/ 181

3 المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1/ 181

وهي كلمة مرادفة لـ: "مدني"¹ والمدنية كلمة مشتقة من مدن المدائن أي مصرها وبنائها ونحتوا منها فعل (تمدن) وجعلوا معناها تخلق بأخلاق اهل المدن وخرج من حالة البداوة، ودخل في حالة الحضارة.²

المصطلب الثاني: تعريف الحضارة في الإصلاح.

الناظر في مفهوم الحضارة اصطلاحاً يلاحظ أن هذا المصطلح قد تطور تطوراً واسعاً، وسبب الاختلاف في تعريف الحضارة راجع في نظري إلى أنها ليست خاصة بشعب دون آخر، بل هي أمر مشترك بين الشعوب فكل واحد يأخذ من الآخر ويشاركه، فهي أمر مركب بين ما هو فكري وعلمي واقتصادي واجتماعي وديني، لذلك اختلفت الرؤى في تحديد مفهومها بدقة حسب زاوية نظر كل شخص، لذا فتعريفها اصطلاحاً متعدد ومعقد، وهذا ما سيتضح لدينا من خلال تقديم أهم التعريفات التي عُرِفَ بها هذا المصطلح.

- فقد عرف ابن خلدون الحضارة بقوله: «الحضارة: إنما هي تفنُّن في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه»³.

ويعد ابن خلدون من اوائل من عرفوا الحضارة، وقال في تعريفها أيضاً: «إن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر»⁴.

1 دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي، ط 3، دار المعارف، بيروت، المجلد الثامن ص: 553.
2 المرجع السابق مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وابن خلدون، بوزياني فاطمة الزهراء، أشرف: أ. د. بوعلي عبد الناصر، السنة الجامعية 2011-2012، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بلقايد تلمسان، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الآداب السنة الثانية ماستر، الجزائر، ص: 7.

3 عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق وتعليق وشرح: د. علي عبد الواحد وايفي، دار النهضة، مصر، القاهرة. ص 548.

4 عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق وتعليق وشرح: د. علي عبد الواحد وايفي، دار النهضة، مصر، القاهرة. ص 548.

- وعرفها الدكتور عمر فروخ بقوله: «الحضارة: هي العادة التي يسير عليها الناس في حياتهم العامة والخاصة، في قُطر من الأقطار في زمن من الأزمان»¹.
- وعرفها ديورانت ول بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي»².
- وعرفها شوقي أبو خليل بكونها: «هي محاولات الإنسان، الاستكشاف، والاختراع، والتفكير، والتنظيم، والعمل على استغلال الطبيعة، للوصول إلى مستوى حياة أفضل، وهي حصيلة جهود الأمم كلها»³.
- أما د. التويجري فيرى أن الحضارة من الجانب الثقافي هي: «وعاء لثقافات متنوعة تعددت أصولها ومشاربها ومصادرها، فامتزجت وتلاقحت، فشكلت خصائص الحضارة التي تعبر عن روح الإنسانية في إشراقاتها وتجليها، وتعكس المبادئ العامة التي هي القاسم المشترك بين الروافد والمصادر والمشارب جميعا»⁴.
- وعرفها تايلور قائلا: «إنها ذلك المركب الذي يحتوي على المعرفة والمعتقد والفن، والخلفيات والقانون والعادة وكل قدرات واعتيادات أخرى يكتسبها الانسان كعضو في المجتمع»⁵.
- وللمفكر الجزائري مالك بن نبي تحليل معروف للحضارة لخصه في ثلاثة عناصر هي: الإنسان، والتراب، والوقت، فقال: «حضارة= إنسان، + تراب+وقت»¹.

1 العرب في حضارتهم وثقافتهم، د. عمر فروخ، ص: 66، ط: 2، دار العلم للملايين بيروت (د.ت)
2 قصة الحضارة، ديورانت ول، ترجمة زكي نجيب محمود، 3/ 1، ط: 3، القاهرة، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، 1965.

3 الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، د. شوقي أبو خليل، ص: 20، ط: 2، دار الفكر المعاصر دمشق، 1417هـ 1996م.

4 د. عبد العزيز بن عثمان التويجري: خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، منشورات ايسيسكو، للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. 1423هـ /2002م ص 13-14.

5 محمد رياض: الانسان دراسة في النوع والحضارة، 184.

- وعرفها الدكتور إبراهيم سلمان تعريفاً جامعاً لما تفرق في معظم التعريفات السابقة فقال: «كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه، عقلاً، وخلقاً، ومادة وروحاً، دنيا وديناً. فهي- في إطلاقها وعمومها- قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور، وتقلب الأزمان وما صُورت به علاقته بالكون وما وراءه»².

وأخلص بعد هذه التعريفات للحضارة إلى تسجيل الخلاصات الآتية:

- التعريفات السابقة للحضارة تركز على جوانب، وتغفل جوانب أخرى، فمنها ما ركز على بعض مظاهر الحضارة عند الدول، وهو انتقالها من البداوة إلى الحضارة، وهو عنوان الفصل الخامس عشر الذي أدرج فيه ابن خلدون تعريفه للحضارة، وعليه فتعريفه للحضارة ليس تعريفاً محددَ الضوابط والمعالم، ومنها من حصر الحضارة في النظام الاجتماعي، وهو تعريف أيضاً غير كافٍ، لأن النظام الاجتماعي جزء من الحضارة، وليس هو كل الحضارة، ومنها من حصر الحضارة في الجانب المادي فقط، بحصرها في الاكتشافات والاختراعات، والتعريف الأخير حاول الاستفادة من كل ما قيل سابقاً، لذلك أرى أن تعريفه أقرب التعاريف الاصطلاحية للحضارة.
- لا بد من مراعاة ثلاثة أمور إذا أردنا أن نصل إلى تعريف جامع مانع للحضارة، وهذه الأمور الثلاثة هي أركان الحضارة الحقيقية، وتتمثل في تصنيف الحضارة إلى ثلاثة أصناف: صنف يتعلق بكل ما يخدم الجسد ويمتعه من وسائل العيش، كما ورد في تعريف ابن خلدون المتقدم للحضارة، وصنف يتعلق بكل ما يخدم المجتمع الإنساني ويؤسس لعلاقة أخوية بين بني البشر مهما اختلفوا، وصنف يتعلق بكل ما

1 شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، ص: 65، دار الفكر 1969م.

2 المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، د. إبراهيم سلمان، ص: 13، مركز الإسكندرية للكتاب، 1999، (د.ت).

يحقق العلاقة بين الإنسان وخالقه تعالى، وذلك بتحصيل سبل السعادة الحقيقية لهذا الإنسان حتى يسلك السبيل القويم إلى ربه وينال رضاه في الدنيا والآخرة.

● وبناء على ذلك فمن الخطأ اختزال مفهوم الحضارة في التقدم التكنولوجي الموجود اليوم، أو اختزالها في تحقيق القيم الروحية فقط، بل هي مفهوم شامل لكل ما يخص حياة الانسان قديماً وحديثاً، ويجعلها حياة طيبة، ولن تكون كذلك إلا بمراعاة الأسس الثلاثة السابقة.

● إن العنصر الأهم في بناء أي حضارة هو الإنسان المستخلف، فلا حضارة حقيقية يغيب فيها الإنسان المستخلف، ولعل الربط بين ما توحى به كلمة " الحضارة " و " الشهادة " يفيدنا في الوصول إلى هذا التشابه والتقارب في المعنى بين المصطلحين، فنخلص إلى أن الحضارة الحقيقية المطلوبة هي تلك الحضارة التي فيها حضور الأمة بجمعها ومجموعها، والشهادة بجميع معانيها التي تعطينا نموذج الإنسان الذي يتشبع بقيم التوحيد، ويتحلى بالصفات الحميدة، وينطلق منها لأداء رسالته، مسترشداً بما وضعه خالق الكون من طرق الهداية في الخلق إلى الحق.

● وأختم بالإشارة إلى أن أي حضارة لأي أمة لا بد أن تقف خلفها عقيدة توجهها، وقد أثبت الواقع أن جميع الحضارات البشرية في القدم والحديث لم تنشأ من فراغ، وإنما نشأت وفق تصورات وخلفيات معينة، قد تكون عقائد صحيحة، وقد تكون غير ذلك، وقد تكون فلسفات وضعية، ومهما ادعى الإنسان خلاف هذا فيبقى ادعاؤه عارياً من الصحة، لأن الواقع لا يرتفع.

المبحث الثاني: نماذج من القواعد عقديّة في البناء الحضاري.

وقفت على قواعد عقديّة كثيرة تصلح أن تكون مدخلاً من مداخل البناء الحضاري، وقد اجتهدت في انتقاء أهمها حسب طاقتي وفهمي المتواضع، فجاء ذلك في المطالب الآتية:

المصلب الأول: قاعدة "لا يتحقق كمال العبودية لله تعالى إلا في التعرف على أسمائه الحسنى وصفاته العلى"

وهذه القاعدة من أعظم قواعد الأسماء والصفات، وهي أم القواعد الأخرى التي سيأتي ذكرها في البناء الحضاري، لأنها تفيد أن شعور المؤمن بآثار أسماء الله وصفاته، وإحساسه بمقتضياتها، هو الذي يحقق له كمال العبودية لله عز وجل، وإذا تحقق له ذلك، وأُشرب في قلبه معاني تلك الأسماء والصفات، تخلق بما يجوز له أن يتخلق منها، وبذلك ينطلق في الحياة بانياً ومعمراً لدنياه وأخراه، وهذا ما كان عليه جيل الأمة الأخيار، حيث جمعوا بين فهم أسماء الله وصفاته وبين العمل بمقتضاها، وأدركوا أن لكل اسم من أسماء الباري، أو صفة من صفاته، حقاً من العبودية له تعالى على العباد أن يتعبده به، وبذلك جمعوا بين الإيمان والعمل.

يقول الإمام ابن القيم: «كل اسم له تعبد مختص به: علماً أو معرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر... وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾¹، والدعاء بها يتناول

1 سورة الأعراف، الآية: 180.

دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التبعّد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويشنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديته»¹.

ويقول أيضاً: «والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، والأمر اقتضاؤها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها. أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها.

وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضرر والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً وعلمه بسمعه تعالى وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه، وجوارحه، وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياة باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه، وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة»².

ولو فقه المسلمون حقيقة الإيمان بأسماء الله وصفاته وحققوا آثارها لكان لهم شأن آخر، فيثمر لهم الإيمان باسم الله: "الرقيب" و "السميع" و "البصير" إتقان العمل وإحسانه، ولا يتوقف عندهم إتقان العمل على وجود الرقيب أو المحاسب من العباد مثلهم، وبذلك تستقيم الحياة عندما يستحضر كل واحد مراقبة الله في جميع أموره، سواء تعلق الأمر بالعبادات أو المعاملات أو غيرها، لأن من أيقن وعلم أن ربه مطلع عليه استحى أن يراه على معصية أو فيما لا يجب، ومن علم أنه يراه أحسن عمله وعبادته وأخلص فيها لربه وخشع، وهذا هو

1 مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، 1/ 452.

2 المصدر السابق، 1/ 454.

عين الإحسان الوارد في حديث جبريل عليه السلام المشهور: عندما سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»¹.

قال الإمام النووي: «هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ لأننا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمات، واجتماعه بظاهره وباطنه وعلى الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به، فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام: الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمامه الخشوع والخضوع وغير ذلك»².

ومن هنا جاء الترغيب النبوي في حفظ أسماء الله الحسنى والعناية بها لأنه مدخل مهم من مداخل التعرف على الله تعالى وحسن عبادته، فقد قال رسول الله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة)³.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح عند شرحه هذا الحديث العظيم: «...وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عددها فقط، لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العمل بها، وقال أبو نعيم الأصبهاني: الإحصاء المذكور في الحديث ليس هو التعداد، وإنما هو العمل، والتعقل بمعاني الأسماء والإيمان بها»⁴.

1 جزء من الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري في صحيحه، رقم: 50، ومسلم، رقم: 9.

2 شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، 1/ 157-158.

3 الحديث متفق عليه.

4 فتح الباري، للحافظ ابن حجر، 226/11، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.

ومعنى إحصائها: حفظها، والحفظ هنا بمعنى حفظ المقتضيات من الأفعال والتصرفات، وليس حفظ العبارات، كما يفسره قول النبي ﷺ: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)¹.

والمراد بحفظ المقتضيات - كما يقول الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله -: «توقيع كل أعمالك وتصرفاتك بما تقتضيه دلالاتها من حدود والتزامات.

فمثلاً إذا انطلق العبد في طلب رزقه، واكتساب قوته فإنما يفعل ذلك باسمه تعالى: (الرزاق)، ومعناه أن يعتقد ألا رزق يصل إليه إلا ما كتب الله له، ثم ألا مانع له منه، وقد كتبه الله له، ويكون لهذا - إن صح اعتقاده فيه - أثره الإيماني، يجتهد كل يوم في تحصيله، فلا يساوم في دينه مقابل مال، عطاءً أو حرماناً، إذ وجد في معرفته باسم (الرزاق) أنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

وهو قصد من مقاصد حفظ (الاسم) من أسماء الحسنی: الثبات على ذلك أمام الفتن، لا تزحزحه المضايقات ولا المناوشات، ولا التهديدات، ولا تذهب به الوسوس كل مذهب، بل يسكن إلى عقيدته مطمئناً، آمناً من كل مكروه، إلا ما كان من قدر الله، موقناً أن الله لا يريد به إلا خيراً. فذلك أمر المؤمن الذي ليس إلا لمؤمن، والمؤمن أمره كله له خير... إنها عقيدة السلام والأنس الجميل بالله، وبقدر ما تسكن النفس إلى اسمه تعالى (الرزاق) يذوق العبد من معنى (الحفظ) جمالاً حميداً، وأنساً جديداً، فتعلو القدم بذلك في مراتب العبودية، وتوحيد الألوهية مقامات أخرى. والربانيون في (حفظ) كل اسم من أسمائه الحسنی - بهذا المعنى - مراتب ومنازل، وبذلك يمتلئ القلب حباً لجمال أنواره وجلال إفضاله تعالى، فيزداد شوقاً إلى السير في طريق المعرفة الربانية التي كلما ذاق منها العبد جديداً ازداد أنساً وشوقاً، فلا تكون العبادة - بالنسبة إليه حينئذ - إلا أنساً، وراحة، ولذة في طريق الله، إذ تنشط الجوارح للتقرب إليه تعالى بالأوقات والصلوات، والصيام والصدقات، والأمر بالمعروف والنهي

1 الحديث رواه الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح، صحيح الجامع الصغير، رقم: 7957.

عن المنكر، والدخول في سائر أعمال البر الصالحات. ولك في أسماء الله الحسنى _ من كل ذلك _ مسالك تقربك إلى الله سبحانه وتوصلك إليه»¹.

المصلب الثاني: قاعدة "جميع أفعال الله مبنية على الحكمة".

وهذه من أعظم القواعد العقيدية المستنبطة من استقراء جملة من نصوص القرآن الكريم، ومنها على سبيل المثال:

- الآيات التي ورد فيها وصف الله تعالى نفسه العلية بالحكمة، وما أكثر الآيات القرآنية التي يختمها الحق سبحانه باسمه "الحكيم"، الذي يفتن غالباً باسمه "العزیز" أو "العليم" أو "العلي"، والشواهد على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾²، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا سَوَّىٰ أَعْيُنَهُمْ وَلِيَٰلَآئِهِم بَدِئَاتُ الْآيَاتِ﴾³، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفِصْصُ الْحَوُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁴، وقال تعالى - مبيناً أنه حكيم في تبليغ كلامه العلي إلى البشر الضعيف -: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾⁵، يقول الإمام الغزالي في بيان أن أفعال الله وُضعت لمقاصد وحكم: «إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة، ولا يخلق شيئاً إلا وفيه نعمة، إما على

1 بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إِبصارِ آيات الطريق، _سلسلة: من القرآن إلى العمران_ تأليف الدكتور فريد الأنصاري، ص: 81_ 82_ 83 بتصرف، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1437هـ 2016م

2 سورة النساء، الآية: 11.

3 سورة النساء، جزء من الآية: 17.

4 سورة آل عمران، الآية: 61.

5 سورة الشورى، الآية: 48.

جميع عبادته وإما على بعضهم»¹، ويقول أيضاً: «فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه، ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته، لا تخلو ذرة من ذراته عن حِكْم كثيرة، من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف..»².

- الآيات التي وصف الله تعالى فيها فعلاً من أفعاله بالحكمة، كقوله ﴿جَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٣﴾.

- الآيات التي حكى فيها سبحانه إقرار رسله عليهم الصلاة والسلام له بالحكمة، كقوله تعالى في دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٨﴾⁴، وكذا الآيات التي جاء فيها إقرار ملائكته له بالحكمة في فعله كما في قصة خلق آدم عليه السلام حينما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾⁵.

- الآيات التي أكد فيها سبحانه وتعالى نفي كل ما يناقض الحكمة، من نفي العبث في خلق السماوات والأرض، وسائر مخلوقاته، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا

1 كتاب الصبر والشكر من "إحياء علوم الدين"، 4 / 168.

2 نفس الكتاب من المصدر السابق، 4 / 120.

3 سورة الدخان، الآية: 1-3.

4 سورة البقرة، الآية: 128.

5 سورة البقرة، الآية: 31.

خَلَفْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾¹، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَفْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا قَاعِلِينَ ﴿١٧﴾²، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَفْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبٍ ﴿١٦﴾ مَا خَلَفْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾³، فقوله تعالى: ﴿لِعِيبٍ﴾ مثال للحال التي «تجئ غير منتقلة، أي وصفاً لازماً، نحو: دعوتُ الله سميعاً»⁴، وهذا المثال الأخير أورده الشارح ابن عقيل عند قول ابن مالك في باب الحال من ألفيته:

وَكُونُهُ مُنْتَقِلاً مُشْتَقًّا، يَغِيبُ، لَكِنْ لَيْسَ مُسْتَحَقًّا

وإنما أشرت هذه الإشارة الإعرابية في هذا المقام، لأبين أن العقيدة كانت حاضرة في توجيه العلوم والمعارف لدى المسلمين، ومن يقرأ بتأمل بعض الخلافات اللغوية في النحو والبلاغة بين الفرق الكلامية الإسلامية، وخاصة بين المعتزلة والأشاعرة، سيدرك تأثير المعتقد في توجيه المعنى عند كل طائفة.

ومن أسماء الله تعالى التي تدل على تنزيه الله في أفعاله وأقواله عن كل عبث اسم "القدوس"، وهو من أسماء الله الحسنى التي ذكرت في القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومعناه

1 سورة المؤمنون، الآية: 116.

2 سورة الأنبياء، الآية: 16-17.

3 سورة الدخان، الآية: 36-37.

4 شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك في النحو والصرف، ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، ص: 244، الطبعة العشرون، رمضان 1400هـ 1980م، نشر وتوزيع دار التراث، القاهرة.

كما يقول الإمام الغزالي: «المنزه عن كل وصف يدركه الحس، أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير»¹.

وقال أيضاً: «ومن رقي علمه عن درجات المحسوسات والمتخيلات، وقدس إرادته عن مقتضى الشهوات، ولم يدرك إلا الله، فقد نزل بمجوحة حظيرة القدس»².

وللإمام محمد عبده كلام نفيس في "رسالة التوحيد" عند حديثه عن "أفعال الله جلّ شأنه"، أقتطف منه بعض الشذرات هنا، وهي قوله: «أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته.. وكل ما سبق عن علم وإرادة، فهو عن الاختيار، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته، فجميع صفات الأفعال من: خلق، ورزق، وإعطاء، ومنع، وتعذيب، وتنعيم، مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص، فلا يطوفن بعقل عاقل - بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة - أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته، كما هو الشأن في لوازم الماهيات، أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلاً، فإن ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة..»³.

وإذا تقرر معنى القاعدة، وتبينت أصلاتها، فإن نصيب المسلم من التخلق بها كبير، وبذلك تكون عوناً له ليسهم في البناء الحضاري، ويمكن أن أشير إلى أهم أوجه علاقة القاعدة السالفة الذكر بالبناء الحضاري، في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: بناءً على ما تقرر في القاعدة، وبناءً على ما أجمع عليه جميع العقلاء، من أن أفعال العقلاء منزهة عن العبث، فإنه من العبث الذي لا يرضاه شرع ولا عقل، أن تُهدر جهود، وتُبدل أوقات، في شيء لا يعود على البشرية بالنفع والمصلحة، وهذا أمر ينبغي الانتباه إليه، وخاصة في حوار المسلمين مع غيرهم، فقد دعا القرآن الكريم المسلمين

1 المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص: 65.

2 المصدر السابق، ص: 66.

3 رسالة التوحيد، للإمام الشيخ محمد عبده، ص: 55، تحقيق د محمد عمارة، دار الشروق القاهرة، الطبعة الأولى 1414هـ 1994م.

عند حوارهم للآخرين إلى التركيز على النقاط المشتركة، التي تشكل أرضية صلبة للحوار، ومحاور أساسية للتفاهم، بعيداً عن المهرج الذي يؤدي إلى التخاصم، وتبديد الجهود فيما لا يعود بالنفع على أحد، فقال تعالى في آية جامعة شاملة: ﴿فَلْيَأْهَلْ أَلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَبُغُورًا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾¹، لأن الحديث عن «موضوع مجادلة الآخر، يستدعي الحديث عن الجدوى والثمرة المرجوة من أي قضية خلافية، تُطرح على بساط الجدل، فلا يُعقل أن يُهدر الوقت والجهد في قضية خارج حدود العقل البشري، أو قضايا مسلّمة أو معلومة بالضرورة العقلية أو الدينية، فهو جهد في غير فائدة، وأفعال العقلاء منزّهة عن العبث»².

المسألة الثانية: إن استثمار القاعدة في تعزيز الحوار الداخلي، وتدير الاختلاف بين المسلمين، مدخل مهم من مداخل تحصين الجبهة الداخلية، وتلك مقدمة من مقدمات البناء الحضاري، لأن الأمة التي تشغلها سفاسف الأمور، وتصدها أتفه الخلافات عن العمل والبناء، هي أمة غافلة، مغبون أفرادها وجماعاتها، فإذا كان كل شيء في الكون وضعه الله بالحكمة، وللحكمة، فمن العبث أن يغيب هذا المعنى عن أمة الإسلام التي تعتر بدين كله حكمة، وكله عدل، وما أحسن قول الإمام محمد - وهو يتحدث عن الخلاف الواقع بين بعض المسلمين في مسألة "أفعال الله"-: «بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد، حتى إذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستنجد، فظن كل أن الآخر

1 سورة آل عمران، الآية: 63.

2 ضوابط تدير الاختلاف مع الآخر في أصول التراث الإسلامي، مقال منشور بمجلة إسلامية المعرفة، للباحث محمد رفيع، عدد: 52، السنة الثالثة عشرة، ربيع 1429هـ 2008م، ص: 101.

عدو يريد مقارعتة على ما بيده، فاستحر بينهم القتال، وما زالوا يتجادلون حتى تساقط جملهم دون المطلب، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقي، وهم الناجون، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا، ولوافتهم الغاية إخواناً بنور الحق مهتدين... اتفق الجميع على أن أفعال الله لا تخلو من حكمة، وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزّه عن العبث في أفعاله، والكذب في أقواله، ثم بعد هذا أخذوا يتنازجون بالألفاظ ويتمارون في الأوضاع، ولا يدري إلى أي غاية يقصدون، فلنأخذ ما اتفقوا عليه، ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه...¹، وما أشبه اليوم بالبارحة كما يقال! فلسان حال طوائف المسلمين اليوم أبلغ من ألف مقال في وصف ما تعانيه الأمة من تشرذم واختلاف، ولما تحسّن الأمة بعدُ تدبير اختلافها الداخلي، ونأمل أن يأتي يوم قريب تستعيد فيه الأمة عافيتها، وتحسن تدبير الاختلاف الداخلي فتحصن جبهتها الداخلية وتتقوى شوكتها، قبل أن تحاور غيرها، لأن التجربة أثبتت أن صوت الضعفاء في عالمنا غير مسموع، وأن الضعيف دائماً مولعٌ بتقليد القوي، وتتبع خطواته وسننه، شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخل جحر ضب لدخل معه.

المصلب الثالث: قاعدة "توحيد الله أساس دعوة كل الرسالات السماوية".

وهذه القاعدة مستنبطة من نصوص كثيرة من كتاب الله تدل على أن التوحيد هو قاعدة كل ديانة من عند الله، وقد قرر الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحقيقة وأكدها، وكررها في قصة كل رسول، وعلى لسان كل رسول وني عليهم السلام، فثبتت القاعدة باستقراء نصوص القرآن الكريم.

ومن النصوص القرآنية التي قررت وأكدت هذه القاعدة:

1 رسالة التوحيد، محمد عبده، ص: 56-57.

- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ بِقَالَ يَلْفُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾¹.
- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَلْفُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَقْبَلًا تَتَّفُونَ﴾².
- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَلْفُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَمَا جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَةٌ فَاذْرُوهَا تَاكُلْ مِن أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾³.
- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَلْفُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَمَا جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾⁴.
- قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالذِّمَّةَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا

1 سورة الأعراف، الآية: 58.

2 سورة الأعراف، الآية: 64.

3 سورة الأعراف، الآية: 72.

4 سورة الأعراف، الآية: 84.

تَتَّبِعُوا فِيهِ كَبْرَ عَلَيِ الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ ۗ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِئُ إِلَيْهِ مَنْ

يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١١﴾¹.

فهذه النصوص وغيرها كثير تفيد أن كل رسول من عند الله جاء بكلمة واحدة، هي كلمة التوحيد، ودعوة واحدة هي دعوة التوحيد، وأن «أسس رسالات الرسل ومبادئ دعوتهم واحدة، لأنهم رسل مرسل واحد، فلا خلاف في العقائد التي دعوا إليها، ولا خلاف في روح العبادات التي أمروا بها، كما لا خلاف في مبادئ التعامل المادي والأخلاقي والسياسي التي نادوا بها، وما نراه الآن من البون الشاسع في المعتقدات بين أتباع رسالات ربانية صحيحة الأصل، فإنما ذلك من التحريف والتبديل الذي دخل إلى مبادئ هذه الديانات من أتباع ذوي غايات سيئة، حرفوا وبدلوا وفق شهواتهم وأغراضهم الخاصة.

ولو أن هذه الديانات السابقة بقيت على أصولها من غير تحريف، لا لتقى متبعوها بصدق مع المسلمين التقاء تاما، ولكان أتباع الديانات السماوية كلهم أتباع ملة حنيفية واحدة، تعمل بالمنهج التشريعي الذي ختم الله به رسالات السماء، وأنزله الله على محمد صلوات الله وسلامه عليه»².

والناظر فيما بقي من الأقوال مأثوراً عن الأنبياء والرسل، من بين ركाम التحريفات والتأويلات، يجد فيها بقية باقية تدعو صراحة إلى التوحيد وتُقرُّ بوحداية الله الخالق، ولا توجد فيها كلمة واحدة تشهد بصحة ما ألصق زوراً وبهتاناً بتلك الكتب السماوية من عقيدة التثليث، أو نسبة ما لا يليق بالله تعالى، أو الخط من قيمة أنبيائه ورسله عليهم السلام، ويقف الدارس لمقارنة الأديان على نماذج كثيرة من الكتب السماوية التي لم تطلها يد التحريف والتشويه، تؤكد ما سلف، ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في إنجيل مرقس أن أحد اليهود الكتبة سأل المسيح عيسى عليه السلام فقال: «ما هي أولى الوصايا كلها؟

1 سورة الشورى، الآية: 11.

2 العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ص: 521.

فأجاب يسوع: الوصية الأولى هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا هو الرب الأحد، فأحب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك، والوصية الثانية، أحب قريبك مثلما تحب نفسك، وما من وصية أعظم من هاتين الوصيتين، فقال له معلم الشريعة: أحسنت، يا معلم! فأنت حق في قولك إن الله واحد، ولا إله سواه»¹.

ومن القواعد العقيدية التي تؤكد القاعدة السابقة، وتزيدها إيضاحاً قاعدة: "الأصل

في البشرية التوحيد، والشرك كهدى عليها".

وهي من القواعد المنصوص عليها في نصوص كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾².

يقول شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري: «فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به»³.

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان بين نوح و آدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلَفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»¹.

1 العهد الجديد، إنجيل مرقس، الإصحاح: 28/12 - 32.

2 سورة البقرة، الآية: 211.

3 جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، 2/ 196، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، مصر، الطبعة الثالثة، 1388هـ.

وبعد بيان الله تعالى لهذه الحقيقة الكبرى بأبلغ بيان وأنصعه لن يصل الباحث إلى نتيجة يقينية في نظريات الشرق أو الغرب، التي تذهب مذاهب شتى في هذه المسألة، كالنظرية التي يرى أصحابها أن عقيدة الإنسان بدأت باعتقاد وجود آلهة متعددة، مستدلين على ذلك ببعض الظواهر التاريخية، وممن يرى ذلك: العالم الأنثروبولوجي "ادوارد تايلور" الذي كان يعتقد بنظرية التطور ويرى أن الإنسان انتقل من عبادة الفرد الحاكم إلى عبادة الآلهة المتعددة، ثم انتهى إلى عبادة الإله الواحد.²

وإن المسلم بما معه من التصور الإسلامي يريح نفسه من عناء البحث في مثل هذه المسائل، ولن يجد إرواء غليله في ذلك إلا بالرجوع إلى الوحي المعصوم، لأن «الانتماء إلى الإسلام، غداة اتسامه بالجدية، يفرض على المنتمي -فيما يفرض- ضبط حركاته، وفق بيانات تختص بكل مجال، ونبد العشوائية والارتجال، وبمقدار ما تكون الاستجابة مكتملة العناصر متوفرة الشروط، فإن العملية قيد الطلب، تولد أقرب إلى كامل خلقتها وسوائها»³.

وإن الوحدة الكبرى بين الرسالات، وبين الرسل جميعا، -كما يقول سيد قطب- هي: «قاعدة التصور الإسلامي، وهي التي تجعل الأمة الإسلامية الأمة الواحدة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق، السائرة في الدرب على هدى ونور، والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد، والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا مفتوحا للناس جميعا في مودة وسلام»⁴.

1 جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 2/ 194.

2 ينظر كتاب: الله، للأديب عباس محمود العقاد، ص: 17 وما بعدها.

3 فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة أو الحل الإسلامي لمعضلة الفقر، للدكتور عبد السلام الخرشبي، ص: 236، المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات - مراكش المغرب - الطبعة الثانية، 2008م.

4 في ظلال القرآن سيد قطب، 1/ 117-118.

والقاعدة مدخل مهم من مداخل البناء الحضاري، لأنها مفتاح من مفاتيح بناء جسور التعاون وفتح الحوار مع أتباع الشرائع السماوية السابقة كاليهود والنصارى، للوصول إلى القواسم المشتركة بين بني البشر، ما دام أن جميع الرسل والأنبياء قد اتفقوا على توحيد الله، والتحذير من الشرك، ويتضح ذلك في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: تقرر القاعدة أن توحيد الله مدخل أساسي لأي حوار مع أتباع الشرائع السماوية السابقة، لأن هذه الشرائع مصدرها واحد، وكلها متفقة في الأصل على الدعوة إلى الإيمان بالله ونبذ التفرق في الدين، كما أشارت إلى ذلك آية سورة الشورى السابقة.

فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام لم تكن دعوتهم إلا دعوة توحيدية تقوم على الإقرار بأن الله وحده هو الذي يستحق العبادة، وما يزعمه اليهود والنصارى من أنهم يتبعون ملة هؤلاء الرسل الكرام فهو زعم كاذب لا يصدقه الواقع.

وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي يلقب بأبي الأنبياء عليهم السلام، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وهذا ما قرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦٦﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾¹.

وقد أرشد الله تعالى نبيه محمداً ﷺ إلى الاستناد إلى هذه القاعدة العظيمة في بناء الحوار مع أتباع الشرائع السابقة، وذلك ما أرشد إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ

1 سورة آل عمران، الآية: 67.

شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّمَّ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا بَقُولُوا بِشَهَادَتِ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٣﴾¹.

إن قيم التسامح والتعايش في الإسلام تنطلق من قاعدة عقديّة راسخة، وليست نفلًا من النوافل، أو مباحًا يستوي فيه الفعل أو الترك، بل هو ذو جذور إيمانية، وليس أبلغ وأوفى بالقصد من الآية الكريمة: ﴿فُلْ يَتَّهَلَّ أَلْكُتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، ولقد ارتبطت هذه القاعدة الإيمانية بقيم عليا أنزلها الله عز وجل «وتفترض أن يعيش الرجل مع الخلق، فيسلم منهم، وينصفهم من نفسه، فيلقى الله عز وجل، وقد أدى إليهم حقوقهم، وسلم بدينه»².

وإذا ذهبنا نستقصي مبدأ التعايش بين المسلمين وغيرهم، فسنجد أن المساحة المشتركة بين المسلمين وغيرهم عامة، ومع أهل الكتاب خاصة، مساحة واسعة جدًا، ولها شواهد كثيرة، يكفي أن نتذكر منها فقط أن من بين أسس بناء دولة المسلمين في المدينة المنورة بعد هجرة النبي ﷺ، أنه نصَّ في وثيقة المدينة، أو صحيفة المدينة، على بنود تنظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم، ومنها عهد رسول الله ﷺ إلى يهود المدينة، وفيها: (لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم)³، وأيضاً عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى نصارى نجران، وفيه: (ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دنية)⁴، وإذا كان الإسلام قد رسخ في قلوب المسلمين قيم التسامح والتعايش مع الناس كافة، ففيه من باب أولى مجالٌ رحبٌ للتعايش

1 سورة آل عمران، الآية: 63.

2 الإسلام في القرن العشرين، عباس محمود العقاد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ص: 12، (د.ت).

3 السيرة النبوية، لابن هشام، 114/2، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، 1425هـ 2004م.

4 العلاقة الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، د فاروق حمادة، ص: 119، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1426هـ 2005م.

والتسامح مع الذين تجمعهم بهم قواسم مشتركة، وفي تعايش المسلمين مع النصارى في بلاد الأندلس ثمانية قرون درس وعبرة، وحجة على كل من يرمي الإسلام بأنه دين الإرهاب والانغلاق، وأنه يرفض الآخر¹.

المسألة الثانية: القاعدة ترشدنا إلى الأسس الأخلاقية التي توضح موقف الإسلام من أتباع الرسالات الإلهية الأخرى، ويتحدد هذا الموقف في ضوء أساس واضح وهو أن المسلمين ليسوا أوصياء على العالم بأسره، وإنما هم أمناء على تبليغ الدعوة الإسلامية التي هي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وهذا الأساس واضح المعالم في صريح القرآن الكريم الذي وجه النبي ﷺ إلى هذا المنهج في آيات عدة، ومنها قوله تعالى: ﴿بَذِكْرٍ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝١٦﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝١٧﴾²، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ فَوْمَكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۝١٨﴾ فُل لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ نَبِيٍّ مِّسْتَفَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾³، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٢٠﴾⁴، فقد دلت هذه الآيات على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا سلطان له على أحد من الناس، فكذلك أتباعه لا سلطان لهم على أحد، وسبيل الدعوة إلى الإسلام هو غرس العقيدة الصحيحة بالمنطق والحجة والبرهان العقلي الذي إذا عُرض على الفطر السليمة تلقته بالقبول، فيطمئن الإنسان إلى سلامة اعتقاده وقناعته دون أي مؤثر خارجي

1 من الكتب التي بينت كثيراً من صور التعايش بين المسلمين وبين غيرهم في الأندلس، كتاب: التعايش السلمي بين الأديان السماوية في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دول الطوائف، لمؤلفه الدكتور علي عطية الكعبي، الطبعة الأولى، 2014م، دار مكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع بغداد، العراق.

2 سورة العاشية، الآية: 21-22.

3 سورة الأنعام، الآية: 67.

4 سورة القصص، الآية: 56.

من إكراه أو إغراء مادي أو تسلط، خلافاً لتصور المستشرقين وأتباعهم الذين يزعمون أن الإسلام قد انتشر بحد السيف.

المسألة الثالثة: توضح القاعدة أمراً في غاية الأهمية، وهو أنه: لما كانت رسالات الرسل كلهم واحدة في جوهرها وأصولها وعقائدها، ومتكاملة في شرائعها، يتم المتأخر منها شرائع المتقدم حسب تزايد حاجات البشر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لما كان الأمر كذلك فإن فرص استثمار هذا المشترك في الحوار الديني والبناء الحضاري المشترك ممكنة، والمسلمون هم المؤهلون لقيادة هذا الحوار بما لديهم من أسس صحيحة وسليمة تتسع للجميع ولا ترفض أي حوار وجدال بالتي هي أحسن، ولكن لن يتأتى ذلك ما دام المسلمون ضعفاء يُقادون، ولا يقودون، إذ من المعلوم بالمشاهدة في الواقع أن من شروط نجاح الحوار: حصول التكافؤ بين طرفي الحوار، فإذا فُقدَ التكافؤ فُقدت معه الموضوعية والجدية، وشعر أحد الأطراف بالإرهاب الفكري، الذي يصد عن الوصول إلى الحقيقة، وحينما يتحقق التكافؤ بين الأطراف في الحوار، توجد معه الأجواء الهادئة للتفكير المستقل «ولعل من أشد الأمور ضرورةً لوصول الحوار إلى هدفه، وجود الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي الذي يمثل فيه الإنسان نفسه وفكره، والابتعاد عن الأجواء الانفعالية التي تعيق الإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير، فإنه قد يخضع في قناعاته وأفكاره للجو الاجتماعي الذي تنطلق فيه الجماعة في أجواء انفعالية حماسية لتأييد فكرة معيّنة، أو رفض أخرى، فيستسلم الإنسان استسلاماً لا شعورياً، كنتيجة طبيعية لانصهاره بالجو العام وذوبانه فيه.. الأمر الذي يفقد فيه استقلاله الفكري وشخصيته المميّزة، ويحيله ظلاً باهتاً للجماعة»¹.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أنه قد اشتمل إجمالاً وتفصيلاً على كثير من الأسس المشتركة لحوار المسلمين مع أتباع الرسالات السماوية السابقة، ومنها على سبيل المثال:

1 الحوار في القرآن، قواعد وأساليبه ومعطياته، محمد حسين فضل الله، ص: 75، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، الطبعة الخامسة، 1417هـ 1996م.

➤ أنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بيانا وتفصيلا.

➤ أنه بين الأدلة والبراهين على ذلك، بما لا يمكن أن يوجد في أي مصدر آخر.

➤ أنه قرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين دون استثناء، وجعل تكذيب رسول واحد تكذيبا بجميع الرسل عليهم السلام، ويمكن أن نصوغ قاعدة عقديّة بناءً على ذلك، فنقول: **"كل من كذب برسول، فقد كذب بجميع الرسل"**، وهي قاعدة عقديّة كلية لها ما تستند إليه من نصوص قطعية في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا

تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾¹، فقد حكم الله بأن قوم نوح الذين كذبوا برسولهم قد كذبوا بجميع

الرسل، والسر في ذلك أن جوهر رسالات الرسل واحد، فمن كذب بواحد منهم فقد كذب بالباقيين.

وأخبر الله عن مؤمني هذه الأمة بأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله في الإيمان بهم جميعا، وتلك مزية وشرف نالته الأمة المحمدية، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرٌ إِلَيْنَا وَإِلَىٰ رَبِّنَا أَن نَسُفِكَ الْكُفْرَانَ، وَإِنَّمَا تَعْبُودُونَ لِكُفْرَانِهِمْ أَتَىٰ الْكُفْرَانَ عَذَابًا يُدْرِكُهُ الْغَافِقُونَ ﴿٢٨٤﴾﴾²

➤ أنه قرر الشرائع الكلية التي بُعث بها الرسل، ولهذا اتفق الرسل جميعاً على الشرائع الكلية، مثل الضروريات الخمس المعروفة التي لا يخلو منها كتاب من كتب مقاصد الشريعة

1 سورة الشعراء، الآية: 105 - 106.

2 سورة البقرة، الآية: 284.

الإسلامية، ويأتي حفظ العقيدة في صدارة الكليات الشرعية، وبناءً على ذلك نصوص قاعدة عقديّة، مستنبطة من واقع العقيدة الثابت الذي لا يقبل التغيير والتبديل، مهما اختلف الزمان والمكان، وهي قاعدة: " **لا نسخ في العقائد** "، لأنه إذا جاز النسخ¹ في التشريع لحكمٍ ومقاصد ذكرها الأصوليون وعلماء التفسير، فإنه لا يجوز في العقائد، لأن النسخ فيها سيؤدي إلى التناقض والعبث، والله منزّه عن ذلك.

➤ أنه جادل المكذّبين بالكتب والرسائل بأنواع الحجج والبراهين، وبين عقوبات الله لأولئك المكذّبين، ونصرتهم لأهل الكتاب المتبعين لرسولهم.

➤ بين القرآن الكريم ما حُرّف من تلك الكتب وما بُدّل وعُيّر وما كتّمه المؤمنون عليها، فصارت له الهيمنة من وجوه كثيرة، وصار مرجعاً يتحاكم إليه جميع الناس في الحوار وغيره.

المسألة الرابعة: في القاعدة تذكير الأمة الإسلامية بواجب الإحساس بالمسؤولية عن الآخرين، في دعوتهم إلى الخير والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، عملاً بواجب التبليغ عن الله، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾²، ولن يتأتى للأمة أن تدعو إلى الخير والإيمان بالله إذا لم تتمثل هي ذلك في واقعها، لأن لسان الحال أبلغ من لسان القول.

1 لم يسلم الحديث عن النسخ من نقاش طويل وعريض قديماً وحديثاً، والناس فيه بين غالي في إنكاره، وغالي في إثباته، ومتوسط في المسألة، وليس المقام هنا مقام بسط القول في المسألة، ومناقشة أدلة كل طرف، وإنما أشرت إلى المسألة.

2 سورة آل عمران، الآية: 110.

المسألة الخامسة: في القاعدة تقرير مبدأ ضرورة التعايش الديني بين أتباع الشرائع السماوية، وهذا المبدأ يقوم على منهاج السماحة في التعامل مع المخالفين، والمسالمة مع المسلمين، والدفاع عن الوجود والحقوق ضد المعتدين، وهو ما نص عليه كتاب الله في آيتين واضحتين من كتابه الله الخاتم: ﴿لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفْتَلَوْكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ إِنَّمَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ فَتَلَوْكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾﴾¹، والتعايش الديني الحقيقي له متطلبات، وهي:

- الشعور بأن الناس جميعاً هم خلق الله أوجدهم ليقوا ويعمروا الأرض، لا ليقتلوا أو يتعرضوا للإفناء والدمار، وهذا يعني أن الإنسانية من أصل واحد، وهم إخوة في الإنسانية، والأخوة تقتضي المودة ومحبة الخير للآخرين وإنقاذهم من الضلالة والانحراف.
- تحقيق مبدأ التكافل بين الأمة في مجتمع معين باعتباره ترجمة أو مظهراً للأخوة.
- الانطلاق من مبدأ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، وهذه المساواة قررها القرآن الكريم في غير ما آية، ومن ذلك قوله الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٢﴾﴾².

1 سورة الممتحنة، الآية: 8-9.

2 سورة النساء، الآية: 1.

● إن الحرية تلازم تقرير مبدأ المساواة، فالناس جميعاً أحرار في اختياراتهم الدينية وغيرها، ولا يكون الحساب في الآخرة إلا على أساس هذه الحرية، فليس من العدل الحساب والجزاء على ما يُكره عليه الإنسان، وإن أُلزم معاني الحرية تحرير الإنسان من العبودية لغير الله ومن جميع مظاهر الشرك، والمبادرة إلى توحيد الله في ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، لأن كمال الحرية في كمال التوحيد، وقد ضرب الله تعالى في كتابه العزيز مثلاً لمن يتخبط في أحوال الشرك وظلماته فلا يملك أمر نفسه، وبجانب هذا الشخص رجل متحرر بتحقيق التوحيد الخالص، وهما لا يستويان مثلاً، فقال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ

يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۗ إِنْ حَمَدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾¹.

فتلخص من هذا كله أن القاعدة العقدية السابقة يمكن أن تكون مدخلاً مهماً من مداخل البناء الحضاري، وذلك بتأسيس حوار بناء مع أتباع الرسالات السماوية، ولن يؤدي هذا الحوار أكله إلا إذا توفرت فيه ثلاثة أمور، وهي:

- الحرص على وجود تفاهم بناء يؤدي إلى التعايش الديني.
- إظهار قيمة الإيمان الصحيح بالله في النفوس في كل زمان ومكان، ولا سيما في عصرنا الحاضر الذي طغت فيه المادية على كل شيء في الحياة.
- إنقاذ الإنسان من ورطة الحيرة والقلق والضياع، وتوفير مستقبل هانئ وراحة للنفس الإنسانية المعذبة، ونجاة في عالم الآخرة.

1 سورة الزمر، الآية: 28.

المصطلب الرابع: قاعدة "العلم بأسماء الله الحسنى أصل للعلم بكل معلوم، والتأكد بها علاج لكل مشكل".

وهي قاعدة منصوص عليها في القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾¹.

وفي شرح هذه القاعدة وبيان أهميتها يقول الإمام ابن القيم: «إن العلم بأسماء الله الحسنى أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواء إما أن تكون خلقاً له تعالى أو أمراً، إما علم بما كونه، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه.. وإحصاء الأسماء الحسنى، أصل لإحصاء كل معلوم، لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها..»².

والمراد بكون أسماء الله حسنى أنها بالغة في الحسن غايته، وذلك لأنها متضمنة لصفات الكمال التام الذي لا يعتره نقص بأي وجه من الوجوه. مثال ذلك "الحي" اسم من أسماء الله تعالى، فهذا الاسم متضمن للحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال.

والحسن في أسماء الله يكون تارة باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون تارة باعتبار جمعه مع غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال، ومن يتأمل ورود أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم يلحظ هذا الأمر، حيث نجد بعض الأسماء الحسنى تُذكر منفردة، وتارة أخرى تُذكر مقرونة بغيرها من الأسماء، كما في اسم الله "السميع"، مع

1 سورة الأعراف، الآية: 180.

2 الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، 1/ 150-151، تحقيق علي الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، 1408هـ.

"العليم"، و"الغفور"، مع "الرحيم"، و"العزیز"، مع "الحكيم"، إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى، فمثلا اسم الله: **"العزیز الحكيم"**، قد جمع بينهما القرآن الكريم في آيات كثيرة، فيكون كل منهما دالا على الكمال الخاص الذي يقتضيه وهو العزة في العزیز، والحكم والحكمة في الحكيم، والجمع بينهما يدل على كمال آخر وهو أن عزته تعالى لا تقتضي ظلما وجورا وسوء فعل، كما قد يكون من عزة المخلوقين، لأن العزیز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم كما هو مشاهد في أكثر البشر، وكذلك حكمه سبحانه وحكمته مقرونان بالعز الكامل الذي لا نقص فيه، بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما قد يعتريهما الذل، وهكذا يقال في سائر الله الحسنى.

ولبيان أثر أسماء الله الحسنى في البناء الحضاري، نمثل للقاعدة بأمثلة، نبرز فيها كيف أن الإيمان بأسماء الله الحسنى، والتعبد بها، باستحضار ما تحمله من دلالات إيمانية عميقة، كفيل ببناء شخصية المسلم الواعي بدوره في الإسهام الحضاري، تحقيقاً لمهمة الاستخلاف وال عمران، وبما أن استقصاء الحديث عن جميع أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن الكريم، وفي سنة رسول الله ﷺ، لا يتسع له المقام هنا، فسأكتفي بإيراد نماذج فقط من أسماء الله الحسنى، وهي **"الرحمن"**، و**"العدل"**، و**"الرقيب"**، مكتفياً في الغالب الأعم بذكر ثمرات هذه الأسماء الحسنى بقضية ضبط الحوار بين المتحاورين للوصول إلى النتائج المقبولة، أو القواسم المشتركة للتعايش الإنساني، باعتبار الحوار والتعايش من أساسيات البناء الحضاري، لأن بالحوار والتواصل والتعاون يحصل التآلف والتوافق، وتُبنى الحضارات، وبالصرع والخلاف المدموم تُهدم وتتلاشى الحضارات، فلزم التوقف.

فمن أسماء الله الحسنى **"الرحمن"**، وقد ورد هذا الاسم الكريم في القرآن العظيم وفي الحديث النبوي الشريف أكثر من مرة، وورد غالبا بعد اسم **"الله"**، كما في البسملة، وكما في قوله تعالى: ﴿فُلْ دَعُوا اللَّهَ أَوْ دَعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ

سَبِيلًا ﴿١٩﴾¹، «وواضح أن هذا الترتيب في كلام الله لا يرد إلا لكي يفيدنا ما لا يفيد

ترتيب غيره، وهذه الإفادة هي أن صفة الرحمة المأخوذة من اسم **الرحمن** تتقدم على

غيرها من الصفات في قيامها بذاته سبحانه»².

وقد جاءت نصوص كثيرة تقرر وتدلل على أنه ما من شيء إلا وهو أثر من آثار

الرحمة الإلهية.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ

لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَفِيهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾³.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَائِتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾⁴.

وبين رسول الله ﷺ قيمة الرحمة، فقال في الحديث الصحيح: (إن الله كتب كتاباً

قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش)⁵.

وقبل بيان قيمة الرحمة في ضبط الحوار حتى يكون بناءً، أستهل ذلك ببعض

الإشارات الممهدة من كلام الدكتور طه عبد الرحمن في هذا الموضوع، فقد وقفت له على

كلام نفيس في الفصل السادس من كتابه **"روح الحداثة"** تحت عنوان **"واجب التضامن**

1 سورة الإسراء، الآية: 109.

2 روح الحداثة (المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية)، للدكتور طه عبد الرحمن، ص: 246، بتصرف.

3 سورة غافر، الآية: 6.

4 سورة الأعراف، الآية: 156.

5 أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ فُرْعَانٌ مَّجِيدٌ﴾، رقم الحديث: 7554.

والتعميم الوجودي"1، وقد بسط فيه القول، واستنتج منه بنفسه المنطقي والفلسفي الطويل مجموعة من الأسس التي تصلح أن تكون ضوابط للحوار المؤدي إلى الاتصال ونفي الانفصال، وتلك في نظري أهم أسس البناء الحضاري، ومن أهم الأسس التي استنتجها الدكتور طه عبد الرحمن في هذا المبحث القيم:

- الأصل أن الموجودات، على اختلافها، يرحم بعضها بعضاً، تخلقنا باسم الرحمن من أسمائه تعالى.
- إن اسم "الرحمن" هو أول أسماء الصفات الإلهية، فالرحمن هو الله سبحانه وقد تجلّى أول ما تجلّى لخالقه بأولى القيم وأكملها على الإطلاق، وهي الرحمة.
- لتستحضر في نفسك على الدوام أن علاقة "الرحمن" بك علاقة قرب لا يُعرف كيفها، ولكن يُعرف يقينا وجودها.
- لتعمل بمقتضى الصلة القيمة الموجودة بين اسم "الرحمن" واسم "الرحيم".
- الأصل في المخلوق دوام الاحتياج، فإن لم تكن به حاجة نقصان، كانت به حاجة زيادة.
- لترحم الآخرين رحمتك لنفسك، حفظاً لقيمة الإنسان.
- الرحمة تفتح باب الصلة بالآخر بأنواعه المختلفة.
- لترحم غير الإنسان رحمتك للإنسان، حفظاً لقيمة الوجود.
- لتؤثر الكونية المأخوذة من الرحمة على كونية أخرى.
- لتشهد في أوامر الرحمن تجلي رحمته، لا تجلي قهره.
- لتتخذ في تبين مظاهر الرحمة طريق التفكير، لا طريق التفكير فحسب.

1 روح الحداثة، من ص: 237 إلى ص: 261، وقد لخصت من هذا الفصل أهم الأسس التي لها علاقة بالموضوع، وتبدأ من مبحث "التطبيق الإسلامي لركن التعميم ومبدأ "التراحم" ص: 243، وأرجو أن أكون موفقاً في التلخيص، لأن كلام الدكتور طه عبد الرحمن يحتاج إلى متمرس وخبير، يجمع بين فقه اللغة، وفقه المنطق، وعمق الفلسفة.

● لتتخذ في تخلقك طريق التشبه بأخلاق الرحمن، لا طريق تشبيه أخلاق الرحمن بأخلاق الإنسان.

● اجعل أصل الأخلاق قائما في ذات الرحمن، لا في ذات الإنسان، فيكون النموذج هو الرحمن وليس الإنسان.

وتأسيسا على القاعدة العقدية السابقة وعلى ما تفرع منها في اسم الله " **الرحمن** " أخلص إلى التذكير ببعض آثار قيمة الرحمة في البناء الحضاري، ضوابط الحوار التي هي مدخل مهم من مداخل تحقيق التعايش والتعاون بين المسلمين وغيره، وهي:

➤ **البدء مع المحاور من نقطة الالتقاء**، فأطراف الحوار مهما اختلفت وتباينت آراؤهم وأفكارهم لا بد من وجود مواضع مشتركة بينهم رحمة من الله بهم، وتأتي مسائل العقيدة في صدارة القواسم المشتركة بين الأطراف، والموفق من اجتهد في الكشف عن تلك المواضع للدخول منها إلى مواضع الاختلاف والتباين.

لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أمر في غاية الأهمية وهو أن البدء في الحوار من نقطة الالتقاء قد يستخدمه أهل الباطل في الدخول على أهل الحق من الباب المتفق عليه للتغريب بهم ولتمرير الباطل وتزيينه، فعلى أهل الحق أن يكونوا على حذر شديد، ونظر ثاقب في الباطل وأهله ومدخله، حتى يجمعوا بين تحصيل الخير ودفع الشر.

وممن نبه على هذا الأمر ابن تيمية حيث قال: «..وهذا شأن كل من أراد أن يظهر خلاف ما عليه أمة من الأمم من الحق إنما يأتيهم بالأسهل الأقرب إلى موافقتهم، فإن شياطين الإنس والجن لا يأتون ابتداءً ينقضون الأصول العظيمة الظاهرة، فإنهم لا يتمكنون.. وإنما الغرض التنبيه على أن دعاة الباطل المخالفين لما جاءت به الرسل يتدرجون من الأسهل الأقرب إلى موافقة الناس إلى أن ينتهوا إلى هدم الدين، وهذا مما يفعله بعض أهل

الحق أيضا في دعوة الناس إلى الحق شيئا بعد شيء بحسب ما تقتضيه الشريعة، وما يناسب حاله وحال أصحابه»¹.

➤ **التدرج مع المحاور في عرض موضوعات الحوار، ومراعاة حاله، ومن المعلوم** أن التدرج من آثار رحمة الله في كل شيء، سواء في خلق الكون أو خلق الإنسان، أو في تشريع الأحكام، وغير ذلك، وقد كانت الدعوة إلى التوحيد في سلم أولويات النبي ﷺ، ويظهر ذلك جليا في مواقف عدة، ومن ذلك وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن، فذكره بهذا الأصل العظيم وأنه ينبغي البدء به فقال له عليه الصلاة والسلام: "إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتَرُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ"².

➤ **عدم التعرض للنيات والبواهن**، وهذا من الرحمة أيضا في الحوار، لأن الحوار عملية مشتركة بين طرفين أو أكثر تدور على استقصاء المعاني والحقائق، فلا حاجة للدخول في النيات، ما دام أن الأصل في هذا الباب حمل كلام المخالف على ظاهره، وإن تقييم أطراف الحوار بمجرد الحكم على الباطن دون النظر في أقوالهم وأدلتهم ومقدماتهم، مسلك بغيض يكشف عن عجز وقصور، وفساد في المنهج والتصور.

1 بيان تلبيس الجهمية، لابن تيمية، 79/2_81.

2 صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، رقم 19.

وهذا المسلك اعتمده المشركون في دفاعهم عن شركهم، وطعنهم في دعوة رسول الله ﷺ، كما حكى عنهم القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَقَ أَلْمَالًا مِنْهُمْ أَنْ إِمْشَوْا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آئِهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾¹.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسير الآية: «أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول الحق أو غير حق لا يرد قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يطله ويفسده من الحجج والبراهين»².

فالأصل حمل كلام المحاور على ظاهره وجريانه على أحسن الأحوال حتى يثبت العكس، خلافاً لصنيع كثير من المتحاورين الذين ينطلقون من اتهام بعضهم حتى يثبت العكس.

➤ **الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار**، ويدخل فيه حسن الاستماع والاصغاء الجيد للمحاور، ومخاطبته بأحب الأسماء إليه.

وهذا الأدب مقتبس من نصوص كثيرة، حيث نجد القرآن الكريم يخاطب المخالفين بعبارات جميلة، مثل: يا أهل الكتاب، وفي سيرة رسول الله ﷺ التطبيق العملي لهذا الأدب الكبير في الحوار، ومن ذلك محاورته لعتبة بن ربيعة في القصة المشهورة³.

وقد دلت هذه المحاوره على ثلاث فوائد مهمة ومفيدة في الحوار، وهي:

- ✓ حسن استماع النبي ﷺ وإصغائه لعتبة حتى انتهى من كلامه دون مقاطعته.
- ✓ إعطاؤه الفرصة حتى تكلم بكل ما يريد.

1 سورة ص، الآية: 5.

2 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، 6/ 408 _ 409.

3 القصة بتمامها في سيرة ابن هشام، 1/ 313 _ 314.

✓ مخاطبة النبي صلى الله عليه لعتبة - وكان مشركا- بكنيته ولم يخاطبه باسمه، احتراماً وتألّفاً له.

➤ **عدم الظلم في الحوار**، ومما يتنافى مع الرحمة في الحوار ظلم المخاور، ويدخل فيه عدم إعطائه الفرصة في النقاش، أو عدم تمكينه من عرض أدلته وحججه، وهذا داخل في عموم النهي عن التطفيف في الميزان.

ومن أشار إلى هذه اللطيفة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، فقد قال - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَبِّعِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾¹، -: «ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا: الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجة التي لا يعلمها وأن ينظر في أدلة خصمه، كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يُعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه»².

بعد ذلك نخلص إلى اسم آخر من أسماء الله الحسنى، وهو اسم "العدل" المتضمن لصفة العدل، وقد دلت نصوص كثيرة على هذا الاسم الجليل وعلى اتصاف الله بصفة العدل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٦﴾﴾³.

1 سورة المطففين، الآية: 1-3.

2 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، 7/ 586-587.

3 سورة الأنعام، الآية: 116.

يقول الإمام القرطبي: «وإذا كانت كلماته العدل فهو العدل، لأن كلماته هي كلامه، وكل فعل من أفعاله إنما يقع بكلامه، فكلامه صدق.. وهو في صفة الله تعالى يكون وصفا ذاتيا له بمعنى سلب الجور عنه، فيرجع إلى حكمه الأزلي في عبادته، ويكون الإقساط فعله الصادر عن هذا الحكم العدل، وقد يجوز في موضوع اللسان أن يكون العدل بمعنى ذي العدل، فيكون من صفات الأفعال، فالله سبحانه العدل المطلق الذي قوله حق، وفعله حق، وقضاؤه الفصل، وحكمه العدل، يقبض وييسط، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويقدم ويؤخر، ويضر وينفع، ويعصم ويفتن، ويغني ويفقر، ويصح ويسقم، ويعافي ويبتلي، ويفعل ما يريد بحكم الملك وحكم الوحدانية، فلو عذب الخلق أجمعين من نبي مرسل وملك مقرب، وعبد صالح، كتعذيبه للكفار والعصاة لكان ذلك عدلا منه، كما لو نعم الجميع في جنانه لكان ذلك فضلا منه، وإذا نوعهم نوعين وفرقهم فريقين فريقتا في الجنة وفريقتا في السعير فتلك حكمة بالغة، فعذابه للجميع عدل، ورحمته للجميع فضل، وتفريقه حكمة، فهذا الاسم يتضمن الحكم والحكمة وكل ما تعلق بهما من الصفات»¹.

وأما أثر هذا الاسم الكريم في البناء الحضاري، فيتجلى في صور كثيرة، منها:

➤ **الالتزام بالعدل مشهد من مشاهد تحقيق العبودية لله**، فقد أمر الله عباده بالعدل

في الأقوال والأفعال والأحكام فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا

فَوَّامِينَ بِالْفِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ؕ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ

إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَفِيرًا ۚ بَاللّٰهِ أَوْلَىٰٓ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰٓ أَنْ تَعْدِلُوا

وَإِنْ تَلَوُّوْا أَوْ تُعْرَضُوا ۚ فَإِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾²، وقال

1 الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، للإمام القرطبي، تحقيق محمد حسن جبل وطارق أحمد محمد، 1/ 441 - 444 بتصرف.

2 سورة النساء، الآية: 134.

تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْفِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ۖ اِبْعِدُوا هُوَ اَفْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ اِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾¹.

➤ استحضار الإنسان المستخلف أن لا عدل على الإطلاق إلا الله وحده، وأن

كل عدل وعدالته فمن الله تعالى، وأن كل حكم ليس منه فهو جور وباطل، وذلك أدعى لأن يسعى الإنسان إلى الالتزام بالعدل في جميع تصرفاته، سواء مع نفسه، أو مع غيره، فلا يجور على غيره، ولا على نفسه، بأي نوع من أنواع الجور.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: «وَحِظَّ الْعَبْدُ مِنَ الْعَدْلِ لَا يَخْفَى. وَأَوَّلُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِهِ، وَهُوَ أَنْ يَجْعَلَ الشَّهْوَةَ وَالْغَضَبَ أُسِيرِينَ تَحْتَ إِشَارَةِ الْعَقْلِ وَالِدِينِ، وَمَهْمَا جَعَلَ الْعَقْلَ خَادِمًا لِلشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ فَقَدْ ظَلَمَ.

هذا جملة عدله في نفسه، وتفصيله مراعاة حدود الشرع كله.

وعدله في كل عضو أن يستعمله على الوجه الذي أذن الشرع فيه.

وأما عدله في أهله وذريته، ثم في رعيته إن كان من أهل الولاية، فلا يخفى. وربما ظن أن الظلم هو الإيذاء، والعدل إيصال النفع إلى الناس. وليس كذلك، بل لو فتح الملك خزائنه المشتملة على الأسلحة والكتب وصنوف الأموال-ولكن فرّق الأموال على الأغنياء، ووهب الأسلحة إلى أهل العلم وسلّم إليهم القلاع، ووهب الكتب إلى الأجناد وأهل القتال وسلّم إليهم المساجد والمدارس- فقد نفع، ولكنه ظلم، وعدل عن العدل، إذ وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي غير موضعه اللائق. ولو آذى المرضى بسقي الأدوية والحجامة والفصد والإجبار على ذلك، وآذى الجناة بالعقوبة قتلاً وضرباً - كان عدلاً، لأنه وضعها في موضعها»².

1 سورة المائدة، الآية: 9.

2 المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى، ص: 91.

➤ **ومن صور العدل في الحوار مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن،**

وهذا الأساس عام في كل حوار، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم تخصيصاً بأهل الكتاب

فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ

ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَفُولُوا بِأَمَانًا بِالذِّمَّةِ أَنْزَلْنَا وَإِنَّا نَزَّلْنَا وَإِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا

وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾¹، قال الخطيب البغدادي: «فأمر الله

في هذه الآية بالجدال وعلمه منها جميع آدابه من الرفق والبيان والتزام الحق والرجوع إلى

ما أوجبه الحجة»².

وقال الإمام ابن تيمية: «أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق الذي أوجبه الله عليهم، وعلى

جميع الخلق ليرضوا به الله، وتقوم به الحجة على المخالفين، فإن هذا من الجدل بالتي هي

أحسن، وهو أن يقول كلاماً حقاً يلزمك ويلزم المنازع لك أن يقوله، فإن وافقك وإلا ظهر

عناده وظلمه»³.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير الآية الكريمة: «ولتكن مجادلتكم لأهل

الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم،

وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من

الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما

معهم من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يُرد ما

مع الخصم من الباطل، ويُقبل ما معه من الحق، ولا يُرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً.

1 سورة العنكبوت، الآية: 46.

2 الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، 1/ 232.

3 الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، 2/ 43.

وأيضاً، فإن بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن وبالرسول الذي جاء به»¹.

ومن صور العدل في الحوار قبول قول المحاور إذا كان قوله حقاً، والاعتراف بالخطأ، إذ الاعتراف به فضيلة، وهذه قاعدة كبيرة من قواعد الإسلام في الحوار، وهي أن يُقبل الحق بأدلته وشواهد لا بقائله، فالحوار العلمي هو الذي يدور مع الحق حيثما دار، ويؤصل له ويدعو إليه، ولا يهمله أن يظهر على يديه أو على يد محاوره.

قال ابن تيمية: «والله أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني _ فضلاً عن الرافضي _ قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق»².

وقال ابن القيم: «أقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، وُرد الباطل على من قاله وإن كان حبيباً»³.

وكل ما قاله وقرره هؤلاء العلماء وغيرهم، نجده في سيرة رسول الله ﷺ، فهو قدوتنا في كل شيء، حيث قبل الحق من غيره، ولو كان من أشد الناس عداوة للذين ءامنوا.

روت قتيلة بنت صيفي الجهنية قالت: (أتى حبر من الأحبار رسول الله ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم، لولا أنكم تشركون، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله! وما ذاك؟ قال: تقولون إذا حلفتُم: والكعبة، قالت: فأمهل رسول الله ﷺ شيئاً، ثم قال: إنه قد قال، فمن حلف فليحلف برب الكعبة، قال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندا، قال: سبحان الله! وما ذاك؟ قال: تقولون: ما شاء الله وشئت، قالت:

1 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، 4/ 64 _ 65.

2 منهاج السنة النبوية، لا بن تيمية، 2/ 342.

3 مدارج السالكين، لا بن القيم، 2/ 39.

فأمهل رسول الله شيئاً، ثم قال: إنه قد قال، فمن قال ما شاء الله، فليفصل بينهما ثم شئت)1.

فرسول الله ﷺ هو قدوة الناس في العدل، لأنه أعرف الناس بالله وبعده، ولن يعرف العادل من لم يعرف عدله، ولا يعرف عدله من لم يعرف فعله، كما قال الإمام الغزالي: «..فمن أراد أن يفهم هذا الوصف فينبغي أن يحيط علماً بأفعال الله تعالى من أعلى ملكوت السموات إلى منتهى الثرى..حتى إذا لم يرَ في خلق الرحمن من تفاوت، ثم رجع البصر فما رأى من فطور، ثم رجع البصر مرة أخرى، فانقلب البصر إليه خاسئاً وهو حسير، وقد بمره جمال الحضرة الربوبية، وحيره اعتدالها وانتظامها، فعند ذلك يعشق بفهمه شيئاً من معاني عدل الله تعالى»2.

ونختم باسم الله "الرقيب"، وهذا الاسم - كما قال الإمام الغزالي -: «يرجع إلى العلم والحفظ، ولكن باعتبار كونه لازماً دائماً، وبالإضافة إلى ممنوع عنه محروس عن تناول»3.

وبيّن-رحمه الله- حظ العبد من اسم الله "الرقيب"، فقال: «وصف المراقبة للعبد إنما يُحمد إذا كانت مراقبته لربه بقلبه، وذلك بأن يعلم أن الله رقيب، وشاهده في كل شيء، ويعلم أن نفسه عدو له، وأن الشيطان عدو له، وأنهما ينتهزان منه الفرص حتى يحمله على الغفلة والمخالفة، فيأخذ منهما حذره بأن يلاحظ مكانهما أو تلبسهما ومواقع انبعاثهما، حتى يسد عليهما المنافذ والمجاري..فهذه هي مراقبته»4.

1 رواه الإمام أحمد في مسنده، 6/ 371_372، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 136.

2 المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص: 89-90.

3 المصدر السابق، ص: 105.

4 المصدر السابق، ص: 105.

وقد لخص النبي ﷺ مدلولات "المراقبة" في "الإحسان" بكلمة هي من جوامع كلمه، فقال في حديث جبريل المشهور: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»¹.

فإذا وصل العبد إلى مرتبة الإحسان التي ذكرها النبي ﷺ، أتقن عمله وأحسن جميع تصرفاته، سواء فيما بينه وبين ربه، أو فيما بينه وبين مخلوقات الله، وبذلك يرتقي في سلوكه، ليقينه بأن الله يراقبه في السر والعلن، مستحضراً جلاله وجماله وعظمته، ولا يجعل ربه أهون الناظرين إليه، فهو يعلم ويدرك أن من أسماء الله "اللطيف"، الذي لطف علمه حتى أدرك الخفايا والخبايا، وما احتوت عليه الصدور، وأن من أسمائه الحسنى "العليم"، الذي أحاط بكل شيء علماً، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأن من أسمائه الحسنى "السميع"، الذي وسع سمعه جميع الأصوات، وأن من أسمائه الحسنى "البصير"، الذي يبصر ويدرك كل شيء، ولو فقه المسلمون معاني هذه الأسماء الحسنى، وعملوا بمقتضاها لكان لهم شأن غير الذي هم فيه الآن، لأن «فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء، والمهابة، والمحبة، والتوكل...»².

ذلك أن كل اسم من أسماء الله الحسنى له أثر من الآثار في الخلق والأمر لا بد من ترتبه عليه، كترتب المرزوق والرزق على الرازق، وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم، وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير، ونظائر ذلك في جميع الأسماء الحسنى، وخلاصة الأمر كما يقول الإمام ابن القيم: «من كان له نصيب من معرفة من معرفة أسمائه

1 جزء من حديث جبريل الطول، وقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، 381 37/1.

2 شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، للعز بن عبد السلام، ص: 77، تحقيق: إياد بن خالد الطباع، دمشق، الطبعة الأولى 1410هـ.

الحسنى، واستقرأ آثارها في الخلق والأمر، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل نظام، ورأى سريان آثارها فيهما»¹.

وهذا الذي أشار إليه ابن القيم أمر مهم للغاية، حيث يرشدنا إلى بيان الآثار السلوكية ومقتضيات العلم والإيمان بأسماء الله الحسنى، وهذا منهج تربوي عملي يجعل حياة المؤمن في كل لحظة من حياته محاولة للاستجابة المناسبة لما يطلع عليه ويلاحظه أو يعيشه من تجليات كمالات الله سبحانه باسم من أسمائه في الكون أو حالات القلب أو خواطر التفكير، وهذا الأفق من النظر في مقاصد العقائد يجعل التوحيد لله عز وجل هو محور الفهم والتفسير ومجال التفكير والتدبر والاتعاظ.

وهذا الأفق من الفهم أيضاً يحاول عقد الصلة بين ما يذكره الله سبحانه من أسمائه وصفاته في نهاية الآيات من القرآن الكريم وبين موضوع الآيات ومضمون الخطاب من أمر أو نهي بحيث يكون الفهم لمعاني الأسماء والصفات والانضباط بآدابها معيناً على الالتزام بالأمر وتحقيق مقاصده في تزكية النفس وعمارة الكون، فالصلة بأسماء الله تعالى وصفاته تعود إلى وضعها الصحيح عندما تكون دليلاً في ساحة العمل والابتلاء، فقد جاءت هذه الأسماء شاملة ومقابلة لحركة الإنسان ليتعلق بها في جميع حالاته التي تعرض له في واقعه ودنياه.

ورأى أن الأمة في ميسس الحاجة إلى إشاعة هذه الرؤية المقاصدية لفقه معاني أسماء الله الحسنى، وهو خير لها وأزكى من إشغالها بمعارك من الجدل العقيم في مسائل دقيقة تتعلق بالأسماء والصفات، لم يرد ذكرها في القرآن الكريم، ولا علّمها رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام، ولا تكلم فيها كبار علماء التابعين ومن تبعهم بإحسان، وهم لم يسكتوا عن الكلام

1 طريق المهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، ص: 130، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1375هـ.

في تلك المسائل عجزاً، «ولكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلاً، ثم يرد الصحيح عليلاً، فأمسكوا عنه، ونهوا عن الخوض فيه»¹.

ولو استشعر كل فرد من أفراد الأمة ما تضمنه معنى اسم الله "الرقيب" و"السميع" و"البصير" و"العليم" و"الخبير" و"اللطيف"، لما احتاج أحد إلى من يراقبه في عمله ليتقن، ولما تفسى الغش بجميع أشكاله في الأمة، حتى أصبح أغلب المسلمين اليوم مضرب المثل في الغش، وما ذلك إلا بسبب غياب الإحساس بمراقبة الله في النفوس، والعكس صحيح، فإذا استحضر المسلمون مراقبة الله الدائمة، فإن العامل منهم يتقن عمله، لأن الله يطلع عليه، وكل من ولي منهم ولاية لا يخون فيما وُلي، إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة، لأن الجميع سيدرك أن رقابة الله وسلطته العليا فوق كل مراقبة، ولن يحتاج أحد إلى من يراقبه ويتتبع خطواته، ويتجسس على حركاته، كان إنساناً مثله، أو أي وسيلة من وسائل المراقبة الحديثة المنصوبة في أماكن العمل.

تلك إشارات مختصرات تبرز قيمة العلم بأسماء الله الحسنى، وأن العلم بها أصل للعلم بكل معلوم، وأن جهلها، أو تجاهلها سبب بلاء، وما يقال في أسماء الله الحسنى يقال مثله في صفات الله تعالى، لأن كل اسم يستلزم صفة، فأغنى ذلك عن إعادة الكلام في الصفات في هذه المسألة، وما أشبه الحديث عن أسماء الله وصفاته، بالحديث عن توحيد الربوبية مع توحيد الألوهية، فكما أن كل اسم من أسمائه تعالى يتضمن صفة من صفاته هي صفات كمال، فكذلك توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وهذا ما سأصرفُ له القول في القاعدة الآتية:

1 تلبس إبليس، لابن الجوزي، ص: 81-82، مكتبة المنيني، القاهرة، (د.ت)

المصلب الخامس: قاعدة "توحيد الربوبية تقربه الفكرة، ويستلزم توحيد الألوهية".

توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكة، وخالقه ورازقه، والمتصرف في أمور هذا الكون بجميع الأمور القدرية والسنن الكونية. ويشمل الأمور الآتية:

- الإيمان بأفعال الله العامة، كالخلق، والرزق، والإحياء والإماتة، والملك، وغير ذلك.
- الإيمان بقضاء الله وقدره.
- الإيمان بوحديته في ذاته.1

وقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على وجوب ربوبية الله تعالى، وأكتفي هنا بذكر بعض الأدلة النقلية، وضابطها أنها كل دليل ورد فيه اسم الرب أو الحمد تصريحاً، أو ذكر فيه خصيصة من خصائص الربوبية كإحياء والإماتة وإنزال الغيث والخلق والرزق ونحو ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾²، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾³، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْعَلِيمِ﴾⁴، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا

1 انظر " المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة للدكتور إبراهيم بن محمد البريكان، ص: 101-102.

2 سورة الفاتحة، الآية: 1.

3 سورة الأعراف، الآية: 53.

4 سورة الذاريات، الآية: 58.

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَبَكَّرُونَ ﴿١٢﴾¹، إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة.

وهذا النوع من التوحيد مركز في الفطر السليمة، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فِأَبْنِي

يُؤَبِّقُونَ ﴿٨٧﴾²، ولذلك لم ينكر هذا النوع من التوحيد إلا من شذ من الناس ممن

فسدت فطرتهم، لأن القلوب مفسورة على الإقرار به أعظم من كونها مفسورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما حكاه الحق سبحانه

عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِئَةِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ

لِيَغَيِّرَ لَكُمْ مِّنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ

أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾³، وأشهر من عُرف تجاهله وتظاهره بإنكار توحيد الربوبية هو

فرعون، وقد كان مستيقنا به في الباطن، كما قال له موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ

لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ

يَلْمِزَعُونَ مَثُورًا ﴿١٤﴾⁴، وقال تعالى- عن فرعون وقومه الذين استخفهم فأطاعوه في

الباطل-: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

1 سورة الجاثية، الآية: 12.

2 سورة الزخرف، الآية: 87.

3 سورة إبراهيم، الآية: 13.

4 سورة الإسراء، الآية: 102.

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾¹، ولهذا قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾²
 على وجه الإنكار له، على طريقة ما يسمى في علم البلاغة بتجاهل العارف، فأجابه
 موسى عليه السلام وجرى بينهما هذا الحوار الذي صورته لنا كتاب الله بأوجز العبارات فقال
 تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^{١٣} قَالَ
 لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ
 إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
 وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ لَيْسَ إِتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرَ لَأَجْعَلَنَّكَ
 مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ قَالَ قَاتِ بِهِ إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٠﴾ فَأَلْفَبِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ
 فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
 يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَلَوْا أَرْجَاهُ
 وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِجِ حَشِيرِينَ ﴿٢٥﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَجَارٍ عَلِيمٍ ﴿٢٦﴾
 فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيفَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٧﴾ وَفِيلٌ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ
 ﴿٢٨﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
 فَأَلَوْا لِمِرْعَوْنَ أَيُّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

1 سورة النمل، الآية: 13-14.

2 سورة الشعراء، الآية: 22.

إِذَا لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْفُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ ﴿٤٢﴾ فَأَلْفُوا
حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ رَبِّعُونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْفَىٰ مُوسَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَفَّفُ مَا يَأْكُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْفَىٰ السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْفُوا
ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٧﴾ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ، فَبَلَّ أَنْ- اذَنْ
لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ أَلِذِ عِلْمِكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾
لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفِي وَلَا صَلْبَنَّكُمْ ۖ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾¹، فبين
موسى عليه السلام أنهم يعرفون الله، وأن آياته ظاهرة للعيان بيّنة لا يمكن لفرعون ولا غيره
جحدها، وأنهم إنما يجحدون بألسنتهم ما يعرفونه بقلوبهم وفطرتهم الأصلية قبل فسادها.
ولوضوح أمر توحيد الربوبية كان أول ما يدعو الرسل إليه هو عبادة الله كما قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ «عَبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» بَمِنْهُمْ
مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَفَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٦١﴾﴾²، لأن توحيد الربوبية مما تقر به الفطر السليمة
بدليل أن مشركي قريش في مكة يقرون به، كما قال الله تعالى عنهم في كتابه العزيز: ﴿فُلْ
لِمَسِ الْأَرْضُ وَمَسِ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ فَلْ أَقْلًا
تَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾ فُلْ مَسِ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ فَلْ أَقْلًا تَتَّفُونَ ﴿٨٨﴾ فُلْ مَسِ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

1 سورة الشعراء، الآية: من الآية 23 إلى الآية: 49.

2 سورة النحل، الآية: 36.

يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ سَيَفُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَبِي
تُسْحَرُونَ ﴿٨١﴾¹

قال ابن تيمية: «ولو لم تكن المعرفة ثابتة في الفطرة لكان الرسول إذا قال لقومه:
أدعوكم إلى الله لقالوا مثل ما قال فرعون ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟» إنكاراً له
وجحوداً.. وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق، لكن أظهر خلاف ما في
نفسه كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾².³

ولكون القلوب أيضاً مفضورة على معرفة الله تعالى نجد في القرآن الكريم أن الله يقيم
الدليل لخلق على توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية، لأن التوحيد الأول يستلزم الثاني، فمن أقر
بتوحيد الربوبية يلزمه أن يعترف بتوحيد الألوهية، وهذا ما نجده في نصوص كثيرة، أكتفي
بنص واحد، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَبْصَبْنَا
عَالَمَهُ خَيْرٌ مَّا تُشْرِكُونَ﴾^{١٢} أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا
شَجَرَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ هُمْ فَوْمًا يَعْدِلُونَ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ فَرَارًا وَجَعَلَ
خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ

1 سورة المؤمنون، من الآية: 85 إلى الآية: 90.

2 سورة النمل، الآية: 14.

3 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية، 8 / 440.

وَيَجْعَلُكُمْ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ فَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾ أَمَّنْ
يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُزِيلِ الرِّيحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ أَمَّنْ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَمَنْ يَزْرُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ فُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾¹.

«وهذه الآيات بإيقاعاتها المؤثرة في النفس وحججها الباهرة أشبه ما تكون بومضات
كهربية لإيقاظ القوم من سباتهم العميق، ومن غفلتهم، وهم أمام هذه الحجج المتلاحقة لا
يملكون إلا التسليم، ولا يستطيعون أن يدعوا مع الله إلهاً آخر، ومع هذا فالقوم ماضون في
غيهم ويعبدون أرباباً من دون الله»².

ويظهر أثر هذه القاعدة في البناء الحضاري من خلال أمور، أخصها في أربعة مسائل:
المسألة الأولى: القاعدة تؤسس لمبدأ عظيم من مبادئ بناء الثقة بين الناس، وخاصة
في مقام الحوار، وهو الانطلاق في الحوار من الأمور المسلم بها عند المتحاورين، لأن هذا
أدعى للتفاهم وبناء جسور الثقة بينهما، ولعل هذا هو السر في أن القرآن الكريم يسوق
الحديث عن توحيد الربوبية على أنه مسلمة من المسلمات، وإذا تكلم عنه يسوقه للاستدلال
به على توحيد الألوهية نظراً لاتفاق الأمم عموماً عليه، والإقرار بمضمونه.

ونصوص القرآن الكريم في هذا المعنى كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ
عَبْدُوا رَبَّكُمْ الَّذِينَ خَلَفَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

1 سورة النمل، من الآية: 62 إلى الآية: 66.

2 بحث بعنوان " فطرية معرفة الله تعالى " للدكتور أحمد معاذ علوان حقي، ص: 21، منشور في مجلة الأحمديّة،
العدد الرابع، جمادى الأولى 1420هـ.

﴿٢٠﴾ أَلَدِ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾¹، فهو يخاطب الناس عموماً بعبادته سبحانه لكونه هو الذي خلقهم،

وخلق الذين من قبلهم من الأمم، فيسوق ذلك كله سوق الأمر المسلم به الذي لا شك فيه.

فتوحيد الربوبية طريق إلى توحيد الألوهية، لأن كل ما يُذكر في توحيد الربوبية من

الدلائل على قدرة الله وكونه خالقاً ورازقاً.. يقصد به الوصول إلى تحقيق توحيد الألوهية،

ولهذا لم تنفع توحيد الربوبية أهلها لما لم تقدمهم إلى توحيد الألوهية.

المسألة الثانية: القاعدة ترشدنا إلى أن مسلك القرآن الكريم والسنة النبوية في عرض

توحيد الربوبية هما المسلكان الصحيحان، وهما وحدهما اللذان يصلحان لترسيخ مفهوم

العقيدة في النفوس، وإن طريقة عرضها بأساليب مختلفة في كتاب الله تعالى، فيها دعوة

للمسلمين تنويع أساليب الحوار من أجل الإقناع وإقامة الحجة، وتلك هي الطريقة المثلى للو

المسألة الثالثة: في القاعدة إشارة إلى أن الفطرة مدخل مهم من مداخل تعزيز التقارب

بين الناس، مهما اختلفت مللهم، وتشكل أرضية الانطلاق إلى بناء تفاهم وتعاون بينهم

فيما هو متفق عليه، ما دام أن الاعتراف بربوبية الله وحده أمر فطري في الكيان البشري،

أودعه الخالق سبحانه في قلوب عباده، وشهدت به نفوسهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ

أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا

غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾²، وجاءت رسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام لتذكير الناس بهذا الأمر،

1 سورة البقرة، 20-21.

2 سورة الأعراف، الآية: 172.

وتحذيرهم من مخالفته، فاستثمار هذا الأمر له من الأهمية ما لا يخفى، من أجل تعزيز سبل التعاون بين الناس، وفي ذلك إسهام في البناء الحضاري الذي مسؤولية مشتركة بين بني آدم.

المسألة الرابعة: وتتفرع عن المسألة السابقة مسألة أخرى لا تقل أهمية عنها، وهي درس مهم للأمة التي تريد لبنائها الحضاري أن ينمو ويصمد أمام الهجمات، إنه درس "التدرج في البناء"، وهذا الدرس يتعلمه المسلم من كتاب الله المسطور، ومن كتاب الله المنظور، إذ يلاحظ المتأمل بعين البصيرة في الكتابين أن كل شيء فيهما قائم على مبدأ التدرج.

أما في الكتاب المسطور، فإن منهج القرآن الكريم في البناء والإصلاح يقوم على التدرج، والبدء بالأولى فالأولى، وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم في آيات كثيرة، ومنها الآيات التي جاء فيها ذكر توحيد الربوبية، وفيها يعرض الحق سبحانه كثيراً من آياته الدالة على عظمته وأحقيته بالعبادة وحده لا شريك له، ليتدرج مع المخاطب إلى الإقرار بتوحيد الألوهية.

ونجد هذا التدرج أيضاً في آيات تحريم الخمر، حيث لم ينزل التحريم دفعةً واحدةً، وإنما نزل بالتدرج، حتى تنهت نفوس المخاطبين وتترى على الامتثال، بل القرآن الكريم كله نزل منجماً مفرقاً حسب ما تدعو إليه الحاجة في مدة ثلاثة وعشرين سنة، مع أن الله قادر على أن ينزله جملةً واحدةً، وبذلك أجاب القرآن الكريم على المشركين الذين تعجبوا من نزول القرآن على رسول الله ﷺ منجماً، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾¹.

ولم يخرج رسول ﷺ عن منهج كتاب الله المسطور في تطبيق هذا المنهج في تبليغه لكتاب الله، والدعوة إلى المحجة البيضاء، حيث استعمل أسلوب التدرج في دعوته كلها،

1 سورة الفرقان، الآية: 32.

ومنها دعوته إلى توحيد الله تعالى، إذ تدرج مع كفار قريش لما قابلوا دعوته بالحدود والصد عن سبيل الله، فاستعمل معهم هذا الأسلوب ليفسح أمامهم المجال ليتدبروا ما هم فيه من بُعد عن خالقهم ورازقهم الذي أكرمهم وفضلهم على كثير من المخلوقات، بأن وهبهم العقل ليفكروا فيه، وفي حقيقة وجودهم واستخلافهم في الأرض، وما أنعم عليهم من نعمه التي لا تعد ولا تحصى، لذلك صبر وصابر، ولم ييأس في دعوته، ليقينه ﷺ أن هذا المجتمع الوثني الذي تمكنت منه الوثنية إلى هذا الحد البعيد الذي أصبح لا يرى فيه الحق والنور في حاجة إلى وقت وجهد لإحداث تغيير ناجح، وهذا يحتاج في الوقت نفسه إلى ذلك التدرج الذي سلكه النبي ﷺ في دعوته لهم، ببيان وحدانية الله وحده من خلال بعض المفاهيم التي كانت لديهم ويعترفون بها، وهذا ما أوضحته مجموعة من الآيات القرآنية التي نزلت على قلب المصطفى الأمين تدعوه وتدعو كل من يتخذ القرآن منهجاً إلى التلطف في الخطاب، والانطلاق من الحقائق المسلمة لدى الجميع قصد الوصول إلى الإقناع، ومن تلك الآيات نستحضر النص الكريم الذي يقول فيه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٠﴾ بِذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ بِمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَلُ فَأَبَى تُصْرَفُونَ ﴿١٠١﴾ كَذَلِكَ حَفَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَفَوْا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَبَى تُؤْبَكُونَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَقْمَنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ بِمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا يَتَّبِعُ

أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾
وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانَ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾¹

إن كل هذه الآيات الكريمة، توضح لنا الصورة الحية للمنهج الإسلامي، القائم على التدرج، و «الذي يجعل المركز الأول في العقيدة للحجة والبرهان، فلا إيمان بدون حجة، ولا مسؤولية إلا بعد إقامة الحجة وإثارة الأجواء التي تنطلق منها الحجج الإلهية، لتدفعهم إلى التفكير والحوار في رحلة الإنسان من الشك إلى الإيمان، ولذلك أراد الله أن يقيم على الناس الحجة البالغة، لئلا يكون لهم عليه حجة، في انحرافهم عنه عندما ينحرفون عن الخط المستقيم، ولئلا يكون لهم حجة على المؤمنين، عندما يدخل الإيمان المعركة في مقابل الكفر»².

وأما التدرج في الكون المنظور فلا يحتاج إلى برهان عليه، فكل شيء في الكون من الذرة إلى المجرة قائم على سنة التدرج، والانتقال من مرحلة إلى التي تليه، في دقة متناهية، تدل على بديع صنع الله الذي أتقن كل شيء، وقدره بمقدار. وأختم الحديث عن القاعدة الرابعة بالإشارات الآتية:

- حديث الوحي عن توحيد الربوبية مقدمة للإقرار بتوحيد الألوهية، لأن من أقرّ بالأول - وغالب الناس قد أقرّوا به إلا من شدّد - يلزمه الإقرار بالثاني، وفي هذا إشارة مهمة إلى أنه ينبغي التركيز دائماً على القضايا المتفق عليها والقواسم المشتركة مع المخالفين.
- أهمية العناية بالأدلة الكونية في الدعوة إلى العقيدة الإسلامية، ومع أهمية هذا المسلك في إثبات العقائد، فإنه لم يحظ بالعناية المطلوبة من المتكلمين، حيث يقف الناظر في

1 سورة يونس، من الآية: 31 إلى الآية: 37.

2 الحوار في القرآن، قواعده وأساليبه ومعانيه، محمد حسين فضل الله، ص: 63،

- أغلب مصنفاتهم أنهم أغفلوا الحديث عن الطبيعيات في تناولهم للقضايا العقيدية، ومن المعلوم أن كل مخلوقات الله آية من آيات إثبات وجوده وعظمته.
- التدرج سنة من سنن الله في الخلق والأمر، والخروج عنها خروج عن سنة الله التي لا تحابي أحداً، ويترتب على ذلك ما تقرر في القاعدة الفقهية المشهورة "من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه"¹.
- البناء الحضاري الذي أقيمت أسسه وبنائه على التدرج، جدير بأن يصمد ويثبت في وجه التحديات.

المصلب السادس: قاعدة "كل مسألة عقدية لا تثمر عملاً، أو تكون عوناً عليه، فمضمونها العقدي عارٍ".

وهذه القاعدة محاولة للإسهام في تجديد الدرس العقدي، وقد لاحت لي وأنا أتصفح مقدمات كتاب "الموافقات" للإمام أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله، وقد اقتبست القاعدة بتصرف من المقدمة الرابعة من مقدماته القيمة النفيسة، التي يقول فيها ما نصه:

(كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عوناً في ذلك، فوضعها في أصول الفقه عارية)².

وما قاله الإمام الشاطبي عن أصول الفقه يصح قوله في العقيدة من باب أولى، فما أفصح عنه الشاطبي في هذه المقدمة من وجود مسائل في علم أصول الفقه تسربت إليه، وهي ليست منه، وربما يلتمس لوجودها فيه بعض العلماء أعداراً، كالقول بأن ذلك يندرج في تكامل العلوم، أقول ما أفصح عنه في هذه المقدمة يوجد مثله في علم أصول الدين، ولا

1 نصّ على هذه القاعدة الفقهية بألفاظ وصيغ مختلفة غير واحد من علماء القواعد الفقهية، ومنهم جلال الدين السيوطي في كتابه الشهير: "الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية" ص: 195، تحقيق: خالد عبد الفتاح شبل، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.

2 الموافقات للإمام الشاطبي، 1/ 37.

يستطيع أحد أن ينكر ذلك، نعم، قد تُلمس للذين أدخلوا في علم أصول الدين ما ليس منه أعضاؤا كما التُمتست لبعض الأصوليين، لكن هذا لا يمنع من إبداء الرأي في هذه المسألة، وذلك ما حاولت إثارته بذكر القاعدة السادسة هنا.

ومعنى القاعدة واضح، فهي تبين أن كل ما يُذكر في كتب العقيدة من المسائل التي لا دليل عليها ولا يترتب عليها عمل، وليست من الوسائل ولا من المقاصد، فهي مسائل دخيلة على علم العقيدة وليست منه، وإن أقحمت فيه بتكلف، كما يجد ذلك من يطالع كثيرا من كتب العقيدة التي شغلت الناس بأمور فلسفية لا تنتج عملاً ولا تثمر سلوكاً، ولو كان في الاشتغال بها منفعة في العاجل أو الآجل لأرشدنا إليها القرآن الكريم ولذكرها النبي ﷺ لصحابته الكرام ولأئمة من بعدهم، فجوهر القضية يتلخص إذن في أنه **"لا يكتمل إيمان العبد إلا بالعمل الصالح، ولا يعتد بالعمل الصالح إلا بالإيمان الصحيح"**، وما سوى ذلك فهو محض اجتهاد من المتكلمين، يلزمنا ميزان العدل أن نعترف بأن اجتهادهم فيه جوانب مُشرقة، وفيه جوانب غير ذلك، وهم معذورون، لأن نياتهم كانت حسنة، وإنما قصدوا الدفاع عن العقيدة الإسلامية، فالله يغفر لنا ولهم بمنه وكرمه، لكن هذا لا يمنع من مُساءلة منهج المتكلمين وطريقتهم، وهذا ما فعله كبار الأئمة، وهم أعرف الناس بعلم الكلام في زمانهم، وقد تقدم ذكر نماذج منهم في الباب الأول، وغني عن البيان أن النقد يوجه إلى الأفكار والآراء، وليس للأشخاص، وهذا منهج سلكه علماؤنا في نقدهم لغيرهم بأدب وعفة لسان، ومن ذلك قول الإمام ابن الجوزي -وهو ينتقد بعض المتصوفة-: **«وَقَعَتْ عَنْ بَعْضِ أَشْيَاحِهِمْ غَلَطَاتٌ، لِبَعْدِهِمْ عَنِ الْعِلْمِ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحاً عَنْهُمْ، تَوَجَّهَ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ، إِذْ لَا مَحَابَةَ فِي الْحَقِّ، وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ عَنْهُمْ، حَذَرْنَا مِنْ مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ، وَذَلِكَ الْمَذْهَبُ، مِنْ أَيِّ شَخْصٍ صَدَرَ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَمْ نَقْصِدْ بَيَانِ غَلَطِ الْغَالِطِ، إِلَّا تَنْزِيهِ الشَّرِيعَةِ، وَالغَيْرَةِ عَلَيْهَا مِنَ الدَّخْلِ، وَمَا عَلَيْنَا مِنَ الْقَائِلِ وَالْفَاعِلِ، وَإِنَّمَا نُوَدِّي بِذَلِكَ أَمَانَةَ الْعِلْمِ، وَمَا زَالَ الْعُلَمَاءُ يَبِينُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ غَلَطَ صَاحِبِهِ، قَصْداً لِبَيَانِ الْحَقِّ، لَا لِإِظْهَارِ عَيْبِ**

الغالط، ولا اعتبار بقول جاهل يقول: كيف يُرَدُّ على فلانٍ الزاهد، المتبرك به؟ لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة، لا إلى الأشخاص»¹.

وأكتفي هنا بإيراد قوله مشهورة للإمام ابن تيمية في نقده لطريقة المتكلمين، وبيان قصورها في العقيدة، وفي ذلك يقول: «فهذه الطريقة مما يُعلم بالاضطرار أن محمداً ﷺ لم يدع الناس بها إلى الإقرار بالخالق ونبوة أنبيائه، ولهذا فقد اعترف حذاق أهل الكلام كالأشعري وغيره بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم، ولا سلف الأمة وأئمتها، وذكروا أنها طريقة باطلة، وأن مقدماتها فيها تفصيل وتقسيم يمنع ثبوت المدعى بها مطلقاً، ولهذا تجد من اعتمد عليها في أصول دينه فأحد الأمرين لازم له: إما أن يطلع على ضعفها ويقابل بينها وبين أدلة القائلين بقدم العالم، فتتكافأ عنده الأدلة، أو يرجح هذا تارة وهذا تارة، كما هو حال طوائف منهم، وإما أن يلتزم لأجلها لوازم معلومة الفساد في الشرع والعقل»².

ويقول في موضع آخر: «وأما السلف والأئمة فينكرون صحتها في نفسها، ويعيبونها لاشتمالها على كلام باطل، ولهذا تكلموا في ذم مثل هذا الكلام لأنه باطل في نفسه، ولا يوصل إلى حق، بل إلى باطل، كقول من قال: الكلام الباطل لا يدل إلا على باطل... ونحن الآن في هذا المقام نذكر ما لا يمكن مسلماً أن ينازع فيه، وهو أننا نعلم بالضرورة أن هذه الطريقة لم يذكرها الله تعالى في كتابه، ولا أمر بها رسوله ﷺ، ولا جعل إيمان المتبعين له موقوفاً عليها، فلو كان الإيمان بالله لا يحصل إلا بها لكان بيان ذلك من أهم مهمات الدين، بل كان ذلك من أصول الدين، لا سيما وكان يكون فيها أصلاً عظيماً: إثبات الصانع، وتنزيهه عن صفات الأجسام، كما يجعلون هم ذلك أصل دينهم، فلما لم يكن الأمر كذلك عُلم أن الإيمان يحصل بدونها، بل إن إيمان أفضل هذه الأمة وأعلمهم بالله كان حاصلًا بدونها»³.

1 تلبس إبليس، لابن الجوزي، ص: 172.

2 درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، 1/ 39.

3 المصدر السابق، 1/ 309-310.

ومن القضايا التي أغفلها جلُّ المتكلمين في مصنفاتهم العقدية ربط العقائد بمقاصدها وغاياتها، وهذا ما تميز به منهج الوحي في عرض العقيدة بأسلوب بديع لطيف، إذ المتأمل في مسائل العقيدة الإسلامية الصحيحة في القرآن والسنة، يجد أن لها مقاصد وغايات، وإن لم تجد عند الباحثين من الاهتمام ما وجدته مقاصد الشريعة الإسلامية، وهذا ما جعل بعض الباحثين المعاصرين ينادون بضرورة العناية بمقاصد العقيدة¹، إذ لا يخفى أن مسائل الشريعة مع أهميتها في تقويم سلوك الإنسان، تنبني أساسا على مسائل العقيدة، ذلك أن الالتزام بالتكاليف الشرعية كلها قضية عقدية، لهذا وجدنا الحديث عن الإيمان يسبق الحديث عن الإسلام إذا قُصد بالأول الاعتقاد والثاني العمل، فكل عمل يأتي بعد عقيدة تدعو إليه، والالتزام بالتكاليف يتوقف على الإيمان والخضوع للمشرع عز وجل، فظهر بهذا التلازم بين العقيدة والشريعة.

وقد اختار الله تعالى لخطاب عباده بما يجب عليهم الإيمان به وتصديقه أسلوب بيان الحكمة والغاية والمقصد، وبيان أثر الإيمان بأحاد قضايا الاعتقاد وجملتها على سلوك الإنسان ومزاجه واستقرار قلبه واتزان عقله وانضباط مشاعره.

إن البيان القرآني لمسائل العقيدة مملوء باستعمال أسلوب التعليل وبيان الغاية والمقصد في سياق آيات العقائد كعادته في سياق آيات الأحكام العملية، فنلاحظ دائما في هذا البيان لأمر الإيمان التوجه إلى ربط الإيمان بالعمل، فالإيمان بالله عز وجلّ يمثل الحقيقة الكونية الكبرى، والقرآن الكريم يضع هذه الحقيقة ويطلب بالخضوع لها في إطار دورها في التزكية للنفس والتحدي للرعونات والتماسك عند الضعف، وليس في إطار الإلزام العقلي البارد الباهت الذي لا يزكّي ولا يغري بفضيلة أو خير.

1 ومنهم الدكتور أحمد الريسوني كما أشار إلى ذلك في محاضراته وبحوثه، مثل كتابه "الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية" ص: 75، ومنهم أستاذنا الدكتور عبد الرحمن العضاوي الذي أورد إشارات مهمة في هذا الأمر وضمناها في كتابه "الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية" وكذا في كتابه "مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي"، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الباب الثاني من البحث.

ومن أوضح الآيات الدالة على نمط التعليل في عرض معاني ومقتضيات الإيمان قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾¹ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾¹.

فالنص الكريم قرر حقيقة علم الله المطلق الشامل، وقرر في الوقت نفسه حقيقة أثر الإيمان بعلم الله على النفس المؤمنة عصمةً من التحسر والحزن المضيع للوقت والطاقة في حال الفشل وفوات الأمنيات، وعصمة من الكبر والبطر والتبجح في حال النجاح واتصال العطاء. ومن الواضح أن أسلوب التعليل في قوله تعالى (لكي) يشكّل في سياق الآية الرابط العملي بين قضية الإيمان بشمول علم الله وبين السلوك الإيماني المتماسك في مواجهة فتن الخير والشر.

ويعرض القرآن الكريم قضية غاية الخلق، ويقرر حقيقة المسؤولية الفردية لكل شخص على أفعاله، ويؤكد في نصوص كثيرة أن الإنسان خلق لغاية، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾²، وقوله تعالى: ﴿أَبَحْسَبْتُمْ أَنْنَا خَلْفَانَكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾³، وقوله سبحانه: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁴ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾⁴.

1 سورة الحديد، الآية: 21 - 22.

2 سورة القيامة، الآية: 35.

3 سورة المؤمنون، الآية: 116.

4 سورة الملك، الآية: 1 - 2.

فالتعليل في الآيات السابقة لبيان غاية الخلق، يشكل إطار الفهم للغز الحياة والوجود، فيصرف المؤمن جهده وطاقته لإحسان العمل وتعميم النفع والاستعداد للمحاسبة، ولا يضيع عمره في محاولة فهم ما لا ينبغي عليه عمل من أمور الغيب.

ويعرض القرآن الكريم قضية الإيمان بالرسول وتصديقهم واتباعهم، مع بيان الأثر العملي الذي تركه تعاليم الأنبياء في تزكية الحياة البشرية وحياة الأمم والشعوب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَفُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْلَعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾¹، وقوله تعالى في بيان الغاية من إرسال آخر أنبيائه ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾².

فهذه الآيات التي استشهدنا بها، وغيرها كثير تفيد أن مهمة الرسل عليهم السلام تتلخص في دعوة الناس إلى الإيمان برهم، فتستقيم حياتهم بالقسط، ويتم البيان بما تقوم به الحجة، ولتتجلى آثار رحمة الله الواسعة في العاجل والآجل للناس.

ومن مظاهر ذلك استقرار العمران وبناء الحضارة، فترتفع موارد الظلم والطغيان، وينعم الخلق بالأمن والأمان، فهذا ملخص ما جاءت به رسالات الرسل المبلغين عن الله، وتلك هي غاية العقيدة الإسلامية، كما جاءت في نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية، إنها ربطت للإيمان بالعمل، وربطت هذين بالعلم، إذ بالعلم يقوى، وبالإيمان يصلح العمل وتظهر آثاره في الواقع، وعلى ذلك قامت الحضارة الإسلامية شامخة عزيزة، فلما تخلى ضعفت أركان الحضارة الإسلامية الثلاثة (العلم، والإيمان، والعمل)، ضعفت حضارتهم، ولكنها لم تمت، لأن

1 سورة الحديد، الآية: 24.

2 سورة الأنبياء، الآية: 106.

مقومات بنائها من جديد قائمة ما بقي القرآن الكريم، والسنة النبوية، إذ هما العاصمان من كل القواصم، وهما الضامنان لبقاء الحضارة الجديرة بأن تسود بالرحمة والعدل.

فما أحوج المسلمين إلى أن يتأملوا أسباب تراجع حضارتهم الممتدة شرقاً وغرباً في الماضي، ويتدبروا في مقدمات نهضتهم الأولى، وكيف أصبحوا اليوم في ذيل الأمم، ومن الأمور الجديرة بالتنبيه عليها في هذا المقام أن «التراجع الحضاري للأمم العريقة في الحضارة لا يمكن أن يأتي فجأة ودون مقدمات، ومن التبسيط غير العلمي للأمر إرجاعه إلى سبب واحد داخلياً كان هذا السبب أو خارجياً، فالحضارة ليست كبيت العنكبوت تنهار عند أول رياح تهب عليها، وكما تحتاج الحضارة إلى أجيال لبنائها وترسيخ أركانها فإن انهيارها أيضاً يستغرق وقتاً قد يطول أو يقصر تبعاً لشدة الأعاصير التي تتعرض لها الحضارات.. ومنطق العقل يبين لنا أن هناك قوانين تحكم بناء الحضارات وانهيارها، وأن الأمور غير متروكة للصدف أو العشوائيات أو الأمور الغيبية التي لا حيلة للإنسان إزاءها»¹.

وإنه مهما تعددت الرؤى حول تشخيص داء الأمة ودوائها، فلا مفر من الإقرار بأن أساس العلاج، وحجر الزاوية في بناء الإنسان المسلم لا يتم إلا عن طريق إصلاح عقيدته وفهم مقاصدها، لتكون بذلك القوة الدافعة لجميع أعماله والخيط الناظم لكل فكرة تسري في ذهنه، حتى يكون ذلك الفكر موصولاً باعتقاد يحميه من اتباع الهوى والظنون الكاذبة، ولهذا فإن أي حديث عن الإصلاح العقدي الذي أحدثه الوحي لبناء فكر الإنسان وبناء حضارته لا يعني الانحسار في مرحلة معينة عاجلها الوحي، وإنما هو مشروع متجدد قابل للتنزيل كلما تطلب الأمر ذلك «ولا يمكن أن يحدث في حياة الأمة الإسلامية انتعاش معتبر

1 التراجع الحضاري بين التفسير التأمري وإرادة الأمة، مقال للدكتور محمود حمدي زقزوق، منشور بمجلة الأزهر الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بمصر، ص: 1733، ج: 10، السنة: 91، شوال 1439 هـ يونيو 2018م.

إلا بإصلاح عقدي يرشد تحمل الأمة لعقيدتها لتقع في النفوس من جديد موقع الدفع إلى العمل الصالح المعمر في الأرض والمنمي للحياة»¹.

ولعل من المفيد أن نتأمل التعقيبات والتعليقات التي وردت في القرآن الكريم عند سرد قصص الأنبياء والرسول، وهي ما عبر القرآن عنها بأنها من أخبار الغيب، فمن الواضح أن السياق القرآني يضع أخبار الرسل في إطار البيان لعبر التاريخ وعاقبة الصبر والثبات ومآل التكذيب والجحود وضرورة التربية والاستعداد والتنبية إلى سنن التدافع والتعارف والتداول، ليرتقي المؤمن بعد الفهم لأغراض قصص الأنبياء إلى الفهم الكلي لحركة التاريخ ودور الإيمان في بناء الحضارات.

ويعرض القرآن الكريم لقضية الكفر والجحود والشرك في أسلوب واضح ينفر من التورط في هذه الموبقات، وذلك من مدخل عملي يبين أثر الشرك على النفس الإنسانية وما يكشفه من عيوبها وهشاشتها ورعوناتها، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ إِلْرِيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾².

وإنما سلك القرآن الكريم هذا المسلك في بيان ثمرات الإيمان ومنافعه، والتحذير من الشرك وآفاته، لأن العقيدة الإسلامية هي ركيزة الإسلام الأولى، وأول أركان الإسلام، وهي أعظم الواجبات، وفي أعلى سلم الأولويات، ومنها تتفرع جميع الأركان والفروع، فلا أركان بلا عقيدة، ولا إسلام بلا ركيزة، لذا كانت أول ما يطالب به الناس، وهي مفتاح دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وفي تحقيقها يتحقق الأمن والاستقرار والسعادة والعافية والرخاء، كما قال

1 دور الإصلاح العقدي في نهضة الأمة، مقال للدكتور عبد المجيد النجار، منشور بمجلة إسلامية المعرفة، العدد: 1، بتاريخ 19/07/2008.

2 سورة الحج، الآية: 29.

الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرْيِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَبَتَّخْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾¹.

ولله در أمير البيان في عصره شكيب أرسلان إذ يقول: والمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم، وعملوا بما حرَّضهم عليه كتابهم؛ أن يبلغوا مبالغ الأوربيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على إسلامهم، كما بقي أولئك على أديانهم، بل هم أولى بذلك وأحرى، وإنما الذي يُعوزنا الأعمال، وإنما الذي يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال.

فلننفض غبار اليأس، ولنتقدم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغون كلَّ أمنية بالعمل والدأب والإقدام، وتحقيق شروط الإيمان التي في القرآن: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾﴾^{2,3}.

والخلاصة أن القاعدة تشير إلى أهمية عرض العقيدة كما جاء بها الوحي الإلهي، دون الخوض في مباحث جدلية عقيمة لم تستفد الأمة من الجدل فيها إلا إضاعة الوقت، فالأصل في العقيدة أنها تدعو إلى العمل، ولهذا وجب الرجوع إلى العقيدة الصحيحة التي لم يدخلها التحريف بفعل الفكر البشري وتصورات، وأوهام وأساطير الوثنيين التي تأخذ شكل عقائد وتصورات معينة.

هذا وأختم الحديث عن القاعدة بإشارة يقتضيها المقام، وهي أنه- مع الاعتراف بالجهد الكبير الذي بذله المتكلمون في الدفاع عن العقيدة الإسلامية والرد على الشبهات- فإن المشكلات التي تعرضوا لها وجادلوا خصومهم وناظروهم وحاوروهم فيها وردوا على آرائهم، قد تغيرت أو تغير كثير منها اليوم، وأصبحت الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر تواجه

1 سورة الأعراف، الآية: 95.

2 سورة العنكبوت، الآية: 69.

3 لما ذا تأخر المسلمون ولما ذا تقدم غيرهم؟ شكيب أرسلان، ص: 175، دار القلم دمشق/ الدار الشامية بيروت، ط: 3، 1433 هـ 2012 م.

تحديات أخرى، فقد تبدلت الظروف وتغيرت الأحوال، فلم تعد الأمة اليوم في حوارها الداخلي أو الخارجي معنية بالبحث في المشكلات الكلامية القديمة التي شغل المتكلمون بها الناس حيناً من الدهر، مثل المباحث الدقيقة في القضاء والقدر، والكلام النفسي وغير النفسي، وهل القرآن مخلوق أم غير مخلوق، ومسألة مرتكب الكبيرة أهو مؤمن محض؟ أم كافر مخلد في النار؟ أم هو في منزلة بين المنزلتين؟، إلى غير ذلك من المسائل التي أسالت كثيراً من المداد، بل كثيراً من الدماء!

إن الأمة اليوم في حاجة إلى تجديد خطابها وحوارها مع الآخر على أساس عقيدة صحيحة تبني ولا تهدم، وتجمع ولا تفرق، ولن يتحقق ذلك بعرض عقيدة هي من اجتهادات وتأويلات البشر، كانت في سياق تاريخي عن رغبة صادقة وعزم أكيد للرد على مفتريات الخصوم ودحض شبههم، وإنما يكون ذلك ويتحقق بعرض الإسلام على الناس بقواعده الكبرى المؤسسة له، المأخوذة من نصوص الوحي الرباني.

المصلب السابع: قلعة "كل شيء بقضاء وقدر".

الإيمان بالقدر من أهم ركائز العقيدة الإسلامية، ومن الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وأمر اضطراري في النفس البشرية التي لم تُدَسَّ فطرتها بالشبهات والأهواء، ولا يصح إيمان المؤمن حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وقد دلت عليه نصوص كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ

مَّعْلُومٍ ﴿١١﴾¹.

- وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا

عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَفَقْدِيرُونَ ﴿١٨﴾².

1 سورة الحجر، الآية: 21.

2 سورة المؤمنون، الآية: 18.

- وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِفَدْرَةٍ تَفْدِيرًا﴾¹.
 - وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ فَدْرًا مَّفْدُورًا﴾².
 - وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِفَدْرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾³.
 - وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَفْنَاهُ بِفَدْرٍ﴾⁴.
 - وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ فَذُو جَعَلَهُ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ فَدْرًا﴾⁵.
 - ومن السنة قوله ﷺ في بيان أركان الإيمان كما في حديث جبريل: «..أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»⁶.
- والعرب في جاهليتها وإسلامها لم تكن تنكر القدر، كما قال أحمد بن يحيى ثعلب:
- «ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية وأهل الإسلام»⁷.
- فالعرب في جاهليتهم لم ينكروا القدر، وإن كان إثباتهم للقدر قد تشوبه بعض الشوائب في فهم حقيقته، وتلك قضية أخرى، لكن الذي يهم هنا هو التنبيه على أن

1 سورة الفرقان، جزء من الآية: 2.

2 سورة الأحزاب، جزء من الآية: 38.

3 سورة الشورى، الآية: 25.

4 سورة القمر، الآية: 49.

5 سورة الطلاق، الآية: 3.

6 جزء من الحديث الطويل الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام

والإحسان والإيمان بالقدر، 1/37 381.

7 شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، 2/704-705.

الإيمان بالقدر أمر فطري في نفوس العرب حتى قبل بعثة رسول الله ﷺ، وهذا ما نجده مبثوثاً في ثنايا أشعارهم وخطبهم، ومن ذلك على سبيل المثال قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهور:

فلا تكثمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يُعجل فيُنقم¹

ولما بُعث سيد الخلق محمد ﷺ بين أمر القضاء والقدر - كغيره مما يحتاجه الناس - غاية البيان، بكلماته الجوامع النوافع، وكان بيانه للقضاء والقدر تفسيراً وتوضيحاً لما تضمنه القرآن الكريم، وتلقى منه صحابته الأخيار ذلك، فساروا على نهجه، وبينوا لغيرهم حقيقة القضاء والقدر بكلمات كافية شافية، وتجنبوا الخوض في متاهات لا تنتهي في هذا الباب إلا إلى الحيرة والاضطراب، ثم سلك أثرهم التابعون لهم بإحسان، فاقتفوا طريقتهم، واهتدوا بهداهم، ودعوا إلى ما دعوا إليه، ومضوا إلى ما كانوا عليه².

وممن تكلم عن هذه القاعدة العظيمة بعبارات موجزة جامعة مانعة، الإمام أبو جعفر الطحاوي، فقد قال: «وكل شيء يجري بتقديره ومشيتته، ومشيتته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن»³.

ومع أن مبحث القضاء والقدر معلوم بالفطرة، وأن نصوص الوحي قد بينته غاية البيان، «إلا أنه يظل أعوص أبواب العقيدة، فدقة تفاصيله، وتشعب مسأله، وكثرة الخوض فيه، والشبهات حوله، كل ذلك كان سبباً في صعوبة فهمه، وعسر استيعابه، ولهذا فلا غرو أن يحار الناس في شأنه في القديم وفي الحديث، وأن يسلكوا في هذا الباب كل واد، وأن

1 ديوان زهير بن أبي سلمى، ص: 32.

2 ينظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية، تحقيق: الحساني بن حسن بن عبد الله، مكتبة دار التراث، القاهرة (د.ت)، ص: 4، وهو - حسب علمي - من أجود وأفضل ما كتب في بيان حقيقة القضاء والقدر، والرد على الشبه المثار حوله، بأسلوب يجمع بين الإقناع والإمتاع، وتلك خاصية تتميز بها مؤلفات ابن القيم.

3 العقيدة الطحاوية شرح وتعليق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ص: 7.

يأخذوا في كل طريق، ويتولجوا كل مضيق ويقصدوا الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته، فلم يرجعوا بفائدة، ولم يعودوا بعائدة، لأنهم التمسوا الهدى من غير مظانه، فتنعوا وأتعبوا، وحيروا وتحيروا.. وأسعد الناس بالصواب في هذا الباب من تلقى ذلك من مشكاة الوحي المبين، ورغب بفطرته وإيمانه عن آراء المتهوكين، وتشكيكات المتشككين، وتكلفات المنتطعين»¹.

وإذا عدت أسباب تأخر المسلمين في البناء الحضاري فإن من أبرز أسباب ذلك جهلهم وانحرافهم في باب العقيدة عموماً وفي مسألة فهم القضاء والقدر خصوصاً، ذلك أن فئة عريضة من المسلمين اتخذوا من الإيمان الواهي بالقضاء والقدر مسوغاً يسوغون به عجزهم وتخلفهم عن ركب الحضارة، فأخلدوا إلى الأرض، وتركوا الأخذ بالسنن، ناسين أو متناسين أن أقدار الله إنما تجري وفق سنن الله الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، ولا تحابي أحداً كان مسلماً أو غير مسلم.

ومن أخطر ما ينتجه الفهم السقيم لقضية القضاء والقدر: زرع بذور اليأس في قلوب كثير من المسلمين، وإقناعهم باستحالة النهوض والقيام من الكبوة التي وقعوا فيها أفراداً وجماعات، والرضا بالقليل مما كان إن كان، ولسان حالهم يردد ما رده أسلافهم في عصور الانحطاط والتخلف: ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن هذا قدرنا، وما ترك السابق للاحق شيئاً، أو إذا كانت الدنيا لغيرنا فلنا الآخرة، وغير ذلك من العبارات التي تمجها الأسماع ولا تقبلها الطباع السليمة، لأنها توحى بالفشل وتدعو إلى الهزيمة، وأخطر هزيمة هي الهزيمة النفسية.

وقد يكون هذا الفهم السيء للقضاء والقدر ثمرة لفلسفات ترى بأن الناس -بأصل الخلق- طبقتان: أسياد وعبيد، «وأن الله خلق العبيد لخدمة الأسياد، لذلك فلا أمل في التغيير ولا مجال للاعتراض على خلق الله أو الرفض لقانونه، ولا يخرج كتاب جمهورية أفلاطون

1 شفاء العليل، لابن القيم، ص: 5، بتصرف.

الفاضلة الذي حاول فيه وضع ملامح الصورة المثلى للمجتمع والإنسان من وجهة نظره، عن تقرير هذه الطبقية وفلسفتها، ومحاولة إقناع الناس بها»¹.

وإن من أهم العناصر الروحية لبناء الإنسان الأنموذج: الإيمان بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح الذي يستمده المؤمن من الوحي، حينما يقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ

يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلِينَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ﴾²، وحينما يقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾³، ويفهم المؤمن أن تفويض أمره إلى الله لا يعني الانهزام في الحياة

والانعزال والانطواء على الذات كما فهمت بعض الطوائف، وإنما الفهم السليم للقضاء

والقدر يُلزم المؤمن بأن يكون واثقاً من ربه، ويبدل جهده، ويعمل حسب اجتهاده وقدرته،

ويفر من قدر الله إلى قدر آخر، وبعد ذلك يفوض أمره إلى ربه ويتوكل عليه، وبذلك يحصن

نفسه من اليأس والقنوط والإحباط، والتوكل على الله يغرس في النفس الإنسانية القوة والثقة

والعزيمة والتفاؤل بالوصول إلى الغاية، وتحقيق الهدف المشروع، لأن صدق التوكل على الله بعد

تعاطي الأسباب المشروعة يعني الإيمان الجازم بأن الله متكفل بجميع أمور عباده قادر على كل

شيء، وهذه الثقة المطلقة بالله تعالى تدفع بالإنسان المؤمن إلى البناء والإعمار بكل جدية

وحزم، وتبعده من التواكل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى

1 مقدمة الدكتور عمر عبيد حسنه لكتاب: النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة، د.

محمد أحمد مفتي، ود. سامي صالح الوكيل، سلسلة كتاب الأمة، رقم: 25، شوال 1410هـ، ص: 8-9.

2 سورة التوبة، الآية: 51.

3 سورة غافر، جزء من الآية: 44.

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾¹، فنأمل كيف جمع الله تعالى في هذا النص الكريم بين الأمر بالتوكل عليه وبين الدعوة إلى العمل بعزم وحزم، وأورد القرآن الكريم الحديث عن ثمرات تقوى الله، وحسن التوكل عليه، وقدرة الله عز وجل على شيء، أورد ذلك كله في سياق واحد، للدلالة على ترابط هذه الأشياء عند المؤمن الحقيقي، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٠٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٢٠١﴾ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٠٢﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ فَدَجَعَلِ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ فَدَرَأً ﴿٢٠٣﴾﴾².

وهذا يعني أن الإيمان الحقيقي بالقضاء والقدر، وتحقيق باقي أركان الإيمان، هو «السبيل الوحيد لتحقيق إنسانية الإنسان، وتخليصه من الرق والشرك الديني والثقافي والسياسي والاجتماعي والتربوي، والقضاء على التخاذل، الذي لحق بعالم المسلمين، وأورثه حالات من الخنوع والتواكل والإرجاء، وأخرجه من التاريخ والواقع. إن حالات الإرجاء والتخاذل والانسحاب من الحياة، أدت إلى انطفاء الفاعلية، وانعدام الشعور بالمسؤولية، والتفكير في امتلاك القدرة على تأسيس الرؤية الثقافية المبنية على معرفة الوحي المعصوم، والتي تقتضي إحياء دور العقل في النظر... فالمسلم الحق يقوده إسلامه إلى استيعاب التاريخ البشري، والتعرف إلى وسائل النهوض والسقوط، وإدراك السنن والقوانين الكامنة وراء الفعل التاريخي، التي لم تتحول ولم تتبدل، ودور الإرادة البشرية في صنع التاريخ، وممارسة عملية التغيير، ومدافعة القدر بقدر أحب إلى الله، والاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى الذي ناظ عمليات التغيير وصنع التاريخ بإرادة الإنسان وقدرته، فقال تعالى:

1 سورة آل عمران، جزء من الآية: 159.

2 سورة الطلاق، جزء من الآية: 2، والآية: 3.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾¹، فالله سبحانه

وتعالى هو الذي أراد للإنسان أن يريد، وأكثر من ذلك أنه ربط حدوث التغيير بإرادة الإنسان².

هذا باختصار أهم ما يمكن إيرادها في هذه القاعدة، عسى أن تكون تلك الإشارات منبهة إلى أهمية الفهم السليم لعقيدة القضاء والقدر، حتى لا تتخذ ذريعة لتسويغ فشل الأمة في كل مجال، وأن تعي الأمة أنها مسؤولة عن أفعالها، وليست مجبورة عليها كما أشاعت الجبرية، ويمكن الاستعانة في فهم مسألة فعل الإنسان بالنقاش الدائر بين المعتزلة والأشاعرة، وما نتج عن ذلك من نظرية عرفت لدى الأشاعرة بـ"نظرية الكسب".

المصلب الثامن: قاعدة "الإيمان بالكتب السماوية كل لا يتجزأ".

وهذه آخر قاعدة أحتتم بها الباب، وهي من قواعد العقيدة الإسلامية، الجامعة المحكّمة، لا يتطرق إليها شك، ولا يلحقها خرم، هي لب جوهر الإيمان، فلا يستقيم إيمان المؤمن، بل ولا توجد حقيقته، إلا إذا آمن بكل ما أنزله الله من الكتب على رسله إجمالاً، كما يؤمن بالكتب التي جاء ذكرها في القرآن الكريم تفصيلاً وتفصيلاً، مثل: الزبور، والتوراة، والإنجيل، وبذلك نطق الكتاب الخاتم: القرآن الكريم، وأكدته السنة النبوية في نصوص كثيرة، أقتصر على التذكير بنصين منها.

- فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿- اٰمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ

وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلُّ - اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ وَكُتُبِهٖ وَرُسُلِهٖ لَا

1 سورة الرعد، جزء من الآية: 12.

2 من مقدمة الدكتور عمر عبيد حسنه لكتاب: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، تأليف الدكتور سالم أحمد محل، ص: 11-12، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 60، رجب 1418هـ، السنة السابعة عشرة.

نُبْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَفَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٤﴾¹.

- ومن السنة ما جاء في حديث جبريل، حين سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، والإيمان، والإحسان، والساعة، وموضع الشاهد من الحديث هنا ما يلي: (.. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ..)².

فقد نصَّ رسول الله ﷺ في هذا الحديث على أن من أركان الإيمان التي لا يصح إلا بها: الإيمان بكتب الله.

وعقيدة المؤمن تدعوه وتأمره أمراً لازماً لا يقبل التسوية أو المراوغة أو الانتقاء بأن يؤمن بكتب الله السابقة كما يؤمن بالقرآن الكريم الذي أودع الله فيه ثمرات الكتب السابقة، والمؤمن إذ يؤمن بتلك الكتب السماوية السابقة، فإنه يفرق بين مرحلتين مهمتين في تاريخ هذه الكتب: المرحلة الأولى قبل أن تلعب بها أيدي التحريف والتبديل³، والمرحلة الثانية بعد أن دخلها التحريف والتزوير، فيجب الإيمان بالكتب السماوية السابقة في أصولها المنزلة على الرسل والأنبياء، وأما ما أضافه الناس إليها في المرحلة الثانية، فليس أحد ملزماً باتباعها، مع العلم أن القرآن الكريم بنزوله، قد نسخ جميع ما كان قبله من الكتب، وهو وحده من بين

1 سورة البقرة، الآية: 284.

2 جزء من الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، 371/381.

3 قد اتخذ هذا التحريف ألواناً وصوراً وتنوع أنواعاً كثيرة، فكان منه تحريف لمعاني الكتاب ودلالة نصوصه، وتحريف لألفاظه بالزيادة فيها أو النقصان، أو الكتمان، ينظر في تفصيل ذلك: كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، 2/4 وما بعدها، وكتاب: إظهار الحق، للشيخ رحمة الله العثماني، 2/425، تحقيق محمد أحمد ملكاوي، الرياض، 1410هـ، وكتاب: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ص: 9-24.

كتب الله، الذي سلم من التحريف، لأن الله وعد بحفظه، ووعد لا يُخلف، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾¹، والكتب السابقة ليست محفوظة كما أنزلت، وهذا يفقدنا الثقة بما فيها اليوم، وإن كان لا يعني أن كل ما فيها أصبح باطلاً، بل قد نجد أثراً لما اتفقت عليه الشرائع والرسالات، وقد وردت إشارات كثيرة في القرآن الكريم تدل على أن الكتاب الخالد قد جمع ثمرات ما تفرق في الكتب الإلهية قبله، كما نقرأ مثلاً في قوله تعالى- بعد أن ذكر مجموعة من الوصايا الخالدة-: ﴿إِنَّ هَذَا لَعِبِ

الصَّحْفِ الْأُولَى﴾² صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

ومن تأمل في هذا الركن الثالث من أركان الإيمان يجده مرتبطاً أتم الارتباط بركن الإيمان بالله تعالى، لأنه هو منزل الكتب ومرسل الرسل، ومرتب كذلك بركن الإيمان بالرسول عليهم السلام، بل هو مرتبط بباقي أركان الإيمان الأخرى، لأن بالكتاب عرفنا الملائكة ووظائفها وصفاتها، وبالكتاب تعرفنا على حقيقة اليوم الآخر وما فيه من مشاهد يوم القيامة، وبالكتاب تعرفنا على سائر أصول الدين وفروعه، فلا هداية للناس بدونه، وقد دل-الترابط بين ركن الإيمان بالكتب السماوية وبين جميع ما تضمنه الدين من أصول وفروع- على أهمية الإيمان به إيماناً كلياً، لا يقبل التجزئة، وما يقال في الإيمان بالرسول جميعاً يقال في الإيمان بالكتب التي أتوا بها من عند الله، فكما أن الإيمان برسالات المرسلين إيمان لا يقبل التجزئة، وأن من كذب بنبي أو رسول واحد فقد كذب بكل المرسلين، فكذلك من كذب بكتاب سماوي واحد فقد كذب بجميع الكتب السماوية، لأن مصدرها واحد، وهو الله تعالى، وغايتها جميعاً إقامة الدين، الذي هو أصل لإقامة العمران، وبناء الحضارة، والفوز بخير

1 سورة الحجر، الآية: 9.

2 سورة الأعلى، الآية: 18- 19.

الدارين، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالذِّعْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ كِبْرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ؛ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾¹، فالإيمان بجميع الرسل وبكتب الله التي أنزلها عليهم كلٌّ لا يتجزأ، وإنما خصت الآية بالذكر هؤلاء الأنبياء الخمسة لأنهم أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع المعظمة، والأتباع الكثيرة، وأولوا العزم، وقد أفادت الآية الكريمة أن هؤلاء الخمسة وغيرهم من الأنبياء والرسل اشتركوا في أصول الدين، وأن دعوتهم إلى هذه الأصول واحدة، «دعوة إلى أن يقيموها بتعديل أركانها، والحفاظ عليها، وحفظها من أن يقع فيها زيغ أو تحريف، وأن يواظبوا عليها، ويتمسكوا بها، وهذه الأصول التي أمروا أن يدعوا إليها متفقين غير مختلفين، هي توحيد الله تعالى والإيمان بكل ما يجب الإيمان بهو إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج، والتقرب إلى الله بصالح العمل، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر، والقتل، والزنا، وأذية الخلق كيفما كانت، والاعتداء على الآخرين واقتحام الدنئات، وإتيان ما يخل بالمرءات... ولا تعارض بين هذه الآية الكريمة وبين قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾²، فإن اتحادهم إنما هو في العقائد وأصول الدين، واختلافهم إنما هو في

1 سورة الشورى، الآية: 11.

2 سورة المائدة، الآية: 50.

الشرائع والفروع التي كان الاختلاف فيها بين الرسل للمصلحة والحكمة التي يعلمها الله فهو الأعلم بما يصلح لكل زمان ومكان من الشرائع»¹.

ومن يتأمل ما جاء في القرآن الكريم، باعتباره الكتاب الخاتم المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة، لا يخالجه أدنى شك أن الكتب السماوية بدون استثناء قد اتفقت كلها على كلمة سواء، وهي الدعوة إلى ترسيخ أسس العقيدة الصحيحة في النفوس، وكل ما نسب إلى تلك الكتب من الشرك والوثنية، فهو مما عملت أيد المحرفين والمزورين الكذبة الذين تحدث عنهم القرآن الكريم كثيراً، وكشف خباياهم للناس حتى يكونوا منهم على حذر، ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٧٦) وَمِنْهُمْ مَنِ الْمُؤْمِنُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٧﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا فَلْيَلِئًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٨﴾ وَقَالُوا لَسَ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً فَلِأَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ بَلَى مَسَ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْبَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾².

1 التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم، تأليف الدكتور عبد العزيز بن الدردير، ص: 60، مكتبة القرآن. جمهورية مصر العربية.

2 سورة البقرة، الآية: 76 - 80.

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٢﴾¹.

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيفًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾².

والقرآن الكريم كتاب الهداية للتي هي أقوم في كل شيء، ومن صور هدايته للتي هي أقوم، أنه يعلم الناس الإنصاف والعدل، لذلك لم يحكم على أهل الكتاب كلهم بحكم واحد، وإنما قال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيفًا﴾، وقال في آية أخرى-بعد أن عدّد قبائحهم وسوء أخلاقهم مع أنبياء الله ورسله-: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٢٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾³، حتى لا يتوهم متوهم أن أهل الكتاب سواء، فعقب ذلك بذكر ما لبعضهم من حسنات، لا يجوز إغفالها، وهذا منهج القرآن الكريم الفريد في كل شيء، يعلم الناس التوازن والاعتدال في كل أمر من أمورهم.

1 سورة البقرة، الآية: 82.

2 سورة آل عمران، الآية: 77.

3 سورة آل عمران، الآية: 113-114.

وأختم الحديث عن هذه القاعدة بالإشارات الآتية:

- في نظري ينبغي استثمار هذه القاعدة العظيمة التي يتمسك بها المسلمون، وتوظيفها توظيفاً إيجابياً للبحث عن القواسم المشتركة مع الآخرين، وخاصةً مع الذين يحسبون أنفسهم أنهم يؤمنون ببعض الرسل والأنبياء، ونعني هنا بالدرجة الأولى: اليهود، والنصارى، وهذا مدخل من مداخل البناء الحضاري، باعتبار أن البناء الحضاري أمر يهم الجميع، ومسؤولية مشتركة، وأمانة في أعناق الجميع، وأتباع الرسالات السماوية أولى من غيرهم أن يتعاونوا لإحلال السلام في العالم، ونشر قيم التسامح، ونبد خطاب الكراهية والاستبداد، وتقليل الشرور، وجميع القيم السلبية التي تتنافى مع ما جاءت به الكتب السماوية.

- القرآن الكريم بوصفه الكتاب الخاتم للكتب الإلهية، هو كتاب الله للإنسانية كلها، فهو الذي خاطب الله به الناس جميعاً منذ نزل إلى يوم القيامة، وليس كتاباً موجهاً إلى فئة بعينها، أو جنس أو طبقة، وإنما هو كتاب من رب العالمين للعالمين من الإنس والجن، وبهذا ابتدئ المصحف الكريم، وبه اختتم، فقال تعالى في بداية المصحف الشريف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾¹، وقال في نهاية المصحف الشريف: ﴿مِنْ أَلْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾²، وما بين سورة الفاتحة وسورة والناس، جاءت نصوص أخرى تؤكد عالمية الخطاب القرآني، منها على سبيل المثال قوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾³.

- وإذا كانت القاعدة توضح أن إيمان المؤمنين لا يصح إلا إذا تحقق فيهم الإيمان بجميع الكتب السماوية، وأن الإيمان بها كلٌّ لا يتجزأ، فإن هذا ينطبق على القرآن الكريم، فلا

1 سورة الفاتحة، الآية: 1.

2 سورة الناس، الآية: 6.

3 سورة الفرقان، الآية: 1.

يجوز الإيمان ببعضه دون بعض، ولهذا عاب الله على الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وتوعدهم بوعيد شديد، فقال تعالى: ﴿أَبْتُومِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾¹، وقال أيضاً: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ﴾² الَّذِينَ جَعَلُوا الْفُرْعَانَ عِضِينَ ﴿١١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾³

وبما أن قاعدة الإيمان بالكتب مرتبطة بالإيمان بالرسول، لأنهم حملة هذه الكتب، فإن الإيمان بالكتب لا يتم إلا بالإيمان بجميع الرسل جميعاً كما سبق الحديث عنه مراراً، ويتأسس على ذلك كله الإيمان الجازم بأن محمداً رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، وتمام بناء الرسالات السماوية كلها، فلا نبي بعد، وبذلك نطقت الكتب السماوية السابقة، وبه أوصى الرسل أتباعهم، فقد حكى الله في القرآن الكريم العهد والميثاق الذي أخذه على الأنبياء أن يؤمنوا برسالة آخر رسول، فأقروا بالميثاق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي فَالَوْ أَفْرَرْنَا قَالُوا فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾³ فَمَسَّ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾³، وقال الله تعالى -على لسان عيسى عليه السلام في وصيته لقومه بني إسرائيل، وكيف أنهم جحدوا بعد معرفتهم صفات

1 سورة البقرة، الآية: 84.

2 سورة الحجر، الآية: 90-92.

3 سورة آل عمران، الآية: 80-81.

الرسول الخاتم-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠١﴾﴾¹، وقد أكد رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح أن رسالته مسك ختام الرسالات السماوية، فقال عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبْنَةُ. وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ" ².

وقال أبو جعفر الطحاوي: «وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبي، ورسوله المرتضى، وأنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوى النبوة بعد فغي وهوى، وهو المبعوث إلى عامة الجن، وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء»³.

- ومن لوازم الإيمان برسول الله الخاتم محمد ﷺ، الإيمان الجازم بكل ما جاء به، مما ثبت عنه في السنة النبوية، من قول، أو فعل، أو تقرير، وهنا يجب الحذر من المزاعم التي تصدر عن من يسمون أنفسهم زوراً وبهتاناً بالقرآنيين، وكذلك مزاعم غيرهم ممن تتعالى أصواتهم بين الفينة والأخرى مطالبين بالاكْتفاء بالقرآن الكريم، أو يدعون إلى رد جملة من أحاديث ثابتة عن رسول الله، بدعوى مخالفتها للعقل، وقد وصلت الجرأة ببعضهم إلى دس الأراجيف وإثارة الأباطيل والشكوك حول كل ما يضمنه صحيح البخاري من أحاديث صحيحة السند، وهو الكتاب الذي أجمع المحدثون بأنه أصح كتاب بعد القرآن الكريم، فالسنة النبوية مصدر من مصادر الدين الإسلامي، سواء في العقيدة، أو

1 سورة الصف، الآية: 6..

2 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (3534) واللفظ له، ومسلم في صحيحه، برقم: (2286).

3 العقيدة الطحاوية، شرح وتعليق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ص: 8-9-10.

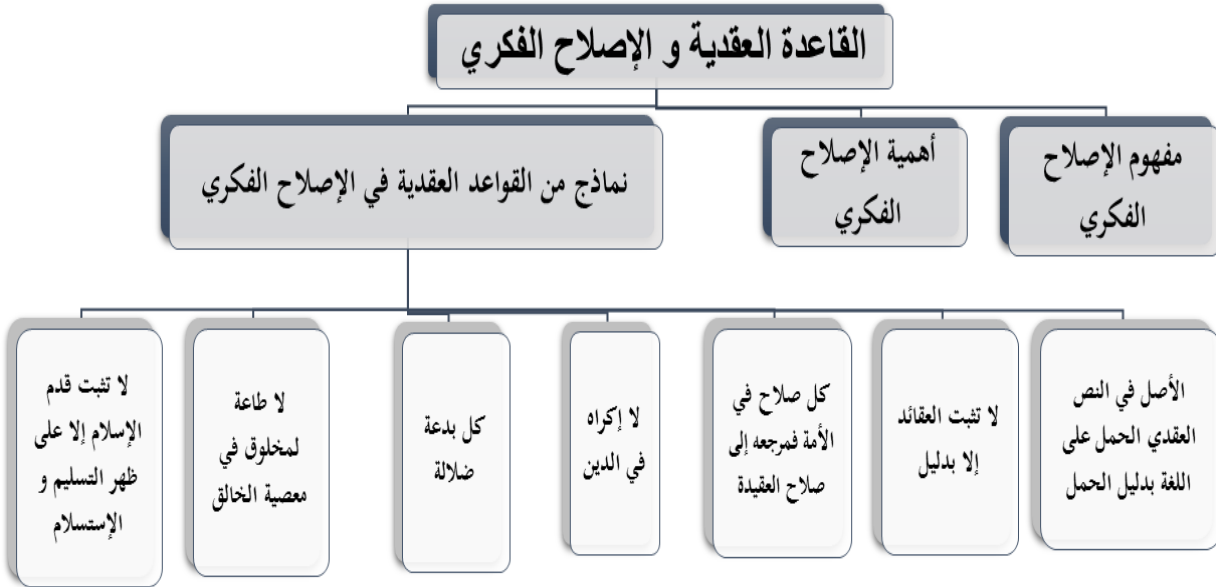
الشريعة، أو الأخلاق، أو السلوك، أو المعاملات، وسواء في ذلك أثبتت بطريق التواتر، أو بطريق الآحاد، بشرط أن يثبت الحديث عن رسول الله ﷺ، ثبوتاً يطمأن إليه، وفق قواعد علم الحديث التي قررها علماء الصناعة الحديثية، وهي مستمدة من القرآن الكريم، ومن توجيهات النبي المصطفى الأمين.

وليكن ختام هذا الباب بخلاصة عامة لأهم عناوينه الكبرى على شكل:

خلاصة ناضمة للباب الثامن

القواعد العقيدية والإصلاح الفكري والبناء الحضاري

الفصل الأول:



الفصل الثاني:

القاعدة العقيدية و البناء الحضاري



وإذا تبين لنا في الباب الأول والثاني من أبواب البحث أهمية التعميد العقدي وأسسها، ورأينا نماذج من القواعد العقيدية في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، فلزم أن نختم البحث بباب ثالث نتعرف فيه على مقاصد القواعد العقيدية وأهميتها وخصائصها، وهذا موضوع الباب الأخير من أبواب البحث.

الباب الثالث

مَقَاصِدُ الْقَوَاعِدِ الْعَقَدِيَّةِ
وَأَهْمِيَّتُهَا وَخَصَائِصُهَا.

تمهيد:

العقيدة الإسلامية هي ركن الإسلام الأول، وهي أصل تنفرد عنه جميع شرائع وشعائر الإسلام، وإذا كانت سائر أحكام الشريعة الإسلامية قد شرعت لمقاصد وغايات بحثها علماء مقاصد الشريعة في مصنفات كثيرة، فإن العقيدة أحق أيضاً بدراسة ومعرفة مقاصدها وغاياتها، وإنما كانت للعقيدة الإسلامية هذه المقاصد والغايات التي سيأتي ذكر أهمها، لما لها من أهمية كبرى، وخصائص عظيمة، إذ هي أساس صلاح كل بناء، فبصلاحها تصلح حياة الإنسان في العاجل والآجل، ويحقق الاستخلاف الحقيقي وعمارة الأرض.

✓ فما هي أهم مقاصد قواعد العقيدة الإسلامية؟

✓ وأين تتجلى أهمية هذه القواعد؟

✓ وما هي أهم خصائصها؟

✓ وما هي بعض النماذج والأمثلة التي توضح هذه المقاصد الكبرى؟

هذا ما سيحاول الباب الثاني من أبواب البحث أن يجيب عنه، في فصول ومباحث

ومطالب، حسب جهد الباحث، وبالله التوفيق.

الفصل الأول

مقاصد القواعد العقديّة.

المبحث الأول: مقدمتان مهمتان لمقاصد القواعد العقدية.

قبل الحديث عن مفهوم مقاصد العقيدة الإسلامية، أرى أنه من الأهمية بمكان أن أقدم بين يدي ذلك بمقدمتين تمهيديتين: إحداهما توضح آثار غياب البعد المقاصدي في دراسة القواعد العقدية، والأخرى تحاول الجواب عن سؤال مفاده: كيف السبيل إلى إدراك مقاصد القواعد العقدية؟.

المصطلح الأول: آثار غياب البعد المقاصدي في دراسة القواعد العقدية.

تطالعنا حقيقة مزرّة من تاريخنا العريق تفيد أننا أضعنا جهوداً كثيرة في الجدل الكلامي بين علمائنا، ونكاد نجزم أن أكبر سبب في ذلك هو غياب ربط العقيدة بمقاصدها، ولسنا هنا نتهم علماءنا بالتقصير، ولكن لا بد أن نتساءل: لما ذا أثمرت العقيدة الإسلامية الصافية في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين وأنتجت لنا جيلاً فريداً؟ وهل علم العقيدة أو علم التوحيد جاء ليحقق للأمة الوحدة ويحفظها من التفرق؟.

إن الواقع الذي لا يرتفع أثبت أن علم العقيدة — وهو العلم الذي من شأنه أن يجمع ولا يفرق، وهو الذي لديه القدرة على الاستيعاب والإصلاح — دخل في جدال عقيم، وصدق عليه وصف أستاذنا الدكتور سعيد شبار حينما قال: «إن العلم الذي من شأنه أن يقوم بالعمل التصحيحي والتأطيري لفهم تجليات هذا الأصل العظيم وامتداداته المختلفة وقدرته الاستيعابية.. قد تخلف عن القيام بهذا الدور واستغرقت خلافاً وجدالات نظرية لا عمل تحتها، سواء فيما أملاه التحدي الوافد من مفاهيم وتصورات، أو فيما تشعب فيه الخلاف وتفرع من جزئيات الكلام التي أوقف الشرع نفسه الخوض فيها. والواجب ليس إلغاء هذا العلم وتجاوزه بالمرّة، بل استعادة دوره الأول وتفعيله بما يناسب التأطير العقدي للفكر والعمل في الوقت الراهن»¹.

1 الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، د سعيد شبار، ص: 555_556.

ولا يفهم مما سبق الحط من قدر ما أنتجه علماء الكلام، أو الدعوة إلى القطيعة معه بالكلية، إذ منطوق العدل والإنصاف يقتضيان الاعتراف بأهمية وقيمة التراث الضخم الذي خلفه لنا أولئك الأخيار، ومصنفاتهم خير شاهد على جهودهم المبذولة، فمن ذا الذي يستطيع أن يجحد وينكر فضلهم وآثارهم؟ لكن الذي أريد توضيحه والإشارة إليه هو عدة أمور:

■ إن تراث علمائنا سواء في العقيدة، أو في أي مجال آخر، مهما بلغ من الإتقان والإبداع، ومهما تكلمنا في بيان آثاره العظيمة في التعريف بالإسلام عقيدةً وشرعيةً... فيبقى اجتهاداً بشرياً غير معصوم من الخطأ والزلل، ويقبل النقد والاستدراك، وهم بأنفسهم لم يُنقل عن أحدهم أنه ادعى العصمة والقداسة لآرائه، وأي فكر بشري كان قديماً أو حديثاً إنما يأتيه الضرر من أحد فريقين، أو من أحد جهتين متناقضتين: الأولى: جهة التقديس، والثانية: جهة التبخيس، فأهل الجهة الأولى أهل غلو وإفراط وتنطع في تمجيد هذا الفكر، وأهل الجهة الثانية أهل تفريط وتبخيس لهذا الفكر، لا يرون فيه إلا مواطن الخلل، غير ناظرين إلى مواطن الحسن والإبداع فيه، وخير الأمور أوسطها.

■ إن اجتهادات علماء الكلام في العقيدة سواء في التقعيد أو التفريع لهذه العقيدة أملت عليها ظروف معينة وأسباب كانت بنت عصرها، بمعنى أن تلك الاجتهادات التي وجدناها في مؤلفاتهم كانت وسيلة من وسائل الدفاع عن الإسلام ونصرة العقيدة، ونحن نعلم أن الوسيلة تبقى دائماً في حدود الوسائل، وتقبل التبديل والتغيير حسب الحاجة والضرورة، صحيح أن بعض الوسائل قد تُعطى حكم الغايات، عملاً بالقاعدة الأصولية المقاصدية التي تقول: "لوسائل حكم المقاصد" أو: "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"، لكن ذلك فيما لا تقوم حقيقة الغاية إلا بوسيلتها المؤدية إليها، كما شرح ذلك علماء الأصول والمقاصد في مظانه، أما هذه الاجتهادات التي كان القصد منها تقريب العلوم أو الدفاع عن الدين... أو غير ذلك فداخلة في الوسائل التي تقبل التغيير، ومن

المعلوم أن الزمن قد تغير وأدوات الحجاج ووسائل الإقناع قد تبدلت، فمن العيب ومن الخطأ أن نبقى متمسكين بوسائل كانت نافعة في وقتها، وكانت ثمرةً لظروف وأحوال تبدلت، وأهميات اهتزت، وأولويات تغيرت.

إن ذلك ما لا يقبله نقل ولا عقل.

■ وإذا تقرر ذلك فإن المنهج المعتمد في فهم وإفهام العقيدة الإسلامية ينبغي أن يتأسس على قاعدة صلبة، ولن يجد المسلم ذلك إلا إذا رجع إلى منابع الإسلام الأولى، وأن يفهم العقيدة الإسلامية من خلال لسان الإسلام الأصلي الصافي -الوحي- ومعهود العرب في الخطاب ودلالة الأفاضل، مع الاستفادة مما أنتجه العقل المسلم قديماً وحديثاً في هذا المجال وفق شروط معينة، أشير إليها في الفقرة اللاحقة.

■ إن الدعوة إلى أخذ العقيدة من الوحي الإلهي وفق معهود العرب في الخطاب، لا يعني أبداً إلغاء جهود علماء الكلام، أو التقليل من أهميتها، أو التجاسر على أصحابها وهم من هم علماء وفضلاً، ويشفع لاجتهاداتهم أنها كانت تجيب عن إشكالات فرضها عليهم واقعهم، وكانت نافعة ومفيدة في وقتها، أما نحن فلنا واقعنا اليوم الذي يختلف كل الاختلاف عن الماضي.

المصلب الثاني: ما السبيل إلى إمارك مقاصد القواعد العقديّة؟

ولست أقصد هنا استقصاء البحث في طرق الكشف عن المقاصد عموماً أو مقاصد العقيدة خاصة، فقد بحث العلماء مسألة معرفة طرق إثبات مقاصد الشريعة بما يشفي العليل، مثل ما بحثه أستاذنا الدكتور عبد الرحمن العضاوي في الفصل الثالث من كتابه الموسوم بـ: "مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي"، حيث خصص المبحث الأول من الفصل الثالث من الكتاب لدراسة مناهج إثبات المقاصد الشرعية¹.

1 تحدث أستاذنا في هذا المبحث عن مناهج إثبات المقاصد الشرعية، من ص: 181 إلى ص: 249، ملخصاً ومناقشاً ومستدركاً على علماء المقاصد، كالشاطبي والظاهر بن عاشور، ذكراً قواعد نافعة في هذا الباب، فليرجع إليه.

ويعود جوهر الخلاف في مسألة إثبات مقاصد العقيدة أو نفيها، إلى قضايا عقدية كثر فيها كلام المتكلمين، مثل: التعليل¹، ونسبة الأفعال إلى الإنسان أو عدم نسبتها إليه، وعلاقة ذلك بالعلم والقدرة والمشية الإلهية، وما تفرع عن ذلك من المسائل الأخرى، كتعليل أفعال الله وأوامره، وحقيقة العلاقة بين التعليل الكوني والتعليل الشرعي، وقضية التحسين والتقييح العقليين، إلى غير ذلك من المسائل التي اشترك في ذكرها علماء أصول الدين وعلماء أصول الفقه.

وجدير بالتنبيه أن اختلاف العلماء في التعليل أغلبه اختلاف لفظي، لأن التعليل أمر واقع لا يرتفع، وهم يتفقون على أن أفعال الله منزهة عن العبث، وأنه تعالى لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيء إلا للحكمة، سواء علمناها أم لم نعلمها، وقد أشار الشيخ محمد مصطفى شليبي إلى هذه المسألة فقال: «فقد رأينا الفخر الرازي مع إنكاره في علم الكلام، يثبت ذلك في محصوله عند الكلام على مسلك المناسبة، وهل تصلح دليلاً على العلية أو لا؟ ويورد الأدلة الكثيرة على هذه الدعوى ثم يقول في نهاية كلامه: (هذه الوجوه الستة دالة على أن الله تعالى ما شرع الأحكام إلا لمصالح العباد، ثم اختلف الناس بعد ذلك)... وأعجب من هذا أنه في أصول الفقه قصر التعليل في موضع (المناسبة) وأبطله في تعريف العلة، ولعل منشأ هذا التناقض أنه وجد نفسه عند التعريف بصدد الرد على المعتزلة المخالفين له في العقيدة في مسألة التعليل، وفي المناسبة² لم يجد لهم كلاماً فاعترف به، ومن الإنصاف أن نقول إنه أبان آخراً ما أراده من النفي أولاً، وهو أن نفيه كان منصباً على الوجوب لا على أصل التعليل»³.

1 ممن درس التعليل دراسة وافية حسب ما اطلعت عليه: الشيخ محمد مصطفى شليبي في كتابه: "تعليل الأحكام: عرض وتحليل لطريقة التعليل وتطوراتها في عصور الاجتهاد والتقليد.

2 مصطلح "المناسبة" مصطلح أصولي يذكره علماء أصول الفقه في باب القياس في مبحث "مسالك العلة"، وقد عرفه التهانوي في كتابه (كتشاف اصطلاحات الفنون، ج: 2، ص: 164) بأنه وصف ظاهر منضبط يحصل عقلاً من ترتب الحكم عليه ما يصلح أن يكون مقصوداً للعقلاء من حصول مصلحة أو دفع مضرة أو مجموعهما.

3 تعليل الأحكام، محمد مصطفى شليبي، ص: 106.

وجدير بالتنبيه أيضاً في هذه المقدمة أن أسماء الله الحسنى مدخل كبير لإدراك مقاصد القواعد العقدية، إذ من مقتضيات الإيمان بأسماء الله الحسنى الإيمان بأن الله تعالى خلق كل شيء وقدره تقديراً وصوره فأحسن تصويره، وكل اسم من أسمائه الحسنى مشعرٌ بذلك، يقول الإمام الرازي «إن الفعل الخالي من الحكمة سفاهة وهي غير لائقة بالحكيم الرحيم»¹. ويوضح الإمام ابن القيم الأمر أكثر فيقول في نص نفيس: «والمطلع على هذا المشهد - يقصد مشهد أسماء الله الحسنى وصفاته العلى-: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها، وإن كان العالم - بما فيه - من بعض آثارها ومقتضياتها.

وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتض وفعل: إما لازماً. وإما متعدياً، ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. وكل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسماءه حسنى، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه، ولهذا ينكر سبحانه على من عطله من أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به وإلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه...»².

1 المطالب العالية في المباحث الإلهية، 2/ 87.

2 مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، 1/ 417 - 418.

ثم أورد الإمام ابن القيم نصوصاً من القرآن الكريم في هذا المقام، وكلها تدل على أن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى لها مقتضيات هي عين الحكمة الإلهية في خلقه وأمره وتدبيره، وأن من جحد ذلك فكأنه ينكر هذه الأسماء والصفات وما دلت عليه، والنصوص التي أوردتها هي:

- قوله الله تعالى: ﴿وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ فَدَرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ فُلٌ مِّنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ فَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ فُلِ اللَّهِ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٢﴾¹.

- قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ فَدَرِهِۦٓ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِبَضْتِهِۦٓ يَوْمَ الْفَيْمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِۦٓ سُبْحٰنَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾².

- قوله الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٠﴾³ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١﴾¹.

1 سورة الأنعام، الآية: 92.

2 سورة الزمر، الآية: 64.

3 قال ابن القيم في مدارج السالكين (1/ 418): " فأخبر أن هذا حكم سيئ لا يليق به، تأباه صفاته وأسماءه، وفي قوله سبحانه: (أَبْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾) المؤمنون، الآية:

إن التأمل في أسماء الله وصفاته، وفي بديع صنعه في خلقه، من أعظم مسالك إدراك مقاصد قواعد العقيدة، وهذا ما يدعو إليه القرآن الكريم في نصوص كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾¹ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وَفَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَّبِعُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِيلًا سُبْحَانَكَ بِنَانَا عَذَابَ النَّارِ﴾².

فكل آية من كتاب الله تدعو إلى التفكير في آيات الله الماثورة في الكون العظيم، تتضمن إشارات مهمة إلى بيان المقاصد والغايات من خلق الله وتدييره للكائنات كلها، بل لا أبالغ إذا قلت: إن أوامر القرآن الكريم ونواهيها، وكذا أخباره وقصصه، وأساليبه كلها تدل على المقاصد، وكذلك السنة النبوية المطهرة.

فلا تخلو صفحة من صفحات القرآن العظيم إلا وتدل-تصريحاً أو تلميحاً- على مقاصد وغايات، وهذا ما جعل الإمام الشاطبي يصل إلى أن الاستقراء لنصوص الشريعة هو الطريق المعتمد لإثبات المقاصد، فيقول: «والمعتمد إنما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراءً لا ينازع فيه الرازي³، ولا غيره، فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل وهو الأصل ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ

116، عن هذا الظن والحسبان الذي تأباه أسماءه وصفاته، ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته. إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

1 سورة الجاثية، الآيتان: 20-21.

2 سورة آل عمران، الآيتان: 190-191.

3 يرد بذلك على الإمام الرازي، الذي قال عنه قبل هذا: "وزعم الرازي أن أحكام الله ليست معللة بعلّة ألّبتة كما أن أفعاله كذلك"، الموافقات، 2/2.

بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٤﴾¹، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾²، وقال في أصل الخلقة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ وَيَأْتِيَكُمْ بِهِ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾³، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁴، ﴿إِذْ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ وَيَأْتِيَكُمْ بِهِ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَبُورُ﴾⁵.

وأما التعليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى، كقوله بعد آية الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁶ وقال في الصيام: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁷ وفي الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾⁸، وقال في القبلة: ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾⁹ وفي الجهاد: ﴿إِذْ لِلَّذِينَ يُفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ

1 سورة النساء، الآية: 164.

2 سورة الأنبياء/ الآية: 106.

3 سورة هود، الآية: 7.

4 سورة الذاريات، الآية: 56.

5 سورة الملك، الآية: 2.

6 سورة المائدة، الآية: 7.

7 سورة البقرة، الآية: 182.

8 سورة العنكبوت، جزء من الآية: 45.

9 سورة البقرة، جزء من الآية: 149.

عَلَى نَصْرِهِمْ لَعْدِيراً ﴿٢٧﴾¹، وفي القصص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾²، وفي التقرير على التوحيد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ
فَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْفَيْمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾³،
والمقصود التنبيه.

وإذا دل الاستقراء على هذا، وكان في مثل هذه القضية مفيداً للعلم، فنحن نقطع بأن
الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة، ومن هذه الجملة ثبت القياس والاجتهاد، فلنجر
على مقتضاه⁴.

وهذا الاستقراء لإثبات مقاصد الشريعة في القرآن الكريم والسنة النبوية هو الذي حمل
الإمام ابن القيم أيضاً أن يقول: «ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو
مائتين لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة»⁵.

فتلخص مما سبق أن سبيل إدراك مقاصد القواعد العقدية هو التدبر في آيات الله،
وآيات الله التي تؤخذ منها هذه المقاصد كثيرة، وما ذكر في المطلب هو للإشارة فقط.

1 سورة الحج، الآية: 37.

2 سورة البقرة، الآية: 178.

3 سورة الأعراف، الآية: 172.

4 الموافقات، للإمام الشاطبي، 12/2 - 13، بتحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن.

5 مفتاح دار السعادة، ج: 3، ص: 31.

المبحث الثاني: مفهوم مقاصد العقيدة.

لتحديد مفهوم مقاصد العقيدة يستدعي المقام تقديم تعريف لمقاصد الشريعة الإسلامية، ثم أعود إلى بيان المراد بمقاصد العقيدة.

المطلب الأول: مفهوم مقاصد الشريعة الإسلامية.

تحدث الدارسون لمقاصد الشريعة الإسلامية حديثاً كافياً عن تعريف المقاصد لغة¹ واصطلاحاً، وأطالوا الكلام عن مراحل تطور هذا المصطلح قبل شيخ المقاصديين الإمام الشاطبي، وبعده مع الطاهر بن عاشور وعلال الفاسي، إلى أن استوى هذا العلم على ساقه ونضجت مباحثه وتوسعت مسأله وقضاياها، مع زمرة من الباحثين المعاصرين الأجلاء كالدكتور أحمد الريسوني، ونور الدين الخادمي، وأستاذنا عبد الرحمن العضراوي، وغيرهم كثير في غرب العالم الإسلامي وشرقه.

وبما أن غرضي هو الوصول إلى تعريف لمقاصد العقيدة في المطلب الثاني من هذا المبحث، فإنني لن أعيد التذكير بتعريفات الباحثين لمقاصد الشريعة، ومناقشة كل تعريف للوصول إلى التعريف الراجح، وكذا بيان أقسام مقاصد الشريعة ومراتبها، وطرق الكشف عنها، فذلك مجال آخر لقي من البحث والعناية ما يروي الغليل، ويشفي العليل، وإنما أكتفي هنا بذكر أربع تعريفات اصطلاحية للمقاصد، كما جاءت عند أربعة أعلام من مشاهير علم المقاصد بالغرب الإسلامي، وتلك التعاريف تتقارب فيما بينها، وبعضها أوضح وأدق من بعض، وهي على النحو الآتي:

- فقد عرفها العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور بقوله: «مقاصد التشريع العامة: هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص

1 سيأتي الحديث عن معنى " المقاصد " في اللغة، بشيء من التفصيل في المطلب الثاني، وإنما أشرت الحديث عنها من حيث الدلالة اللغوية إلى المطلب الثاني - وإن كان المقام يقتضي تقديم ذلك في المطلب الأول - لأن قصدي أن أبني على التعريف اللغوي للمقاصد تعريفاً اصطلاحياً للمقاصد العقدية، وسواء قُدمت الدلالة اللغوية لهذا المصطلح أو أُخِّرت فالغرض هو دراستها ليتأسس عليها ما سيأتي في المطلب الثاني.

ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها.. ويدخل في هذا أيضاً معانٍ من الحُكْم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها»¹.

- وعرفها العلامة علال الفاسي بقوله: «المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حُكْم من أحكامها»².
- وعرفها الدكتور أحمد الريسوني بقوله: «إن مقاصد الشريعة، هي الغايات التي وُضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد»³.
- وعرفها الدكتور نور الدين الخادمي التونسي تعريفاً رأى أنه التعريف المختار، فقال: «المقاصد: هي المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية، والمترتبة عليها، سواء أكانت تلك المعاني حِكْماً جزئية أم مصالح كلية أم سمات إجمالية، وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين»⁴.

وإذا تأملنا في هذا التعريف التي اختاره الخادمي للمقاصد نلاحظ أنه تعريف شامل استفاد من التعاريف السابقة، وأضاف إضافة مهمة في آخر التعريف يمكن أن تكون مدخلاً يستوعب تعريف مقاصد العقيدة أيضاً، ذلك أن قوله: «وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين»، صالح لأن تندرج فيه مقاصد العقيدة، لأن الغاية من العقيدة أيضاً تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين، والأصل عدم التفرقة بين شقي الدين: العقيدة والشريعة، لأن الشريعة هي التطبيق العملي

1 مقاصد الشريعة، للطاهر بن عاشور، ص: 51.

2 مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، للعلامة علال الفاسي، ص: 3.

3 نظرية المقاصد عند الشاطبي، للدكتور أحمد الريسوني، ص: 7.

4 الاجتهاد المقاصدي حجته..ضوابطه..مجالاته، نور الدين الخادمي، 1/ 52-53، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 65، السنة 18، جمادى الأولى 1419هـ.

للعقيدة الإسلامية، فالأمر إلى أن الغاية من كل ما جاء به الوحي الإلهي : من العقيدة والشريعة هو تقرير هذا الأمر العظيم الذي يتلخص في إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وذلك هو أصل السعادة في الدنيا والآخرة.

المصطلح الثاني: مفهوم مقاصد العقيدة.

ولتحديد مفهوم مقاصد العقيدة، لزم أولاً تعريف كلمة "مقاصد" و"العقيدة"، لأن المركب الإضافي إذا صار لقباً لمفهوم آخر، ينبغي البدء بتحديد معاني ما تركب منه المفهوم الجديد، وسأكتفي هنا بوقف مختصرة مع الجزء الأول من المركب الإضافي "مقاصد"، أما الجزء الثاني منه "العقيدة" فقد سبق في الباب الأول من البحث، ولا داعي لإعادة ما تقدم هناك.

فكلمة "مقاصد" جمع تكسير، ومفردتها "مقصد" بكسر الصاد، و"مقصد" بفتحها، وكلاهما مصدر للفعل "قصد" "يقصد" على وزن: "فعل يفعل"، وهذا الفعل له في اللغة العربية عدة معان، أكتفي بذكر ما يناسب المقام.

فمن معاني القصد: الطلب، والتوجه والاستقامة والعدل والقرب واليسر وإصابة الهدف وإظهار ما كان متخفياً، تقول: قصدت الشيء، وله، وإليه، قصداً: طلبته بعينه. وإليه قصدي ومقصدي-بفتح الصاد-، أما بالكسر فهو اسم للمكان، فتقول: بابك مقصدي.

وقصده، وله، وإليه، قصداً: اعتزم عليه وتوجه إليه.

وقصد إليه: اعتمده، تقول: إليك قصدي.

وقصد الطريق بقصد قصداً: استقام.

وقصد له، وإليه: توجه إليه عامداً.

وقصد في الأمر: توسط¹.

وقال ابن فارس في معجمه: «القاف والصاد والداد، أصول ثلاثة يدل أحدهما على إتيان الشيء وأمه، والآخر على اكتناز في الشيء... والأصل الثالث: قصدت الشيء كسرته، والقصدُ القطعة من الشيء، إذا تكسر، والجمع قِصْد، ومنه قِصْدُ الرماح...»². وجاء في كتاب العين للفراهيدي: «...استقامة الطريقة، وقصد يقصد قصداً فهو قاصد، والقصد في المشية ألا تسرف ولا تقتِر، وفي الحديث (ما عال مقتصد ولا يعيل)³، والقصيد ما تم شطرا أبنيته من الشعر، والقصيدَةُ مُحَّةُ العظم إذا خرجت وانقصت... وانقصد الرمح: أي انكسر نصفين حتى يبين...»⁴.

ومن معاني القصد كذلك «الاعتماد والأُمُّ. قصده وله وإليه، يقصده، وضده الإفراط... ونحوه:... والقصدُ من كل شجرة أن يظهر نباتها أول ما تنبت... وأقصد السهم: أصاب فقتل مكانه... والقاصد: القريب، وبيننا وبين الماء ليلة قاصدة: هيئة السير»⁵.

ويتضح مما سبق أن كلمة "قصد" وما اشتق منها، تأتي تارة لتدل على المعاني اللغوية الحقيقية، وتارة تأتي لتفيد بعض المعاني المجازية، كما يقول الإمام الزمخشري: «ومن المجاز: قصد في معيشته، واقتصد، وقصد في الأمر، إذا لم يجاوز فيه الحد... وهو على قصد السبيل

1 أنظر في هذه المعاني اللغوية: تهذيب الصحاح لمحمود أحمد الزنجاني، 1/ 235، والمصباح المنير، للفيومي، 692/2، والمعجم الوسيط، 2/ 738.

2 معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة (قصد)، 5/ 95.

3 الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رقم الحديث: 5090، 44/6.

4 كتاب العين مرتباً على حروف المعجم، للخليل بن أحمد الفراهيدي، بتحقيق عبد الحميد هنداوي، 3/ 392.

5 - ترتيب القاموس المحيط، للفيروز أبادي- على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الطاهر أحمد الزاوي، 628/3 - 629.

إذا كان راشداً، وله طريق قصد وقاصدة، خلاف قولهم: طريق جور وجائرة وسير قاصد، وليال قواصد: هيئة السير، مستوية نحو الرّمية»¹.

وأورد ابن منظور في لسان العرب أيضاً بعض المعاني المجازية لكلمة "قصد"، مستدلاً لها بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾²، «أي تبيين الطريق المستقيم، والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة - وَمِنْهَا جَائِرٌ - أي ومنها طريق غير قاصد... وفي التنزيل العزيز: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَرًا فَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ﴾³، قال ابن عرفة: سافراً قاصداً أي غير شاق، والقصد: العدل، قال أبو اللّحام الثعلبي:

على الحكم المأتي يوماً إذا قضى*** قضية، أن لا يجور ويقصد»⁴.

ويقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾⁵: «لما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات مما يُسار عليه في السُّبُل الحسّية، نَبّه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسّية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية... ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم... شرع

1 أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، بتحقيق محمد باسل عيون السود، 81/2.

2 سورة النحل، الآية: 9.

3 سورة التوبة، جزء من الآية: 42.

4 لسان العرب، لابن منظور، 264/5.

5 سورة النحل، الآية: 9.

في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾¹.

وقبل الانتهاء إلى تقديم تعريف لمقاصد العقيدة لا بأس أن أوجز الحديث عن مفاهيم جديدة لمصطلح "المقاصد" أوردها الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه "تجديد المنهج في تقويم التراث"، إذ يقول: «إن المقصد لفظ مشترك بين معان ثلاثة لا أحد - حسب علمنا - سبق تفصيل الفروق بينها، وهي:

أ. "قَصَد" وهو ضد فعل "لغا" "يلغو" ولما كان اللغو هو الخلو عن الفائدة أو صرف الدلالة، فإن المقصد يكون على العكس، وهو حصول الفائدة وعقد الدلالة، فيقال: "المقصود بالكلام" ويراد به مدلول الكلام والمضمون الدلالي، وتناول الشاطبي المقصد بهذا المعنى تحت عنوان "مقاصد وضع الشريعة للإفهام".

ب. "قَصَد" بمعنى ضد فعل "سهأ" "يسهو"، لما كان السهو هو فقد التوجه أو الوقوع في النسيان، فإن "المقصود" يكون على خلاف ذلك، وهو حصول التوجه والخروج من النسيان، بمعنى المضمون الشعوري أو الإرادي، وعالج الشاطبي هذا المعنى تحت عنوان "مقاصد وضع الشريعة للتكليف" وتحت "مقاصد وضع الشريعة للامثال" وكذا تحت عنوان "مقاصد المكلف".

ج. "قَصَد" بمعنى ضد فعل "لها" "يلهو" لما كان اللهو هو الخلو عن الغرض الصحيح وفقد الباعث المشروع، فإن المقصد يكون على العكس من ذلك، وهو حصول الغرض الصحيح وقيام الباعث المشروع، واختص المقصد بهذا المعنى باسم "الحكمة"، أو قل هو المضمون القيمي، وبجث الشاطبي هذا الصنف تحت عنوان "مقاصد وضع الشريعة ابتداء".

1 تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، 4 / 391.

وعلى الجملة: فإن "علم المقاصد" يشتمل على ثلاث نظريات أصولية متميزة فيما بينها:

1. نظرية المقصودات، وهي تبحث في المضامين الدلالية للخطاب الشرعي.
2. نظرية القصد، وهي تبحث في المضامين الشعورية والإرادية.
3. نظرية المقاصد، وهي تبحث في المضامين القيمية للخطاب الشرعي¹.

ويخلص الدكتور طه عبد الرحمن إلى أن ماهية المقصود الشرعي مركبة من «مدرک عقلي شرعي وليس تصوراً مجرداً بل هو مدرک متصل اتصالاً بالقيمة العملية، ومقتضى القيمة العملية أن الخطاب المبلّغ يُنْهَض إلى العمل، ويحرك دواعي الممارسة في ظروف سلوكية مخصوص»².

وبغض النظر عن طغيان المعنى الصوفي لدى الدكتور طه عبد الرحمن في توجيهه هذا المصطلح³، فإنه اشتمل على إشارات مهمة هي جوهر ما تُعنى به المقاصد الشرعية. وبعد أن اتضحت لدينا الدلالة اللغوية لمصطلح "المقاصد" - وبعد أن تبين لنا مصطلح "العقيدة" فيما سبق في الباب الأول، - نصل إلى تعريف "المقاصد العقيدة"، وهو تعريف يستحضر ما تقدم، ولا أزعج أنه تعريف بالمعنى الاصطلاحي الصّرف، ولكنه محاولة لتقريب المعنى، وقد سبقتني الباحثة سعاد منصور، فصاغت تعريفاً يتماشى مع التعاريف الاصطلاحية لمقاصد الشريعة، فأوردت التعريف الآتي:

1 تجديد المنهج في تقويم التراث، الدكتور طه عبد الرحمن، ص: 98، بتصرف.

2 تجديد المنهج في تقويم التراث، الدكتور طه عبد الرحمن، ص: 99.

3 ممن انتقد الدكتور طه عبد الرحمن فيما ذهب إليه في تحليله واستنتاجه السابق الدكتور فريد الأنصاري، حيث ذهب إلى أن طغيان المعنى الصوفي في هذا التحليل المفاهيمي لمصطلح المقاصد، أدى بطله عبد الرحمن إلى التعسف في شرح المصطلح لإثبات دعوى تأثر المقاصد بالتصوف، حيث إنه لا ينصرف إلى معنى الإرادة القلبية إلا بإضافته إلى المكلف، انظر هامش الصفحتين: 167-168 من كتاب الدكتور فريد الأنصاري الموسوم بـ: "المصطلح الأصولي عند الشاطبي".

«الغايات المصلحية التي جاءت أحكام العقيدة الإسلامية لأجل تحقيقها بالجلب أو الدفع»¹.

ويمكن أن تُعرّف مقاصد العقيدة كذلك بأنها: "جملة من الحِكم والأسرار التي قصدها المشرّع من تشريع العقيدة"، أو هي: "الأسرار والغايات التي اشتملت عليها مسائل الإيمان تصريحاً أو تلميحاً"، ذلك أن نصوص الوحي تربط ربطاً عجيباً بين مفردات الإيمان وقضايا الغيب التي جاءت بها بمقاصد وغايات تؤدي إلى استقامة فكر العبد وعقله وقلبه وجوارحه، ومن يطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ يدرك هذا الأمر، فلا يخلو نص من تلك النصوص من هذا الربط الدقيق المحكم، ولكن كادت تحجبه عن الناس التعقيدات الكلامية في عصور التقليد والجمود، وتلك قضية أخرى، سبقت الإشارة إليها.

إن علاقة المقاصد بالعقيدة- كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الرحمن العضراوي:-
«علاقة توليد، فُلِبُّ الفكر المقاصدي هو الاشتغال بالغايات المصلحية التي جاء الشرع ليحققها في الوجود الإنساني والكويني، وهذا الاشتغال يستمد عمله المصلحي من الأساس العقدي، الذي يرسم الإطار الشامل لحركة ذلك الفكر، ولما كانت العقيدة مركوزة في الفطرة الإنسانية فإنها لا تضعف ولا تتلاشى أمام ابتلاءات التاريخ، بل تقف سداً منيعاً وجداراً واقياً في وجه التيه والضلال... لتفتح آفاقاً وأبواباً للبحث عن المصالح والتطبيق المقاصدي»².

ولو أحسنت الأمة فقه هذه العلاقة التي ذكرها أستاذنا لكان للفكر المقاصدي شأن أعظم، لأن فقه هذه العلاقة ستُخرج البحث المقاصدي من مجرد النظر المقاصدي التجزيئي

1 مقاصد العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة: مقدمات في التأسيس النظري والبيان العملي، للباحثة سعاد منصور، ص: 101، وهذا البحث رسالة نالت به الباحثة شهادة الدكتوراه في تكوين الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال في الموسم الجامعي 1438هـ-2017م.

2 الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، للدكتور عبد الرحمن العضراوي، ص: 76-96.

الذي يفصل بين شيء كان في أصله واحداً، وتعيده إلى سيرته الأولى في عهد التنزيل والتأسيس، حيث كانت النظرة إلى الأمور نظرة كلية.

الفصل الثاني

أهمية العلم بمقاصد القواعد
العقيدة.

تمهيد:

لست أقصد هنا إلى استقصاء البحث في أهمية هذا العلم، الذي - أرى أنه علم قائم بذاته، يكمل بقية العلوم التي تُعنى بالشريعة الإسلامية-، وإنما أحاول إيراد بعض القضايا التي يبدو لي أنها مهمة، وتسهم في بناء تصور عام لإدراك أهمية العلم بمقاصد القواعد العقدية، لأن معرفة أهمية علم من العلوم، تعد من أعظم الدوافع التي توجه الباحث نحو العناية به وخدمته.

وهذا ما عقدت له الفصل الثاني من هذا الباب، محاولاً تقديم بعض الحلول في مبحثين: الأول أقدم فيه بمقدمات أربع تؤسس لهذه الأهمية، والثاني أتوقف فيه عند ثلاث ركائز أساسية تبرز هذه الأهمية.

المبحث الأول: مقدمات في التأسيس لأهمية العلم بمقاصد القواعد العقدية.

أما المقدمات الأربع فهي على النحو الآتي:

المصلب الأول: إشارات مهمة من القرآن الكريم لبيان أهمية مقاصد العقيدة.

الباحث في نصوص القرآن الكريم تستوقفه إشارات مهمة إلى ربط الدعوة إلى تحقيق العقيدة الصحيحة بمقاصد وغايات، وهذا أمر لا يُستغرب حينما نستحضر أن العقيدة الإسلامية عقيدة تربط الإيمان بالعمل، وكل ذلك يجعلها عقيدة مستقلة بذاتها، لأنها عقيدة قائمة بنفسها، مأخوذة أصالةً من المصدرين العظيمين: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكلما تعلمها المسلم وتلقاها باستحضار ما اشتملت عليه من المقاصد كلما أثمرت له آثارها من الخشية لله وحسن المراقبة له.

وكلما أمعن الدراس النظر في نصوص القرآن الكريم التي تعرض مسائل العقيدة وجد فيها من الإشارات إلى مقاصد الإيمان والتوحيد الشيء الكثير.

- ومن ذلك مثلاً أن الحديث عن صفات المؤمنين المتقين في بداية سورة البقرة، أشار إلى الغاية من تحقيق الإيمان بالله تعالى وهو حصول الهداية والفوز والفلاح، وذلك من أعظم مقاصد العقيدة الإسلامية، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ بَدِيلًا وَمَا كَانُوا مُتَقِنِينَ﴾¹، ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُسْرًا وَالَّذِينَ يُوقِفُونَ الْمَالَ عَلَىٰ حُقُوقِ اللَّهِ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ اللَّهِ وَسِعْتُهُ الْغُلُوبُ وَمَن يُؤْتِ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُسْرًا وَالَّذِينَ يُوقِفُونَ مَالَهُمْ لِلْوَجْهِ السَّيِّئِ وَالَّذِينَ يُوقِفُونَ مَالَهُمْ لِلْوَجْهِ السَّيِّئِ وَالَّذِينَ يُوقِفُونَ مَالَهُمْ لِلْوَجْهِ السَّيِّئِ وَالَّذِينَ يُوقِفُونَ مَالَهُمْ لِلْوَجْهِ السَّيِّئِ﴾²

- ومن ذلك أن الله تعالى لما ذكر انفراده بالوحدانية، ونفى تعدد الآلهة، أعقب ذلك ببيان الغاية والمقصد فقال عز وجل: ﴿أَمْ يَتَّخِذُونَ آلَ اللَّهِ إِلهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾³ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ⁴، فذكر تعالى في الآية الثانية الغاية من انتفاء تعدد الآلهة، وهو أن وجودها مؤذن بفساد وخراب الكون.

- وقال تعالى أيضاً في تأكيد هذه الحقيقة بعد أن ساق مجموعة من الأدلة والبراهين على تفرد بالوحدانية والألوهية: ﴿فَلِئِمَّا يَلْمِزُوا أَلَّامًا يَوْمَئِذٍ وَقَالُوا لَوْلَا نُنزِّلُ الْغُلُقُوتَ مِن سَّمَاءِ رَبِّنَا إِنَّا بِمَا نُرَىٰ إِلهٌ غَافِلٌ﴾⁵، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾⁶، ﴿سَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْنَا آيَاتٌ مِّن رَّبِّنَا إِنَّا لَنَرِيكَ إِلهًا مُّذَمِّمًا مَّا تُكْفِرُ بِهِ﴾⁷، ﴿قُلْ مَن يَمْلِكُ مَنَاقِبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ يُرْسِلُ السَّمَاءَ سَاقِطًا﴾⁸

1 سورة البقرة، الآية: 1-5.

2 سورة الأنبياء، الآية: 21-22.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَبِي تُسْحَرُونَ ﴿١٠﴾ بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٢﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّبِي عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾¹.

- قوله تعالى: ﴿بَلِي مَسَاسَلَمَ وَجْهَهُ، لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾²، فقد بين الله في هذه الآية جزاء من حقق الإيمان به وعمل عملاً صالحاً، بنفي الخوف والحزن عنه، وما هذا الجزاء العظيم إلا ثمرة وغاية من غايات العقيدة السليمة.

- قوله تعالى، في بيان أهم مقاصد البعثة النبوية: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾³، ونلاحظ أن الآية الكريمة ختمت باسمين من أسماء الله الحسنى - العزيز، والحكيم-، وفي ذلك ما فيه من الدعوة إلى تدبر ما تحمله هذه الأسماء الحسنى من المعاني وما تغرسه في النفوس من القيم، ولو دُرست العقيدة الإسلامية وفُهمت -انطلاقاً من دلالات هذه الأسماء الحسنى كما جاءت في القرآن الكريم- لكان في ذلك خير كثير.

ونحن لا ننكر بعض الجهود التي بُذلت في ذلك، لكنها بقيت جهوداً قليلة لم ترق بعدُ إلى المستوى المطلوب، وهذا ما تنبه إليه أستاذنا الدكتور جمال اسطيري، حيث قال-

1 سورة المؤمنون، من الآية: 85 إلى الآية: 93.

2 سورة البقرة، الآية: 111.

3 سورة البقرة، الآية: 128.

بعد ذكره لمقاصد ختم آي القرآن بأسماء الله الحسنى وجهود علماء الأمة فيه، وأهم ثمرات هذه الدراسة: «وهذه المنهجية المقترحة تستهدف أن تكون دراسة أسماء الله وصفاته دراسة منهجية، ومعالجتها معالجة كلية لا جزئية، تراعي سياق السورة العام، كما تراعي سياق الآية الخاص، وذلك لأن القرآن يشكل وحدة نسقية يفهم في ضوئها أجزاءه، وسياقاته الخاصة»¹. ويقول أيضاً-مبيناً أهمية العلم بأسماء الله الحسنى في إدراك مقاصد العقيدة-: «يعتبر العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى من أهم العلوم، وأوجب الواجبات التي تعرف المسلم بأصل الاعتقاد، ومبنى الشرع، وحكمته، ومقاصده، فالإيمان بالله إنما يتم عن طريق التعرف على كمالاته تعالى وأفعاله اللامتناهية، والشرع إنما صدر عن أسمائه تعالى التي لا تخرج عن تحقيق مصالح العباد بإيصالهم إلى مدارج الكمال..»².

- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَبَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ -امسَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَكِ وَالنَّبِيِّينَ وَعَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾﴾³، فالآية الكريمة دعوة إلى استلهاهم مقاصد الإيمان، حيث إنها جمعت خصال البر التي تتفرع عنها كل القيم والخصال النبيلة، وبدأت بذكر الإيمان بالله، ثم أتبعته بذكر ما يتفرع عنه من

1 مقاصد ختم آي القرآن الكريم بأسماء الله الحسنى، للدكتور جمال اسطيري، ص: 13 ضمن أعمال المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، في موضوع: "جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم وعلومه" المنعقد بفاس عام 1432هـ 2011م.

2 المرجع نفسه، ص: 1.

3 سورة القرة، الآية: 176.

الأعمال الصالحات، في إشارة واضحة إلى أن الإيمان الذي لا يثمر عملاً صالحاً هو إيمان ناقص، قال الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية: «...فله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم وقد جمعت هذه الحاصل جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئة عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال.

فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها الأخوة والاتحاد وتسدد مصالح للأمة كثيرة وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتى يصير الناس كلهم أحراراً. والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض.

والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة ولذلك قال تعالى هنا: ﴿وَأُولَئِكَ

الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١٧٦)، فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادعائياً للمبالغة. ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر...»¹.

وقد جمعت الآية أوصاف الإيمان الثلاثة (التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح)، فقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ يعني: الاعتقاد بالقلب، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي

1 تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 2/ 132.

إِلْبَاسًا وَالضَّرَّاءَ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴿١٧﴾ يعني: العمل بالجوارح، ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يعني: بما قالوه بألسنتهم فصدقوه بأعمالهم.

- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَكُمْ ءَلَلَّهِ بِشَعْرٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ؛ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُ. بِالْغَيْبِ فَمَنِ إِغْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ، عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَفْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن فَتَلَهُ، مِنكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَبِجَزَاءِ مِثْلِ مَا فَتَلَ مِّنَ النِّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدِيًّا بَلِيغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَقَبْرَةٍ طَعَامٍ مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلٍ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ. عَنِ ٱللَّهِ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَفِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱبْتِغَامٍ ﴿١٧﴾¹، ولا أَرغب هنا في نقل ما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآيات، وكذا اختلافهم في توجيهه وتفسير بعض كلماتها، ومناقشتهم للإمام الزمخشري، وإنما أشير إلى ما تضمنه قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُ. بِالْغَيْبِ﴾ من الإشارة إلى أهمية استحضار هذا الأساس العقدي العظيم الذي يُعبر عنه ب: (خشية الله بالغيب)، أو: (مراقبة الله)، أو غيرها من المصطلحات التي تؤدي المعنى، وإذا انضم إلى هذا الأساس - ما افتتحت به الآيتان من نداء المخاطبين بوصف الإيمان، وما خُتمت به من الجمع بين اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته العلى - أدركنا عناية القرآن الكريم بغرس أهمية مقاصد العقيدة في النفوس، ويتأكد هذا الأمر أكثر حينما نستحضر هنا أن الآيات التي استشهدنا بها تتحدث عن موضوع

1 سورة المائدة، الآية: 96-97.

مخطورات الحج، وربما يتسأل متسائل: وما علاقة الحديث عن مخطورات الحج بالحديث عن مقاصد العقيدة؟

هذا السؤال ربما له ما يسوغه إذا اعتمدنا على النظرة التجزيئية للعلوم الشرعية، وكذا علاقتها بغيرها من العلوم والمعارف، وهي نظرة لا تتماشى مع طبيعة التكامل المعرفي الذي هو الأصل، إذ الأصل أن العقيدة لا تنفصل عن باقي العلوم الإسلامية، ومن يتأمل حديث القرآن عن الذي اصطلح عليه بآيات الأحكام مثلاً سيجد التكامل حاضراً بقوة في حديث القرآن الكريم عن الأحكام الشرعية سواء في أحكام الأسرة من زواج وطلاق، وفي تنظيم أوجه العلاقات بين الناس، ولا تغيب العقيدة في كل ذلك، ويكفي أن نعود إلى حديث القرآن الكريم في سورة البقرة عن أحكام الطلاق لنجد هذا الأمر جلياً، حيث إن الله تعالى ختم كثيراً من الآيات التي تبين الأحكام الشرعية للطلاق بأسمائه الحسنى، كاسمه السميع، والعليم، والعزيز، والحكيم..، وكل ذلك ليلفت أنظارنا إلى أن الإيمان القويم بالله تعالى هو سبب صلاح أحوالنا كلها.

والآيات القرآنية التي تدعو إلى استلهاً مقاصد الإيمان كثيرة، اكتفيت منها فقط بما ذكرت، لأن المقام لا يتسع، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق كما يقال، والخلاصة أن هذا أمر مطرد في نصوص القرآن الكريم، فلا يذكر القرآن العزيز مسألة من مسائل العقيدة إلا ويعقبها بيان الغاية منها، لأن ذكر الشيء مقروناً بمقصده أدعى لقبوله.

المصلب الثاني: إشارات في هريق التأليف في مقاصد العقيدة.

الباحث في مقاصد العقيدة الإسلامية - وهو يقلب بصره في تراث أسلافنا الذين أسسوا علم مقاصد الشريعة الإسلامية - ينقلب إليه بصره بعد جهد ونصب ظافراً بإشارات مهمة في تأسيس علم مقاصد العقيدة، وأكتفي في هذا المقام بالتذكير بثلاثة نماذج لأعلام علم المقاصد، وهي:

- **الحكيم الترمذي (ت 320هـ)**، وهو ممن صرح باشمال العقائد على المقاصد فقد قال -وهو يتحدث عن علة الإقرار بالتوحيد-: «صير الله تبارك وتعالى اسمه هذه الكلمة عصمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فحرمة الدم والعرض والمال، وأما في الآخرة فإن كان مسيئاً فمر على حد النعمة، فنالته ألسنة النار وشروها، ولهبها ونوديت النار أن لا سبيل لك على لسانه الذي كان مدرجه توحيدى»¹.
- **أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)**، فقد صرح في غير موضع من كتبه بهذا الأمر، ومن ذلك قوله: «فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار»².
- وقال أيضاً: «والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها، إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم، وأجمع السلف الصالح عليها»³.
- ويصرح الإمام أبو حامد الغزالي أيضاً بأن العقيدة منطوية على أسرار ومقاصد، فقال -عقيب ترجمته لعقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة-: «فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها، وحكم طريق النضال عنها وحفظها، فأما إزالة الشبهة، وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة، فلا مفتاح له إلا المجاهدة، وقمع الشهوات، والإقبال بالكلية على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات...»⁴.

1 كتاب إثبات العلل، للحكيم الترمذي، ص: 80، تحقيق ودراسة خالد زهري، ط: 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1998.

2 المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزالي، ص: 32، دار العلم للجميع، بيروت لبنان، (د. ت).

3 كتاب قواعد العقائد من كتاب إحياء علوم الدين، 1/137.

4 كتاب قواعد العقائد من إحياء علوم الدين، 1/139.

فهذا النص صريح في أن للعقائد مقاصد وغايات، وأن مجال إدراكها واسع، وأن المنقول من ظاهر لفظها ليس منتهى الإدراك فيه، ويبرز أن تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، وكذا ملازمة الفكر الصافي من شروط إدراك تلك المقاصد والأسرار.

وقد يُشكّل على كلام الغزالي ما ورد عنده في النص السابق من تقسيم العقائد إلى ظواهر وأسرار، بعضها جلي، وبعضها خفي لا يظهر إلا بالمجاهدة والرياضة، والفكر الصافي، وكأن الإمام الغزالي توقع أن يعترض معترض على هذا التقسيم، فقال-مدافعاً عنه-: «اعلم أن انقسام هذه العلوم-أي العقائد-إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه، فلم يكن لهم ترقّ إلى شأو العلاء، ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلة الشرع»¹.

وساق الإمام الغزالي مجموعة من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة²، أقتصر هنا على نص من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾³، وممن وافقه في إثبات هذا التقسيم ابن رشد، وفي ذلك يقول: «وكثير من الصدر الأول قد نقل عنهم أنهم كانوا يرون أن للشرع ظاهراً وباطناً، وأنه ليس يجب أن يعلم بالباطن من ليس من أهل العلم به، ولا يقدر على فهمه، مثل ما روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: "حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله"⁴، ومثل ما روي من ذلك عن جماعة من السلف»⁵.

1 كتاب قواعد العقائد من إحياء علوم الدين، 139/1.

2 النصوص الحديثية التي استشهد بها الإمام الغزالي لهذا التقسيم بعضها صحيح وبعضها فيه مقال، وقد بين ذلك زين الدين العراقي في: "المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار".

3 سورة العنكبوت، الآية: 43.

4 أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون غيرهم كراهية أن لا يفهموا، رقم الحديث: 127.

5 فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، أبو الوليد ابن رشد، ص: 100.

وقال أبو حامد - في كتابه "الأربعين في أصول الدين" وهو يؤكد ما سبق من أن العقائد مشتملة على مقاصد-: «ووراء هذه العقيدة الظاهرة رتبتان، إحداهما: معرفة أدلة هذه العقيدة من غير حوض على أسرارها، والثانية: معرفة أسرارها ولباب معانيها وحقيقة ظواهرها»¹.

وعند الحديث عن الظاهر والباطن في هذا المقام أو في غيره من المقامات يجب الحذر من الغلو في أمرين اثنين، وهما:

- الغلو في التمسك بظاهر النص والجمود عليه جموداً يمنع صاحبه من أي نظر إلى ما قد يقتضيه السياق، ويستدعيه المقام، من الخروج عن الظاهر.
- الغلو في الباطن، والإغراق في التأويل لأدنى سبب، وصرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها إلى معان لا يشهد لها نص صحيح ولا يثبتها عقل صريح، كالذي وقعت فيه طائفة الباطنية ومن سلك مسلكهم وغلا غلواً فاحشاً في اعتبار الباطن حتى خرجوا بنتائج قبيحة.

وهذا ما انتهى إليه الإمام الغزالي حيث قال: «لا تظن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة مني في رفع الظواهر واعتقاداً في إبطالها... حاشا لله. فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، وجعلوا جهلاً بالموازنة بينهما فلم يفهموا وجهه، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية، فالذي يجرد الظاهر حشوي، والذي يجرد الباطن باطني، والذي يجمع بينهما كامل»².

- الإمام العز ابن عبد السلام (ت 660هـ)، وهو أيضاً ممن وضع إشارات مهمة في طريق تأسيس علم مقاصد العقيدة، ومن تلك الإشارات الدالة على المراد قوله: «وقد سئل عليه السلام أي الأعمال أفضل؟ فقال: " إيمانٌ بالله " قيل ثم أي؟ قال: " الجهاد في

1 كتاب الأربعين في أصول الدين، لأبي حامد الغزالي، ص: 16.

2 مشكاة الأنوار: مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ص: 30،. الطبعة الأولى: 1406هـ 1986م، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

سبيل الله "، قيل ثم أي؟ قال: "حج مبرور"¹، فجعل الإيمان أفضل الأعمال لجلبه لأحسن المصالح ودرئه لأقبح المفسد مع شرفه في نفسه وشرف متعلقه، ومصالحه ضربان: أحدهما: عاجلة وهي إجراء أحكام الإسلام، وصيانة النفوس والأموال والحرم والأطفال، والثاني: آجلة وهو خلود الجنان ورضاء الرحمن².
فقوله: «فجعل الإيمان أفضل الأعمال لجلبه لأحسن المصالح ودرئه لأقبح المفسد»، إشارة مهمة من العز ابن عبد السلام في كون العقيدة الإسلامية مشتملة على مقاصد وغايات.

المصطب الثالث: تكامل العلوم ركن أساس من أركان علم مقاصد العقيدة.

إن سؤال الغاية والحكمة وغيرها من المفردات التي تعبر عن المقاصد سؤال حاضر في نصوص الوحي، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو غيرها من أمور الدين، وهذا ما يؤكد أصالة الفكر المقاصدي العقدي باعتباره أصل الأصول وأساس أركان الإسلام الأخرى، ولقائل أن يقول: إذا كان للفكر المقاصدي العقدي ما يشهد له بالاعتبار، وكانت له هذه المزية فلما ذا عُيِّب عن دائرة البحث المقاصدي؟ ولما ذا لا يُتحدث عنه إلا قليلاً؟

إن السبب الواضح -في نظري- لغياب الاهتمام بمقاصد العقيدة الإسلامية عند المشتغلين بالعلوم الشرعية عموماً وبعلم العقيدة خصوصاً، يرجع إلى طغيان النظرة الجزئية للعلوم، وهو أمر مقلق ومرض كبل العقل المسلم وجثم على صدر الأمة الإسلامية حيناً من الدهر سواء داخل العلوم التي تنتمي إلى دائرة معينة، أو بين دوائر العلوم الثلاث المعلومة حسب تصنيف العلوم: (دائرة العلوم الشرعية أو الإسلامية. ودائرة العلوم الإنسانية. ودائرة

1 الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم الحديث: 83، 1/63.

2 قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز ابن عبد السلام، 1/46-47، دار المعرفة بيروت، (د. ت).

العلوم المادية)، وقد تنبه بعض الباحثين الغيورين على الفكر الإسلامي لهذا الأمر ولم يتركوا فرصة سانحة إلا وذكروا بضرورة تبني فلسفة التكامل بين العلوم والعودة إلى الأصل الذي كانت فيه هذه العلوم تتكامل لتشكيل بناء واحداً يكمل بعضه بعضاً، وممن اهتم بهذا الموضوع -ومنه تعلمنا ذلك- أستاذنا الدكتور سعيد شبار، سواء فيما يكتبه، أو فيما يحاضر به، ويؤكد أستاذنا على أن الانطلاق من مصادر المعرفة نفسها في تكاملها هو الذي يحقق فلسفة التكامل، وقد بين هذا الأمر غاية البيان فقال: «إن الانطلاق من مصادر المعرفة في تكاملها يحقق فلسفة التكامل بين العلوم كذلك، وينفي عنها نزوعها نحو التحيز والانغلاق. فدوائر العلوم إجمالاً ثلاث دوائر أساسية حسب تصنيفات وتقسيمات قديمة وحديثة وهي: دائرة العلوم الشرعية أو الإسلامية التي لها علاقة مباشرة بالنص نشأة وتداولاً. ودائرة العلوم الإنسانية التي لها علاقة بالإنسان تاريخاً وكياناً وعلاقات. ودائرة العلوم المادية التي لها علاقة مباشرة بالمادة والطبيعة والحس والتجربة. والفكر الذي كان وما يزال يُؤطر تعاملنا مع هذه الدوائر هو نفسه الفكر الذي لم يكن يبصر أهمية التكامل بين مصادر المعرفة في إنتاج العلوم والمعارف وبناء الأفكار والتصورات. فتم التعامل مع هذه الدوائر بشكل منفصل وليس متصلاً، وكأن كل دائرة عالم مستقل مكتمل في أطره المرجعية والمنهجية ومجال اشتغاله وتخصصه.

ولقد ساهمت في ترسيخ وتعميق هذا الفكر معطيات ذاتية من تاريخ الأمة لها علاقة بقضية تصنيف العلوم وبعض الآثار الفكرية والتربوية الناجمة عنها وإن لم تكن مقصودة بالذات، ومعطيات خارجية وافدة تحمل نظرة أخرى مغايرة للعلوم والمعارف والإنسان. وكان الغائب الأكبر بين هذا وذاك، أي بين المعطى التاريخي الذاتي والمعطى الحاضر الغيري، هو الرؤية القرآنية لتلك الدوائر كلها. القرآن الكريم باعتباره المرجعية العليا المهيمنة والمصدقة، الذي يؤسس لوعي وفكر تكاملي بين هذه العلوم بالشكل الذي لا يمكن لبعضها أن ينفصل أو ينفك عن الآخر، ومنهج قراءة الآيات في النص والآفاق والأنفس واحد في

الأصل والتصنيف طارئ عليه سواء كان لغرض البيان والتوضيح أو كان الاختلاف في الرؤية والتصور. والأصل كذلك في كل العلوم الناشئة من خلال النظر في هذه الدائرة أو تلك، أن ينعكس فيها وعليها البعد التوحيدي الناظم لها أصولاً وكليات ورؤية وتصوراً ومنهاجاً عامة في البحث والاشتغال»¹.

إن التكامل بين العلوم عموماً، وبين ما اصطلح عليه بالعلوم الشرعية خصوصاً، من أكبر مداخل العناية بالمقاصد، لأن امتلاك الرؤية التكاملية تجعل الباحث يرى الأشياء كما هي في أصل وضعها، ويتطلع دائماً إلى البحث عن أسرارها وغاية وضعها، ولو اتجهت عناية الباحثين في كل علم إلى هذا الأمر العظيم، وتضافرت جهودهم لتحقيقه داخلياً وخارجياً لكان للعلوم -بأصنافها الثلاث السابقة- شأن آخر، ولحققت نتائج كبرى خدمة للإنسان المستخلف في هذا الكون، ولجنبت البشرية كوارث ومصائب اكتوت وتكتوي بناورها.

المصلب الرابع: ضرورة التوسط في اعتبار أهمية مقاصد العقيدة

إذا علمنا في المقدمات السابقة أن العلم بمقاصد العقيدة الإسلامية يجعل هذه العقيدة حقاً وصدقاً متميزة عن غيرها، وتأسس على ذلك أهمية العناية بها ودراسة العقيدة الإسلامية في ضوءها، إذا علمنا ذلك فإنه لا بد من مقدمة ثالثة في التنبيه على ضرورة التوسط وأخذ الحذر عند الحديث عن هذه المقاصد، ذلك أن فتح الباب على مصراعيه، وخاصة في هذا المجال قد يأتي بنتائج خطيرة، فكما أن تقديم العقيدة وعرضها بدون استحضار غاياتها ومقاصدها جعل هذا العرض جافاً، فكذلك التوسع في اعتبار المقاصد دون ضوابط وقيود يخرج العقيدة عن وظيفتها، والشريعة الإسلامية تدعونا دائماً إلى التوسط، وقد انتبه الإمام

1 الأسس المرجعية والمنهجية لتحديد الفكر الإسلامي، الدكتور سعيد شبار، ص: 20-21، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1432هـ 2011م.

الشاطبي في كتابه "الموافقات" إلى هذا الأمر فقال: «فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد-وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر-يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين. وطرف التخفيف-وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص-يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد. فإذا لم هذا ولا ذاك، رأيت التوسط لائحاً ومسلك الاعتدال واضحاً»¹.

ومسلك التوسط هو المسلك الذي يلائم الفطرة الإنسانية، وكل خروج عن التوسط هو خروج عن الفطرة، وعقيدة دين الإسلام لا تخرج عن الفطرة، والفطرة كما قال ابن عطية- في تفسير قوله تعالى: ﴿بَأْفِمٌ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيباً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾² - هي: (الخلقة والهئية التي في نفس الطفل التي هي معدودة مهياة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه جل وعلا، ويعرف شرائعه ويؤمن به، وقيل: الفطرة: الملة والدين)³.

ومن ركائز التوسط هنا استحضر أن مقاصد العقيدة تتأسس على ثلاثة أسس تتكامل

فيما بينها، وهي:

— الوحي.

— العقل.

— الواقع.

1 الموافقات، 2 / 167 - 168.

2 سورة الروم، الآية: 29.

3 تفسير المحرر الوجيز لا بن عطية، 11 / 453 - 454.

وهذه الأسس الثلاثة لا يمكن أن تتعارض فيما بينها، لأن مصدرها واحد وهو الله تعالى، وهي منبع الهداية، وهذه الهداية كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الرحمن العضاوي: «...هي تطبيق عقدي، واتباع قولي وعملي، يكشف عن توجيه العقيدة لأفعال الناس، من خلال فهم النص، وتفسيره تفسيراً مناسباً لابتلاءات الواقع»¹، مع التنبيه إلى أن الوحي هو الموجه والمسدد، وهو مصدر المصالح التي هي لب المقاصد في العاجل والآجل «فلا مصدر للمصالح سوى الوحي، ولا محدد لحركتها سواه، ولا مصدر للمعرفة التي يولدها المكلف سوى التفاعل التام بين الوحي والعقل والحس، ومن هنا كانت العقيدة والفطرة والاستخلاف مداخل رئيسية للفكر المقاصدي، ترتبط بها المعرفة مع قيم الأخلاق المستقيمة وقيم الخير النافعة التي يبني عليها أصل الحياة الإنسانية، وذلك ضمن نظام معرفي إسلامي جامع بين أبعاد أربعة هي الوحي والكون والعقل والتاريخ، وتمكين العقل الإنساني من رصد مقاصد الوحي وظواهر الكون ومعرفة قوانينها وحقائقها، باعتبار أن النظام المعرفي الإسلامي هو مجموع العلاقات التي جردها الإسلام بين الله عز وجل والكون والإنسان»².

فإذا تحققت هذه النظرة وفق الأسس السابقة يكتسب المسلم معرفة إيمانية واضحة، لا تعقيد ولا غموض فيها، إذ من المعلوم أن المعرفة الإيمانية يجب أن تكون واضحة حتى يسع المخاطب تعقلها، لأنه إذا لم تكن سهلة التعقل واضحة المآخذ لزم التكليف بالمحال، وهو منافي لمقاصد الشريعة، وللإمام الشاطبي كلام نفيس بيّن فيه هذا الأمر غاية البيان فقال: «...أما الاعتقادية بأن تكون من القرب للفهم والسهولة على العقل، بحيث يشترك فيها الجمهور من كان منهم ثاقب الفهم أو بليداً، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص، لم تكن الشريعة عامة ولم تكن أمية... فلا بد أن تكون المعاني المطلوب علمها واعتقادها سهلة المآخذ، وأيضاً، فلو لم تكن كذلك، لزم بالنسبة إلى الجمهور تكليف ما لا يطاق، وهو غير

1 الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، الدكتور عبد الرحمن العضاوي، ص: 275.

2 الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، الدكتور عبد الرحمن العضاوي، ص: 61.

واقع كما هو مذكور في الأصول، ولذلك تجد الشريعة لم تُعرّف من الأمور الإلهية إلا ما يسع فهمه وأرجت غير ذلك، فعرفت بمقتضى الأسماء والصفات، وحضت على النظر في المخلوقات إلى أشباه ذلك، وأحالت فيما يقع فيه الاشتباه على قاعدة عامة، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾¹، وسكنت عن أشياء لا تهتدي إليها العقول... وإنما النظر في القدر المكلف به»².

وخلاصة ما تقدم في هذا المطلب أنه يجب اعتماد مبدأ التوسط في اعتبار أهمية مقاصد العقيدة، ولا يتحقق التوسط في ذلك إلا باستحضار التكامل بين الأسس والمرتكزات الثلاثة التي هي: الوحي، والعقل، والواقع.

المبحث الثاني: تجليات أهمية مقاصد القواعد العقدية.

تتجلى أهمية مقاصد القواعد العقدية في أمور كثيرة، لعل أهمها في نظري، كونها مدخلاً مهماً في تثبيت الإيمان وترسيخه في قلوب المؤمنين، وكذلك في كونها وسيلة من وسائل المحاججة والإقناع، وخاصة في باب الحوار والمناظرة، وأيضاً في أنها مدخل من مداخل التأصيل المعرفي لدى المسلم، وفي هذا المبحث محاولة لإبراز هذه الأركان الثلاثة لأهمية مقاصد القواعد العقدية، وفق المطالب الآتية:

المطلب الأول: أهمية التثبيت الإيماني

وغير خافٍ أن الإيمان يزيد وينقص، كما نطقت بذلك نصوص كثيرة، أكتفي بإيراد نص من القرآن وآخر من السنة النبوية في بيان هذا الأمر:

- فمن النصوص القرآنية الدالة على أن الإيمان يزيد، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

1 سورة الشورى، جزء من الآية: 9.

2 الموافقات، 2/ 58.

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاغِبُونَ ﴿١٢٦﴾¹.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور عند تفسيره هاتين الآيتين: «والمُرَادُ بِزِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَبِزِيَادَةِ الرَّجْسِ الرُّسُوحُ وَالتَّمَكُّنُ مِنَ النَّفْسِ.

وَالرَّجْسُ: هُنَا الْكُفْرُ. وَأَصْلُهُ الشَّيْءُ الْحَيْثُ»².

فالنص القرآني السابق يفيد أن الإيمان يزيد بالطاعات، مثل تلاوة القرآن الكريم وتدبره، وتفيد أيضاً أن الكفر يزيد أيضاً بالمعاصي، ودل النص الكريم بمفهوم المخالفة على أن الإيمان ينقص بالمعاصي، لأنه إذا كان يزيد بالطاعات، فإنه ينقص بوجود ضدها الذي هو المعاصي، وعلى ذلك حُملت نصوص حديثة، كقوله ﷺ: " لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ، حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ."³، قال ابن حجر في شرح قوله ﷺ: (وهو مؤمن) «أي: والإيمان متمكن في قلبه مشع في نفسه إذ لو كان كذلك لحجزه عن المعصية»⁴.

- ومن الأحاديث النبوية التي بينت تفاوت الإيمان: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: ((الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول:

لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))⁵.

1 سورة التوبة، الآيتان: 125 - 126.

2 التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 66 / 11.

3 صحيح البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني، كتاب: الحدود، باب: السارق حين يسرق، 8 / 159.

4 فتح الباري، 8 / 159.

5 رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان 1 / 63 (35)، وأصل الحديث في البخاري في كتاب الإيمان باب أمور الإيمان 1 / 12 (9)، ولفظه: ((الإيمان بضع وستون

فالإيمان - كما بيّن هذا الحديث النبوي الشريف - مراتب ودرجات بعضها أعلى من بعض، وهو في أصله متفاوت، لأنه يقوم على ثلاثة أركان، وهي: قولٌ باللسان، ومنه: قول: (لا إله إلا الله)، وتصديق بالقلب، ومن عمل القلب: الحياء، وعمل بالجوارح الظاهرة، ومنه: إماطة الأذى عن الطريق.

ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ فلا يكفي عندهم في الإيمان مجرد تصديق القلب، كما يقوله بعض الطوائف؛ كالكُرّامية، ولا مجرد قول اللسان وتصديق القلب، كما تقول المرجئة، ولا مجرد عمل الجوارح مع فساد الباطن، كما هو حال المنافقين، بل لا بد من اجتماع هذه الثلاثة.

وإذا تقرر أن الإيمان يزيد وينقص، فإن إدراك الإنسان المؤمن لمقاصد هذا الإيمان باب كبير من أبواب تثبيته في النفوس، إذ لا يستوي إيمان مقرون بإدراك الغاية منه مع إيمان خالٍ من ذلك.

وقد سلك القرآن الكريم لتثبيت الإيمان في القلوب مسالك شتى، ومن ذلك أنه يسلك مسلك التدرج مع المخاطبين بذكر أنواع من الأدلة التي تُقنع كل فئة منهم، وهذا يوضح لنا أمراً في غاية الأهمية، وهو أن تصور مفاهيم العقيدة في القرآن الكريم لم يكن مجرداً. أي لم يكن دائرياً في محل العقيدة كما هو الحال عندما نقرأ العقيدة في المؤلفات التي وضعها المتكلمون مثلاً، بل كل تصور منظوم في سلك مع المقصد منه أو مع إحدى مقاصده كي ينطلق المؤمن من خلال تلك التغذية إلى ما يراد منه إما في الدنيا أو في الآخرة، ولا يبقى عنده شك أو استعداد للجدال في قضايا العقيدة. ومن خلال هذا النص الذي ذكره إسماعيل الدهلوي يظهر لنا وجه المقارنة أكثر، يقول الدهلوي في رسالة التوحيد - وهو يتحدث عن

شعبة، والحياء شعبة من الإيمان))، فليس فيه ذكر أعلاها وأدناها، وقال: ((بضع وستون))، وقوله: ((بضع)) معناه: العدد ما بين 3 إلى 9، و((شعبة)): قطعة، والمراد الخصلة أو الجزء.

السجود: «السجود بجميع أنواعه لا يجوز إلا لله تعالى، وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾¹، فقد دلت هذه الآية على أن السجدة من أعظم شعائر العبادة، وهي مختصة بالخالق جل وعلا، فلا تجوز لمخلوق، وقد تساوى في هذه الصفة القمر والشمس، والنبى والولي، ومن قال إنه قد جاز السجود في الأديان القديمة لبعض المخلوقات، ونقل ذلك بالخبر الصحيح، فصح سجود الملائكة لآدم، وسجود يعقوب ليوسف، فلا بأس أن نسجد لشيخ أو ولي، وهذا باطل فقد جازت أشياء في الأديان السابقة، وحرمت في ديننا»².

فلو درسنا هذا الاستدلال من خلال سياقه في النص الكريم، أي: ما قبل النهي عن السجود، وما بعده، ومن أول الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، فإن المخاطب عندما أُلقي في ذهنه أولاً أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله فقد استعد تلقائياً واطمأن في نفسه أن هذه مخلوقات الله وعليها أن تسجد هي لله وأن أكون أنا في صنفها من صنف الساجدين فهي من آياته وأنا من آيات الله بخلاف ما لو عولج الموضوع من خلال النهي والأمر المباشرين رغم وجودهما في الآية: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

1 سورة فصلت الآية: 36.

2 رسالة التوحيد، للإمام إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، ص: 102.

ولذلك قال الإمام الرازي: «ولما بيّن أن الشمس والقمر محدثان، وهما دليلان على وجود الإله القادر قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾»، يعني أنهما عبدان دليلان على وجود الإله، والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم فهي لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، لأنهما عبدان مخلوقان، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾¹.

وفي نفس التوجيه قال سيد قطب في ظلال القرآن: «وهذه الآيات معروضة للأُنظار، يراها العالم والجاهل. ولها في القلب البشري روعة مباشرة. ولو لم يعلم الإنسان شيئاً عن حقيقتها العلمية. فبينها وبين الكائن البشري صلة أعمق من المعرفة العلمية. بينها وبينه هذا الاتصال في النشأة، وفي الفطرة، وفي التكوين. فهو منها وهي منه. تكوينه تكوينها، ومادته مادتها، وفطرته فطرتها، وناموسه ناموسها، وإلهه إلهها... فهو من ثم يستقبلها بحسه العميق في هزة وإدراك مباشر لمنطقها العريق!»².

إن الذي يتدبر العرض القرآني لآيات العقيدة بالمنهج السابق يجزم بأهمية ذلك في ترسيخ الإيمان وتثبيتته في النفوس، والنصوص القرآنية كلها تتضافر في إثبات ما تقدم، فهي حينما تعرض أمر العقيدة، تبين جزاء الموحدين في العاجل والآجل، وجزاء الذين تنكبوا طريق التوحيد، وتحكي قصص الغابرين وموقفهم من دعوة رسلهم إلى وحدانية الله، فيخرج المتلقي لكل ذلك بنظرة شاملة، تبين له الغاية الكبرى من الأمر بالتوحيد، فيزداد إيمانه وترسخ عقيدته

1 أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 13/397.

2 سيد قطب، في ظلال القرآن، 6/296.

السليمة من أي اضطراب، ولا يمكن أن يجد مثيلاً لهذا المنهج في أي عرض آخر، مهما بلغ به صاحبه من الإتقان وحسن العرض.

المصلب الثاني: أهمية الصحابة والإقناع.

تقتضي طبيعة المؤمن بحكم إيمانه أن يحب الخير لغيره، ليقينه بأن المؤمن الكامل الإيمان هو الذي يسعى في الخير للآخرين، وبذلك وصى رسول الله ﷺ المؤمنين من أمته بقوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»¹، قال النووي في شرح الحديث: «(لا يؤمن أحدكم) قال العلماء رحمهم الله معناه: لا يؤمن الإيمان التام وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة»².

وإن خير ما يحبه الإنسان العاقل البصير بنتائج المآلات لنفسه أو لغيره هو تحقيق الإيمان، والدعوة إليه والإقناع بالمعتقد الصحيح، وهذا من لوازم خيرية هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾³.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «يتنزل هذا منزلة التعليل لأمرهم بالدعوة إلى الخير وما بعده، فإن قوله ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ حال من ضمير ﴿كُنْتُمْ﴾، فهو مؤذن بتعليل كونهم خير أمة فيترتب عليه أن ما كان فيه خيريتهم يجدر أن يفرض عليهم، إن لم يكن مفروضاً من قبل، وأن يؤكد عليهم فرضه، إن كان قد فرض عليهم من قبل»⁴.

1 صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يجب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، 1 / 67.

2 المصدر السابق، 1 / 67.

3 سورة آل عمران، جزء من الآية: 109.

4 التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 4 / 48.

والراجع أن يكون الخطاب بضمير ﴿كُنْتُمْ﴾ للمسلمين كلهم في كل عصر ومصر،
خلافاً لمن حمله على جيل الصحابة رضي الله عنهم.

ومعنى تفضيلهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه من فروض الكفاية التي لا
تقوم به جميع أفراد الأمة «أنه لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر،
على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة، فمن التغيير على الأهل والولد، إلى التغيير على
جميع أهل البلد، أو لأن وجود طوائف القائمين بهذا الأمر في مجموع الأمة أوجب فضيلة
لجميع الأمة، لكون هذه الطوائف منها كما كانت القبيلة تفتخر بمحامد طوائفها، وفي هذا
ضمان من الله تعالى بأن ذلك لا ينقطع من المسلمين إن شاء الله تعالى»¹.

والمؤمن وهو يدعو غيره إلى الإيمان وما يتفرع عنه من القيم يلزمه أن يستحضر في
دعوته تلك مقاصد العقيدة الإسلامية، وذلك أدعى لقبول دعوته، لأن ذكر مسائل العقيدة
مقرونة بمقاصدها وغاياتها له وقع كبير على النفوس، وخاصة في باب الحوار والمناظرة، فيقتنع
من يقتنع ببينة وبرهان عن حب ورضا، ويكفر من يكفر بعد إقامة الحجة عليه.

تلك كانت دعوة القرآن الكريم إلى الإيمان، سواء في مكة قبل الهجرة، أو في المدينة
بعد الهجرة، وفي كتاب الله آيات كثيرة تجعل الإيمان نتيجة فكر مختار حر لا سلطان للإكراه
عليه لأحد كائناً من كان²، ومن روائع البيان في هذا الاتجاه ما جاء في قوله تعالى: ﴿بِإِنْ

حَاجُّوكَ بِفُلٍ آسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِيَ ۚ وَفُلٍ لِلَّذِينَ آوَوْا إِلَيْكَلَّابٌ
وَالْأُمِّيِّينَ ۚ آسَلَمْتُمْ ۚ بِنِيبَةٍ آسَلَمُوا ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۚ﴾³.

1 المصدر السابق، 4/ 49.

2 سبق بيان هذه المسألة في الباب الثاني عند حديثنا عن القاعدة العقيدية "لا إكراه في الدين".

3 سورة آل عمران، الآية: 20.

فإن قال بعض المشككين من المستشرقين والمستغربين: «كان ذلك في إبان ضعف المسلمين بمكة، فلما تبدلت الحال، وتماسك في أيديهم السيف، حاكموا الناس إليه، فنقول: بيننا وبينكم ما نزل من القرآن في المدينة، إنه يسير في ذات الاتجاه المكّي، ويفرض الإكراه طريفاً لنشر الدعوة ويؤكد مسؤولية الإرادة البشرية فيما تأخذ وتدع.

وما من سورة نزلت في المدينة إلا أبرزت هذه الحقيقة إبرازاً ساطعاً، ففي سورة آل عمران بعدما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾¹، قال: ﴿بِإِنِّ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَفَلِ لِلدِّينِ أُتُوْا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَآسَلْتُمُ بِيَانَ أَسْلَمُوا فَبَدِ إِهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾²، ولا نطيل بسرد الشواهد فهي كثيرة يقوي بعضها بعضاً ويؤكد.

إن المجتمع الذي بنته الرسالة الخاتمة كان بدعاً من مجتمعات العالم كله في احترامه لحرية الدين وتوفيره الأمان لمن يخالف في الدين!! نعم كان بدعاً لم تعرف الدنيا نظيراً له...»³.
والمؤمن حينما يختار الإيمان عن قناعة، ويترك الكفر عن بينة، فهذا هو الاختيار الصائب، إذ الإيمان يأتي «بحسب القرآن- من اعتقاد المقبل على دعوة الوحداية بأنه معتقد بالحق الثابت والباقي، وهو يرى هذا الحق متحققاً في عقله وقلبه (فالإيمان في أصله تصديق لا يتزعزع)، ولذا فهو يمضي قدماً في طريق الحق والخير، ولا يرى مجالاً للمساومة أو الصفقات لهذه الناحية، ولهذا فإن اختياره اختياراً كبيراً ومصيرياً. أما الذي يستمع لدعوة الحق ثم يقرر أن يُعرضَ عنها أو يكفر (بتعبير القرآن) فإنه يواجه اختياراً كبيراً أيضاً؛ إذ إنه

1 سورة آل عمران، جزء من الآية: 19.

2 سورة آل عمران، الآية: 20.

3 الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، محمد الغزالي، ص: 13-14، دار الشروق (د.ت).

يعتقد أنه يستطيع توجيه حياته وحيوات الآخرين بالمعادنة والصراع من أجل مُتَعَةٍ عاجلةٍ أو فرصةٍ عاجلةٍ...»¹.

إنها الحاجة الهادئة الهادفة إلى الإقناع والجدال والتي هي أحسن، فيؤمن من يؤمن عن قناعة واختيار، وهذا هو منهج القرآن الكريم، ذلك المنهج الحق، وهل بعد الحق إلا الضلال؟!!

المصلب الثالث: أهمية التأصيل المعرفي.

وهذا مظهر آخر من تجليات أهمية معرفة مقاصد القواعد العقديّة، فإن معرفة القواعد العقديّة بمقاصدها مفتاح من مفاتيح التأصيل المعرفي لدى المؤمن، ولتوضيح هذا الأمر يستدعي المقام الوقوف مع مصطلح "الحكمة"، إذ هي المصطلح الأقرب هنا إلى المقاصد التي لا تخرج عن وضع الشيء في محله، ومن وضع الشيء في محله: التأصيل المعرفي، ولا شك أن مقاصد العقيدة بمعنى غاياتها والحكم منها هو عين الحكمة التي هي مقصود الوحي، ومرادنا بالحكمة هنا المعنى العام لها، وليس ذلك المعنى الخاص الذي تعارف عليه بعض العلماء من أنها تعني الحديث النبوي الشريف، وقد تنبه لذلك العالم الهندي عبد الحميد الفراهي (ت1349هـ/1930م)، فلم يسلم بتفسير بعض العلماء للحكمة بما أشرت إليه، فقال: «...وتسامح بعض أهل العلم في هذا المقام، وتبعه الإمام الشافعي وتبعه أكثر المحدثين، فظنوا أن الحكمة أريد بها الحديث... ومثار الخطأ أنهم أخطأوا معنى الكتاب حيث جاء مع الحكمة... نعم إن الحديث ربما يتضمن الحكمة، ولا شك أن الحديث ربما يبين ما في القرآن من الحكمة، ولعل مراد الذين تبعهم الإمام الشافعي كان هذا، ولكن الحديث يشتمل على الأحكام كما يشتمل على الحكمة، فلا وجه لتخصيصه باسم الحكمة، فإذا سمى القرآن (كتاباً) و(حكمة) معاً فذلك من جهتين: سمي (كتاباً) من جهة كونه مشتملاً على الأحكام

1 الحق باعتباره اعتقاداً وباعتباره قيمة، للدكتور عبد الرحمن السلمي، منشور في افتتاحية مجلة: "التفاهم" ص: 8، العدد: 38، السنة العاشرة، حريف 2012م/1433هـ.

المكتوبة، و (حكمة) من جهة اشتماله على حكمة الشرائع من العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، واستدللنا على هذا الفرق من تتبع استعمال الكلمتين معاً، ومما علمنا من استعمال (الكتاب) للأحكام، و (الحكمة) لأصولها¹.

وهذا ما ذهب إليه أيضاً أستاذنا الدكتور عبد الرحمن العضاوي، حيث فسر (الحكمة) تفسيراً شاملاً بمراعاة النظرة الكلية المقاصدية، فقال: «الحكمة هي مقصود الوحي، ومقصود الوحي هو الغاية المصلحية المقتضية من مضمونه الشمولي الجامع لكافة المعاني، ويعتبر أصلاً مصلحياً كلياً يتفرع عنه الفعل الاستخلافي الذي يؤسس قوانين المحافظة على الإنسان ذاته، وقوانين اجتماعه، ويفتح آفاق النفس والكون فيمنحه الرؤية العلمية السليمة، والمنهجية المتكاملة التي تمكنه من الشهود الحضاري وهذا هو مفهوم الحكمة العام، وليس الخاص الذي استخلصه الشافعي من تتبعه لبعض الآيات الواردة في الذكر الحكيم ليصل إلى أن المقصود بها سنة النبي ﷺ»².

وإنما آثرت الحديث عن "الحكمة" في هذا المقام على غيرها من المصطلحات الأخرى التي تعبر عن المقاصد، مثل: الغايات، أو الأسرار، لأن الحكمة بما توحى به من معنى وضع الشيء في محله، هي المصطلح الأنسب هنا، إذ عين الحكمة في التأصيل المعرفي هو استحضار ما تحمله الحكمة من مدلولات، بمعنى أن المعرفة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة لبلوغ الهدف الأسمى الذي هو تحقيق الاستخلاف، ولا شك أن النظر إلى المعرفة باعتبارها غاية في نفسها يعد خروجاً عما وُضعت له، وقد انتبه المسلمون إلى هذا الأمر حينما كانوا يدونون العلوم والمعارف، فلم يكن التدوين عندهم غاية في حد ذاته، ولا كان بث العلم ترفاً فكرياً أو جدالاً من أجل الجدل، وإنما كان إيمانهم باعثاً لهم على نشر الخير وتدوين العلم حتى ينتفع به الناس ويؤجرون على ذلك، وهذا الأمر لا ينبغي أن يغيب عن

1 مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، عبد الحميد الفراهي، تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، ص: 175_177 بتصرف يسير.

2 الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، د عبد الرحمن العضاوي، ص: 41.

أمة كان أول ما نزل من الوحي على رسولها الخاتم محمد ﷺ الأمر بالقراءة، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿إِفْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ إِفْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾¹.

قال الشيخ ابن عاشور: «وعدل عن اسم الله العَلَم إلى صفة ربك لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبي ﷺ إضافة مؤذنة بأنه المنفرد بربوبيته عنده ردًا على الذين جعلوا لأنفسهم أرباباً من دون الله»².
فالقراءة مرتبطة باسم الله، وهذا أمر عقدي واضح، ولما تخلى المسلمون عن هذا الأمر العقدي وغاب عنهم الربط بين المعرفة وغاياتها ضاعت المعرفة وضاعت معها الأمة.

والقراءة التي تكون باسم الله حقاً وليس ادعاءً لا يمكن إلا أن تتجه إلى إيصال الخير للبشرية، ودفع الضرر عنها، ومن حسنات الفكر المقاصدي أنه بناء عقلي متكامل، ينظر إلى جواهر الأشياء وما تحققه من غايات، لذلك فإن التأصيل المعرفي باستحضار هذه الرؤية المقاصدية يعطي للمعرفة المعنى الحقيقي لها، ويضعها في طريقها المستقيم، ولن يتحقق ذلك تحقّقاً متكاملًا في غياب الفكر المقاصدي، لأن الفكر المقاصدي - كما يرى أستاذنا عبد الرحمن العضاوي - «بناء عقلي ينمو من مجموع المبادئ التي تمثل كلية العقيدة الإسلامية، والمستقرة في فطرة الإنسان... وعلى هذا الأساس شكل ارتباط الفكر المقاصدي بالفطرة قضية معرفية تبرز فيها الفطرة قانوناً ضابطاً للعلوم الضرورية للإنسان، التي تضمن له توازنه واستقامته في معرفة الأشياء عن طريق الحس، والتلقين والتجربة، والحس، والاستنباط، وكونها ضابطاً يبنى على اعتبارها حياة خلقية أصيلة وقوة روحية انطوت عليها نفس الإنسان، تعمل على توجيهه إلى سبيل جلب المنافع والمصالح التي يتوقف عليها تكوين مدنيته باعتباره

1 سورة العلق، الآية: 1-5.

2 التحرير والتنوير، 30/437.

إنساناً مدنياً بالطبع، تظهر عليه نتيجة أعمال حكمة العقل في انتظام الأفعال وبعدها عن المفاسد والمضار»¹.

وقد انطلق القرآن الكريم يؤصل هذه المنهجية القائمة على اعتبار الرؤية المقاصدية للمعرفة منذ أول ما نزل ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾² إلى آخر آية نزلت على القول الراجح، وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾³، وبين أول ما نزل وآخر ما نزل يؤكد القرآن الكريم تلك الحقيقة وتلك الرؤية التي لا ينبغي أن تغيب عن الإنسان وهو يريد أن يتعلم، أو يريد أن يعلم غيره.

ومن الحقائق التي هي تحتاج دائماً إلى التأكيد والتنبيه أن غياب المنهجية المتكاملة بين العلوم والمعارف - وأحسب أن الرؤية المقاصدية هي لب وأساس هذا التكامل بين العلوم والمعارف - وفقدان الضوابط، يؤديان إلى الفوضى الفكرية في الحياة العلمية والثقافية، وإن شئت مثلاً يجسد هذه الفوضى لما غابت المنهجية المتكاملة بين العلوم والمعارف فانظر ذلك «في ضياع المقاييس، وكثرة التكرار والاجترار، والتبعثر وضياع الرؤية الشاملة، وعدم إِبصار الأولويات، وتوالي النكسات الفكرية والسياسية، والاجترار على دخول الساحة الفكرية ومحاولة المساهمة فيها ممن يحسن ذلك ومن لا يحسنه، والاجترار على القول في الدين وتفسير مقولاته ونصوصه بلا فقه ولا علم»³.

1 مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي، للدكتور عبد الرحمن العضاوي، ص: 72_ 73، منشورات مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى 2015، بيروت.

2 سورة البقرة، الآية: 280.

3 من تقديم الدكتور عمر عبيد حسنه لكتاب الدكتور همام سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين، ص: 9، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 16، محرم 1408هـ.

وأرى أن من تمام التكامل المنهجي بين العلوم -خدمةً للتأصيل المعرفي-: الإفادة من الجهود الكبيرة التي وضعها علماء الحديث النبوي، ذلك أنه لا ينكر أحد من المنصفين ما جادت به قرائح علماء الحديث النبوي الشريف من قواعد منهجية نقدية ضابطة للروايات الحديثية، ويكفي أن نعلم بأن المحدثين، أو أهل الأثر كانوا السدَّ العظيم الذي حال دون تسلل الخرافات وسائر الخرافات والبدع إلى الدين الإسلامي الصافي، وكانت هذه المدرسة دائماً «وراء حركات التصويب وإعادة الأمة إلى الجادة والوقوف بالمرصاد لكل دارس أو باحث أو عابد تضل به الطريق إلى درجة لم يعد يجروء معها أحد أن يقول في الدين دون تحقيق، وإن كنا نعتقد أنه لا بد مع القدرة على حفظ النصوص الحديثية من أهلية النظر والفقه»¹.

وإن غياب النظر المقاصدي العقدي حَجَّر العقيدة وكاد يفقدها رونقها وجوهرها وأدخلها في جدال عقيم بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم من المخالفين لهم في العقيدة.

وقد نبه شيخ المقاصدين الإمام الشاطبي إلى أن الجهل بالمقاصد من أسباب الزلل في العقيدة، وضرب لذلك مثلاً بمسألة القول بخلق القرآن ونفي صفات الله تعالى، فقال: «مدار الغلط في هذا الفصل، إنما هو على حرف واحد: إنما هو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضمِّ الأطراف بعضها إلى بعض، فإن مآخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين، إنما هي على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة، بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومحملها المفسر بمبينها، إلى ما سوى ذلك من مناحيها، فإذا حصل للناظر من جملتها حُكم، فذلك الذي نطقت به حين استنطقت»².

1 من تقلب الدكتور عمر عبيد حسنه لكتاب الدكتور همام سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين، ص: 10، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 16، محرم 1408هـ.

2 الاعتصام، للإمام الشاطبي، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، 2/ 51.

فما أحوج المسلمين إلى استحضار الفكر المقاصدي في التقعيد العقدي، لأن هذا الاستحضار يفتح أبواباً واسعة من الخير، من أهمها ربط الإيمان بالغايات والمعاني والحكم المرجوة منه، فينتج عن ذلك العمل الصالح الذي هو ثمرة الإيمان الكامل الحقيقي، وبقي استحضار هذه النظرة المقاصدية الأمة من شروخ كثيرة وقعت فيها لما غيبت التعليل بالحكمة في باب العقيدة، لعل من أبرزها في نظري هذا الانفصام بين الإيمان والعمل الصالح.

وقد أحسن الشيخ محمد الغزالي حينما شبه هذا الإيمان بالضرير الذي لا يبصر الحياة، فقال: «هناك إيمان ضرير لا يبصر الحياة، ولا تسحره عجائبها، ولا تستهويه أسرارها، هذا الإيمان يمكن أن تنسبه إلى أي مصدر غير القرآن الذي يخلق الإيمان البصير، لا الضرير. الإيمان الذي ينمو، ويقوى بالتأمل في الكون، ومطالعة آياته، والتعرف على خفايا»¹.

تلك كانت أهم التجليات التي تبرز لنا أهمية العلم بمقاصد القواعد العقديّة، فهي المدخل الأساس لتقوية الإيمان، والمدخل المهم في الحجاج وإقناع المخالفين، ووسيلة كبرى من وسائل التأصيل المعرفي.

وإذا كان للعلم بمقاصد القواعد العقديّة تلك الأهمية، فما هي أهم خصائص ومميزات

تلك القواعد؟

هذا ما سأحاول الإجابة عنه في الفصل الثالث.

1 ركائز الإيمان بين العقل والقلب، للشيخ محمد الغزالي، ص: 7.

الفصل الثالث

خصائص القواعد العقديّة:

المبحث الأول: خاصية الكلية.

وسأدرس هذه الخاصية في مطلبين اثنين هما:

المطلب الأول: مفهوم الكلية وعلاقتها بالجزئية.

الذي أريد الوصول إليه في هذا المطلب هو إبراز العلاقة بين الكلية والجزئية، لأن إدراك هذه العلاقة مفيد في أي باب من أبواب المعرفة، ويتأكد هذا الأمر أكثر في مسائل العقيدة، ولذلك لن أطيل الحديث عن مفهوم الكلية، وبعض المصطلحات المرتبطة بها، فأقول: إن "الكلية" منسوبة إلى "الكل"، وهو لفظ من ألفاظ العموم، يفيد الاستغراق والشمول للأفراد التي تندرج تحته، والكلية كما عرفه علماء المنطق هو: «كل مفهوم ذهني لا يمنع تصوُّره من وقوع الشركة فيه، وإن كان لا يصدق في الواقع إلا على فردٍ واحدٍ فقط، أو لا يوجد منه في الواقع أيُّ فردٍ.

ويدل على الكلي في الكلام: النكرات وما كان من المعارف في قوة النكرة كالأسماء المعرفة بأل التي للجنس»¹.

ولعلماء المنطق بحث مستفيض ومفيد يُرجع إليه في بيان أنواع الكليات الخمس التي هي أهم أسس المعلومات التصورية: (الجنس، والنوع، والفصل، والخاصة-ويسمونها أيضا: عرضاً خاصاً-، والعرض العام).

أما الكل عندهم فهو: «ما تركب من جزأين فأكثر»².

ويقابل هذين المصطلحين: مصطلح الجزء والجزئي، فالجزء عندهم: «ما تركب منه ومن غيره كلٌّ»³، والجزئي هو: «ما كان معناه لا يقبل في الذهن الاشتراك»¹.

1 ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص: 34، دار القلم دمشق، الطبعة الرابعة 1414 هـ 1993 م.

2 المرجع السابق، ص: 42.

3 المرجع السابق، ص: 42.

والعلاقة بين الكلية والجزئية عند علماء المنطق هي: «نسبة بين معنى ومعنى آخر من جهة كون أحدهما كلياً، والآخر جزئياً من جزئياته»².

أما إذا انتقلنا إلى بيان العلاقة بين الكليات والجزئيات بمنظور مقاصدي فلن نجد أحسن من يعبر عن هذه العلاقة الوطيدة بينهما من الإمام الشاطبي، الذي يقول-بعد تمهيد ممتع لهذه العلاقة-: «إذا كان كذلك، وكانت الجزئيات، وهي أصول الشريعة، فما تحتها مستمدة من تلك الأصول الكلية، شأن الجزئيات مع كلياتها في كل نوع من أنواع الموجودات، فمن الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها، فمن أخذ بنص مثلاً في جزئي معرضاً عن كليته، فقد أخطأ. وكما أن من أخذ بالجزئي معرضاً عن كليته، فهو مخطئ كذلك من أخذ بالكلي معرضاً عن جزئيه.

وبيان ذلك أن تلقي العلم بالكلي إنما هو من عَرْض الجزئيات، واستقراءها، وإلا فالكلي من حيث هو كلي غير معلوم لنا قبل العلم بالجزئيات، ولأنه ليس بموجود في الخارج، وإنما هو مضمّن في الجزئيات حسبما تقرر في المعقولات، فإذا الوقوف مع الكلي مع الإعراض عن الجزئي وقوفٌ مع شيء لم يتقرر العلم به بعد دون العلم بالجزئي، والجزئي هو مظهر العلم به. وأيضاً فالجزئي لم يوضع جزئياً، إلا لكون الكلي فيه على التمام، وبه قوامه فالإعراض عن الجزئي من حيث هو جزئي إعراض عن الكلي نفسه في الحقيقة، وذلك تناقض، ولأن الإعراض عن الجزئي جملةً يؤدي إلى الشك في الكلي من جهة أن الإعراض عنه إنما يكون عند مخالفته للكلي، أو توهم المخالفة له، وإذا خالف الكلي الجزئي مع أنا إنما نأخذه من الجزئي، دلّ على أن ذلك الكلي لم يتحقق العلم به لإمكان أن يتضمن ذلك الجزئي جزءاً من الكلي لم يأخذه المعبر جزءاً منه، وإذا أمكن هذا، لم يكن بدُّ من الرجوع إلى الجزئي،

1 المرجع السابق، ص: 42.

2 المرجع السابق، ص: 58.

وهذا كله يؤكد لك أن المطلوب المحافظة على قصد الشارع، لأن الكلي إنما ترجع حقيقته إلى ذلك، والجزئي كذلك أيضاً، فلا بد من اعتبارهما معاً في كل مسألة. فإذا ثبت بالاستقراء قاعدة كلية، تم أتى النص على جزئي يخالف القاعدة بوجه من وجوه المخالفة، فلا بد من الجمع في النظر بينهما، لأن الشارع لم ينص على ذلك الجزئي إلا مع الحفاظ على تلك القواعد، إذ كلية هذا معلومة ضرورة بعد الإحاطة بمقاصد الشريعة، فلا يمكن والحالة هذه أن تخرم القواعد بإلغاء ما اعتبره الشارع، وإذا ثبت هذا، لم يمكن أن يعتبر الكلي، ويلغى الجزئي»¹.

وإذا فهمنا معنى الكلية، واستحضرنا علاقتها بالجزئية، فإنه ثبت بالاستقراء لنصوص الوحي أنه سلك في عرض المسائل العقدية مسلك الكلية، وهذا ما سأشير إليه في المطلب الثاني:

المطلب الثاني: الوحي يسلك المنهج الكلي في عرض المسائل العقدية.

حينما نتأمل عرض القرآن الكريم للعقيدة الإسلامية نصل إلى نتيجة واضحة وضوح الشمس في وسط النهار، وهي أن هذا العرض عرض شامل، يصوغ مسائل العقيدة صياغة كلية، ولا يستغرق في ذكر الجزئيات التي لا طائل من ورائها، وإنما يقف عند موضع الشاهد، ويعطي للمخاطب الدرس والعبرة، ويجيبه عن كل ما يشغل باله، فيحدث الإنسان عن أصله، والغاية من وجوده، ومصيره بعد موته، ويعطيه صورة واضحة متماسكة تماسك البناء البديع للقرآن الكريم، وتلك الصورة تغني وتشفي عن كل ما قدمه ويقدمه المنظرون من اجتهادات، أو خيالات، لا تصمد أمام ما يذكره عالم الغيب والشهادة الذي يعلم السر وأخفى، وهو القائل سبحانه - في أثناء ذكره قصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه -:

1 الموافقات، للإمام أبي إسحاق الشاطبي، 3/ 164-165، تحقيق مشهور حسن آل مشهور، دار ابن القيم - دار ابن عفا، 1424 هـ 2003 م.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا فَوْمٌ مِّن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾¹، وهو القائل- أيضاً في نهاية قصة نبي الله يوسف عليه السلام-: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾²، وإذا كان هذا في شأن قصص من كانوا قبل نزول القرآن الكريم، فكيف بأبناء الخلق العظيم للكون والإنسان؟!

ويبقى البيان القرآني لمسائل العقيدة هو الأصل الذي يشكل مع السنة النبوية قواعد أساسية ومبادئ كلية تتجاوز الجزئيات والتفاصيل، وتلقي ضوءها الكاشف الشامل على كل ما يهم الإنسان في موضوع العقيدة، ولتأخذ قضية الخلق مثلاً تقاس عليه جميع القضايا العقدية الغيبية التي حاض في تفسيرها الإنسان، وكيف أن تفسير الإنسان لها- اعتماداً على عقله المجرد، وأدواته المعرفية المحدودة- لم يكن ولن يكون تفسيراً حاسماً ما لم يستضيء في ذلك بنور الهداية الإلهية من خالق الكون ومبدعه، وبما أن المقام لا يسعف لسرد كل الشواهد القرآنية التي تحدثت عن بداية خلق الكون، والإنسان المستخلف في هذا الكون، وكيف تم ذلك، فإنني أقتصر على أربعة نصوص، وهي كافية لتعطينا شرحاً واضحاً لقضية بداية الخلق. فمنذ بداية سورة البقرة يحدثنا كتاب الله الخالد عن خلق الكون والإنسان بكلمات واضحة هن قواعد كلييات، فنقرأ هذا النص المعجز الذي يقول فيه الحق تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾³ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ

1 سورة هود، الآية: 49.

2 سورة يوسف، الآية: 102.

فِي الْأَرْضِ خَلِيبَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْمِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْسُ
نُسَبِحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ
الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٣﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ
بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ۖ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿١٤﴾¹، فهو سبحانه الخالق لكل ما في الأرض،
المسخر للإنسان المستخلف كل ذلك، وهو وحده العالم بكل شيء، وهو وحده الذي علم
آدم الأسماء كلها، وهو وحده العالم لكل جلي وكل خفي.

- ﴿قُلْ آيِنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِّمَةِ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
أَنْدَاداً ۗ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ
فِيهَا وَفَدَّرَ فِيهَا أَفْوَاتَهَا ۖ وَرَبْعَةَ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ اسْتَوَى
إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ۖ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ۖ فَالْتَأَى
أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٧﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْجَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ
أَمْرَهَا ۖ وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصْلِحٍ وَحِفْظاً ۗ ذَلِكَ تَفْذِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١٨﴾².

1 سورة البقرة، الآية: 28-32.

2 سورة فصلت، الآية: 8-11.

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيَّرْ بِخَلْقِهَا﴾

بِفَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾¹.

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن

لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾².

إن حديث القرآن الكريم عن بناء الكون وخلق الإنسان حديث من يعلم دقائق الأمور ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، «وما دامت عملية بناء الكون وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلا الله، وما دامت المقاييس الآدمية تجيء دائماً نسبة قاصرة، محدودة إزاء خلق الله، فليس لنا أن نطمح للإحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية "التكوين" هذه، وليس لنا - كذلك - أن نفترض نظريات لا جدوى من ورائها... إن هذا فوق طاقتنا، وإن أية محاولة في سبيله لا تعد أن تكون عبثاً "ميتافيزيقياً" يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين، والإسلاميين المتأثرين بهم، والذين أفنوا أعمارهم في هذا السبيل... وهذا لا يعني أبداً التشكيك بالمحاولات العلمية التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم "فعالاً" من الكون، والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم، لأن هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات... إنما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق، والبحث عن "علة" و "المعلول" و "متناهي الأول"... إلى آخره... وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة، أن الكون ماضٍ في حركته الدينامية نحو الاتساع الدائم بإرادة الله.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ

1 سورة الأحقاف، الآية: 32.

2 سورة ق، الآية: 38.

أَلْمَهْدُونَ ﴿٤٨﴾¹، وإن هذه الهدفية على المستوى الكوني، الكلي، وهذه الحركة صوب الاتساع، لا بد أن تنعكس في التصور الإسلامي على حركة التاريخ البشري نفسه، ومصير الإنسان في العالم، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن عنه القرآن مراراً، حيث تُطوى السموات كطي السجل للكتب، وتكف الحياة عن الاستمرار تمهيداً ليوم الحساب، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الإلهي الدائم: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾².

إننا حينما انتقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وهيمته الظروف الصالحة للحياة على الأرض، وتمعنا فيها، وجدناها ترتبط ارتباطاً عضوياً أصيلاً بالدور المنتظر الذي بُعث الإنسان لكي يؤديه، وبالقصد والجدوى والنظام والأعمار والغاية التي بُعث من أجلها، وهي كلها قواعد أساسية لأي نشاط حضاري فعّال هادف منظم متطور على الأرض³.

وما تقرر هنا في اعتماد القرآن الكريم على المنهج الكلي في عرض مسائل العقيدة يتقرر أيضاً في منهج السنة النبوية، لأنها بيان وتفسير للقرآن الكريم، والأمثلة والشواهد من السنة النبوية التي توضح هذا الأمر كثيرة، ومنها على سبيل المثال حديث جبريل المشهور في دواوين الحديث، وهو الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثْرَ السَّفَرِ، وَلَا

1 سورة الذاريات، الآية: 47 - 48.

2 سورة الأنبياء، الآية: 103.

3 حول إعادة تشكيل العقل المسلم، الدكتور عماد الدين خليل، ص: 93 - 95، العدد: 4، رمضان 1403هـ.

يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَدَّ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»¹.

إن هذا النص الصحيح يعدُّ من أوضح الشواهد التي تبين أن السنة النبوية سلكت في بيان العقيدة مسلك القرآن الكريم في إيراد قواعد كلية للإيمان الجازم الصادق الذي لا يعرف الشك ولا الحيرة، إنه الإيمان الذي يبني الأمة بناء متكاملًا، يتكامل فيه الإيمان مع العمل الصالح، بمفهومه الشامل الذي لا يقتصر على جانب دون آخر، ولا غرابة أن وجدنا الحديث هنا يتحدث عن الإيمان والإسلام والإحسان في سياق واحد يعبر عن الدين كله، إنه بذلك يؤكد على حقيقة التكامل والنسقية بين شعائر الدين كلها، لا فرق في ذلك بين العقائد وغيرها.

لقد بين النبي ﷺ لأمته في هذا الحديث أركان الإيمان وأصوله بياناً كلياً شافياً كافياً، وتلقى عنه ذلك أصحابه رضي الله عنهم بالرضا والقبول والتسليم، وكان ذلك محل اتفاق عند المسلمين قاطبة، ولم تعرف الأمة النزاع في معاني الإيمان إلا بعد ظهور فتنة الخوارج وقولهم

1 الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، 37/1 381.

بتخليد مرتكب الكبيرة في النار، ثم جاء بعدهم المعتزلة والقدرية فأطالوا النزاع وشعبوا مسالكه، وكان يكفي الأمة أن تأخذ هذه المعاني العقدية الكلية فتصدق بها، وتنصرف إلى ما وراء ذلك من عمل بيني ويؤسس.

المبحث الثاني: خاصية القصة.

تعد خاصية القطعية أحد أهم مميزات القاعدة العقدية، فما مفهوم القطع؟ وما أثره في تقليل الخلاف العقدي؟

هذا ما سأحاول الجواب عنه في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: مفهوم القصة.

يعتبر القطع والظن من المفاهيم الأساسية التي كثرت فيها أقوال العلماء عند حديثهم عن الأدلة، سواء في علم أصول الفقه أو في علم أصول الدين، وهما مفهومان لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الآخر، فما معنى القطع والظن؟ وما أقسامهما؟ أما القطع فيفيد في أصل وضعه اللغوي الدلالة على صرْم وإبانة شيء من شيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِمَّا﴾¹، بمعنى فرقناهم فرقاً.

وتفرعت عن هذا الأصل اللغوي معان فرعية، تؤول كلها إلى أصل واحد هو القطع، كما قال الأزهري: «وكل ما مرَّ في الباب -يعني مادة قطع- من هذه الألفاظ واختلاف معانيها، فالأصل واحد والمعاني متقاربة وإن اختلفت الألفاظ، وكلام العرب بعضه آخذ برقاب بعض، وهذا يدل على أن لسان العرب أوسع الألسنة نطقاً وكلاماً»²، فالمعنى الأساس الذي ترجع إليه كل تلك المعاني هو: فصل الشيء وإبانتته، سواء أكان الفصل

1 سورة الأعراف، جزء من الآية: 168.

2 تهذيب اللغة، للأزهري، 1/ 196.

حسياً أم معنوياً، قال الراغب في مفرداته: «القطع فصل الشيء مدركاً بالبصر كالأجسام أو مدركاً بالبصيرة كالأشياء المعقولة»¹، ثم مثل لكلا النوعين من القرآن الكريم.

فمثال الأول قوله تعالى: ﴿لَأَفْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفِ
وَأَصْلِبَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾²، وذكر آيات أخرى تفيد هذا المعنى الحسي للقطع.

ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ
وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَذُوآبِكُمْ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾³، وذكر آيات أخرى تفيد المعنى المجازي للقطع.

وقد يجتمع الأمران الحسي والمعنوي في موضع واحد، كما في قوله تعالى: ﴿أَيِّنَّاكُمْ
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾⁴، قال الراغب: «وقطع الطريق يقال على
وجهين: أحدهما يراد به السير والسلوك، والثاني يراد به الغصب من المارة والسالكين
للطريق»⁵.

وفي الاصطلاح لا بد أن نميز في القطع بين قسمي القطع التي تعود إلى جانبين هما:
- جانب دلالي: ومن لهم عناية يبحث هذا الجانب علماء أصول الفقه، فقد بحثوه بحثاً
كافياً في مبحث دلالة الألفاظ على المعاني، ويُعرف القطع بهذا الاعتبار على أنه: هو
اللفظ الدال دلالة لا تحمل التأويل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^١ اللَّهُ
الصَّمَدُ^٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ^٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ^٤، فدلالة

1 المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص: 408.

2 سورة الشعراء، الآية: 49.

3 سورة الرعد، الآية: 26.

4 سورة العنكبوت، الآية: 28.

5 المفردات في غريب القرآن، ص: 408.

سورة الإخلاص على إثبات صفات الكمال لله تعالى، ونفي جميع صفات النقص عنه، دلالة قطعية، وهي من النصوص المقطوع بها في باب العقيدة، ولا تقبل التأويل والصرف عن مقتضياتها وفحواها لا حقيقة ولا مجازاً، وبذلك استحققت أن توصف بأنها ثلث القرآن الكريم.

- جانب ثبوتي: والحديث في هذا الجانب غالباً ما يتجه إلى طريق ثبوت النص، أي النقل المفيد لليقين، وهذا ما أطلق عليه علماء الحديث في السابق اسم التواتر. وأما الظن في اللغة فيأتي على معنيين: الأول، خلاف اليقين، والثاني، الذي يقارب معنى التهمة، فالظنين: هو المتهم الذي يُظن به التهمة.

واصطلاحاً: قسمه الأصوليون كما قسموا القطع إلى جانب دلالي، فيُعرف بخلاف ما تقدم في القطع، فيقال فيه: هو اللفظ الدال دلالة تحتمل التأويل، أو هو: ترجيح أحد ممكنين متقابلين في النفس على الآخر من غير قطع، والجانب الثاني جانب ثبوتي، ويتجه البحث فيه أيضاً إلى طريق ثبوت النص، وهو الذي بحثه المحدثون في قسيم الحديث المتواتر الذي هو خبر الآحاد، وما فيه من الأقسام والمباحث¹.

والذي أخلص إليه من هذا كله أن مفهوم القطع المناسب للمقام هنا يعني الجانب الدلالي بالدرجة الأولى، أي دلالة القواعد العقدية على ما يندرج تحتها من المعاني هي دلالة لا تحتمل غير ما وُضعت للدلالة عليه، وهذا الجانب فرع عن جانب الثبوت، لأن قواعد العقيدة ثبتت بمصادر أصلية تضافرت فيما بينها، وشهد بعضها لبعض حتى أفادت الثبوت القطعي.

1 ينظر في تعريف القطع والظن بتوسع: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط: 1، 1990، 8 / 276، و 13 / 272، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، ترتيب الطاهر الزاوي، 647/3، بيروت: دار الفكر، ط: 3، ومعجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، 5 / 101، مصر: دار إحياء الكتب العربية، ط: 1، 1369هـ، والبحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط: 2، 1992م.

ولا يُعترض على هذا بأن أحاديث الآحاد تثبت بها العقائد وهي لا تفيد إلا الظن، لأن هذا الاعتراض يُجاب عنه بأن غلبة الظن ينزل منزلة القطع، والله أعلم. وإنما كان لمفهوم القطع هذا المعنى الذي أشرت إليه، لأن القواعد العقدية هي قواعد قطعية في أصلها كما جاءت بها نصوص الوحي، وسأضرب بعض الأمثلة فقط من نصوص الوحي لإبراز هذا المعنى القطعي للقواعد العقدية، وأن الاحتكام إلى تلك القواعد سبيل من سبل قطع دابر الخلاف العقدي، أو على الأقل، سبيل من سبل تقليله، وهذا ما خصصت له المطلب الآتي:

المطلب الثاني: قصبة القواعد العقدية كصيق من صرق تقليل الخلاف العقدي.

إن الذي ينظر في نصوص الوحي نظر تدبر وتأمل يدرك أن نصوص العقيدة نحت نحو القطعية في أصولها الكبرى التي هي أصول تُبنى عليها الجزئيات الكثيرة، ومن مقاصد ذلك وأهدافه أن القطعية طريق من طرق حسم مادة النزاع في القضايا العقدية الكلية، ويتضح هذا أكثر بذكر بعض النصوص القرآنية التي هي أصول عقدية قطعية لا تحتمل التأويل:

فمن ذلك الآية القرآنية التي قال عنها المفسرون: "أصل في الوعد والوعيد"، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ إِبْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾¹.

قال ابن الفرس الأندلسي: «هذه الآية أصل في الوعد والوعيد»²

1 سورة النساء، الآية: 47.

2 أحكام القرآن، عبد المنعم بن عبد الرحيم، المعروف بابن الفرس الأندلسي، تحقيق: السوايجي بو عفيف، 2/ 214، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1427هـ.

وبيّن ابن عطية الأندلسي موقف أهل السنة والجماعة تجاه هذه القضية العقديّة التي زلت فيها أقدام وضلت فيها أفهام، فقال: «قال أهل السنة والحق: آيات الوعد ظاهرة العموم، وآيات الوعيد ظاهرة العموم، ولا يصح نفوذ كلها لوجهه بسبب تعارضها، كقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلِيهَا إِلَّا الْأَشْفَى﴾¹ أَلذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾¹، وهذه الآية هي الحاكمة ببيان ما تعارض من آيات الوعد والوعيد، وقوله: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾²، فلا بد أن نقول: إن آيات الوعد لفظها لفظ عموم، والمراد بها: الخصوص في المؤمن المحسن، وفي التائب، وفيمن سبق في علمه تعالى العفو عنه دون تعذيب من العصاة، وأن آيات الوعيد لفظها عموم، والمراد بها: الخصوص في الكفرة وفيمن سبق في علمه تعالى أنه يعذبه من العصاة، وتحكم بقولنا: هذه الآية نصٌّ في موضوع النزاع، وهي قوله تعالى: إن الله لا يغفر أن يشرك به.. فإنها جلت الشك وردت على الطائفتين: المرجئة والمعتزلة، وقوله تعالى: إن الله لا يغفر أن يشرك به فصل مجمع عليه، وقوله: ويغفر ما دون ذلك فصل قاطع بالمعتزلة راد على قولهم رداً لا محيد عنه، ولو وقفنا في هذا الموضوع من الكلام لصح قول المرجئة، فجاء قوله: لمن يشاء رادا عليهم، موجبا أن عفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم، بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن»³.

وقال الرازي: «هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على العفو عن أصحاب الكبائر»⁴. وهي من أواخر ما نزل في مسألة الوعد والوعيد، وعليه فتكون حاكمة على كثير من النصوص وليست بمنسوخة.

1 سورة الليل، الآية: 15-16.

2 سورة الجن، الآية: 23.

3 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 64/2.

4 مفاتيح الغيب، 98 / 10.

يقول الطاهر بن عاشور: «ولو كانت هذه الآية مما نزل في أول البعثة لأمكن أن يقال: إن ما بعدها من الآيات نسخ ما تضمنته، ولا يهولنا أنها خبر، لأنها خبر مقصود منه حكم تكليفي، ولكنها نزلت بعد معظم القرآن، فتعين أنها تنظر إلى كل ما تقدمها، وبذلك يستغني جميع طوائف المسلمين عن التعسف في تأويلها كل بما يساعد نخلته، وتصبح صالحة لمحاميل الجميع، والمرجع في تأويلها إلى الأدلة المبينة، وعلى هذا يتعين حمل الإشارك على معناه المتعارف في القرآن والشريعة المخالف لمعنى التوحيد»¹.

وقال الإمام الشوكاني: «قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله عز وجل، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله عز وجل»².
فالآية الكريمة قاعدة وأصل في بابها، ويشهد للقاعدة ما جاء عن جابر رضي الله عنه قال: ((أتى النبي ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله دخل النار))³.

ومن ذلك "علمه سبحانه بالغيب والشهادة"، فهذا أصل من أصول الدين وقاعدة من القواعد العقدية القطعية، وتشهد لها نصوص قرآنية كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْفُطُ مِنْ وَرْفَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا تَرْضَى وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ

1 التحرير والتنوير، 83/5.

2 فتح القدير، 1/ 549.

3 صحيح مسلم، 1/ 94، رقم الحديث: 151، وقوله: (الموجبتان) معناه: الخصلة الموجبة للجنة والخصلة الموجبة للنار. ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم، 2/ 96.

الإلّا في كِتَابِ مُبَيِّنِ ﴿٦﴾¹، قال أبو بكر ابن العربي: «هذه الآية أصل من أصول عقائد المسلمين، وركن من قواعد الدين، معظمها يتفسّر بها»².

وقال الإمام الشوكاني في تفسير الآية الكريمة: «في هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجّمين والرملين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم»³.

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا: «وقد بين الله تعالى لنا في هذه الآية أن خزائن عالم الغيب كلها عنده، وعنده مفاتيحها وأسبابها الموصلة إليها، وأن عنده من علم الشهادة ما ليس عند غيره، وذكر على سبيل المثل علمه بكل ما في البر والبحر من ظاهر وخفي، ثم خص بالذكر ثلاثة أشياء مما في البر: إحاطة علمه بكل ورقة تسقط من نبتة، وكل حبة تسقط في ظلمات الأرض، وكل رطب ويابس»⁴.

ونقل الألويسي في تفسيره بعض الآراء حول السر في ذكر السقوط للأشياء في الآية الكريمة، فقال: «وقيل: لأن العلم بالسقوط لكونه من الأحوال الساقطة التي يغفل عنها، يستلزم العلم بغيره من الأحوال المعنى بها فتدبير، فكأنه قيل: وما تتغير ورقة من حال إلى حال إلا يعلمها»⁵.

ويقول الطاهر بن عاشور في تقرير إحاطة علمه عز وجل بكل شيء: «وعنده مفاتيح الغيب لإفادة تعميم علمه تعالى بالأشياء الظاهرة المتفاوتة في الظهور بعد إفادة

1 سورة الأنعام، الآية: 60.

2 أحكام القرآن، لابن العربي، 2/ 255، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1424هـ 2003م.

3 فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، 2/ 422، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق بيروت، ط: 1، 1414هـ.

4 تفسير القرآن الحكيم (المنار) محمد رشيد رضا، 7/ 382، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

5 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألويسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، 4/ 163، دار الكتب العلمية بيروت، ط: 1، 1415هـ.

علمه بما لا يظهر للناس، وظهور ما في البر للناس على الجملة أقوى من ظهور ما في البحر، وذكر البر والبحر لقصد الإحاطة بجميع ما حوته هذه الكرة، لأن البر هو سطح الأرض الذي يمشي فيه الحيوان غير سابع، والبحر هو الماء الكثير الذي يغمر جزءاً من الأرض سواء كان الماء ملحاً أم عذباً»¹.

واشتملت الآية على أقوى رد يفحم بعض الطوائف من المتكلمين والفلاسفة الذين زعموا أن علم الله يتعلق بالكيليات دون الجزئيات، وبهذه الآية ناقشهم الشيخ الطاهر بن عاشور ورد عليهم فقال: «وهذه من معجزات القرآن، فإن الله علم ما يعتقد الفلاسفة وعلم أن سيقول بقولهم من لا رسوخ له في الدين من أتباع الإسلام، فلم يترك للتأويل في حقيقة علمه مجالاً»².

والنصوص التي تشهد لهذا الأصل العقدي الكلي القطعي كثيرة، وكلها تؤكد ذلك بأسلوب الحصر الذي يفيد التأكيد، رفعاً لأي التباس أو احتمال، ومن ذلك مثلاً قول الحق سبحانه: ﴿فَلَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾³.

قال السعدي في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْفُطُ مِنْ وَرْفَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁴، فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها

1 التحرير والتنوير، 272/7.

2 التحرير والتنوير، 272 / 7.

3 سورة النمل، الآية: 67.

4 سورة الأنعام، الآية: 60.

فلم يعلمها مَلَكٌ مقَرَّبٌ ولا نبيُّ مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له»¹.

فتلخص مما سبق تقرير القاعدة العقدية القطعية، وأن الله تعالى هو وحده من يحيط بكل شيء علماً، وهو وحده من يعلم غيب السماوات والأرض.

المبحث الثالث: خاصية العمل.

لقد قادني التأمل في اقتران الإيمان بالعمل في نصوص الوحي الإلهي إلى استنتاج مؤداه أن العمل خاصية تميز القاعدة العقدية، وهذا ما عقدت له المبحث الثالث، محاولاً أن أوضح فيه المسألة من خلال المطالبين الآتين:

المصلب الأول: علاقة الإيمان بالعمل.

سبق التنصيص في بيان حقيقة الإيمان ومفهوم العقيدة على أن العمل جزء لا ينفصل عن الإيمان والعقيدة، سواء جعل شرطاً له أو شرطاً منه بتعبير علماء المنطق، ولست هنا بحاجة إلى استعادة بعض المعارك الكلامية بين علماء الكلام حول مفهوم الإيمان وصلة العمل به، أهو شرط له أم شرط منه، أم ثمرة من ثمراته، لأن أغلبهم متفقون في النهاية على أن العمل جزء لا يتجزأ من الإيمان الكامل، فآل الأمر إلى أن علاقة الإيمان بالعمل علاقة وثيقة، ذلك أن الإيمان الصادق الحقيقي ليس مجرد إدراك ذهني أو تصديق بالقلب، أو ترديد باللسان، غير متبوع بأثر عملي في الحياة، وإنما الإيمان الصادق الذي أخرج الأمة الإسلامية من العدم إلى الوجود الحضاري والشهود على الناس، هو ذلك الإيمان الذي اقترن فيه الاعتقاد الجازم بالقلب مع العمل بالجوارح والنطق باللسان، وقد ذكر القرآن الكريم الإيمان مقروناً بالعمل في أكثر من سبعين آية من آياته، «ولم يكتف بمجرّد العمل، ولكنه يطلب

1 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحي، ص: 608، مؤسسة الرسالة، ط: 1، 1420 هـ 2000 م.

عمل " الصالحات " وهي كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين، وما يصلح به الفرد والمجتمع، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معاً¹.

وللإمام أبي حامد الغزالي كلام نفيس في كتابه "ميزان العمل" يبين فيه أن الإيمان بدون عمل لا يكفي، ويضرب أمثلة توضح ذلك فقال: «وأما من ظن أن مجرد الإيمان يكفيه فهو جهل بحقيقة الإيمان...ومن ظن أن سعادة الآخرة تنال بمجرد قول: لا إله إلا الله دون تحقيقه بالمعاملة، كان كمن ظن أن الطبخ يحلو بقوله: طرحت السكر فيه دون أن يطرحه، وأن الولد يخلق بقوله: وطأت الجارية دون أن يطأها، والزرع ينبت بقوله: بذرت البذرة دون أن يبذرهما. وكما أن هذه المقاصد لا تنال إلا بأسبابها، فكذلك أمر الآخرة، فإن أمر الآخرة والدنيا واحد، وإنما خص باسم الآخرة لتأخره»².

ولما كان الإيمان هو القائد والدافع الذاتي إلى العمل وجدنا التكاليف الشرعية في القرآن والسنة تُستهل بنداء المكلفين بوصف الإيمان ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقد تكرر هذا النداء في القرآن الكريم كثيراً، وهذا يبين لنا التلازم والترابط الوثيق بين الإيمان والعمل، وبهذا ندرك أن الإيمان «في الديانات كما في الحياة نفسها ليس صفة خلقية مجردة فحسب، وهو لا يتعلق بالشخص مجرداً عن مجتمعه، ولذلك لا يكون ذا مفعول حقيقي إلا إذا ترجم اللسان عما شعر به القلب من هذا الاطمئنان والثقة والتصديق، وترجمة اللسان لا تعني فقط الكلمة المقولة، ولكنها تعني إشهاد المجتمع بأن المؤمن انتمى وأصبح ملتزماً بانتمائه، ولا بد أن يتفق العمل مع الإيمان، أي أن التصديق لا يكون بالقلب فقط، ولكن يترجم إلى العمل، وهذا هو الذي يقصد إليه القرآن حينما يلحُّ على اقتران الإيمان بالعمل الصالح في كثير من الآيات»³.

1 الإيمان والحياة، الدكتور يوسف القرضاوي، ص: 254، دار المعرفة الدار البيضاء.

2 ميزان العمل، لأبي حامد الغزالي، ص: 94-95، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1409 هـ 1989 م.

3 صراع المذهب والعقيدة، عبد الكريم غلاب، ص: 58، دار الآفاق الجديدة بيروت.

ويخطئ من يحصر العمل الصالح المأمور به شرعاً في دائرة ضيقة لا تتجاوز بعض العبادات المعروفة مثل الصلاة والصيام...، وهذا خلل فكري تولد عن الفهم الضيق للعبادات نفسها، ومن يتأمل مثلاً بعض التوجيهات القرآنية في الحديث عن الصلاة والحج يجد أن هذه التوجيهات توجه المؤمن إلى ضرورة تحقيق التوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، فمثلاً عند حديث القرآن الكريم في سورة البقرة عن مناسك الحج نلاحظ الدعوة إلى أداء مناسك الحج، مع إباحة ابتغاء فضل الله بأنواع من المعاملات التي لا تفسد الحج ولا تعود على مقاصده بالبطلان، ويختتم النص الكريم بمدح الذين جمعوا في دعائهم بين خيري الدنيا والآخرة، وفي ذلك دعوة واضحة للأمة أن تحسن الجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة. يقول الحق سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَقْبَضْتُم مِّنْ عَرَبَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٧٧﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فَإِذَا فَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٧٩﴾ وَإِذْ لَقِيَكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨٠﴾﴾¹، وفي سورة الجمعة نجد أيضاً هذا الخطاب الذي يوجه المؤمنين إلى العمل للدين والدنيا، وأن ذلك من صميم عبادة الله تعالى ومن موجبات الفلاح في الدنيا والآخرة، فقد أمر الله عباده المؤمنين بالسعي إلى صلاة الجمعة في وقتها، لتحقيق واغتنام ما فيها من الثواب والفضل، ثم أعقب

1 سورة البقرة، الآية: 197 - 200.

ذلك مباشرة بالأمر بالانتشار في الأرض وابتغاء فضل الله، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ فَإِذَا فُضِّتِ الصَّلَاةُ بَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٢﴾¹، فيا ليت المسلمين يفقهون هذا التوجيه القرآني وبذلك يدركون العلاقة الحقيقية الجامعة بين الإيمان والعمل، وبذلك يتحررون من المفهوم الضيق للعبادة وللعمل الصالح الذي حُصر في بعض العبادات، ويتحررون أيضاً من الفصل بين الإيمان والعمل²، وهو فصل تأباه نصوص الوحي التي قرنت بينهما، ويكفي أن القرآن الكريم قد قرن بينهما فيما يزيد على سبعين آية، ولن يسد الخلل الواقع الذي أدى إلى هذا الفصل بين الإيمان والعمل وذلك التضييق لمفهوم العبادات إلا بالرجوع إلى المصادر الأصلية واستلهاهم الرشد والهدى منها، وذلك بالتأصيل «لكل شكل من أشكال التدين، نظراً لأن الخرق الذي دخلت منه الوساطة على الأمة، هو إعطاء المرجعيات الاجتهادية في الاعتقاد، والسلوك قوة المصدرية، التي ليست لغير النص الشرعي.. والتأصيل إنما هو استصدار القرارات والأحكام، من داخل النص، بأي صورة من صور الاجتهاد، المنضبط بضوابطه، وأي انحراف عن هذا المنهج، فإنه انزلاق إلى ضلال الوساطة، سواء كان في المجال التربوي، أو غيره.. والتأصيل بعد ذلك، هو الدعوة إلى التوحيد، لأن التدين من خلال النص الشرعي وحده فقط، هو

1 سورة الجمعة، الآية: 9-10.

2 للفصل بين الإيمان والعمل صور كثيرة من واقع المسلمين، وهذا ناتج عن غياب مقاصد الإيمان ومقاصد الأعمال، فقد تجد شخصاً يقر بأنه مؤمن بالله تعالى ولكنه لا يلتزم بشعائر الدين وشعب الإيمان، أو قد يلتزم ببعض الشعائر كالصلاة والصيام والحج، ولكنه في المعاملات لا يجد حرجاً من الغش فيها والتزوير وغير ذلك من الأمور التي تنبئ عن وجود خلل لدى الأمة في التدين.

عين التوحيد، سواء تعلق ذلك التدين بالمجال العقدي التصوري، أو بالمجال العملي والسلوكي»¹.

وبالرجوع إلى مصدري الهداية: القرآن الكريم والسنة النبوية، نجد أن اقتران الإيمان بالعمل لم يأت عبثاً، ولم يُذكر سدى، وإنما كان ذلك الاقتران درساً للمؤمنين بأن إيمانهم لن يكتمل ولن تكون له نتيجة إلا إذا تُرجم إلى سلوك وعمل يعود عليهم بالنفع أفراداً وجماعات.

وهذا ما فهمه واستوعبه الصحابة رضي الله عنهم، ومن جاء بعدهم واقتفى منهجهم، وهو ما يفسر لنا سبب تحذيرهم من الكلام في مسائل العقيدة التي لا يُبنى عليها عمل، ولا تثمر سلوكاً لدى المؤمن، وقد نُقل عن غير واحد من أئمة التابعين وتابعيهم النهي عن ذلك، ونكتفي هنا بما نُقل عن الإمام أنه كان ينهى عن الخوض في علم الكلام، فقد نقل الحافظ ابن عبد البر في كتابه " مختصر جامع بيان العلم وفضله"² عن مصعب بن عبد الله الزبيري (ت 157هـ) قال: «كان مالك بن أنس يقول: الكلام في دين الله أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم، والقدر وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، وأما الكلام في دين الله وفي الله فإلسكوت أحب إلي، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل»³.

وشرح الحافظ ابن عبد البر قول الإمام مالك السابق "إلا فيما تحت عمل" فقال: «الأحكام: من الصلاة والزكاة والطهارة والصيام والبيوع ونحو ذلك، ولا يجوز عنده الجدل

1 التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، د فريد الأنصاري، ص: 100-101، سلسلة كتاب الأمة بدولة قطر، العدد: 47، السنة الخامسة عشرة، شهر رجب 1416هـ.

2 / 95.

3 أورد الحافظ ابن عبد البر هذا الكلام أيضاً في كتابه الكبير "التمهيد"، 19 / 233.

فيما تعتقده الأفئدة مما لا عمل تحته أكثر من الاعتقاد، وفي مثل هذا خاصة نهي السلف عن الجدل وتناظروا في الفقه وتقايسوا فيه»¹.

وإذا تبين لنا أن علاقة الإيمان بالعمل علاقة اقتران أحدهما بالآخر، فلنضرب أمثلة من نصوص الوحي، لإظهار هذه العلاقة الوثيقة بينهما، وهذا ما سيتضح في المطلب الثاني.

المطلب الثاني: نماذج من الوحي في اقتران الإيمان بالعمل.

لقد دلت نصوص كثيرة من القرآن والسنة على اقتران الإيمان بالعمل، وهي كثيرة جداً²، ومنها على سبيل المثال:

- قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾³، فقد عدَّ

الله من صفات أصفیائه وعباده المتقين في هذه الآية إقامة الصلاة، وإنفاق أموالهم في

وجوه الخير، وهاتان العبادتان من أجل أنواع العبادات في الإسلام، لجمعهما بين حق

الله المعبود، وحق الناس، ففي الصلاة صلة الإنسان بربه الخالق، وفي إنفاق المال إحساناً

إلى الخلق، ولا شك أن ذلك كله ثمرة من ثمار إيمان هؤلاء المتقين بالغيب، ليقينهم أن

الله هو المنعم فوجب شكره بهذه الأعمال، ولعلمهم بأنه لا يضيع عنده أجر من أحسن

عملاً، وأن ما يقدمونه لأنفسهم سيجدونه أضعافاً كثيرة عند ربه الذي استخلفهم فيما

أنعم عليهم من المال.

جاء في تفسير المنار: «ولما كان الإيمان بالغيب عند الناس على ذلك الاستسلام

التقليدي الذي لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان، وليس له أثر في الأفعال؛

1 المصدر السابق، 19 / 233.

2 بحيث لو أراد باحث أن يفرد هذه المسألة بالبحث جمعاً ودراسةً فسيخرج يبحث قيم، وربما يكون أحد الباحثين قد أفرد هذا الموضوع بالبحث والدراسة وأنا لا أعلم بذلك، لأن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود.

3 سورة البقرة، الآية: 1-2.

لأنه لم يقع تحت نظر العقل، ولم يلحظه وجدان القلب، بل أغلقت عليه خزانة الوهم، ومثل هذا الذي يسمونه إيماناً لا يفيد في إعداد القلب للاهتداء بالقرآن، لما كان هذا شأنهم من الله علينا ببيان يشعر بحقيقة ما أَرَادَهُ تعالى من معنى الإيمان، فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجمل الآتية، فقال: (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)، ثم قال: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)، وهذا الوصف من أقوى أمارات الإيمان بالغيب؛ لأن كثيراً من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم، ومتى عرض لهم ما يقتضي بذل شيء من المال لله تعالى يمسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل، وليس المراد بالإنفاق هنا ما يكون على الأهل والولد، ولا ما يسمونه بالجود والكرم، كقرى الضيوف ابتغاء عوض كالشهرة والجاه، أو الأُنس بالأصحاب؛ لأن هذا ليس من آثار الإيمان بالغيب، وإنما هو الإنفاق الناشئ عن شعور بأن الله تعالى هو الذي رزقه وأنعم عليه به، وأن الفقير المحروم عبد الله مثله، وأنه حرم من سعة...»¹.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّالِحِينَ مَنَ - ا-مَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾²، فذكر تعالى من صفات هؤلاء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون أنهم جمعوا بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين العمل الصالح.

- قوله تعالى-رداً على الأمانى الفارغة، التي جعلت صنفاً من الناس يتوهمون ويحسبون أن الجنة حكرٌ لهم، وردَّ الأمر كله إلى صدق الإيمان وحسن العمل-: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَّعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ

1 تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 1/ 108-110 بتصرف.

2 سورة البقرة، الآية: 61.

لَهُ، مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ انْتَبَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ بَاءً وَكَيْبِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا ﴿١٢٣﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٤﴾¹.

- قوله الله تعالى: ﴿وَفِيْلَ لِلذِّينِ اِبْتَفَوْا مَاذآ اَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا
لِلذِّينِ اَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ لَهُمْ
فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِيهِ اللهُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٤﴾ الَّذِينَ تَتَوَقَّئُهُمْ
الْمَلٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلٰمٌ عَلَيْكُمْ اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾²، فبين النص الكريم هنا قيمة العمل الصالح الذي به
استحق هؤلاء المتقون نعيم الجنة رحمةً وإحساناً من ربهم الجواد الكريم، والذي جعل
هؤلاء المتقين يندفعون إلى العمل الصالح، هو إيمانهم بالله ورسالة نبيهم، فأمنوا وعملوا
عمالاً صالحاً نالوا به رضا ربهم، ومن أدخله ربه الجنة فقد فاز فوزاً عظيماً.

- وضرب الله تعالى في كتابه الأمثال لبيان أن العمل إنما تظهر قيمته إذا اقترن بالإخلاص
لله تعالى الذي هو روح العمل، وأنه إذا نُزِعَ منه هذا القصد فقد قيمته، ومن ذلك قوله
تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْآذَى

1 سورة النساء، الآية: 122 - 124.

2 سورة النحل، الآية: 30 - 32.

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ،
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ، وَابِلٌ فَتَرَكَهُ، صُلْدًا لَا يَفْدِرُونَ
عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ
بِرُبُوعٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أَكْثَرَهَا ضِعْبَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾¹، فهذا عمل من أجل الأعمال، وهو إنفاق المال،
لكنه في الحالة الأولى لما فقد القصد الأعظم، وهو ابتغاء وجه الله لم ينتفع منه صاحبه
المنفق بشيء، وفي الحالة الثانية نال بإنفاقه الأجر العظيم لما وُجد القصد الأعظم،
فالعمل واحد، واختلفت النتيجة بسبب وجود الإخلاص أو عدمه.

- قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ انْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ
حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾².

قال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن كل عامل سواء كان ذكرا
أو أنثى عمل عملا صالحا فإنه - جل وعلا- يقسم ليحيينه حياة طيبة، وليجزينه أجره
بأحسن ما كان يعمل، اعلم أولا أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما
استكمل ثلاثة أمور:

1 سورة البقرة، الآية: 263- 264.

2 سورة النحل، الآية: 97.

الأول : موافقته لما جاء به النبي - ﷺ - لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧﴾¹.

الثاني: أن يكون خالصا لله تعالى، لأن الله -جلَّ وعَلا- يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا

لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ

وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥﴾²، وقوله: ﴿فَلِإِلَهِكَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَعَبُدُوا

مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ٣﴾³.

الثالث: أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة ؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ

صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ اُنْتَبَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ٤﴾⁴، فقيده ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو

كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح⁵.

- قوله تعالى: ﴿وَ الْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ١﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ٢ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣﴾.

وقد أورد الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة قول الإمام الشافعي في حق هذه

السورة، وهو قوله: (لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم)، ثم علق ابن القيم على

كلام الشافعي قائلاً: «وبيان ذلك ان المراتب اربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله

1 سورة الحشر، الآية: 7.

2 سورة البينة، الآية: 5.

3 سورة الزمر، جزء من الآية: 14.

4 سورة النحل، جزء من الآية: 97.

5 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، إشراف بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، 3/ 422

- 223، بتصرف يسير.

أحداها معرفة الحق الثانية عمله به الثالثة تعليمه من لا يحسنه الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة واقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى وتواصوا بالحق وصى به بعضهم بعضا تعليما وارشادا فهذه مرتبة ثالثة وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية فصالح القوة العلمية بالإيمان، وصالح القوة العملية بعمل الصالحات. وتكميله غيره، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة، على اختصارها، هي من أجمع سور القرآن للخير بخدافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير»¹.

إلى غير ذلك من النصوص القرآنية التي قرنت الإيمان بالعمل، وما قرره كتاب الله في هذا الأمر العظيم، أكدته الأحاديث النبوية بألفاظ مختلفة، وفي أكثر من مناسبة، وهذه طائفة من تلك الأحاديث على سبيل المثل فقط:

- قوله ﷺ: « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »²، فهذا الحديث النبوي يبين اختبار إيمان المؤمن بالإحسان إلى جاره، والإحسان ضرب من ضروب العمل، بل هو من أفضل الطاعات والعبادات التي يؤجر عليها الإنسان.
- وأكد رسول الله ﷺ أهمية إحساس المؤمنين ببعضهم، وأن خلاف ذلك يجعل صاحبه ناقص الإيمان، فقال: « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله »¹.

1 مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، 1/ 56-57، دار الكتب العلمية بيروت.
2 أخرجه البزار في مسنده، والطبراني، كلاهما عن أنس بن مالك، وعلق عليه المنذري بعد عزوه لهما فقال: إسناده حسن، وقال الهيثمي: إسناده البزار حسن، وصححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم الحديث: 2561.

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي - ﷺ - قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده..»²، أي أن المسلم الكامل في إيمانه ودينه هو من حسنت معاملته للناس ابتغاء مرضاة الله، فحافظ على حقوق خلقه، وكف أذاه وشره عن عباده، وآمن يقيناً أن الدين المعاملة، فعامل الناس بالحسنى، ولم يتعد على أحد منهم بلسانه أو يده، ولم يؤذ إنساناً بقوله أو فعله. والمراد من الحديث أن المسلم الكامل الإيمان هو من سلم المسلمون من إيذائه لهم، وعدوانه عليهم بأي عضو من أعضائه، سواء كان لساناً أو يداً أو رجلاً أو غيرهما، ونجوا من شروره، فالحديث النبوي الشريف جعل سلامة الناس من شرور المرء دليلاً وبرهاناً على صدق إسلامه، ودل الحديث بمفهوم المخالفة على أن من لم يسلم الناس من شروره فإسلامه فيه خلل.

- قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق..»³، قال الخطابي: «في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم بمعنى ذي شعب وأجزاء لها أعلى وأدنى، وأقوال وأفعال، وزيادة ونقصان، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبها، وتستوفي جملة أجزائها كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها، ويدل على صحة ذلك قوله الحياء شعبة من الإيمان فأخبر أن الحياء أحد الشعب، وفيه إثبات التفاصيل في الإيمان وتباين المؤمنين في درجاتهم»⁴.

1 مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر، 14، رقم الحديث: 4880، ط: 2، دار المعارف بمصر.

2 أخرجه البخاري، في كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، 11/1، رقم الحديث: 10.

3 أخرجه البخاري، في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم الحديث: 9، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في رد الإرجاء، رقم الحديث: 4676.

4 عون المعبود على شرح سنن أبي داود، شرف الحق آبادي، 194/10، تحقيق أبو عبد الله النعماني، دار ابن حزم، ط: 1.

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»¹، قال الكرمانى: «قوله: (لا يؤمن) أي لا يكمل إيمانه. فإن قلت فإذا حصلت هذه المحبة يلزم أن يكون مؤمناً كاملاً وإن لم يأت بسائر الأركان قلت هذه مبالغة كأن الركن الأعظم فيه هذه المحبة نحو لا صلاة إلا بطهور وهي مستلزمة لها أو يلتزم ذلك لصدقه في الجملة وهو عند حصول سائر الأركان إذ لا عموم للمفهوم...ومن الإيمان أيضا أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء»².

وقد دل الحديث على أن الإيمان لا يبلغ حقيقته ونهايته وكماله إلا بعد أن يتحقق مثل هذا الخلق في المؤمن، والمتأمل في هذا الحديث، يجده قاعدة عظيمة تنبع من خلالها كثير من الأخلاق، ولذلك كان كلام النبي -ﷺ- من جوامع الكلم. ذلك أن من يعامل الناس على أساس أن يجب لهم ما يجب لنفسه تماماً فإنه سيعاملهم تماماً بكل خلق رفيع، لأن هذا هو ما يجب أن يعامله الناس به إذ يجب لنفسه.

وغير ذلك من الأحاديث النبوية التي تؤكد أن العمل قرين الإيمان، ولا يتسع المقام لسرد ما وقفت عليه من تلك الأحاديث، وخاصة الأحاديث التي جمعها الإمام البخاري في صحيحه الذي هو أصح كتاب بعد القرآن الكريم بشهادة علماء الحديث، وأختتم بذكر عناوين الأبواب التي أورد فيها عدداً من تلك الأحاديث في الكتاب الثاني من كتب الجامع الصحيح كتاب: "الإيمان"، وتدلنا عناوين تلك الأبواب على صدق المقولة المعروفة: "فقه

1 أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث:

2 الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، محمد بن يوسف الكرمانى، 1/ 95، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط: 2، 1401هـ 1981م.

البخاري في تراجمه"¹، أي: أن اختياره لعناوين هذه الأبواب دال على أن العمل قرين

الإيمان، وهذه عناوين أهم أبواب كتاب الإيمان من الجامع الصحيح:

- باب قول النبي صلى الله عليه بنى الإسلام على خمس.

- باب دعاؤكم إيمانكم.

- باب أمور الإيمان.

- باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

- باب أي الإسلام أفضل.

- باب إطعام الطعام من الإسلام.

- باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

- باب حب الرسول ﷺ من الإيمان.

- باب حلاوة الإيمان.

- باب علامة الإيمان حب الأنصار.

- باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال.

- باب الحياء من الإيمان.

- باب من قال: إن الإيمان هو العمل.

- باب إفشاء السلام من الإسلام.

- باب كفران العشير وكفر دون كفر.

- باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك.

1 وصف ابن حجر في مقدمة كتابه "فتح الباري" تراجم أبواب الجامع الصحيح للبخاري بأنها حيرت الأفكار وأدهشت العقول والأبصار، بسبب تنوعها وحسب ظهورها ودلالاتها على أحاديث الباب وخفائها، انظر مقدمة فتح الباري لابن حجر، ص: 8-13، بل ألفت مؤلفات في فقه تراجم أبوابه، ومنها كتاب: "مناسبات تراجم البخاري" لابن جماعة، وكتاب "المتواري على أبواب البخاري" لابن المنير، وكتاب "تراجم البخاري" للبلقيني، وكتاب "تراجم أبواب البخاري" و "شرح تراجم أبواب البخاري" للكاندهلوي.

- باب علامات المنافق.
- باب الدين يُسر.
- باب الصلاة من الإيمان.
- باب حسن إسلام المرء.
- باب زيادة الإيمان ونقصانه.
- باب اتباع الجنائز من الإيمان.
- باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.
- باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ له ثم قال: "جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم"، فجعل ذلك كله ديناً وما بيّن النبي ﷺ لوفد عبد القيس من الإيمان...
- باب فضل من استبرأ لدينه.
- باب ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة والحج والصوم والأحكام...
- باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

الفصل الرابع
نماذج تطبيقية
للمقاصد الكبرى للقواعد
العقدية.

تمهيد:

إن العقيدة الإسلامية الصحيحة بقواعدها الكبرى، قد تأسست على رعاية مجموعة من المقاصد الكبرى النازمة لجزئيات كثيرة من المنافع والمصالح، تؤول كلها إلى جلب المصالح ودفع المفاسد عن المكلف في العاجل ولأجل.

وبما أن العقيدة الإسلامية هي الأصل المؤسس والمحرك لجميع تصرفات المسلم المستخلف، فإن ربط هذه العقيدة بمقاصدها كما جاءت في الوحي جدير بأن يعيدها إلى سيرتها الأولى قبل وقوع الخلاف العقدي في الأمة، ومن شأنه أيضاً أن يجعلها عقيدة واضحة سهلة كما هي في نصوص الوحي قبل أن تدخل مرحلة التعقيد، وغير خفي أن العقيدة الإسلامية إذا عُرضت على الناس عرضاً خالياً من التعقيد تجد طريقها إلى القلوب، وهي الجديرة بأن تُعرض على الفكر البشري الذي يتخبط في ظلمات الخيرة والشك، وقد دلت التجارب كذلك أن صلاح سلوك الناس أفراداً وجماعات يتوقف على سلامة أفكارهم ومعتقداتهم، وأن فساد سلوكهم يتأثر بفساد أفكارهم ومعتقداتهم.

والمتأمل في ظاهرة الانحراف العقدي في الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً يلحظ أن من أهم أسبابه قلة العناية بمقاصد القواعد العقدية الكلية التي تؤسس لمنهج سليم يقضي على تلك الانحرافات المتشعبة قبل وقوعها عن طريق الوقاية، أو بعد وقوعها عن طريق العلاج.

وقد وضعت القواعد الكلية في العلوم لأجل ضبطها وتيسير فهمها على المتعلمين والباحثين، ولذلك جمعت القواعد الفقهية والقواعد الأصولية واللغوية...

يقول ابن تيمية في بيان أهمية القواعد ومنزلتها: «لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية تُرد إليها الجزئيات، ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم»¹.

1 قاعدة في تصويب المجتهدين وخطبتهم وتأثيرهم، وهي مودعة ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية، 203/19.

والعلم بالقواعد العقدية من أشرف العلوم وأعظمها، لأنها هي التي تضبط لنا أعظم ما اشتمل عليه القرآن الكريم، وسائر الكتب المنزلة، وتتعلق بالعلم بالله، وآياته، وأسمائه، وصفاته، وحقوقه على العباد، وكذا العلم بالنبوت، وكل ما يتعلق بمسائل الغيب.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يتحدث عن باب الأسماء والصفات التي هي جزء عظيم من القواعد الاعتقادية: «وهذا القسم من الأخبار أشرف أنواع الخبر، والإيمان به أصل الإيمان بما عداه، واشتمال القرآن والكتب الإلهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداه، وتنوع الدلالة بها على ثبوت مخبره، أعظم من تنوعها في غيره، وذلك لشرف متعلقه وعظمته وشدّة الحاجة إلى معرفته، وكانت إلى تحصيل معرفته أكثر وأسهل وأبين من غيره»¹.

ويمكن تصنيف المقاصد الكبرى للقواعد العقدية في ثلاثة مقاصد كبرى، تنفرع عنها مقاصد أخرى، وهي:

- **مقاصد التوحيد**، وتندرج في هذا الصنف جميع المقاصد العقدية التي تحقق العبودية المطلقة لله الواحد الأحد الفرد الصمد، وبما يتحقق خروج العبد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتكون علاقته بربه علاقة مخلوق بخالقه ومدبر جميع أموره.

- **مقاصد التزكية**، وتندرج في هذا الصنف جميع المقاصد التي جاءت بها العقيدة الإسلامية، من أجل تحقيق تزكية الإنسان بالقيم الروحية، وضبط علاقاته بغيره من الناس، أخلاقياً، واجتماعياً، وسياسياً، وبذلك يتركز الإنسان ويترقى، ويحقق إنسانيته.

- **مقاصد العمران**، وتندرج في هذا الصنف كل المصالح والمقاصد التي تنظم علاقة الإنسان بالكون، فيعمره بالصالح والخير، وبذلك يحقق المفهوم القرآني للتسخير، وهذه

1 الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية، 1/ 365.

الأصناف الثلاثة متكاملة فيما بينها، ومتداخلة في خدمة قضية جوهرية، ألا وهي: تحقيق الاستخلاف، فجاءت مباحث هذا الفصل التطبيقي وفق المباحث الثلاث الآتية:

المبحث الأول: مقاصد التوحيد.

وتندرج في هذا الصنف كما سبق قريباً في التمهيد جميع المقاصد العقديّة التي تحقق العبودية المطلقة لله تعالى، بصفته خالقاً مدبراً لأمر عباده، وهو وحده المستحق للعبادة، وعلى هذا الأساس تنتظم علاقة الإنسان المخلوق بربه الخالق، بل وعلاقة الإنسان بغيره من المخلوقات.

فما المقصود بمقاصد التوحيد؟ وكيف تؤسس هذه المقاصد لرعاية مصالح العبد في علاقته بربه؟

المطلب الأول: "التوحيد قصب رحى الحياة"

ويمكن التعبير عن هذا المطلب أيضاً بـ "التوحيد محور الحياة"، كما سمي بذلك الدكتور عمر سليمان الأشقر كتابه¹، وتفيد القاعدة بعمومها أن الحياة كلها مبنية على توحيد الله الخالق البارئ المصور، وأن الحياة الحقيقية لا تتحقق للمرء إلا إذا كان محققاً التوحيد الخالص لله، وبذلك يكتسب قيمته وإنسانيته، وينسجم مع سائر مخلوقات الله في هذا الكون الفسيح الخاضع لربه، المطيع له، المسيح بحمده، كما نطق القرآن الكريم في آيات كثيرة، تبين أن من في السموات ومن في الأرض يسجد ويسبح لله تعالى.

1 التوحيد محور الحياة عنوان كتاب للدكتور عمر سليمان الأشقر، نشرته دار النفائس عمان- الأردن، الطبعة الثانية 1411هـ 1991م.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا﴾¹.

إن توحيد الله والإيمان به حقّ الإيمان قاعدة عظيمة يبنى عليها كل شيء في الحياة
الدنيا وفي الآخرة، وأصل كبير لا يغني عنه غيره، «فإذا قام البناء على غير هذه القاعدة كان
بناءً ضعيفاً مختلاً، وفي كثير من الأحيان يقتل من بناه، ويدمر من سكنه»².

وقد ضرب الله مثلاً عجيباً للمشرك الذي تمرد عن توحيد الله وارتمى في أحضان
الشرك، وشبهه الحق سبحانه بشخص سقط من السماء فتخطفته الطير في الجو، وإن نجا من
الطير هوت به الريح في مكان بعيد، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ
مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾³، إنه
تشبيهه بليغ يصور لنا حالة كل شخص خرج عن توحيد الله وتلوث بلوثة الشرك والكفر، فهو
في صراع دائم وقلق لا ينقطع.

والإنسان إذا لم يكن عبداً لله الواحد الأحد، فهو عبد ذليل لسواه من الأرباب، وإن
زعم خلاف ذلك، وقد صور كتاب الله الخاتم هذه الحقيقة بمثل عجيب ضربه الحق سبحانه
في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِحَمْدِ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁴.

1 سورة الإسراء، الآية: 44.

2 التوحيد محور الحياة، للدكتور عمر سليمان الأشقر، ص: 15.

3 سورة الحج، الآية: 29.

4 سورة الزمر، الآية: 28.

ومهما ادعى بعض الناس أنهم قد تحرروا من الدين وتشدقوا بإنكاره فالواقع غير ذلك، وقد نطق القرآن الكريم بهذه الحقيقة في نصوص كثيرة، منها قوله تعالى وهو يتحدث عن اليهود والنصارى الذين حزنوا مفهوم التوحيد ونسبوا الألوهية لبعض أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ غَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ فَوَلَّاهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلٍ فَتَلَّهُمُ اللَّهُ ابْنِي يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا امْرُؤًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾﴾¹.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوِيَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مَن بَعْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾﴾².

ولما كان التوحيد محور الحياة كانت دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام متحدة ومتفقة في الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبودية، ونفي الشرك عنه³، وهذا هو دين الإسلام الذي دعا إليه كل الأنبياء والرسل، مصداق ذلك قول النبي صلى الله عليه: (نحن معاشر الأنبياء أبناء علات واحد)⁴.

1 سورة التوبة، الآية: 30 - 31.

2 سورة الحاثية، الآية: 22.

3 سيأتي مزيد بحث لهذه المسألة في الباب الثالث عند الحديث عن بعض القواعد العقديّة التي تؤسس للتعايش وتأكيده القواسم المشتركة بين المسلم وغيره من أتباع الملل الأخرى.

4 هذا الحديث أورده ابن الأثير في النهاية، بلفظ: (أولاد العلات)، وقال: الذين أمهاتهم مختلفة وأبؤهم واحد، أراد أن يماهم واحد وشرائعهم مختلفة، 29/3.

المطلب الثاني: توحيد الله أساس لتوحيد الأمة.

وقد يظهر للناظر بادئ الرأي أن هذا المطلب يناسب ذكره في المبحث الذي يتناول علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، لكنني آثرت ذكره هنا يقيناً مني بأن استقامة علاقة الإنسان بربه وصحة معتقده فيه هي الموجه الأكبر لاستقامة علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، بل وبغيره من المخلوقات، لذلك جاء هذا المطلب ليؤكد أن من مقاصد التوحيد: توحيد الأمة نحو هدف واحد وغاية واحدة، لأن وحدة العقيدة هي وحدة لجميع المنتسبين إليها حيث يجمعهم شيء واحد ورباط واحد؛ لذا فإن القرآن الكريم ينادي أصحاب العقيدة السليمة بعموم أهلها يناديهم ببناء جامع لهم وهو: يا أيها الذين آمنوا؛ وفي ذلك حث على الوحدة الإيمانية العقدية كما في غير ما موضع من الشرع منها قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾¹، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصَبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شِبَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾².

ونظراً لأهمية العقيدة في توحيد الأمة وتحريها من كل ما يفرق وحدة الصف فقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يريّ المسلمين عليها قولاً وعملاً ويحذرهم من الشرك بأنواعه، ولم يثبت أن الصحابة كانوا يتنازعون في مسائل العقيدة، لأنهم تلقوها من مصادرها الأصلية نقية صافية بكلياتها الكبرى قبل أن تشوبها الشوائب المحدثّة، وجدير بالأمة الإسلامية أن تدرك أن القواعد العقدية إذا أُحسن فهمها وتنزيلها مع الكليات الأخرى

1 سورة الأنبياء، الآية: 91.

2 سورة آل عمران، الآية: 103.

المقاصدية، والكليات الخلقية، والكليات التشريعية، هي التي «تقوي الأسس التوحيدية الجامعة للأمة الإسلامية، ومذاهبها المختلفة»¹.

فالتوحيد - كما جاء به رسول الله ﷺ، وكما فهمه الجيل الذي تربي تربية نبوية - كله دعوة إلى وحدة كلمة الأمة، ونهي عن النزاع والفرقة، لذلك أحسن صنعاً من عدّ "وحدة الأمة وانتظام أمرها" من مقاصد الشريعة الإسلامية الهامة، كما هو صنيع الشيخ الطاهر بن عاشور، وقد جزم بذلك فقال: «لم يبق للشك مجال يخالج به النفس في أن أهم مقصد للشريعة من التشريع انتظام أمر الأمة، وجلب الصالح إليها، ودفع الضر والفساد عنها، وقد استشعر الفقهاء في الدين كلهم، هذا المعنى في خصوص صلاح الفرد، ولم يتطرقوا إلى بيانه في صلاح المجموع العام، ولكنهم لا ينكر أحدهم أنه إذا كان صلاح حال الأفراد وانتظام أمورهم مقصد الشريعة، فإن صلاح أحوال المجموع وانتظام أمر الجامعة أسمى وأعظم، وهل يتركب من الأجزاء الصالحة إلا مركب صالح؟ وبذلك فلو فرض أن الصلاح الفردي قد يحصل منه عند الاجتماع فساد فإن ذلك الصلاح يذهب أدراجاً، ويكون كما لو هبت الريح فأطفأت سراجاً»².

ولأهمية هذا المقصد العظيم، صاغ علماءنا قاعدة ذهبية تدم كل خلاف ليس معتبراً، وليست له أسباب وجيهة، فقالوا في القاعدة: "**الخلاف شر**"، وأصل هذه القاعدة أثر لابن مسعود رضي الله عنه 3، وهو معنى صحيح يشهد له القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِّنْ

1 الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، الدكتور أحمد الريسوني، ص: 5، دار السلام بالقاهرة، ودار الأمان بالرباط، الطبعة الأولى 1431هـ 2010م.

2 مقاصد الشريعة الإسلامية، للطاهر بن عاشور، ص: 155.

3 أخرجه أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب الصلاة بجنى، رقم الحديث 1944، 440/5.

أَلْجِنَّةَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٨﴾¹، فدلّت الآية على أن الرحمة في الاجتماع لا في التفرق والاختلاف الذي هو سبب للتنازع والفشل، كما قال الله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾².

ولا شك أن الاختلاف في العقيدة من أخطر وأقبح أنواع الاختلاف، وهو مناف لمقصد تحقيق وحدة الأمة.

وأما ما يروى عن النبي ﷺ من قوله: (اختلاف أمتي رحمة) فلا أصل له³، وما ورد كذلك عن بعض السلف مما قد يفهم منه أن الخلاف رحمة فليس المراد به ذلك، كقول القاسم بن محمد: «لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي محمد ﷺ في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة، ورأى أن خيراً منه قد عمله»⁴، فهذا الأثر عن القاسم بن محمد وعن غيره لا يعارض ما تقدم من كلام ابن مسعود، وإنما يحمل على أن التوسعة واقعة من جهة أن الصحابة رضي الله عنهم اجتهدوا فتباينت اجتهاداتهم واختلفوا، ولم يكن اختلافهم في أمهات مسائل العقيدة، فكان ذلك توسعة على من جاء بعدهم إذا اجتهدوا واختلفوا، وقد صرح بهذا الإمام إسماعيل القاضي فقال: «إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ توسعة في اجتهاد الرأي، فأما أن يكون توسعة لأن يقول الناس بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده فيه فلا، ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا»⁵.

1 سورة هود، الآية: 118.

2 سورة الأنفال، الآية: 47.

3 انظر الكلام على هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الضعيفة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، 76/1.

4 جامع بيان العلم وفضله، للحافظ ابن عبد البر، 900/2 _ 901.

5 المصدر السابق، 902/2.

قال الحافظ ابن عبد البر بعد إيراد كلام إسماعيل القاضي: «كلام إسماعيل هذا حسن جدا»¹.

وهناك جانب آخر من التوسعة وهي أن العلماء إذا اجتهدوا وتباينت اجتهاداتهم فإن ذلك التنوع لا يخلو من مصالح تعود على الأمة، إذا كان الاختلاف سائغاً.

المبحث الثاني: مقاصد التزكية.

وتندرج في هذا المبحث كثير من المقاصد الفرعية التي تنمي الإنساني وترقيه، وتجعل علاقته بأخيه الإنسان علاقةً مؤسّسة على التعاون على البر والتقوى.

وإنما عبرت بصيغة الجمع هنا (مقاصد) باعتبار اندراج تلك المقاصد تحت مقصد التزكية، وإن كان أغلب الدراسين يذكرون مقصد التزكية مفرداً، ويأتون بالمقاصد الأخرى مستقلة عنه، وأرى -والله أعلم- أنه لا بأس فيما صنعت، إذ يشفع لي أن المقاصد الأخرى مثل مقصد العدل والحرية.. هي مقاصد تحقق تزكية الإنسان، وهي كلها تخدم هدفاً واحداً، فلا يضير الباحث إذا ذكرها مستقلةً، أو جمعها تحت مقصد التزكية.

وغير خفي لأي باحث مسلم أن التزكية من أعظم مقاصد البعثة النبوية، كما صرح القرآن الكريم بذلك في أكثر من موضع، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا

فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ²﴾، وقوله تعالى:

﴿لَفَدَّ مِّنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلَ لَهِ

ضَلَالٍ مُّبِينٍ³﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ

1 المصدر السابق، 907/2.

2 سورة البقرة، جزء من الآية: 149.

3 سورة آل عمران، الآية: 164.

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِذْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَعِي ضَلَّالٍ مُبِينٍ ﴿١﴾

وإذا كان الأمر كذلك، وكان لمقصد التزكية هذه الأهمية الكبرى، فإني سأذكر في المطالب الآتية أهم المقاصد التي أرى أنها مندرجة تحتها، وهي:

المطلب الأول: مقصد العدل

وهو مقصد عام لجميع ما جاء به دين الإسلام القائم على العدل، والعقيدة الإسلامية عقيدة العدل تدعو الناس إلى إقامة العدل ونبد الظلم، لأنه إذا كان الشرك بالله هو الظلم العظيم، فإن التوحيد هو العدل العظيم الذي لا جور فيه إطلاقاً، ولن يتأتى ذلك إلا بعقيدة صحيحة نابغة من الوحي الخالص.

ومن معاني العدل هنا البعد عن الإلهي التي تجنب المسلم الوقوع في الإفراط أو التفريط، أو الغلو أو الجفاء، حيث إنها جاءت بكليات تربّي في نفس المؤمن الموقن بما الوسط بين الغلو والجفاء، وقد نبه الإمام ابن قتيبة إلى مثل هذا الانحراف العقدي الذي وقع بسبب الإفراط أو التفريط فقال: «لما رأى قوم من أهل الإثبات إفراط هؤلاء في القدر» أي في نفيه... حملهم البغض لهم، واللجاج على أن قابلوا غلوهم بغلو، وعارضوا إفراطهم بإفراط، فقالوا بمذهب جهم في الجبر المحض، وجعلوا العبد المأمور المنهي المكلف لا يستطيع من الخير والشر شيئاً على الحقيقة، وزعم آخرون تصحيح التوحيد، ونفي التشبيه عن الخالق فأبطلوا الصفات... فعارضهم قوم بالإفراط في التمثيل، فقالوا بالتشبيه المحض، وكلا الفريقين غالط،

1 سورة الجمعة، الآية: 2.

وقد جعل الله التوسط منزلة العدل، ونهى عن الغلو فيما دون صفاته من أمر ديننا، فضلاً عن صفاته...»¹.

ولالإمام الشاطبي قولة جميلة فصل فيها الكلام في هذه المسألة فقال: «الشرعية جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخلة تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال.. فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع راداً إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال...»².

المصطلب الثاني: مقصد الرحمة.

وهذا المقصد دلت عليه أسماء الله تعالى المتضمنة لمعنى الرحمة، كاسم الله الرحمن، والرحيم، والسلام، والمؤمن، والإنسان المؤمن يتعبد ربه بكل اسم من أسمائه الحسنى، ولهذا الأسماء (الرحمن، والرحيم، والسلام) إيجاباً قوياً في نفس المؤمن، فضلاً عما توجه عليه عبوديته لربه أن يكون له من أسمائه الحسنى حظ، لأن «من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه، ويفهم في اللغة تفسيره ووصفه ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة، ليس يحسن به أن يتبجح بما ناله»³.

ولالإمام الغزالي بحث طريف في كتابه الذي أخذت منه النص السابق، حيث خصص الفصل الأول من الكتاب لشرح معاني أسماء الله التسعة والتسعين، فكان كلما انتهى من شرح الاسم الإلهي يعقبه بما يمكن أن يكون حظ الإنسان من ذلك الاسم، فلما

1 الاختلاف في اللفظ، لابن قتيبة، ص: 231-244.

2 الموافقات للشاطبي، 163/2

3 المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي، دراسة وتحقيق محمد عثمان الحشت، ص: 45، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)

انتهى من شرح معني الاسمين "الرحمن الرحيم" قال: «تنبيه: حظ العبد من اسم الرحمن: أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء، وأن يرى كل معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه، فلا يألو جهداً في إزالتها بقدر وسعه رحمةً لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله تعالى ويستحق البعد عن جواره.

وحظه من اسم الرحيم: أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره، إما بماله، أو جاهه، أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك، فيعيّنه بالدعاء، وإظهار الحزن لسبب حاجته رقة عليه وعظفاً، حتى كأنه مساهم له في ضره وحاجته»¹.

وقال بعد -شرحه لاسم الله "السلام"-: «ولن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده، فكيف يوصف به من لم يسلم هو من نفسه؟!»².

وقال -وهو يشرح اسم الله "المؤمن"-: «والمؤمن المطلق هو الذي لا يُتصور أمن وأمان إلا ويكون مستفاداً من جهته.. وهو الله... وحظ العبد من هذا الوصف أن يأمن الخلق كلهم جانبه، بل يرجو كل خائف الاعتضاد به في دفع الهلاك عن نفسه في دينه وديناه، كما قال رسول الله ﷺ: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن). قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»³.

وأحق العباد باسم المؤمن من كان سبباً لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة»⁴.

1 المصدر السابق، ص: 62.

2 المصدر السابق، ص: 67.

3 أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم الحديث: 6016، 4/ 53.

4 المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص: 67 - 68.

وإن المؤمن وهو يتدبر معاني تلك الأسماء الحسنى لربه يملأ قلبه بمعاني الرحمة والرأفة، فتظهر آثار الرحمة في تصرفاته مع غيره، «ورحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين - وإن كان دافع الإيمان المشترك يجعلهم أولى الناس بها - وإنما هو ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعاً... بل هي رحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم، فالمؤمن يرحمه ويتقي الله فيه، ويعلم أنه مسؤول أمام ربه عن هذه العجاوات. وقد أعلن النبي لأصحابه أن الجنة فتحت أبوابها لبغي سقت كلباً فغفر الله لها. وأن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فإذا كان هذا عقاب من حبس هرة بغير ذنب، فما ذا يكون عقاب الذين يجسسون عشرات الألوف من بني الإنسان بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله؟!... هذه الرحمة المتدفقة الشاملة أثر من آثار الإيمان بالله واليوم الآخرة، ذلك الإيمان الذي يرقق بنفحاته القلوب الغليظة، ويلين الأفئدة القاسية.

أرأيت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وقد كان معروفاً بالشدة والقسوة في جاهليته - كيف صنع الإيمان به، ففجّر ينابيع الرحمة والرقّة في قلبه. لقد قالوا: وأد بنتاً في الجاهلية. فلما ولي إمارة المؤمنين كان يرى نفسه مسؤولاً أمام الله عن بغلة تعثر بأقصى البلدان.

ولقد غلبت هذه العقيدة وهذا الخلق على أعمال المسلمين الأولين، ووضحت آثارها في سلوكهم حتى مع الأعداء المحاربين، فنجد رسول الإسلام ﷺ يغضب حين مرّ في إحدى غزواته، فوجد امرأة مقتولة فقال: ما كانت هذه لتقاتل. وينهى عن قتل النساء والشيوخ والصبيان، ومن لا مشاركة له في القتال.

ويسير أصحابه على نفس النهج أبراراً رحماً لا فجّاراً قساة»¹.

1 الإيمان والحياة، للدكتور يوسف القرضاوي، ص: 245 - 246 بتصرف.

إن تمثل المؤمن لقيمة الرحمة - بما هي مقصد أساس من مقاصد عقيدته السمحة - ليس شعاراً يرفعه، أو كلاماً يردده بلسانه، وإنما هو خلق يجسده في الواقع العملي بسلوك يظهر ويوجه علاقاته مع غيره ابتغاء مرضاة ربه وطلب رحمته في الدنيا والآخرة. ويمكن الإشارة هنا إلى بعض النماذج التطبيقية التي تجسد مقصد الرحمة في بناء علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وهي إشارات فقط على سبيل التمثيل، لا على سبيل الاستقصاء والحصر:

- الإحساس بمبدأ الأخوة الإنسانية، فالإنسان المؤمن ينطلق من قاعدة إيمانية راسخة رسوخ الجبال تؤكد وجود صلة قرابة بين جميع الناس، بحكم أصلهم الأول الذي منه تفرعوا وأصبحوا قبائل وشعوباً، ولهذا يخاطب الله تعالى الناس جميعاً ويذكرهم بهذا الأصل العظيم، ويدعوهم إلى التعارف والتآلف، ما دام أنهم إخوة، والأخوة تستلزم التعاون والتعارف بكل ما تحمله كلمة " التعارف " من معاني تفيد التعاون وبذل المعروف وكف الأذى، والاستفادة من التجارب والخبرات، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْفِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾¹، وتكرر خطاب القرآن الكريم للناس مذكراً إياهم بهذه الحقيقة، ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ لِتَعَارَفُوا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١٤﴾².

1 سورة الحجرات، الآية: 13.

2 سورة النساء، الآية: 1.

ومن مستلزمات إحساس المؤمن بمبدأ الأخوة الإنسانية التي هي فرع من فروع مقصد الرحمة أن يدعو غيره إلى الإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، إيماناً منه بأن النبي الخاتم أرسل رحمة للعالمين، ولا شك أن من مدلولات رحمته بالعالمين أنه جاء لينقذهم من نار جنهم، ويدخلهم الجنة، والحديث عن أهمية التراحم في الدنيا لا ينبغي أن ينسينا رحمة الآخرة، فرحمة الآخرة أولى، وأعظم، وأهم، من رحمة الدنيا، لذلك من الخطأ قصر الحديث على الرحمة الدنيوية، دون الحديث على الرحمة الأخروية، أو العكس.

- **تدريب النفس وحملها على التفكير الجماعي بدل التفكير الفردي الأناني**، وقد اشتمل القرآن الكريم، والسنة النبوية على توجيهات كثيرة، وتطبيقات متكررة، كلها تدعو الإنسان إلى أن يعلي من شأن التفكير الجماعي لما يحققه من قيم التعاون على الخير، بخلاف التفكير الفردي الذي يطغى عليه التفكير الأناني، وبلغ الأمر بعلماء مقاصد الشريعة الإسلامية وأصول الفقه أن قرروا- في أثناء حديثهم عن ترتيب الأولويات والتعارض بين المصالح- بأن المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة في حالة وُجد التعارض بينهما، وما ذلك إلا التأكيد منهم على أصالة وتقديم التفكير الجماعي على التفكير الفردي.

والتوجيهات القرآنية والحديثية التي تدعو إلى ذلك كثيرة كما أسلفت، وتكفي الإشارة هنا إلى نصين من القرآن والسنة.

فمن التوجيه القرآني قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾¹، قال الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية: «فعلى عقلاء الأقبام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا ديب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حل بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن

1 سورة الأنفال، الآية: 25.

يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوه منه بما أوتوه من الموعدة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل، لأن أضرار حلولها تصيب جميعهم.

وبهذا تعلم أن الفتنة قد تكون عقاباً من الله تعالى في الدنيا، فهي تأخذ حكم العقوبات الدنيوية التي تصيب الأمم، فإن من سنتها أن لا تخص المجرمين إذا كان الغالب على الناس هو الفساد، لأنها عقوبات تحصل بحوادث كونية يستتب في نظام العالم الذي سنه الله تعالى في خلق هذا العالم أن يوزع على الأشخاص كما ورد في حديث النهي عن المنكر في الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»¹.

فهذا المثل لحال المؤمنين مثل بليغ جداً، يوضح أن المصلحة مشتركة، وأن سلامة المؤمنين كل لا يتجزأ، فإذا أخطأ بعضهم انسحب هذا الخطأ على الباقين، ولذلك شبههم رسول الله ﷺ بقوم ركبوا سفينة وتقاسموا الأماكن، فالذين في أسفلها رأوا أنهم إذا خرقوا مكان وجودهم في أسفلها وأخذوا ماءً أراحوا من فوقهم، لكن الذين فوقهم إن تركوهم هلكوا جميعاً، فما أروع من تشبيهه يجسد حقيقة الأمة التي يتراحم أفرادها، ويفكرون تفكيراً جماعياً،

1 التحرير والتنوير، 9 / 317، والحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم الحديث: 2361.

لأنهم في سفينة واحدة، وما الحياة الدنيا إلا سفينة يركب فيها الناس جميعاً في طريقهم إلى الله، وإذا لم يتعارفوا ويتعاونوا فقد تعصف بهم عواصف وتغرقهم جميعاً.

ومن التوجيهات النبوية التي تدعو إلى التراحم والتضامن ذلك المثل الرائع الذي ضربه رسول الله ﷺ للمؤمنين حقاً، وهو الحديث الذي سمعه النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»¹.

- قبول الحق من أي جهة جاء، فمن تمام تجليات مقصد الرحمة أن المؤمن يقبل الحق من أي جهة جاء هذا الحق، لأن المؤمن ينشد الخير ويجب الحق والحكمة، ولا يهمله إلا ظهور الحق والصواب، سواء ظهر على لسانه، أو على لسان غيره، وهذا شأن كل عاقل، أن يطلب الحق ويسعى إليه، لأن الوصول إلى الحق والحكمة أفضل ما يُطلب، وقد قال سيد العقلاء محمد ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها»².

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الدين النصيحة كما صح عن رسول الله ﷺ، وهو أيضاً سبب خيرية هذه الأمة كما قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾³، وقد أشار الإمام الرازي إلى السر في تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، فقال: «والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له، يدل على كون ذلك الحكم معللاً

1 أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم: 6011، وأخرجه مسلم م في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاظدهم، رقم الحديث: 2586.

2 أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم: 2678، ص: 632.

3 سورة آل عمران، جزء من الآية: 110.

بذلك الوصف، فهذا هنا حكم تعالي بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة، ثم ذكر عقبيه هذا الحكم وهذه الطاعات، أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات»¹.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل على حب المؤمن الخير لغيره، وأن نفعه يتعدى إلى غيره.

المصلب الثالث: مقصد العربية

فالعقيدة الصحيحة هي التي تحقق لمن اعتنقها الحرية الحقيقية، إذ لا حرية إلا في ظل توحيد الله الواحد الفرد الصمد، ومن يتأمل هذه العقيدة في صفاتها ونقائنها يدرك أنها عقيدة جاءت لرعاية مصالح الإنسان في هدايته إلى الدين الحق، والإيمان الصحيح، مع تكريمه والسمو به عن مزالق الضلال والانحراف، وإنقاذه من العقائد الباطلة، والأهواء المختلفة، والشهوات الحيوانية، فجاءت أحكام العقيدة لترسيخ الإيمان بالله تعالي، واجتناب الطاغوت، ليسمو الإنسان بعقيدته وإيمانه إلى العلياء، وينجو من الوقوع في شرك الوثنية، وتأليه المخلوقات من بقر وقرود، وشمس وقمر، ونجوم وشياطين، وإنس وجن، ويرتفع عن الأوهام والسخافات والخيالات، والأمثلة على ذلك واضحة وصريحة وكثيرة، من التاريخ القديم والحديث، ومذكورة في النصوص الشرعية، وبذلك يتحرر الإنسان ويخرج من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

فإذا تحرر الإنسان من عبودية غيره من المخلوقات، وتحققت عنده الإرادة النقدية التي تؤهله للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون بذلك قد بلغ مرتبة «الصفاء المعرفي الذي يتأسس عليه مبدأ الحرية الإنسانية في صياغة الحياة الطيبة التي هي جوهر المقصد العام لاتباع منهج العقيدة الإسلامية، الحرية التي منطلقها قاعدة التوحيد، ووسطها العلم والمعرفة والفكر،

1 مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، 198/8.

ومنتهاها الإصلاح في الأرض وإيقاف الإفساد فيها. وبهذا تكون الحرية رحمة ربانية تجلب المصلحة الشرعية، والمصلحة غاية ربانية راجعة للمكلف تجلب له الحرية وتدفع عنه الاستعباد لغير الله تعالى»¹.

وفي ظل التوحيد يعيش الإنسان الحرية الكاملة، إذ يتحرر من جميع الأغلال والقيود التي تقيد حريته وتجعل علاقته بأخيه الإنسان علاقة قلق واضطراب، وقد ضرب الله تعالى في كتابه أروع الأمثال لبيان حال الإنسان الموحد المتحرر من جميع أنواع العبودية، وكذا حال المشرك الذي يعيش في عبودية لأرباب متفرقين، فقال عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا إِنْ حَمَدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾². قال الإمام الرازي في تفسير الآية الكريمة: «والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغلبة، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ لَبَسَدَتَا فَبَسَحَسَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾³، فيبقى ذلك المشرك متحيزاً ضالاً، فهمه شفاع وقلبه أوزاع، أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه، فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول، وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد»⁴.

1 مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي، د. عبد الرحمن العضاوي، ص: 63_64.

2 سورة الزمر، الآية: 28.

3 سورة الأنبياء، الآية: 22.

4 مفاتيح الغيب، للرازي، 26/ 277.

فمن رام تحقيق الحرية والانعتاق فليحرر نفسه وقلبه من التعلق بغير الله الواحد الأحد، وبذلك يستسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها كما قال تعالى: ﴿بِمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾¹.

ومن أسمى درجات الحرية حرية التفكير التي تجعل الناس يستعملون عقولهم ويعبرون عن آرائهم دون كبت، ولعلال الفاسي كلام نفيس في هذا المقام، يقول فيه: «إن الفكر حر لا يستطيع أحد أن يقيدته، ولم يجعل الله لأحد سلطاناً على حركة الإنسان الداخلية، هكذا تعود الناس أن يقولوا، ولكن هذه الحرية التي يحمدون الله عليها لا قيمة لها إذا لم يكن لها الحق في أن تظهر للناس، أي: في أن نعطي لصاحبها حق التظاهر بما يعنُّ له من فكر، والإعراب عما يخطر بباله من رأي. إن عدم الإعراب عن أفكارنا من أهم أسباب خنق هذه الأفكار، وإذن فهو من أعظم وسائل الغضب لحرية التفكير، وإن الخاصة من ذوي الفكر أنفسهم لا يجدون متعة بأفكارهم إذا لم يسمح لهم بالإعراب عنها، بل قصارى حالهم أن يتعودوا الكبت الذي يفقدهم تدريجياً عادة النظر بما يستصحبها من آلام وأكدار»².

وفي ظل الحرية يتحقق التعارف الحقيقي بين الناس، وهو أيضاً مقصد معتبر نصَّ عليه الوحي كما سبق في آية سورة الحجرات، وإذا تحقق التعارف في ظل الحرية استفاد منه الناس جميعاً، وليس التعارف ذلك الذي يفرض فيه طرف غالب على طرف مغلوب ثقافته ونمط عيشه، كما تنادي بذلك الرأسمالية الجشعة، والعمولة المتوحشة، كما أن التعارف ليس المقصود به «ذلك المعنى الساذج المتمثل في أن يعرف الواحد اسم الآخر ونسبه أو يعرف أن هناك أمماً وشعوباً غير أمته وشعبه، ولكن المقصود به يتسع ليشمل معنى العيش الواحد في

1 سورة البقرة، جزء من الآية: 255.

2 النقد الذاتي، علال الفاسي، ص: 59، نشر: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط: 9، (د.ت).

الوطن الواحد بين المختلفين ديناً، ويشمل معنى العيش المشترك في الأرض كلها وإن اختلفت البلدان والأديان، ولو كان الناس لا يتعايشون إلا إذا توافقوا في الدين لما استطاعوا أن يعمّروا الأرض ولا أن يمشوا في مناكبها، ولا أن يتبادلوا المنافع والمعارف ولا اختلّ بذلك ميزان الاجتماع البشري والعمران الكوني. ولأن الناس لا يستغني بعضهم عن بعض مهما تباينت عقائدهم واختلفت شعائر عبادتهم فقد أبحاث الأديان السماوية كلها التعامل بين المؤمنين بها وبين غيرهم، مع وضع النظم التفصيلية التي تكفل المحافظة على الدين وتكفل ما تقتضيه الحاجة البشرية من صور التعامل وأنواع العلاقات»¹.

وبذلك يتحقق التكامل والتعاون بين الناس، مهما اختلفوا، لأن الاختلاف لا يمنع التعاون والتضامن بين الناس، وخاصة في ترسيخ القواسم المشتركة بينهم، وهي كثيرة جداً، وتمثل دائرة القيم المشتركة مدخلاً أساسياً لهذا التعاون والتكامل.

وفي ظلال الحرية يقلُّ الاستبداد الذي هو داء يؤذن بالخراب كما فصل ذلك المفكر عبد الرحمن الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، وخلص إلى أن الاستبداد «أعظم بلاء، يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة. نعم، الاستبداد أعظم بلاء لأنه وباء دائم بالفتن، وجذب مستمر بتعطيل الأعمال، وحريق متواصل بالسلب والغصب، وسيل جارف للعمران، وخوف يقطع القلوب، وظلام يعمي الأبصار، وألم لا يفتر، وصائل لا يرحم، وقصة سوء لا تنتهي»².

1 للدين والوطن: فصول في علاقة المسلمين بغير المسلمين، محمد سليم العوا، ص: 30، نخضة مصر، الطبعة الأولى 2006م.

2 طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي، ص: 44، تقديم الدكتور أسعد السحمراني، شركة كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة مصر، (د.ت).

المبحث الثالث: مقاصد العمران.

ويندرج في هذا المبحث كما تقدم في التمهيد كل المقاصد التي تنظم علاقة الإنسان بالكون، وتبدأ هذه العلاقة بإدراك الإنسان أن من مقاصد وجوده في هذا الكون أن يحسن عمارته بالخير والصلاح والإصلاح، وسأحاول في المطالب الآتية بيان أهم ما يرتبط بهذا المبحث، فأقدم تعريفاً لمفهوم العمران، وأهميته، وما يندرج تحت هذا المقصد من مقاصد، تمييزاً للمقاصد السابقة، وتمهيداً للباب الأخير من أبواب البحث:

المصطلب الأول: مفهوم العمران وأهميته.

وسأنتقل - في بيان مفهوم العمران وبيان أهميته من قول الله تعالى -: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعْبِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝۱﴾¹.

قال الإمام الطبري مؤكداً معنى العمارة في الآية: «يقول: وجعلكم عماراً فيها، فكان المعنى فيه: أسكنكم فيها أيام حياتكم»².

وقال جمال الدين القاسمي في تفسير الآية: «أي كَوْنَكُمْ منها وحده، فإنه خلق آدم، ومواد النطف التي خلق نسله منها، من التراب واستعمركم فيها أي عمركم فيها، أو جعلكم عمارها، أي جعلكم قادرين على عمارتها، كقوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا نُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ

1 سورة هود، الآية: 60.

2 جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، 15/ 368، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ 2000م.

وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٣﴾¹، فاستغفروه أي من الشرك، ثم توبوا إليه بالتوحيد إن ربي قريب مجيب أي قريب الرحمة لمن استغفره، مجيب دعاءه بالقبول².

فقد بين الله تعالى في الآية السابقة من سورة هود، أنه خلق الإنسان في الحياة الدنيا لغايتين: عبادته سبحانه كما شرع، وعمارة أرضه كما أمر، وهما أمران متلازمان، لا يتحقق أحدهما دون الآخر.

وتتجلى أهمية عمارة الأرض بالخير والصلاح في كون ذلك يحقق المقصد من خلق الإنسان، وبتحقيق العبادة لله الخالق وعمارة الأرض ينسجم الإنسان مع الكون الساجد، وينضم إلى سرب العابدين، «ودعوة الناس إلى الله هي دعوة لهم ليعودوا إلى سرب العابدين. إنها العودة إلى نسق المدار، حيث تدور الأفلاك بأجرامها سيراً إلى الله الواحد الأحد. إن عناصر الوجود كلها- إلا من استثنى الله من العصاة ومردة الجن والإنس - تسير إلى ربها الخالق لها سير شوق وتوق إلى مصدر النور والحياة. فالدعوة: نداء للشاردين عن وجهة الكون الواحدة الموحدة: الله رب العالمين! إن الكافر أو الفاسق أو العاصي، أو كل من شذ عن فلك الحق، هو - بالضرورة - في خصام مع عناصر الكون جميعاً! من حيث كونها كلها موحدة لسيرها بمداراتها وأفلاكها، وهو وحده شارد في فوضى الضلال، لا يفتأ يصطدم مداره المختل بمداراتها المنتظمة، المصطفة، في سعيها إلى الرب العظيم، الملك الحق، القدوس السلام، مصطفة في صفوف، كصفوف الصلاة في المعنى التعبدي.

ومن هنا وجدنا القرآن لا يفتأ يذكر بهذه الحقيقة العظمى: الأخوة الكونية والتناسق في توحيد السير إلى الله بين مختلف عناصر الطبيعة والخلق.

1 سورة الأعراف، الآية: 73.

2 محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، 113/6، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ.

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾¹، فالقرآن الكريم يعرض الوجود كله عرضاً متناسقاً في سيره نحو خالقه. فكل الأرضين، وكل الأجرام، وكل الكواكب والنجوم، وكل السماوات، وكل المدارات، وكل ما هنا وهناك، على امتداد هذا الملكوت، كل شيء.. كل شيء، دائر في فلك الله الواحد الأحد. وإنما يبقى جزء من هذا الإنسان، وقبيل الشيطان، هم الذين يمارسون شذوذاً وشروداً، بتمزيق وحدة الوجهة نحو الخالق العظيم!²

المطلب الثاني: مقصد التفكير.

وقد يبدو للناظر أن ذكر هذا المطلب في مقاصد التزكية، أو مقاصد التوحيد أنسب من ذكره هنا، وهذا صحيح، لأن التفكير وسيلة من وسائل تثبيت التوحيد في النفوس، وهو أيضاً من مداخل التزكية وترقية النفس، لكن دعاني لذكره هنا أمران هما:

الأول: أن هذه المقاصد متكاملة فيما بينها، ولا ينفصل بعضها عن بعض، والنظر ينبغي أن يكون إلى الخيط الجامع بينها، حتى تحقق غاياتها، وتسهم في تشكيل الوعي لدى المسلم، الذي يتحقق فيه ما جاءت به مقاصد التوحيد الجامعة المانعة، ويرتقي في سلوكه وأعماله، ويتحرر من جميع أنواع الاستعباد والاستبداد، فيكون ولاؤه المطلق لله الخالق المتفرد بجميع صفات الجمال والجلال، ويحسن التعامل مع الكون على نحو ما سبقت الإشارة إليه في مفهوم العمران، وعلى ما سيأتي قريباً في مقصد التسخير.

1 سورة الحج، الآية: 18.

2 البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، د. فريد الأنصاري، ص: 147-148، الناشر: ألوان مغربية للنشر والتوزيع مكناس المغرب، الطبعة الأولى 1424هـ 2003م.

الثاني: أن الحديث عن مقصد التسخير-بما هو ركن أساس من أركان مقاصد العمران- سيكون حديثاً غير مكتمل إذا لم يُقدم له بمقصد التفكير، لأن مقصد التسخير نتيجة لتحقيق التفكير والنظر في هذا الكون، فالأساس الذي يبنى عليه التسخير فهماً وتدبراً لمقدماته ومآلاته هو التفكير، وما من في أن الفكر والنظر والتأمل والاعتبار هو الخطوة الأولى التي تسبق قيام الإنسان بأي عمل في هذه الحياة، وعلى ضوء سلامة الفكر تتحدد سلامة الخطوات التي يخطوها الإنسان في هذه الدنيا، ومن هنا كان الحديث عن مقصد التفكير في هذا المطلب تمهيداً للحديث عن مقصد التسخير، فما التفكير إذن؟ وما أهميته؟

المسألة الأولى: مفهوم التفكير والنظر والتأمل.

أما مفهوم التفكير فإنه في اللغة يرجع إلى معنى: تردُّد القلب في الشَّيء والتأمل فيه. جاء في لسان العرب: «التفكير التأمل، والفكر: إعمال الخاطر في شيء»¹.

وقال ابن فارس: «الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبراً»².

واصطلاحاً عرفه الشيخ الطاهر ابن عاشور بأنه: «جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح»³.

ويقول الإمام الفراهي في تفسير "الفكر" و"الذكر" و"الآية" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيَلَمَّا وَفَعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

1 انظر: ابن منظور، لسان العرب، 65/5.

2 ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4/446.

3 الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، 244/4.

وَيَتَّبِعُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا
سُبْحَانَكَ قَبْلَنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾¹: «الفكر» هو النظر فيما وراء الشيء، وربما
يسمى اعتباراً، فهو سلّم إلى فوق، فإذا انتهى إلى ما هو المنتهى رجع القهقري أو وقف،
ولكن التوقّف ليس من شأن الفكر، فلا بد من رجعة بعد المنتهى، ولذلك منع عن الفكر في
ذات الله إلى الفكر في آلائه... وأما "الذكر" فهو القيام على الشيء، وحفظه والتجرد إليه
في سكون، كما أن "الفكر" حركة، والذكر بعد النسيان أو الغفلة مثل رد السكون إلى
الشيء بعد الذهاب أو الالتفات عنه، وأما "الآية" فتتعلق بكليهما، فبالآية تُذكر ما نسيته،
وكذلك تُحثُّك على الفكر، فهي مُحَرِّكة لكلا القوتين².

والتفكير أو التفكير عملية معقدة تقوم على دعائم أساسية من تجريد وخيال وحكم
وتذكر واستدلال ونظر، وللقرآن الكريم منهج فريد في بيان هذه الدعائم، يمكن تلمسها
واستنباطها من نصوص كثيرة، وهو كما قال البقاعي: «يحتاج إلى شيء من الصبر والتكلف،
وتصرف القلب في طلب المعنى، ومبدأ ذلك معنى يخطر الله تعالى على بال الإنسان فيطلب
متعلقاته التي فيها بيان عنه من كل وجه يمكن منه»³.

ولما كانت عملية التفكير تحتاج إلى نظر وتأمّل فلا بأس أن أعرج على تعريف هذين
المصطلحين قبل ذكر بعض النصوص القرآنية التي تدعو إلى التفكير والنظر والتدبر.

فالنظر كما عرفه الراغب الأصفهاني: «تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته،
وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرؤية، يقال:

1 سورة آل عمران، الآية: 190 - 191.

2 مفردات القرآن، الفراهي، ص: 302.

3 البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 4 / 11.

نظرت فلم تنظر. أي: لم تتأمل ولم تتروّ...¹، ثم ذكر الراغب بعض الآيات القرآنية التي فيها النظر مستعملاً في إفادة المعنى الأول أو المعنى الثاني، وسيأتي الحديث عن ذلك عند ذكر بعض النصوص القرآنية في التفكير والنظر.

والتأمل لغة: مصدر للفعل تأمّل، وهو مأخوذ من مادة (أَمَل)، قال ابن فارس: «(أَمَل) الهمزة والميم واللام أصلان: الأول: الثبت والانتظار...»، وقال أيضاً: «التأمل الثبت في النظر²».

واصطلاحاً: يمكن تعريفه بأنه: «هو تدقيق النظر في الكائنات بغرض الاتعاظ والتذكر»³.

هذا ولما كان النظر سابقاً على الفكر، والنظر يحتاج إلى البصر المؤدي إلى البصيرة، وابتداءً يقصد بالنظر المشاهدة، ولولا إمكانية المشاهدة المبدئية للشيء، لما تمكن الإنسان من تكوين صورة له في العقل، وبعدها يأتي دور التأمل الذي يأخذ وظيفة رسم التفاصيل الدقيقة، ومما يترتب على النظر حصول اليقين بما نظر فيه الإنسان وتمعن، لذلك فالإيقان بالشيء: «هو العلم بحقيقته بعد النظر والاستدلال، ولذلك لا يوصف الله باليقين»⁴.

1 المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص: 812-813، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، 1412هـ.

2 معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، 1/ 140، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م.

3 نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، صالح بن عبد الله ابن حميد وآخرون، 3/ 843، دار الوسيلة للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الرابعة.

4 التعريفات للجرجاني، ص: 40، تحقيق وضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، 1403هـ/1983م.

المسألة الثانية: دعوة القرآن الكريم إلى التفكير والنظر والتأمل.

لم يرد في القرآن الكريم لفظ التأمل صراحة، بل وردت الإشارة إليه في كثير من الآيات التي تدعو إلى النظر والتفكير في خلق الله والتثبت في رؤية عجائب الكون الفسيح وما فيه من الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه، وتتبع الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ النظر والتفكير وما قاربهما في المعنى ندرك أن مقصد التفكير من المقاصد الأصيلة في القرآن الكريم، وهو مفتاح من مفاتيح الهداية، وإنما كانت له هذه الأصالة وهذه الأهمية لأن إصلاح الفكر البشري بالتفكير السليم هو الوسيلة العاصمة من قاصمة التفكير الخرافي، وبما أن المقام لا يتسع لذكر جميع الآيات أو أكثرها في موضوع التفكير والنظر والتأمل، فسأكتفي بذكر طائفة منها ترشد إلى المقصود.

- ومن الآيات القرآنية- التي جعلت التفكير في الكون طريق العقلاء يسلكونه في الاستدلال على عظمة الخالق المتفرد بالوحدانية- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْجُلُودِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْبَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾¹، فقد اشتملت الآية الكريمة على دعوة أصحاب العقول على اختلاف تخصصاتهم للنظر في كل هذه المظاهر الطبيعية المبتوثة في الكون، من أجل التعرف على طبيعة القوانين والنواميس الحاكمة لها، لا مجرد الترف المعرفي، ولكن لأجل التعرف على الخالق الواحد، والإذعان له والاعتراف بحقه في العبادة والتقديس، ونبذ سائر أنواع التفكير الخرافي.

1 سورة البقرة، الآية: 163.

- ومن الآيات القرآنية التي اعتبرت التفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار مدخلاً من مداخل الإيمان بالله، قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وَفُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَّبِعُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَفْتَ هَذَا بَطِيلاً سَبْحَانَكَ ۖ فِينَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾¹، قال الشيخ أبو زهرة في تفسير الآيتين: «وفى الحق، إن هذه الآيات تدعو إلى التدبر والتفكير في هذا الكون العظيم، وصانعه الحكيم، ومبدعه ومنشئه من العدم، والآيات: الأمارات الواضحة الدالة على قدرة الصانع وسلطانه وكمال حكمته، واختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما، مع تحالف مظاهرها، فهذا نور ساطع، وذلك ظلام حالك، وفي النهار الشمس التي تمد الأرض بحرارتها وأشعتها، وبها يحيا النبات ويحيا الإنسان، وفي الليل النجوم الزاهرة، والقمر الباهر، وأولو الألباب هم أهل العقول المدركة التي تنفذ إلى لب الأشياء، ولا تكتفي بظواهرها... والتفكير في السماوات والأرض له ثلاث درجات بعضها أعلى من بعض، أدناها أن ننظر إلى السماء وما فيها من نجوم وكواكب وشمس وقمر وأبراج، وما فيها من نظام بديع محكم، وهذه هي النظرة العامة التي تكون لذوي الألباب وغيرهم، لأن هذه النظرة أساس الحس وإشراق المحسوس.

والمرتبة الثانية التفكير في خلقها وأسرار وجودها ونواميسها وقوانينها، وهذا ما يفكر فيه علماء الكونيات الذين يعرفون ما اشتمل عليه الكون من قوى وما أودعها الخالق من أجرام وقوانين لسيرها.

1 سورة آل عمران، الآية: 190 - 191.

المرتبة الثالثة وهي أعلاها، وهي النظرة التي تتجه إلى الخالق من وراء المخلوق، فيتدبر الكون وما فيه ليدرك عظمة المبدع، فيتعرف من جمال الصنعة جلال الصانع، وهذا النوع هو المذكور في هذه الآية وهو أعلى مراتب العبادة، وقد كان بعض الصحابة يقول: "إن ضياء الإيمان التفكر".

وإن هذا النوع الأخير من التفكر يجعل القلب يخضع واللسان يخشع فينطق مستشعراً عظمة الله قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَلِإِلاَّ سُبْحَانَكَ فَبِئْسَ عَذَابَ الْبَارِئِ ﴿١٩١﴾^{1،2}».

- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلَاقَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الْفَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَقْبَلَتْ قَالَ يَلْفُومٌ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّكْرِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيبًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٠﴾³.

والذي يطمئن إليه القلب في تفسير هذه الآيات ما ذكره بعض المحققين من المفسرين الذين ينزهون تفاسيرهم من بعض الروايات الإسرائيلية التي لا تتورع في نسبة ما لا يليق إلى أنبياء الله ورسوله عليهم الصلاة والسلام، ومن حرر القول في تفسير الآيات السابقة

1 سورة آل عمران، جزء من الآية: 191.

2 زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، / 546-547، دار الفكر العربي.

3 سورة الأنعام، الآية: 76-80.

الإمام ابن كثير، حيث رجح أن المقام هنا مقام مناظرة من إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه وقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام، وليس مقام نظر في حال طفوليته، ونصُّ كلامه: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس، ثم القمر ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدره بسير معين، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، (فَأَلَّ يَفْقُومَ إِنَّ بَرِّئَةً مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾) أي: أنا بريء من عبادتكم ومولاتكم، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون، (إِنَّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ بِطَرِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيباً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها»¹.

1 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 261/3، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

وجمع الله تعالى في نص واحد بين التفكير والنظر بأسلوب الاستفهام الإنكاري لدم الذين يتركون التفكير والنظر ويتمادون في تكذيب آيات الله، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَإِنَّمَا لَهُمْ إِيَّاكَ كَيْدٌ مَّتَّيْنٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَّبِعُوا مَا بَصَّحْتَهُمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ افْتَرَبَ أَجْلُهُمْ قَبَائِي حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾¹، يقول ابن عطية في تفسير الآية: 184 من النص السابق: «ويظهر من رصف الآية أنها باعثة لهم على الفكرة في أمر محمد ﷺ، وأنه ليس به جنة كما أحالهم بعد هذه على النظر ثم بين المنظور فيه، كذلك أحال هنا على الفكرة ثم بين المتفكر فيه... وقوله: (وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) لفظ يعم جميع ما ينظر فيه ويستدل به من الصنعة الدالة على الصانع ومن نفس الإنس وحواسه ومواضع رزقه، و «الشيء» واقع على الموجودات»².

- وضرب الأمثال في القرآن الكريم ضرب من ضروب الدعوة إلى التفكير، فقد «ضرب لهذه الأمة الأمثال في هذا القرآن العظيم، ليتفكروا بسببها، ويبن أنها لا يعقلها إلا أهل العلم، وأن الله يهدي بها قوماً، ويُضل بها آخرين، وهذه الآيات الدالة على ذلك كله، فمنها... قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ ﴿١٨٦﴾﴾³، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا

1 سورة الأعراف، الآية: 182-185.

2 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق أبو محمد المشهور بابن عطية الأندلسي، 2/ 483، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، 1422هـ.

3 سورة الحشر، جزء من الآية: 21.

يَعْفُلُهَا إِلَّا الْعَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾¹... والآيات الدالة على ذلك كثيرة معلومة، والعلم عند الله تعالى»².

والمثل هنا ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو مسوق لمقصد آخر لا نستطيع الوصول إليه إلا بإعمال الفكر والتدبر والتأمل، ولذلك ناسب التعقيب في آيات الأمثال باستعمال لفظ "التفكير"، و"التعقل".

- ومن صريح ما جاء بصيغة الأمر في الدعوة إلى النظر والتأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٤٢﴾³، والأمر بالنظر في الآية الأولى ليس مراداً به مجرد النظر العادي بحاسة البصر، وإنما المقصد ما يعقبه من الاعتبار والتأمل بعد التبصر، أي المعرفة الخاصة بعد الفحص كما تقدم في تعريف الراغب للنظر، وجاءت الآية الثانية بعد الأمر بالنظر المؤدي إلى الاعتبار لتبين مآل السابقين الذين لم يعتبروا ولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، وهذا من عجيب الخطاب القرآني في الدعوة إلى النظر والاعتبار بأخبار الأمم قبلنا، إذ ينبه على القصد من التاريخ، وهذه مسألة في غاية الأهمية لها علاقة بالتفكير والنظر تلخص لنا جزءاً من منهجية فلسفة التاريخ انطلاقاً من القصص القرآني، فهو كما يقول الشيخ عمر عبيد حسنه: «لم يكن من باب سرد التاريخ والحكايات الغابرة، بعيداً عن بيان الأسباب والسنن الاجتماعية، وإنما كان صورة بشرية كاملة الأبعاد لتعامل الإنسان مع التكليف السماوي في حالاته

1 سورة العنكبوت، الآية: 43.

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الحكيني الشنقيطي، 6/ 56.

3 سورة يونس، الآية: 101-102.

المتعددة، والسنن التي تحكم هذه المسيرة البشرية، أو القوانين والأفكار التي يخضع لها الفعل التاريخي، الذي يعتبر دليل صدقية هذه السنن ومختبرها، بعيداً عن الأماني والرغبات.. وبذلك تقف الأمة المسلمة على قمة التجربة البشرية، بمواقعها المختلفة وحالاتها المتعددة، الأمر الذي يبين خطورة الأمانة وعظيم المسؤولية، وبمنحها القدرة على التجدد والتجديد الذاتي»¹.

- ومن عجيب الخطاب القرآني أيضاً في الدعوة إلى النظر والتفكير أنه يفرق بين مستويين من النظر: المستوى الأدنى العادي الذي يستوي فيه جميع المخاطبين، ويتأتى منهم جميعاً، ويستعمل فيه فعل النظر متعدياً بحرف الجر " إلى "، والمستوى الثاني: المستوى الأعلى والأرقى للنظر، وهو الذي يصحبه التأمل والغوص في حقيقة الشيء المنظور فيه، ويستعمل في الدلالة على هذا المستوى الرفيع فعل النظر متعدياً بحرف الجر " في " ².

- فمن شواهد النوع الأول قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِفَتْ ۖ ﴾ ^{١٤} وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ ^{١٥} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ ^{١٦} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ ^{١٧} ³، والخطاب في الآيات لعامة الناس، كما هو حال أهل مكة، فهم ينظرون كل يوم إلى هذه الموجودات التي تحيط بهم، لكنه نظر بعين البصر يستوي فيه كل ناظر، فاستعمل النظر فعل النظر متعدياً بـ: "إلى".

1 من مقدمة الشيخ عمر عبيد حسنه لكتاب الأمة بعنوان: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، تأليف مصطفى محمد حميداتو، ص: 10 بتصرف يسير، العدد 57، شهر محرم 1418هـ، السنة السابعة عشرة.

2 تنوع وتفاوت معاني حروف الجر في اللغة العربية أمر عجيب استدعى دراسات عميقة من لدن اللغويين والأصوليين والفقهاء والمفسرين، كلٌّ من زاوية تخصصه.

3 سورة الغاشية، الآية: 17-20.

- ومن شواهد النوع الثاني قوله تعالى: ﴿بَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۗ﴾ ^(٨٨) **قَالَ إِنَّ** سَفِيمًا ^(٨٩) ¹، وهنا استعمل كتاب الله فعل النظر متعدياً ب: " في"، ليبين أن نظر إبراهيم الخليل عليه السلام يختلف عن نظر العامة، فهو نظر تأملي تدبري.
- ومن النصوص القرآنية التي تدعو إلى التفكير والنظر قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۗ﴾ ^(١٨) **فَلْ سِيرُوا فِي** الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١٩) ²، وما أكثر الآيات القرآنية التي حضت على السير في الأرض، وعلى التفكير في خلق الله.
- وانظر إلى الربط العجيب بين ذكر بعض ما سخره الله للإنسان، وبين الأمر بالنظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، لترسيخ هذا الركن الإيماني في قلوب المخاطبين (الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور) ، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَتْرَىٰ أَلُودًا يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ ۗ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۗ﴾ ^(٤٧) **وَإِن كَانُوا مِن** قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ^(٤٨) **فَانظُرْ إِلَىٰ** أَثَرِ رَحْمَتِ

1 سورة الصافات، الآية: 88-89.

2 سورة العنكبوت، الآية: 18-19.

اللَّهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَى وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَدِيرٌ ﴿٤٩﴾¹.

- ومن النصوص القرآنية أيضاً التي تنبه المخاطبين إلى ضرورة التفكير والتأمل قوله تعالى:
﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفِرَادِي ثُمَّ
تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾².

- ومن النصوص التي يستفاد منها الحث على التفكير والنظر: دعوة القرآن الكريم إلى
الاعتبار، وذلك قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾³.

قال الإمام الباجي المالكي: «...فكأنه قال في هذه الآية: اعلّموا أنكم إذا صرتم إلى
الخلاف والشقاق، صارت حالكم حال بني النضير، واستحققتم من العذاب مثل الذي
استحقوه، إلا أن اللفظ ورد عاماً في الاعتبار، فوجب حمله على عمومهم في الأمر بكل
اعتبار إلا ما خصه الدليل، وإن كان السبب الذي ورد فيه من الإخبار عن بني النضير
خاصاً»⁴.

1 سورة الروم، الآية: 47 - 49.

2 سورة سبأ، الآية: 46.

3 سورة الحشر، جزء من الآية: 2.

4 إحكام الفصول في أحكام الأصول، لأبي الوليد الباجي، ص: 478، تحقيق: عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة
بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ 1989م.

ومال أيضاً إلى تفسير الاعتبار بهذا المعنى العز بن عبد السلام، حيث قال- في معرض ذكره أدلة الأصوليين لجواز القياس-: «من العجيب استدلالهم بهذه الآية على جواز القياس مع أن الاعتبار في الآية يراد به الاعتنا والازدجار»¹.

هذه أهم النصوص القرآنية في الدعوة إلى التفكير والنظر والتأمل، ذكرتها بين يدي مقصد التسخير للعلاقة الوثيقة بينهما، وقبل الانتقال إلى الحديث عن مقصد التسخير، أختتم هذا المطلب ببعض الإشارات المهمة، وهي:

- تكرر الحديث في المطلب السابق عن الكون، فما الكون؟ إن أوجز تعريف للكون هو هو «الوجود الخارجي الذي يدركه الإنسان ويوجه إليه عقله وقلبه، هو هذه السموات والأرض، وهذه النجوم والكواكب والأفلاك والمجرات، وهذه الكائنات الحية، والظواهر الكونية المتناسقة الجميلة، وهو هذا الليل والنهار، وهو هذا الذي نشاهده وهذا الذي نجده غيباً محجوباً، وهو بشموله واتساعه وارتباط حوادثه ببعضها وفق سنة الله التي فطره عليها»².

- إن الناظر في مفهوم التفكير من خلال النصوص السابقة، ومن خلال النصوص الأخرى التي ضاق المقام لذكرها، يلحظ أن التفكير والنظر هو بحق طريق الإيمان والاعتقاد الصحيح بالله -عز وجل- وبآياته وبرسله، ذلك أن التفكير والنظر ليس مقصوداً لذاته، أو ليس ترفاً معرفياً يراد لذاته، وإنما هو وسيلة من وسائل التعرف على آثار بديع صنع الله البارئ المصور، للوصول إلى الإيمان الحق بالله الحق.

- يحسن التذكير في هذا المقام بأن التفكير والتدبر ينبغي أن يكون في كتاب الله المسطور وفي كتاب الله المنظور، والمسلم مطلوب منه أن يحقق التفكير والتدبرين معاً، فإذا تفكر

1 نقل عنه ذلك الإمام الزركشي في كتابه: البحر المحيط، 7/ 29.

2 أساليب الدعوة المعاصرة، رسالة دكتوراه، قسم الدعوة والاحتساب، كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، حمد بن ناصر العمار، 1/ 51، 1414هـ.

المسلم بكتاب الله المسطور، وبمعجائب الكون المنظور؛ وصل إلى حقيقة الإيمان، وسكينة اليقين، وبذلك يرتقي في درجات العبودية.

- نستنتج من النصوص السابقة، ومن النصوص الآتية في مقصد التسخير، أن الله تعالى يقرن بين التسخير والتفكير، إذ غالباً ما يعقب ذكر الآيات المشتملة على المسخرات بالحث على التفكير، وكأن التفكير هو الوسيلة الموصلة إلى فهم طبيعة هذه الآيات الكونية التي تفضي هي نفسها إلى نتيجة واحدة هي أن وراء هذا الكون المسخر إلهاً واحداً يستحق من الإنسان الشكر على هذه الآيات المسخرات، وأول منازل هذا الشكر: العبادة، وتتلو هذه الحقيقية حقيقة أخرى هي أن هذا العالم الدنيوي لم يكن ليخلق عبثاً، بل هو مطيتنا إلى العالم الحقيقي، وهذه حقيقة نطق بها القرآن الكريم على لسان المؤمنين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَفْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ وَفِنَا

عَذَابِ النَّارِ ﴿١١﴾¹.

المصلب الثالث: مقصد التسخير.

إن تسخير الله تعالى وتطويعه كل ما في الكون للإنسان المستخلف أمر يدعو حقاً إلى التأمل العميق فيما وراء ذلك من المقاصد والغايات، ذلك أن هذا التسخير قد كثر الحديث عنه في القرآن الكريم في سياقات عدة بأساليب مختلفة تتراوح ما بين أسلوب الاستفهام الإنكاري، وبين أسلوب الخبر، ومن المعلوم أن الله تعالى لا يكثر من ذكر شيء في كتابه الخالد المعجز إلا لحكمٍ باهرة، وجدير بالمخاطب أن يتعقل ويتدبر تلك الغايات والحكم، ويحسن التعامل معها، وهذا ما فقهه أسلافنا من الراسخين في العلم، ففهموا ما تنطوي عليه آيات التسخير وانطلقوا يكتشفون بها نواميس الكون ويتعرفون على مجالات التسخير فيه، خدمةً للبشرية، مستشعرين عظمة الله الخالق البارئ المصور الذي سخر

1 سورة آل عمران، جزء من الآية: 191.

للإنسان كل شيء وأمره بشكر نعمة التسخير، حتى يحسن علاقته بالكون، وبذلك أسسوا حضارة عظمى تفتت الأمة ظلالها وأشرقت شمسها على أوروبا في عصورها المظلمة، ولما أفلت شمس هذه الحضارة بانحطاط المسلمين خسر العالم خسراً كبيراً، ولقد كان من أعظم أسباب أفول حضارة المسلمين بعدهم عن الأخذ بالأسباب التي تضمنها مقصد التسخير، حيث خلف من بعد العصور الذهبية خلفاً مالوا إلى الزهد الكاذب في الدنيا، ورضوا بالخمول والجمود، وفهموا القضاء والقدر فهماً سيئاً على نحو ما سيأتي ذكره في الباب الثالث من هذا البحث.

وإن أي محاولة لنهضة الأمة وبعثها من جديد لا بد أن تتجاوز إهمال السؤال التسخيري لما خلقه الله في الكون الفسيح للإنسان، وقد أحسن غيرنا التعامل مع سنن الله في الكون على الأقل في الجانب المادي فوصلوا إلى نتائج أبهرتهم وأبهرتنا معهم، واستطاعوا أن ينفعوا البشرية بما طوعوا من خيرات الله في الطبيعة، وسنة الله في خلقه أن من أخذ بالأسباب يسر له الوصول إلى نتائجها، سواء كان مؤمناً أو كافراً، لكن هذا التسخير والتطويع لما فقد مقصده العقدي الأسمى ونزعت منه قيمته الأخلاقية، انخرق عن مساره كثيراً ونتجت عنه شرور ومفاسد، كانت من تجلياتها تأليه الإنسان للمادة واللهث وراء الریح المادي ولو على أشلاء الملايين من القتلى... فما أصالة مقصد التسخير من خلال بعض النصوص القرآنية؟ وما دورها في تنظيم علاقة الإنسان بالكون؟

أما أصالة مقصد التسخير فتتجلى فيما عرضه القرآن الكريم من نصوص كثيرة تبين أن الله عز وجل سخر كل ما في الكون للإنسان حتى يؤدي رسالته ووظيفته على أحسن وجه، وأقتصر على بعض هذه النصوص فيما يلي:

- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾¹، قال الشيخ محمد علي الصابوني في تفسير الآية: «أي خلق لكم الأرض وما فيها لتتنفعا بكل ما فيها، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق»².
- قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^{١٤} فَلْأَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ دَاطِعٌ وَلَا يَطْعَمُ فَلِإِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^{١٥} فَلِإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^{١٦} مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ بِفَقْدِ رَحْمَتِي، وَذَلِكَ الْقَبُورُ الْمُبِينُ﴾^{١٧} وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ، إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^{١٨} وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^{١٩} فَلِأَيِّ شَيْءٍ أَكْبَرَ شَهَادَةً، فَلِإِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْفُرْقَانَ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ، وَمَنْ بَلَغَ أَيْبَنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ الْهَيْهَاتَ الْخُرَىٰ، فَلِأَنَّ أَشْهَدُ، فَلِإِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾^{٢٠}، وقد اشتمل النص الكريم على مجموعة من دلائل قدرة الله التي سخرها للإنسان المستخلف،

1 سورة البقرة، الآية: 28.

2 صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، 1 / 39، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 1417هـ 1997م.

3 سورة الأنعام، الآية: 14 - 20.

ونلاحظ أن هذه الدلائل المسخرات ساقها الله تعالى في معرض دعوته عباده إلى أفراده بالوحدانية.

- قوله تعالى- وهو يعدد بعضاً من نعمه الكثيرة على عباده، ويدعوهم إلى شكرها بتوحيده وعبادته -: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٦﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٧﴾ وَعَاتِبَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٨﴾﴾¹.

- وقال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾².

- وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِناً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ

1 سورة إبراهيم، الآية: 34-36.

2 سورة النحل، الآية: 12-14.

عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿١٩﴾¹، قال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: «يقول تعالى منها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وتلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم»².

وقال أبو السعود في تفسيره: «رجوع الى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم للدلائل التوحيد، والمراد بالتسخير إما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون مُنقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما في الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك، بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما في السموات من الأشياء التي نيّطت بها مصالح العباد معاشاً أو معاداً، وإما جعله منقاداً للأمر مذلاً على أن معنى لكم لأجلكم فإن جميع ما في السموات والأرض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتعبةً لمنافع الخلق، وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخر لله تعالى»³.

- وقال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ

فِيهِ بِأَمْرِهِءِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِءِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾

1 سورة لقمان، الآية: 19.

2 تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 6/ 310، دار الكتب العلمية.

3 تفسير أبي السعود المعروف ب: " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، 5/ 298، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّبِعُونَ ﴿١٢﴾¹، قال الشيخ الطاهر ابن عاشور في

تفسير الآية الكريمة: «أي في ذلك المذكور من تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض دلائل على تفرد الله بالإلهية، فهي وإن كانت منناً يحق أن يشكرها الناس فإنها أيضاً دلائل إذا تفكر فيها المنعم عليهم اهتموا بها، فحصلت لهم منها ملائمتان جسمانية ومعارف نفسانية، وبهذا الاعتبار كانت في عداد الآيات المذكورة قبلها من قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الجاثية: 2) وإنما أخرت عنها؛ لأنها ذكرت في معرض الامتنان بأنها نعم، ثم عقبته بالتنبيه على أنها أيضاً دلائل على تفرد الله بالخلق»².

تلك كانت أهم المقاصد التي تندرج تحت التقسيم الثلاثي (مقاصد التوحيد، ومقاصد التزكية، ومقاصد العمران)، وهي بمجموعها تشكل بناءً راسخاً يشد بعضه ببعض في تلازم وترباط وثيق، ومن أحسن الجمع بين هذه المقاصد الثلاثة الشيخ طه جابر العلواني، وقد كتب في هذا الموضوع وأفاد وأجاد، وخاصة في كتابه الممتع "التوحيد والتزكية والعمران"، والكتاب يقترح منهجاً لم تتضح معالمه في الدراسات السابقة، ألا وهو إرساء أسس علم توحيد قرآني، أو علم أصول دين قرآني، «وبموازاة ذلك يعمل على صياغة نموذج تطبيقي للتفسير الموضوعي، في مجال الدراسات القرآنية العقدية، ذلك التفسير الذي ازدادت الدعوة إليه في العقود الأخيرة.

وهنا تتجلى المزية الفائقة لأهمية العودة إلى القرآن في الدراسات العقائدية، وهي تتمثل في اكتشاف أنماط بديلة للعلاقات بين المفاهيم العقائدية من جهة، وبين هذه المفاهيم وغيرها

1 سورة الجاثية، الآية: 11-12.

2 التحرير والتنوير، 25/357.

من جهة أخرى، بنحو يجري معه إعادة تأسيس لعلم المقاصد، والعلوم الشرعية، وبناء قواعدها، وترتيب مسائلها من جديد. فالمقاصد تغدو قيماً حاکمة، شاملة، تصدر عنها سائر المقولات، والمفاهيم، والرؤى، والأحكام. وتصاغ على منظومة ثلاثية كلية مترابطة، تترتب طولياً، بحيث يكون التوحيد مرتكزها، ثم تصدر عنه التزكية، ويليهما العمران، فمن دون التوحيد لا تزكية، ومع اختفاء إنسان التزكية، يغيب العمران، بالصورة التي ينشدها التوحيد. نعم ربما يشاد عمران منبتاً عن التوحيد والتزكية، لكن مثل ذلك العمران مشوّه، تغطي فيه النزعة المادية، وتطمس القيم الأخلاقية، والأبعاد المعنوية. أما العمران الذي لا يستنزف الطبيعة، ولا يبدد مواردها، ويحمي الحياة، ويضمن للاجتماع البشري علاقات تسودها المسؤولية الأخلاقية، حيال الآخر، فهو العمران الذي يبني على التوحيد، ويشيده إنسان التزكية، وينهل من منابع الوحي»¹.

وما أحوج الأمة إلى مثل هذه الدراسات الجادة التي تستفيد من التجارب السابقة، وتحاول تجاوز بعض الهفوات التي لا يسلم منها أي اجتهاد بشري، وأرى أن مثل هذه المحاولات إذا كُتبت لها النجاح، وأحسن استثمارها وتقويمها ستفيد الأمة، لأن دراسة العقيدة باعتماد النظرة المقاصدية الكلية ستجعل الأمة أفراداً وجماعات تسلم من الخوض في جدال عقيم لا ينتهي إلى نتيجة مفيدة، إذ شأن العقيدة في الإسلام بقواعدها الكلية أنها دافعة إلى التحلق بالأخلاق الحسنة والعمل الصالح وبناء نهضة علمية، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني الذي ينشئ حضارة إنسانية شاملة، وهذا هو سر نجاح الأجيال السابقة من هذه الأمة «فإن الأجيال الأولى من أبناء الأمة الإسلامية عندما التزمت بالعقيدة الإسلامية فإنها أنشأت أكبر حركة علمية وأكبر حركة حضارية في تلك القرون»².

1 من مقدمة كتاب الدكتور طه جابر العلواني: التوحيد والتزكية والعمران محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، تقدم الشيخ عبد الجبار الرفاعي، ص: 6_7 بتصرف، دار الهادي.

2 الأساس العقائدي لنهضة المسلمين العلمية والحضارية، بحث مرقون في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، من إعداد يحيى بن عبد الفتاح بن عبد الله باقاسي، ص: 5، بتصرف.

والأمة مدعوة إلى العودة الصادقة لفقهِ مقاصد عقيدتها الصافية من كل الشوائب، لأن «العقيدة بوصفها المصدر الرئيس للإحساس بقدسية القوانين الأخلاقية؛ هي أقوى دافع للإنسان إلى الأعمال الإيجابية الخيرة، وأقوى رادع يكفّه عن اتباع الهوى. وبهذا يظهر مدى تفوّق العقيدة الدينية في ضبط الحياة الإنسانيّة؛ إذا قُورنت بالقانون الوضعي؛ لأن القانون مجرداً عن الدين لا يكفي لتقويم السلوك البشري»¹.

وعسى أن تتضافر جهود المخلصين من هذه الأمة في الإسراع بهذه العودة، كل من موقعه، وحسب جهده، وإني لأطمع أن يكون فيما سقته خطوة على الطريق الصحيح، نحو تجديد علم الكلام، وتقديمه للراغبين فيه، برؤية جديدة تلائم الواقع، وتحاول التوفيق بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

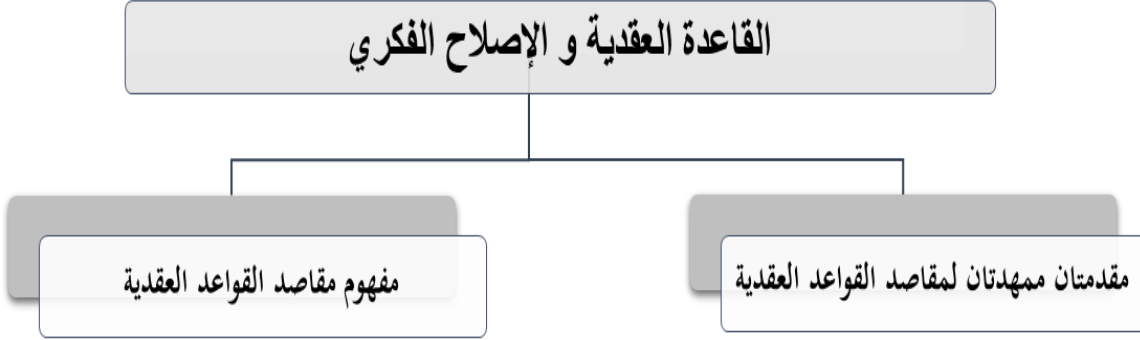
وأختم الباب الثالث بخطاطة جامعة لأهم محاوره الكبرى، وبها أكون قد انتهيت من جمع ما يسره الله في هذا البحث، آملاً أن أكون قد وفقت في ذلك، والله تعالى ولي التوفيق.

1 مجلة الحياة الطيبة، ص: 116، السنة التاسعة عشرة، العدد الثاني والثلاثون، حريف 2015م/ 1436هـ.

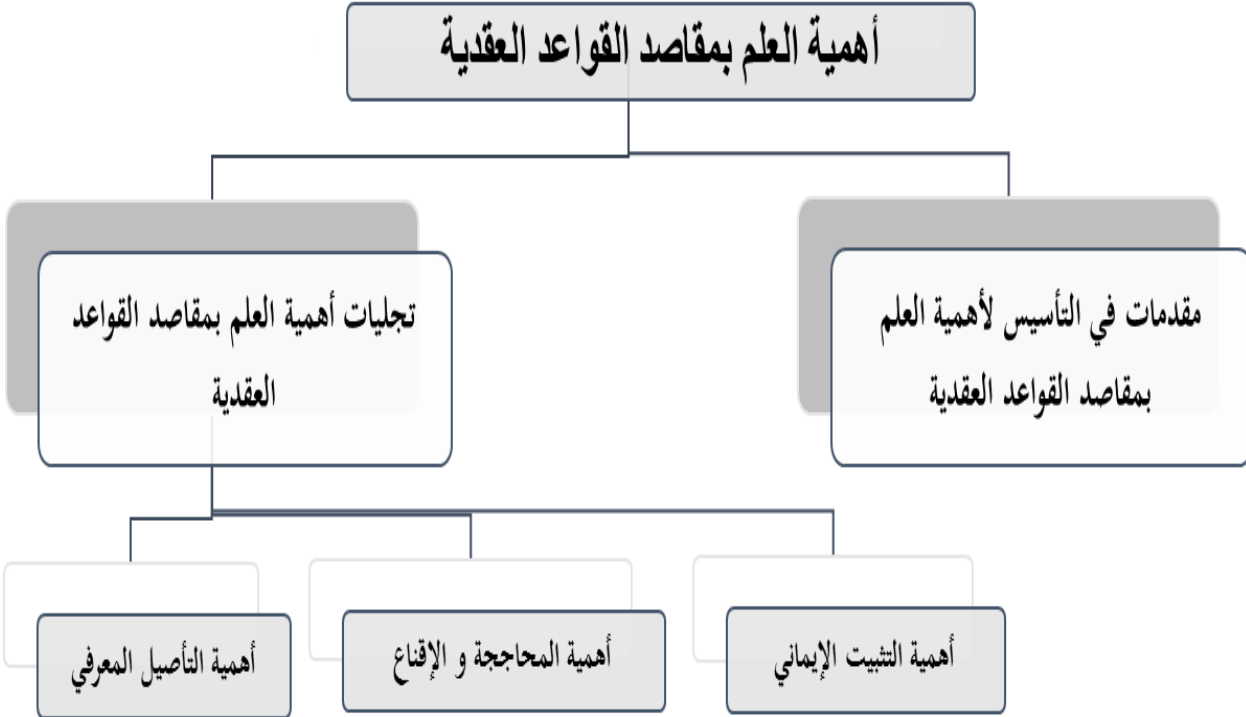
خلاصة نازمة للباب الثالث

مقاصد القواعد العقدية وأهميتها وخصائصها

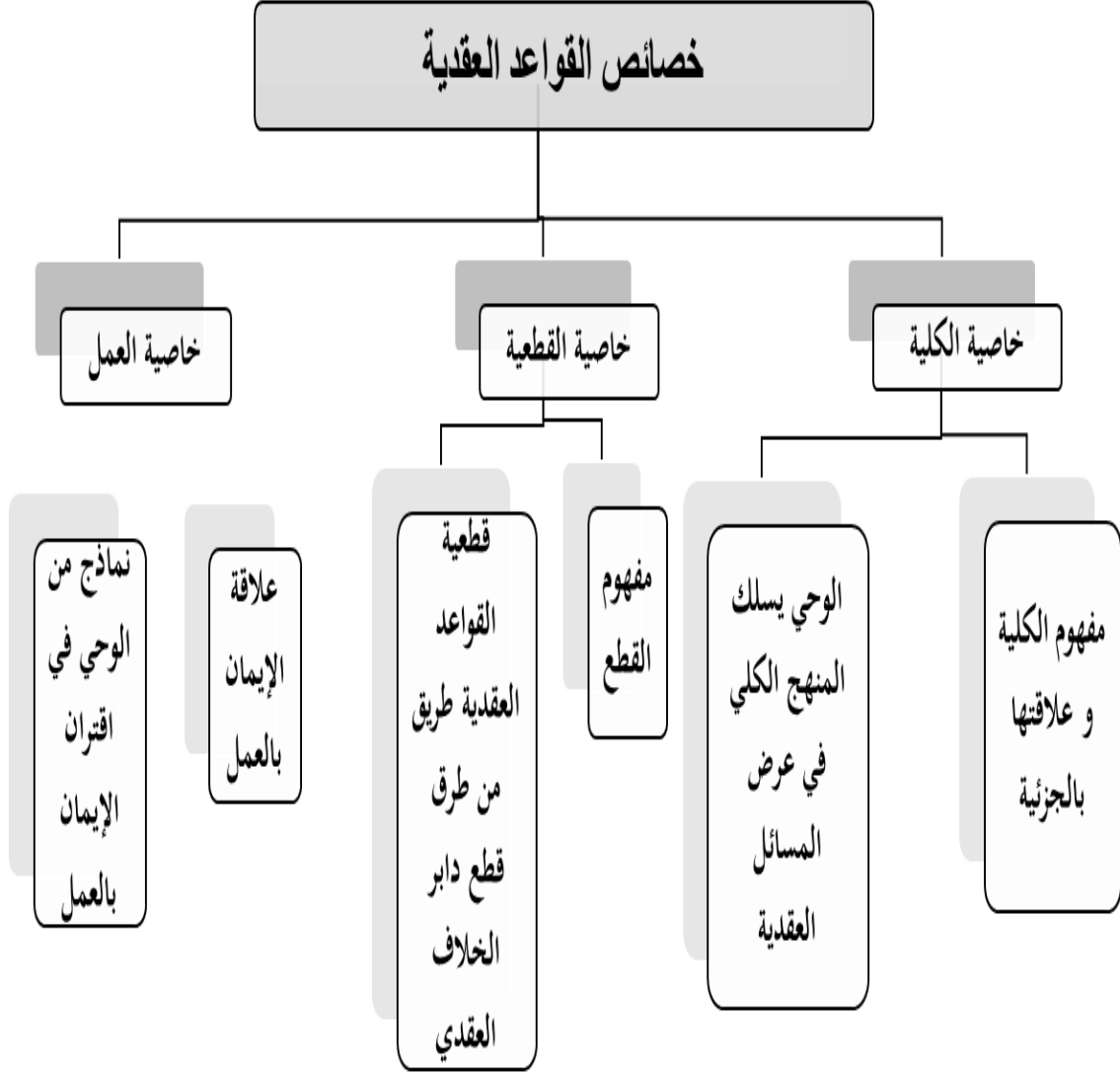
الفصل الأول:



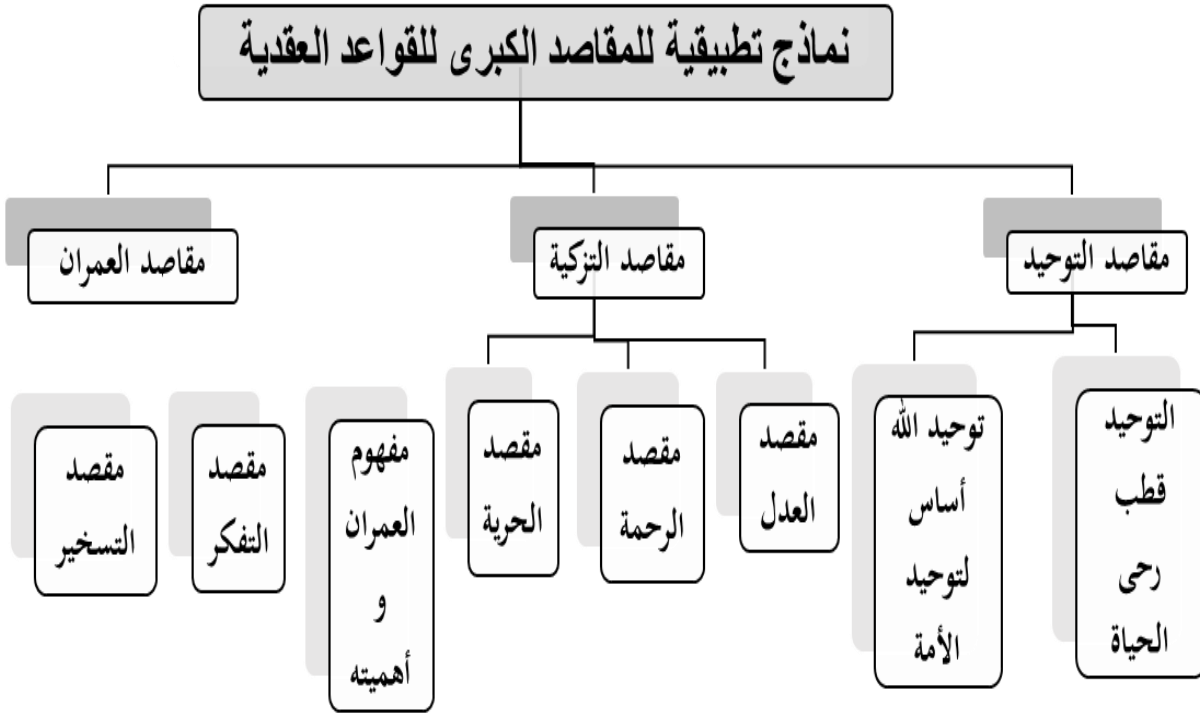
الفصل الثاني:



الفصل الثالث:



الفصل الرابع:



المخاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعة والشاقة في رحاب قواعد العقيدة وأثرها في الإصلاح الفكري والبناء الحضاري، فإنني أحمد الله جلّ جلاله على فضله وإحسانه الذي بتوفيقه تتم الصالحات وتعظم الدرجات، ثم أسجل أهم النتائج التي انتهت إليها، وكذا بعض التوصيات والاقتراحات.

أما أهم نتائج البحث فأجملها في الآتي:

- ❖ قد دل الاستقراء على أن قواعد العقيدة الإسلامية الصحيحة مبثوثة في نصوص الوحي الإلهي، وأن الفطرة السليمة والعقل الصحيح شاهدان عليها ومعترفان بها.
- ❖ ضرورة ضبط الأصول الكلية والقواعد العامة للعقيدة الإسلامية، إذ بضبطها تُضبط العقيدة، وتزول كثير من الإشكالات ويظهر موطن الصواب والغلط، لأنه متى سلمت العقيدة سلمت الأعمال واستقامت الأحوال وتهدبت الأخلاق وسرى الإصلاح والصلاح في جسم الأمة.
- ❖ قواعد العقيدة الإسلامية غنية بالقيم والمعاني التي تهدي الإنسان وتوجه سلوكه إلى ما فيه صلاحه وفلاحه في العاجل والآجل.
- ❖ عرض العقيدة الإسلامية بصفائها ونقائها كما عرضها الوحي الرباني هو المنهج الأقوم الذي يهدي البشرية إلى سبيل الرشاد، وهو الذي يجمع الأمة على كلمة واحدة، ويجعلها قادرة على التأثير في غيرها من الأمم، كما هو شأن الرعيل الأول الذين تلقوا عقيدة الإسلام غضة طرية من مصدري الهداية: كتاب الله وسنة نبيه المصطفى ﷺ، وهو أيضاً شأن من سلك منهمجهم واتبع طريقتهم.

❖ الإيمان المؤثر الذي يثمر للأمة أفراداً وجماعات ثمرات في إصلاح أفكارها، ويقوم اعوجاجها، ويعينها على البناء والعمران، هو الإيمان الذي جاء به الوحي المعصوم، أما قراءة العقيدة كما جاءت في اجتهادات المتكلمين وغيرهم، فهي قراءة قابلة للأخذ والرد، تبعاً لقرنها أو بعدها عن نور الوحي.

❖ أظهر البحث أهمية علم القواعد العقدية، وخصائصه، وضرورة دراسة العقيدة الإسلامية بمقاصدها، لأن دراسة العقيدة باستحضار مقاصدها وقواعدها الكلية الجامعة لمسائلها وفروعها هو الذي ينقلها من النظرة التحزيبية إلى النظرة الشمولية النسقية، وبذلك تتسع دائرة العقيدة، فتوجه المسلم في جميع مجالات الحياة، وإن دراسة العقيدة وفق هذه الخطة -في نظري- هو الذي سيصرف كثيراً من الأسماع والأفكار عن ضجيج بعض الخصومات والمناقشات العقيمة التي وجدناها في بعض كتب العقيدة كما تقدم، حتى عادت العقيدة الصافية الواضحة مغمورة داخل تلك الصراعات الكلامية، وأصبحت أشبه ما تكون بالجادة العريضة التي تكاثرت عليها الحجارة والأتربة والرمال، حتى ضاعت على الناس معالمها وتاهوا عن حدودها. وما هذا البحث إلا محاولة-تُضم إلى محاولات الباحثين في تجديد علم الكلام- تروم إزاحة ذلك الركام عن تلك الجادة العريضة، وإبرازها جلية أمام الأنظار.

❖ حاول البحث أن يبرز أهمية الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية في العقيدة، وجعل نصوصهما هو الفيصل والحكم الذي يُرجع إليه عند كل اختلاف، وعلى ضوءهما تصحح كل الأفكار وتقوم جميع الاجتهادات، لأنهما الحصن الحصين للأمة الإسلامية، ولقد أوقفني البحث والتأمل في النصوص التي أوردتها في ثنايا هذا البحث المتواضع أن نصوص الوحي تضمنت منهجاً فريداً يسمو بالإنسان، وينظم حياته من جميع أبعادها، سواء من جهة صلة الإنسان بخالقه، أو من جهة علاقته

بنفسه، أو من جهة تنظيم علاقته بالكون وما فيه، أو من جهة علاقته بمجتمعه، وأمته، والناس أجمعين.

❖ حاول البحث أن يبرز أهمية عرض جميع الاجتهادات الكلامية على نصوص الوحي، فيقبل منها ما شهدت له تلك النصوص بالصحة والقبول، ويُردُّ منها ما لم تشهد له بالاعتبار، لأنه ليس من الإنصاف تبخيس جهود علماء الكلام والإعراض عنها كلها، بدعوى أن فيها بعض الهفوات، كما أنه ليس من المنطق العلمي تقديس جميع مقولات المتكلمين، أو جعلها ميزاناً تُعرض عليها نصوص الوحي، وما أضّر المسلمين في قضية نظرهم إلى تراثهم الفكري البشري إلا ففتان: إحداهما تنظر إلى التراث الطويل العريض-الذي تعاقبت على جمعه وإنتاجه أجيالٌ- نظرة احتقار وتبخيس، والأخرى تنظر إلى التراث نظرة تقديس، وكأنه تراث معصوم من الخطأ، وطريق الوسط هو الطريق الأمثل في هذه القضية وغيرها، فما أحسن أن نعتبر بماضينا وتراثنا ونأخذ منه من الدروس والعظات ما يفيدنا في مسيرتنا، لكن تبقى المشكلة المطروحة هنا أن معالجة تخلف أي مجتمع من المجتمعات، لا تتحقق برواية أجداد ماضيه واستغراقه في نشوة الفخر والاعتزاز، واستسلامه للمديح الذي قد ينقلب إلى مانع ومعوق حضاري بدل أن يكون دافعاً إلى تجديد العمل على ضوء هذا الماضي، فعلينا أن نستفيد من ماضي أسلافنا وما خلفوه من إرث عظيم بعقلية الدارس الواعي الممحص، ولا نقتصر على تعظيم البطل ونعجز عن محاكاة البطولة.

❖ أظهر البحث أن أخطر غزو يفتك بالأمة هو الغزو الفكري، وتكمن خطورته في كونه يضرب الأمة في حصونها الداخلية، ويخلخل لديها ثوابتها دون أن تشعر أحياناً، مما يؤدي إلى ظهور ما سماه المفكر الجزائري بالقابلية للاستعمار العسكري الذي يأتي نتيجة للغزو الفكري، وأساس انهيار أي أمة يبدأ من الداخل، والتدخل الخارجي قد يأتي ليعجل بسقوطها بعد أن تكون قد سقطت قلاعها الفكرية أولاً،

والواقع العملي أثبت أن الأمة الإسلامية هدف ثمين من أهداف تصدير الأفكار، وأثبت الواقع كذلك بأن سوق الأفكار أخطر من أخطر أسواق المنتجات والسلع، وأكثرها تقبلاً للتزييف والتشويه والإفساد.

❖ نبه البحث إلى أن رجوع الأمة إلى دينها القويم لا يمكن أن يكون طرفة، كما أن انحرافها عنه وسقوطها لم يكن بغتة، فوجب التأمل في أسباب صعود الأمة الإسلامية في الماضي، كما وجب أيضاً دراسة أسباب الانحراف والسقوط، بعيداً عن خداع النفس وإخفاء التقصير، وإذا عجزت الأمة بجمعها أو مجموعها عن تمييز ما حققته فعلاً. عما تود تحقيقه ! فإن سنة الله كفيلاً بتصحيح أخطائها وتعريفها بواقع قدرتها، ومن المعلوم لدينا في عقيدتنا أن الإسلام دين الرحمة والعدل، وليس من العدل والرحمة في شيء أن يسلم الله تعالى المتصف بالرحمة والعدل مقاليد البشرية لأمة يغلب عليها العجز والجهل، وليس من العقل والمنطق - بعد ذلك أن تكلف أمة لسان حالها بعض ما أشرت إليه - بتوزيع العدل والرحمة بين أمم الأرض، لأن فاقده الشيء لا يعطيه.

❖ البحث دعوة مفادها أن تحصين الأمة الإسلامية بعقيدة صحيحة لتفادي هجمات الغزو الفكري، وخاصة في زمن العولمة، يستدعي من جميع الغيورين على الإصلاح والتجديد أن يبذلوا جهودهم لتنقية الفكر المنسوب للإسلام في جميع ميادين من الفكر الدخيل، سواء في الماضي أو الحاضر، ذلك أن طريقة فهم النص الديني في بعض مناحي الفكر العربي المعاصر يعيد نفس المرحلة التاريخية التي دخل فيها الوافد اليوناني ساحة العلوم الإسلامية، لأن ما يحدث في بعض أبحاث الفكر المعاصر الموجه إلى النص الشرعي عند اتجاهات معينة يعيد نفس الدور الإسقاطي المنهجي، لكن مع استبدال الوافد اليوناني بالمنهج الغربي في صورته الحديثة، مع اختلاف المخرجات بين المرحلتين.

❖ وفي البحث أيضاً محاولة لإبراز أنه لا تعارض بين العقل والنقل في الإسلام، وخلص إلى أن دور العقل أمام مصدري الهداية: القرآن الكريم والسنة النبوية، يتمثل في كونه خادماً لهما، وما ينبغي أن يكون حاكماً عليهما، وما ضلَّ من ضلَّ في هذا الباب إلا باصطناع خصومات بين العقل والنقل، فأخرجوا بذلك العقل عن وظيفته عن طريق تحميله لما ليس من شأنه أن يحمله.

❖ يقرر البحث أهمية فهم المتشابه من نصوص الصفات والأفعال على ظاهره وتفسيره بمعناه الحقيقي دون كيف، وأنه لا يجوز إخراج شيء منه إلى المجاز، إلا عند وجود حجة تدعو إلى ذلك، فإذا دعت الضرورة، ووجدت الحجة الصارفة للحقيقة إلى المجاز فُتح باب التأويل بضوابط وقوانين أشار البحث إلى أهمها.

❖ لم يقصد البحث تتبع كل القواعد العقدية المرتبطة بالإصلاح الفكري والبناء الحضاري، وإنما توقف عند أهم القواعد الكبرى، لتكون إشارات في الطريق لمزيد من الدراسة والبحث.

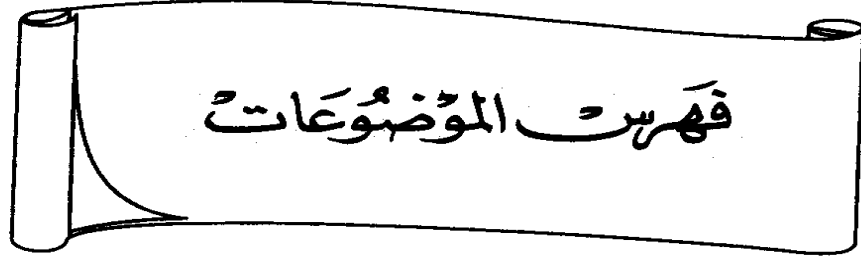
❖ حاول البحث أن ينأى بنفسه عن التحيز لأي طائفة من الطوائف الكلامية، آخذاً من مجموع خيار طوائف الأمة المجمع عليه في باب الاعتقاد، منبهاً بذلك على ضرورة فتح طريق وسط بين الجمود النصي الذي أوقف حركة التجديد والإبداع، وبين الغلو العقلي الذي تجاوز الحدود المسموح بها للعقل البشري، وإذا فُتح طريق الوسط بين الجمود النصي والغلو العقلي وصلنا إلى الجمع الموفق بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

هذا مجمل ما أفصح عنه البحث في أبوابه وفصوله ومباحثه، وهناك مسائل أخرى لا يتسع مقام البحث لعرضها ودراستها، أشير إلى بعضها في شكل مقترحات وتوصيات، عسى أن ييسر الله لبعض الباحثين بحثها ودراستها، فتكمل بذلك الفائدة، وتسد هذه الثغرة، فمن المقترحات والتوصيات التي أختتم بها البحث:

- ضرورة تعميق البحث في قواعد العقيدة، وجمعها ودراستها في مجالات أخرى، مثل المجال السياسي والاقتصادي...
 - تضافر الجهود من أجل إخراج موسوعة للقواعد العقدية، على غرار موسوعة القواعد الفقهية، ويقترح الباحث أن تستند الموسوعة إلى المتفق عليه بين الفرق الإسلامية في أمور العقيدة، استناداً إلى ما ثبت في نصوص القرآن الحكيم، وما ثبت عن رسول الله ﷺ، مع العناية بالجانب الروحي والتربوي والعملي في العقيدة الإسلامية، وتجنب الخلافات والجزئيات التي شقت صف المسلمين.
 - ضرورة تتبع الآثار التي تركها دخول المنطق اليوناني إلى العلوم الإسلامية عامة، وعلم العقيدة خاصة، لأن هذا العلم تأثر كثيراً بالمنطق.
 - ضرورة توجيه العناية إلى تنقية العقيدة الإسلامية من كل ما هو دخيل عليها، مما يتعارض مع الوحي الرباني ويشوه جمال ووضوح العقيدة الإسلامية.
 - ضرورة التعاون على إخراج البحوث الجادة في التعميد العقدي إلى حيز الوجود، بتحقيق وطبع مخطوطها، ونفض الغبار عن مرقومها وإخراجه إلى الطلبة وعموم الباحثين قبل أن تأكله الأرضة وتهجم عليه عوادي الدهر.
- هذا ولا أزعم أنني أتيت بشيء بلغ رتبة الكمال أو قاربه، لأن الكمال لله وحده، والنقص والعجز عن بلوغ الكمال من صفة المخلوق، ولكن حسبي أنني لم آل جهداً في البحث، ولم أدخر وسعاً في توخي الصواب ما أمكنني، فإن أصبت فبتوفيق من الله، وهو ما قصدت، وإن قصرت وأخطأت-ولا بد-، فذلك من نفسي ومن الشيطان، والله تعالى أسأل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل مني هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، كما أسأله تعالى أن يجزي عني خيرا الجزاء أستاذي الفاضل الدكتور عبد الرحمن العضاوي الذي فتح لي صدره، ومنحني من وقته

الشيء الكثير مع كثرة مشاغله، وشجعتني في بحثي، وأفادني بتوجيهاته ونصائحه،
فله مني جزيل الشكر، ومن الله الجزاء الأوفى.

وفي الختام أحمد الله عوداً على بدء، فالحمد لله في البدء والختام، وصلى الله وسلم
على سيدنا محمد النبي الخاتم.



- 1.....المقدمة:
- 3.....إشكالية البحث وأهميته وآفاقه
- 7.....المنهج المتبع في البحث
- 8.....بواعث اختيار الموضوع
- 10.....الدراسات السابقة في الموضوع
- 14.....صعوبات البحث
- 15.....خطة البحث
- 18.....الباب الأول: القواعد العقدية وتصورها التاريخي
- 19.....الفصل الأول: قواعد العقيدة مفهومها ومصادرها وصيغها
- 20.....تمهيد
- 21.....المبحث الأول: مفهوم القواعد العقدية
- 21.....المطلب الأول: تعريف القاعدة في اللغة وفي الاصطلاح العام

- 22.....المطلب الثاني: تعريف القاعدة العقدية
- 24.....شرح التعريف
- 27.....تنبيهات
- 30.....المطلب الثالث: مفهوم العقيدة في اللغة وفي الاصطلاح
- 30.....مفهوم العقيدة في اللغة
- 32.....مفهوم العقيدة في الاصطلاح
- 35.....المطلب الرابع: أسماء أخرى لعلم العقيدة
- 37.....المبحث الثاني مصادر قواعد العقيدة
- 37.....تمهيد
- 38.....المطلب الأول الوحي
- 38.....القرآن الكريم
- 44.....السنة النبوية:
- 47.....المطلب الثاني: الإجماع
- 48.....المطلب الثالث: الفطرة

- 53.....المطلب الرابع: العقل
- 57.....المبحث الثالث: صيغ القاعدة العقدية
- المطلب الأول: قواعد في صيغ جمل خبرية مفيدة للعموم والشمول، سواء كانت
57.....للإثبات أو النفي
- المطلب الثاني: قواعد في صيغ جمل إنشائية مفيدة للعموم سواء كانت للأمر أو
60.....النهي
- 61.....المطلب الثالث: قواعد في صيغ تستفاد من عبارات شتى
- 64.....الفصل الثاني: منهج الوحي في عرض القواعد العقدية
- 65.....تمهيد
- 70.....المبحث الأول: الاستدلال بدليلي العقل والكون
- 70.....المطلب الأول: الاستدلال بدليل العقل
- 77.....المطلب الثاني: الاستدلال بدليل الكون
- 80.....المبحث الثاني: الاستدلال بدليلي الفطرة والنعم
- 80.....المطلب الأول: الاستدلال بدليل الفطرة

- 82.....المطلب الثاني: الاستدلال بدليل النعم
- الفصل الثالث: الملامح الكبرى لظهور التقييد العقدي في الأمة الإسلامية قبل نشوء
- 89.....المدارس الكلامية
- 90.....تمهيد
- 91.....المبحث الأول: منهج الصحابة في فهم العقيدة الإسلامية
- 91.....المطلب الأول: منهج الصحابة في إثبات ما أثبتته الوحي
- 93.....المطلب الثاني: منهج الصحابة في النظر والتدبر
- 96.....المبحث الثاني: سمات منهج الأئمة الأربعة في العقيدة الإسلامية
- 96.....تمهيد
- المطلب الأول: سمة منهجهم العقدي في كيفية إثبات أسماء الله وصفاته، واقتران
- 98.....الإيمان بالعمل
- المسألة الأولى: سمة منهجهم العقدي في كيفية إثبات أسماء الله
- 98.....وصفاته
- 101.....المسألة الثانية: سمة منهجهم في اقتران الإيمان بالعمل

المطلب الثاني: سمة منهجهم في التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة، ووحدة

المصدر.....104

المسألة الأولى: سمة منهجهم في التسليم المطلق لنصوص الكتاب

والسنة.....104

المسألة الثانية: سمة منهجهم في وحدة المصدر.....109

الفصل الرابع: مرحلة المدارس الكبرى في التقعيد العقدي بعد ظهور

الخلاف.....112

المبحث الأول: أهم أسباب ظهور الخلاف في التقعيد العقدي عند

المسلمين.....113

المطلب الأول: الأسباب الداخلية.....114

المطلب الثاني: الأسباب الخارجية.....121

المبحث الثاني: أسس الاتجاهات الكبرى في التقعيد العقدي بعد ظهور

الخلاف.....132

المطلب الأول: أسس التقعيد العقدي عند المعتزلة.....133

المطلب الثاني: أسس التقعيد العقدي عند الأشاعرة.....144

- 145.....المسألة الأولى: مراحل أبي الحسن الأشعري في التأسيس العقدي
- 148.....المسألة الثانية: مراحل تطور المذهب الأشعري وأهم خصائصه
- 151.....المسألة الثالثة: المدرسة الماتريدية
- 154.....المطلب الثالث: أسس التقييد العقدي عند مدرسة أهل الحديث
- 155.....الفرع الأول: مفهوم السلف في اللغة
- 155.....الفرع الثاني: مفهوم السلف في الاصطلاح
- 159.....الفرع الثالث: أهم خصائص مدرسة السلف في التقييد للقواعد العقدية
- 165.....خطاطة ناظمة للباب الأول

الباب الثاني: القواعد العقدية والإصلاح الفكري والبناء

- 168.....الحضاري
- 169.....تمهيد
- 172.....الفصل الأول: القاعدة العقدية والإصلاح الفكري
- 173.....المبحث الأول: مفهوم الإصلاح الفكري
- 173.....المطلب الأول: مفهوم الإصلاح في اللغة وفي الاصطلاح

- 174.....المطلب الثاني: مفهوم الفكر
- 176.....المطلب الثالث: التلازم بين الإصلاح والصالح
- 178.....المبحث الثاني: أهمية الإصلاح الفكري
- 179.....المطلب الأول: مقدمات ممهّدة بين يدي المطلب الثاني
- 180.....المطلب الثاني: لا إصلاح للفكر إلا بعقيدة صحيحة
- 184.....المبحث الثالث: نماذج من القواعد العقدية في الإصلاح الفكري
- المطلب الأول: قاعدة "الأصل في النص العقدي الحمل على اللغة بدليل
الحمل".....184
- 190.....المطلب الثاني: قاعدة "لا تثبت العقائد إلا بدليل"
- المطلب الثالث: قاعدة "كلُّ صلاح في الأمة فمرجهه إلى صلاح
العقيدة".....192
- 195.....المطلب الرابع: قاعدة "لا إكراه في الدين"
- 200.....المطلب الخامس: قاعدة "كلُّ بدعة ضلالة"
- 208.....المطلب السادس: قاعدة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"

- المطلب السابع: قاعدة "لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم
والاستسلام".....210
- 218.....الفصل الثاني: القاعدة العقدية والبناء الحضاري
- 219.....المبحث الأول: مفهوم الحضارة في التداول اللغوي والاصطلاحي
- 219.....المطلب الأول: تعريف الحضارة في اللغة
- 220.....المطلب الثاني: تعريف الحضارة في الاصطلاح
- 224.....المبحث الثاني: نماذج من القواعد العقدية في البناء الحضاري
- المطلب الأول: قاعدة "لا يتحقق كمال العبودية لله تعالى إلا في التعرف على أسمائه
الحسنى وصفاته العلى".....224
- 228.....المطلب الثاني: قاعدة "جميع أفعال الله مبنية على الحكمة"
- 233.....المطلب الثالث: قاعدة "توحيد الله أساس دعوة كل الرسالات السماوية"
- المطلب الرابع: قاعدة "العلم بأسماء الله الحسنى أصل للعلم بكل معلوم، والتأدب بها
علاج لكل مشكل".....246
- المطلب الخامس: قاعدة "توحيد الربوبية تُقرُّ به الفطرة، ويستلزم توحيد
الألوهية".....262

المطلب السادس: قاعدة " كل مسألة عقدية لا تثمر عملاً، أو تكون عوناً عليه،

فمضمونها العقدي عارٍ"..... 272

المطلب السابع: قاعدة " كل شيء بقضاء وقدر"..... 281

المطلب الثامن: قاعدة "الإيمان بالكتب السماوية كلٌّ لا

يتجزأ"..... 287

خطاظة ناظمة للباب الثاني..... 296

الباب الثالث: مقاصد القواعد العقدية وأهميتها

وخصائصها..... 298

تمهيد..... 299

الفصل الأول: مقاصد القواعد العقدية..... 300

المبحث الأول: مقدمتان ممهدتان لمقاصد القواعد العقدية..... 301

المطلب الأول: آثار غياب البعد المقاصدي في دراسة القواعد العقدية..... 301

المطلب الثاني: ما السبيل إلى إدراك مقاصد القواعد العقدية؟..... 303

المبحث الثاني: مفهوم مقاصد العقيدة..... 310

- 310.....المطلب الأول: مفهوم مقاصد الشريعة الإسلامية.....
- 312.....المطلب الثاني: مفهوم مقاصد العقيدة.....
- 319.....الفصل الثاني: أهمية العلم بمقاصد القواعد العقدية.....
- 320.....تمهيد.....
- المبحث الأول: مقدمات في التأسيس لأهمية العلم بمقاصد القواعد
العقدية.....
- 320.....
- المطلب الأول: إشارات مهمة من القرآن الكريم لبيان أهمية مقاصد
العقيدة.....
- 320.....
- المطلب الثاني: إشارات في طريق التأليف في مقاصد العقيدة.....
- 226.....
- المطلب الثالث: تكامل العلوم ركنٌ أساسٌ من أركان علم مقاصد
العقيدة.....
- 330.....
- المطلب الرابع: ضرورة التوسط في اعتبار أهمية مقاصد العقيدة.....
- 332.....
- المبحث الثاني: تجليات أهمية مقاصد القواعد العقدية.....
- 335.....
- المطلب الأول: أهمية التثبيت الإيماني.....
- 335.....
- المطلب الثاني: أهمية المحاجة والإقناع.....
- 340.....

- 343.....المطلب الثالث: أهمية التأصيل المعرفي
- 349.....الفصل الثالث: خصائص القواعد العقدية
- 350.....المبحث الأول: خاصية الكلية
- 350.....المطلب الأول: مفهوم الكلية وعلاقتها بالجزئية
- 352.....المطلب الثاني: الوحي يسلك المنهج الكلي في عرض المسائل العقدية
- 358.....المبحث الثاني: خاصية القطعية
- 358.....المطلب الأول: مفهوم القطع
- المطلب الثاني: قطعية القواعد العقدية طريق من طرق تقليل الخلاف
العقدي
- 361.....
- 366.....المبحث الثالث: خاصية العمل
- 366.....المطلب الأول: علاقة الإيمان بالعمل
- 371.....المطلب الثاني: نماذج من الوحي في اقتران الإيمان بالعمل
- 381.....الفصل الرابع: نماذج تطبيقية للمقاصد الكبرى للقواعد العقدية
- 382.....تمهيد

- 384.....المبحث الأول: مقاصد التوحيد
- 384.....المطلب الأول: التوحيد قطب رحى الحياة
- 387.....المطلب الثاني: توحيد الله أساساً لتوحيد الأمة
- 390.....المبحث الثاني: مقاصد التزكية
- 391.....المطلب الأول: مقصد العدل
- 392.....المطلب الثاني: مقصد الرحمة
- 399.....المطلب الثالث: مقصد الحرية
- 403.....المبحث الثالث: مقاصد العمران
- 403.....المطلب الأول: مفهوم العمران وأهميته
- 405.....المطلب الثاني: مقصد التفكير
- 406.....المسألة الأولى: مفهوم التفكير والنظر والتأمل
- 409.....المسألة الثانية: دعوة القرآن الكريم إلى التفكير والنظر والتأمل
- 419.....المطلب الثالث: مقصد التسخير
- 427.....خطاظة ناظمة للباب الثالث

430.....	الخاتمة
437.....	فهرس الموضوعات
450.....	فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم، تنزيل من حكيم حميد، برواية ورش عن نافع.

- 1) "المقدمة"، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، مصر، القاهرة.
- 2) إثبات العلل، للحكيم الترمذي، تحقيق ودراسة خالد زهري، ط: 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1998.
- 3) أثر العقيدة في اختفاء الجريمة، للدكتور عثمان بن جمعة ضميرية، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى 1421هـ 2000م.
- 4) الاجتهاد المقاصدي حجيته..ضوابطه..مجالاته، نور الدين الخادمي، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 65، السنة 18، جمادى الأولى 1419هـ.
- 5) الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، للدكتور سعيد شبار، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 2007م.
- 6) إحكام الفصول في أحكام الأصول، لأبي الوليد الباجي، تحقيق: عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ 1989م.
- 7) أحكام القرآن، عبد المنعم بن عبد الرحيم، المعروف بابن الفرس الأندلسي، تحقيق: السوایجي بو عفيف، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1427هـ.
- 8) أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي المعافري، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1424هـ 2003م.
- 9) الأساس العقائدي لهضة المسلمين العلمية والحضارية، يحيى بن عبد الفتاح باقاسي، من منشورات جامعة أم القرى بمكة المكرمة 1405هـ.
- 10) أساليب الدعوة المعاصرة، رسالة دكتوراه، قسم الدعوة والاحتساب، كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، حمد بن ناصر العمار، 1414هـ.

- 11) الاستقامة، للإمام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية، 1411هـ
1991م، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية
السعودية.
- 12) الأسس المرجعية والمنهجية لتحديد الفكر الإسلامي، الدكتور سعيد شبار، منشورات
المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1432هـ 2011م.
- 13) الإسلام في القرن العشرين، عباس محمود العقاد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة،
(د.ت).
- 14) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للإمام القرطبي، تحقيق محمد حسن جبل، وطارق
أحمد محمد، دار الصحابة للتراث بطنطا مصر، الطبعة الأولى 1416هـ 1995م.
- 15) الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي،
تحقيق: خالد عبد الفتاح شبل، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.
- 16) الأشباه والنظائر لابن السبكي، تحقيق عادل أحمد الموجود، دار الكتب العلمية
بيروت، الطبعة الأولى 1411هـ 1991م.
- 17) أصل الاعتقاد، للدكتور عمر سليمان الأشقر، الطبعة الثالثة 1405هـ 1985م.
- 18) أصول الرواية عند الشيعة الإمامية عرض ونقد، للدكتور عمر محمد عبد المنعم
الفرماوي، مكتبة الإيمان بالمنصورة بدون.
- 19) إظهار الحق، للشيخ رحمة الله العثماني، تحقيق: محمد أحمد ملكاوي، الرياض،
1410هـ.
- 20) الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق ودراسة د محمد بن عبد الرحمن الشقير، ود
سعد آل حميد، ود هشام الصيني، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى
1429هـ 2008م.
- 21) الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق ودراسة د محمد بن عبد الرحمن الشقير، ود

- سعد آل حميد، ود هشام الصيني، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى 1429هـ - 2008م.
- (22) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للإمام الرازي، طبعة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1398هـ.
- (23) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، دار الفكر بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1417هـ 1996م.
- (24) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشبهات، لمربي الكرمي المقدسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1406هـ 1985م.
- (25) الاقتصاد في الاعتقاد، للإمام الغزالي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ.
- (26) الأم للإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وتخرىج الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة مصر، الطبعة الأولى 1422هـ 2001م.
- (27) الإمام ابن تيمية وقضية التأويل، للدكتور محمد السيد الجلند، الطبعة الثالثة، نشر شركة مكاتب عكاظ للنشر والتوزيع 1403هـ / 1983م.
- (28) إثبات الحق على الخلق في رد الخلافات، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية 1987م.
- (29) الإيمان والحياة، الدكتور يوسف القرضاوي، دار المعرفة الدار البيضاء، (د.ت).
- (30) البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط: 2، 1992م.

- 31) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، إشراف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد.
- 32) البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي، مطبعة الحلبي، 1957م.
- 33) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد، لابن تيمية، تحقيق ودراسة الدكتور موسى بن سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الطبعة الثالثة 1422هـ 2001م.
- 34) بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار آيات الطريق، -سلسلة: من القرآن إلى العمرا- تأليف الدكتور فريد الأنصاري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1437هـ 2016م.
- 35) البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، د. فريد الأنصاري، الناشر: ألوان مغربية للنشر والتوزيع مكناس المغرب، الطبعة الأولى 1424هـ 2003م.
- 36) بيان تلبس الجهمية لابن تيمية، مطبعة الحكومة مكة المكرمة، الطبعة الأولى 1392هـ.
- 37) تاريخ العقيدة الإسلامية في العراق لما بعد العهود العباسية من سنة 656هـ إلى سنة 1335هـ، تأليف مؤرخ العراق عباس العزاوي، اعتنى به عمر بن أحمد بن علي الأحمد آل عباس، الناشر: دار التوحيد للنشر الرياض، الطبعة الأولى 1432هـ 2011م.
- 38) تاريخ بغداد وذيوله، الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.01، 1417هـ.
- 39) التأصيل القرآني للعقيدة عند الإمام أبي الحسن الأشعري من خلال كتابه: "رسالة إلى أهل الثغر" للأستاذ عبد الحميد مومن، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار أبي رقيق للطباعة والنشر، الرباط، ط 1، 1437هـ 2016م.

- 40) تأصيل المباحث العقديّة من خلال برهانية السلاجي (ت 564هـ) بشرح أبي بكر الخفاف الأنصاري (ت ق 7 هـ) دراسة وتحقيق الدكتور محمد جمال، وتوجد نسخة من هذا البحث المرقون في خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال.
- 41) تحرير المقالة من شرح الرسالة، مخطوط بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، تحت رقم: 604.
- 42) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر تونس 1984م.
- 43) التحف في مذاهب السلف، للشوكاني، مطبعة المدني، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- 44) تحفة المرید شرح جوهرة التوحيد، إبراهيم بن محمد البيجوري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ 1983م.
- 45) التدمرية، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد السعودي، مكتبة العبيكان، الرياض. الطبعة الرابعة، 1417هـ.
- 46) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض، تحقيق: علي عمر، ط. الأولى 2009م، مكتبة الثقافة الدينية، دار الأمان، الرباط.
- 47) التصوف الثورة الروحية في الإسلام، لأبي العلاء عفيف، دار المعارف، القاهرة، 1962م.
- 48) التعايش السلمي بين الأديان السماوية في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دول الطوائف، تأليف: د. الدكتور علي عطية الكعبي، الطبعة الأولى، 2014م، دار مكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع بغداد، العراق.
- 49) التعريفات للجرجاني، تحقيق وضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، 1403هـ 1983م.

- 50) تفسير أبي السعود المعروف بـ: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 51) تفسير القرآن الحكيم (المنار) محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- 52) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، (د.ت).
- 53) التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم، تأليف الدكتور عبد العزيز بن الدردير، مكتبة القرآن. جمهورية مصر العربية، (د.ت).
- 54) تهذيب اللغة، الأزهرى، تحقيق مجموعة من الدارسين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبناء والنشر 1964.
- 55) التوحيد محور الحياة، للدكتور عمر سليمان الأشقر، نشرته دار النفائس عمان-الأردن، الطبعة الثانية 1411هـ 1991م.
- 56) التوحيد والتزكية والعمران محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، الدكتور طه جابر العلواني، تقديم الشيخ عبد الجبار الرفاعي، دار الهادي، (د.ت).
- 57) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، الدكتور فريد الأنصاري، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، سلسلة "كتاب الأمة" العدد: 47 و 48 لشهر جمادى الأولى، وشهر رجب 1416هـ.
- 58) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط: 1، 1420هـ 2000م.
- 59) الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للشيخ عبد السميع الأزهرى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- 60) إجماع العوام عن علم الكلام، للغزالي أبي حامد، بتحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الأولى، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، 1406هـ/ 1985م.

- 61) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ 2000م.
- 62) الجامع التاريخي لتفسير القرآن الكريم قرص مدمج من إصدار مؤسسة "مبدع" مؤسسة البحوث والدارسات العلمية بفاس الإصدار الأول 2011م.
- 63) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، للإمام القرطبي، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مع آخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1427هـ 2006.
- 64) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، الطبعة الأولى، مطبعة المدني، القاهرة، 1383هـ.
- 65) حاشية على شرح الرسالة، للشيخ علي الصعيدي العدوي، طبعة دار إحياء الكتب، (د.ت).
- 66) الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر دمشق، 1417هـ 1996م.
- 67) الحوار في القرآن، قواعده وأساليبه ومعانيه، محمد حسين فضل الله، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، الطبعة الخامسة، 1417هـ 1996م.
- 68) حوارات من أجل المستقبل، للدكتور طه عبد الرحمن، منشورات الزمن الطبعة الثانية، 2008م.
- 69) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، العدد: 4، سلسلة كتاب الأمة الصادر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، شهر رمضان 1403هـ.
- 70) خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، منشورات إيسيسكو، للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. 1423هـ/2002م.
- 71) الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، محمد الغزالي، دار الشروق (ب.د).

- 72) الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، للدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم الكويت، (د.ت).
- 73) رسالة التوحيد، إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، نقله إلى العربية: أبو الحسن علي الندوي، من منشورات: الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، (د.ت).
- 74) رسالة التوحيد، للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق د محمد عمارة، دار الشروق القاهرة، الطبعة الأولى 1414 هـ 1994 م.
- 75) روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، الدكتور طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى 2006.
- 76) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، (د.ت).
- 77) السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، للدكتور مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية مصر، (د.ت).
- 78) السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، للدكتور مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية مصر.
- 79) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر دمشق، الطبعة الرابعة عشرة، 1437 هـ 2016 م.
- 80) السيرة النبوية، لابن هشام، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، 1425 هـ 2004 م.
- 81) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، للعز بن عبد السلام، تحقيق: إياد بن خالد الطباع، دمشق، الطبعة الأولى 1410 هـ.
- 82) شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك في النحو والصرف، ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة العشرون، رمضان 1400 هـ 1980 م، نشر وتوزيع دار التراث، القاهرة.

- 83) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان، دار طيبة، (د.ت).
- 84) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الأولى 1405هـ.
- 85) شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر 1969م.
- 86) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية، تحقيق: الحساني بن حسن بن عبد الله، مكتبة دار التراث، القاهرة (د.ت).
- 87) صحيح البخاري موسوعة الحديث الشريف: قرص مدمج، إنتاج شركة صخر لبرامج الحاسب، إحدى شركات مجموعة العالمية (1997م).
- 88) صحيح مسلم موسوعة الحديث الشريف قرص مدمج، إنتاج شركة صخر لبرامج الحاسب، إحدى شركات مجموعة العالمية (1997م).
- 89) صراع المذهب والعقيدة، عبد الكريم غلاب، دار الآفاق الجديدة بيروت، (د.ت).
- 90) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 1417هـ 1997م.
- 91) الصواعق المرسل على الجهمية والمعتلة، لابن قيم الجوزية، تحقيق علي الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، 1408هـ.
- 92) صون المنطق، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق علي سامي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 93) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، الطبعة الرابعة 1414هـ 1993م.
- 94) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي، تقديم الدكتور أسعد السحمراني، شركة كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة مصر، (د.ت).

- 95) طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الطبعة 2، 1976.
- 96) طريق المهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1375هـ.
- 97) عبد الباقي محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة. 1364هـ.
- 98) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميداتو، العدد 57، سلسلة كتاب الأمة، شهر محرم 1418هـ، السنة السابعة عشرة.
- 99) العرب في حضارتهم وثقافتهم، د. عمر فروخ، ط: 2، دار العلم للملايين بيروت (د.ت).
- 100) العقائد والمذاهب، عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- 101) العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن بن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، بيروت، الطبعة الثانية 1399هـ 1979م.
- 102) العقيدة الإسلامية وربطها بشعب الإيمان (السلوك والعمل)، د. الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، عالم الأدب للترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2018م.
- 103) العلاقة الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، د فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1426هـ 2005م.
- 104) العلو للعلوي الغفار، للإمام الذهبي، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى 1416هـ 1996.
- 105) عون المعبود على شرح سنن أبي داود، شرف الحق آبادي، تحقيق أبو عبد الله النعماني، دار ابن حزم، ط: 1، (د.ت).
- 106) العين، للإمام بن أحمد الفراهيدي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية 1985م

- 107) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن باز وفؤاد عبد الباقي، دار السلام 1997م.
- 108) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- 109) فرق الشيعة، للحسن بن موسى النوبختي، المطبعة الحيدرية، النجف، 1379هـ.
- 110) الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية، عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط. 02، 1977.
- 111) فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب الحنبلي، بتحقيق يحيى مختار غزاوي، الطبعة الأولى، نشر دار البشائر الإسلامية 1403هـ 1983م.
- 112) فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة أو الحل الإسلامي لمعضلة الفقر، للدكتور عبد السلام الخرشني، المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات - مراكش المغرب - الطبعة الثانية، 2008م.
- 113) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الشيخ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، مطبعة دار المعارف بالرباط، (1354-1340هـ).
- 114) الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، د عبد الرحمن العضاوي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، الطبعة الأولى، الإصدار 34 (أكتوبر 2010م ذو القعدة 141هـ).
- 115) الفكر المنهجي عند المحدثين، الدكتور همام سعيد، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 16، محرم 1408هـ.
- 116) فكرة الألوهية عند أفلاطون وأثرها في الفلسفة الإسلامية والغربية، الدكتور مصطفى النشار، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، 1997م.

- 117) في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة، للدكتور محمود أحمد خفاجي، الطبعة الأولى 1399هـ / 1979م.
- 118) في الغزو الفكري، للدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، سلسلة كتاب الأمة، من إصدار رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر، العدد: 38، الطبعة الأولى، رجب 1414هـ.
- 119) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم، الناشر: دار الشروق، القاهرة، (د.ت).
- 120) القاعدة المراكشية، لا بن تيمية، تحقيق ناصر بن سعد الرشيد، ورضا بن نعيان معطي، مطابع الصفا بمكة المكرمة، الطبعة الأولى 1401هـ.
- 121) قانون التأويل، للإمام الغزالي، خرج أحاديثه وعلق عليه محمد ديجو، الطبعة الأولى 1413هـ 1992م.
- 122) القائد إلى تصحيح العقائد لعبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، تعليق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثالثة 1404هـ 1984.
- 123) قصة الحضارة، ديورانت ول، ترجمة زكي نجيب محمود، ط: 3، القاهرة، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، 1965.
- 124) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز ابن عبد السلام، دار المعرفة بيروت، (د.ت).
- 125) القواعد العقدية عند أهل السنة والجماعة دراسة تأصيلية، عادل بن عبد الغفور قد أسرار، بحث مرقون، وتوجد نسخة منه بجامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة.
- 126) القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور إبراهيم بن محمد بن عبد الله البريكان، دار ابن القيم للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى 1425هـ 2004م.
- 127) كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى 1413هـ 1993م.

- 128) كتاب الاستقامة، للإمام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية، 1411هـ
1991م، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية
السعودية.
- 129) كتاب الشريعة، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق محمد حامد
الفتحي، الطبعة الأولى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ 1983م.
- 130) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، لابن رشد، تقديم: محمد عابد الجابري،
مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى 1998م.
- 131) الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية للدكتور أحمد الريسوني، دار السلام بالقاهرة،
و دار الأمان بالرباط، الطبعة الأولى 1431هـ 2010م.
- 132) الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني
الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت).
- 133) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، محمد بن يوسف الكرمانى، دار إحياء
التراث العربي، بيروت لبنان، ط: 2، 1401هـ 1981م.
- 134) لسان العرب، ابن منظور، محمد جمال الدين بن مكرم، تحقيق عبد الله علي الكبير،
محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشادلي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
- 135) للدين والوطن: فصول في علاقة المسلمين بغير المسلمين، محمد سليم العوا، نهضة
مصر، الطبعة الأولى 2006م.
- 136) لما ذا تأخر المسلمون ولما ذا تقدم غيرهم؟ شكيب أرسلان، دار القلم دمشق/الدار
الشامية بيروت، ط: 3، 1433هـ 2012م.
- 137) مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، د عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي
بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1992م.
- 138) مجمل اللغة لابن فارس، أحمد بن فارس، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان،

- دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية 1406هـ - 1986م.
- 139) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ.
- 140) محاضرات في علوم القرآن والحديث، د. عبد السلام الخرشبي، تقديم د. عباس ارحيلة، المطبعة والوراقة الوطنية - الداوديات مراكش المغرب - الطبعة الأولى 2014م.
- 141) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق أبو محمد المشهور بابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، 1422هـ.
- 142) مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي، د عبد الرحمن العضراوي، الناشر: مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2015م.
- 143) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، د. إبراهيم سلمان، مركز الإسكندرية للكتاب، 1999، (د.ت).
- 144) مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر، ط: 2، دار المعارف بمصر. (د.ت).
- 145) المصطلحات والمفاهيم في الثقافة الإسلامية بين البناء الشرعي والتداول التاريخي، للدكتور سعيد شبار، المجلس العلمي الأعلى الطبعة الأولى 2010م.
- 146) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى 1392هـ - 1972م بيروت لبنان.
- 147) معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، طبعة دار المعرفة، بيروت، (د.ت)
- 148) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، نخبة من المستشرقين تحت إشراف: الاتحاد الأمي للمجامع العلمية، مكتبة ليدن 1936م.
- 149) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة، (د.ت).

- 150) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس القزويني، أبو الحسين أحمد، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة 1979م.
- 151) مفاتيح الغيب، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي، الناشر: دار الكتب العلمية، (د.ت).
- 152) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت، (د.ت).
- 153) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، 1412هـ.
- 154) مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وابن خلدون، بوزياني فاطمة الزهراء، أشرف: أ. د. بوعلي عبد الناصر، السنة الجامعية 2011 - 2012، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بلقايد تلمسان، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الآداب السنة الثانية ماستر، الجزائر.
- 155) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، تحقيق: إسماعيل الحسني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1432هـ 2011م.
- 156) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1999م.
- 157) مقاصد العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة: مقدمات في التأسيس النظري والبيان العملي، للباحثة سعاد منصور، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في تكوين الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال في الموسم الجامعي 1438هـ 2017م.

- 158) مقاصد ختم آي القرآن الكريم بأسماء الله الحسنى، للدكتور جمال اسطيري، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، في موضوع: "جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم وعلومه" المنعقد بفاس عام 1432هـ 2011م.
- 159) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1369هـ.
- 160) المقالات والفرق، سعد بن عبد الله القمي، طبعة طهران 1963م.
- 161) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).
- 162) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق. بيروت، (د.ت).
- 163) الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، 1404هـ.
- 164) من أجل منهج قرآني تجديدي في الفكر والعلوم الإسلامية، رؤية منهجية، للدكتور سعيد شبار، دار أبي رقرق ط1، 2008م.
- 165) مناقب الشافعي للبيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، ط الأولى 1391هـ، دار التراث مصر.
- 166) مناهج الإصلاح، للدكتور عبد الناصر أبو البصل، وهو مقال مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر " المجتمع المسلم.. الثوابت والمتغيرات " الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، 4_5 ذو الحجة 1433هـ / 20_21 أكتوبر 2012م.
- 167) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الهند - الطبعة الأولى 1347هـ.
- 168) المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، تأليف الدكتور سالم أحمد محل، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 60، رجب 1418هـ، السنة السابعة عشرة.

- 169) منهاج السنة النبوية، وبهامشه "بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول" كلاهما لابن تيمية، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، نشر: مكتبة مصطفى الباز بمكة المكرمة 1399هـ.
- 170) الموافقات، للإمام أبي إسحاق الشاطبي، تحقيق مشهور حسن آل مشهور، دار ابن القيم - دار ابن عفان، 1424هـ 2003م.
- 171) ميزان العمل، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ 1989م.
- 172) نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، صالح بن عبد الله ابن حميد وآخرون، دار الوسيلة للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الرابعة، (د.ت).
- 173) النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة، د. محمد أحمد مفتي، ود. سامي صالح الوكيل، سلسلة كتاب الأمة، رقم: 25، شوال 1410هـ.
- 174) النقد الذاتي، علال الفاسي، نشر: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط: 9، (د.ت).
- 175) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق: أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، نشر المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).
- 176) وسطية أهل السنة بين الفرق، الدكتور محمد باكريم محمد با عبد الله، دار الراية للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الأولى 1415هـ / 1994م.

المجلات والدوريات:

- 177) دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي، ط 3، دار المعارف، بيروت.
- 178) مجلة الإبانة الصادرة عن مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية التابع للرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، العدد الخامس، ربيع الأول 1440هـ نونبر 2018م.
- 179) مجلة الأحمدية، العدد الرابع، جمادى الأولى 1420هـ.
- 180) مجلة الأزهر الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بمصر، ج: 10، السنة: 91، شوال 1439هـ يونيو 2018م.
- 181) مجلة الأمة الصادرة عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، العدد الثامن والستون، -السنة السادسة- شعبان 1406هـ أبريل 1986م.
- 182) مجلة الحياة الطيبة، مجلة فصلية محكمة متخصصة تعنى بقضايا الفكر والاجتهاد الإسلامي، تصدر عن: جامعة المصطفى ﷺ العالمية - فرع لبنان، السنة التاسعة عشرة، العدد الثاني والثلاثون، خريف 2015م/ 1436هـ.
- 183) مجلة التأويل الصادرة عن مركز الدراسات القرآنية التابع للرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، العدد الثالث، ربيع الثاني 1437هـ فبراير 2016م.
- 184) مجلة التفاهم، مجلة فصلية فكرية إسلامية تصدر عن: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان، العدد: 38، السنة العاشرة، خريف 2012م/ 1433هـ.
- 185) مجلة الوعي الإسلامي الصادرة عن: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، العدد 384-السنة الثانية والثلاثون- شعبان 1418هـ دجنبر 1997م.
- 186) مجلة إسلامية المعرفة، العدد: 1، بتاريخ 19/07/2008، يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن.

المواقع الإلكترونية:

187) موقع التفسير: www.vb.tafsirnet.

188) موقع الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب: www.arrabita.ma.

موقع جامعة أم القرى بمكة المكرمة: www.moe.gov.sa.

189) موقع شبكة الألوكة: www.alukah.net.

تَرْجِمَ اللَّهُمَّ